

التوضيح عن

نوحيد الخلاق

في جواب أهل العراق
وتذكرة أولى الألباب
في طريقة الشيخ

محمد بن عبد الوهاب

تأليف

سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

دار طيبة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

دار طيبة

الرياض — شارع عمر — ص.ب. ٧٦١٢
الملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صل اللهم وسلم عليه وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى ذريته وأهل بيته إنك حميد مجيد .. وبعد :

فإن إحياء التراث الإسلامى الذى يتضمن الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية ضرورة فى الوقت الحاضر لأنها هى القاعدة الأساسية لبناء المجتمع الإسلامى الصحيح ، ونحن نعتقد إعتقاداً جازماً أن «منهج أهل السنة والجماعة» فى فهم العقيدة الإسلامية هو المنهج الصحيح الذى يجب تقديمه للأمة الإسلامية اليوم لكي تصبح بحق «أمة مسلمة» تستحق نصر الله ورضوانه وعلى هذا فإنه يسر «دار طيبة» أن تقدم هذه الطبعة الجديدة من كتاب «التوضيح عن توحيد الخلاق فى جواب أهل العراق وتذكرة أولى الألباب فى طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» تأليف سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وتجدد ثوب هذا السفر الجليل بعد أن كان قابعا فى طبعة قديمة متداخلة الكلمات متزاحمة الفقرات قامت بها المطبعة الشرفية فى مصر عام ١٣١٩هـ - بعد أن دلنا عليها أحد الإخوان - ونظراً لأهميته ونجافته فقد أسرعنا فى إخراج هذه الطبعة فى ثوبها القشيب بحرف واضح مميز مفصلاً بين فقرات صفحاته وقد أتت الآيات القرآنية بين قوسين كبيرين والأحاديث النبوية بين قوسين صغيرين تمييزاً لها عن سائر الكلام ، وكذلك قمنا بعنونة مواضيع الكتاب بعد أن كان كتلة واحدة غير مفصول بين فقراته . وإن كانت هذه الطبعة ينقصها التحقيق العلمى المشود فإن العذر فى ترك ذلك فى هذه الطبعة هو الإسراع بإعادة نشر محتوى الكتاب ذوداً عن حياض العقيدة الحققة ونشراً لنورها بين الناس ، وإننا فى طبعة قادمة إن شاء الله سنتطرق إلى لب الكتاب وجوهره بتحقيق علمى كامل وتعليقات مفيدة تخرج للقارئ الكريم دُرر الكتاب الكامن وجواهره المستورة .

هذا والله نسأل أن ينفع به قارئه ويجزل الثواب لمؤلفه ويكتب لنا التوفيق بخدمته فى طبعة لاحقة إذاعة للخير ونشراً للحق وهو سبحانه المستعان ، وصل اللهم وسلم على محمد وآله وصحبه وسلم .

الناشر

فى ١ ذى الحجة سنة ١٤٠٤

ترجمة المؤلف

هو الحافظ المحدث الفقيه المجتهد الثقة أُوحد الحفاظ / الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد سنة ١٢٠٠ هـ . كان آية في العلم والحفظ والذكاء ، له المعرفة التامة في الحديث ورجاله وصحيحه ، وحسنه وضعيفه ، والفقه والتفسير ، والنحو . وقد أخذ العلم عن أبيه ، والشيخ حمد بن معمر ، وعن عميه : الشيخ حسين ، والشيخ على والشيخ حسين بن غنام ، والشيخ عبد الله بن فاضل ، الشيخ عبد الرحمن بن خميس ، والشيخ عبد الله الغريب وغيرهم ، وأجازة الشيخ محمد بن على الشوكاني . برع في الفنون ، وكانت له اليد الطولى في الحديث ورجاله ، ولم ير شخص في زمنه حصل له من الكمال والعلوم والصفات الحميدة سواه على صغر سنه ، صنف شرح «كتاب التوحيد» لجده ، فمن بعده عيال عليه فيه ، لكنه لم يكمله ، وله حاشية على شرحه «والدلائل في حكم موالة أهل الإشراف» وله هذا المؤلف الذى تقدمه «التوضيح عن توحيد الخلاق» . أخذ عنه العلم عدد كثير من أهل الدرعية وغيرهم .

وكان رحمه الله آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وقد أكرمه الله بالشهادة سنة ١٢٣٣ هـ وذلك عندما وشى به بعض المنافقين إلى ابراهيم باشا بن محمد على باشا بعد دخوله الدرعية وإستيلائه عليها فأحضره ابراهيم باشا وأظهر بين يدين آلات اللهو والمنكر واغاظته له . ثم أخرجته إلى المقبرة وأمر الجند أن يطلقوا عليه الرصاص جميعاً فمزقوا جسمه ، وفاضت روحه إلى ربه ، رحمه الله ، وأجزل مثوبته ، وأسكنه فسيح جناته .

«نقلت الترجمة بإختصار من كتاب تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد» .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مكمل الدين وناصره، ومظهر الحق بسيف الوحي، فيه الشرك والباطل قامعه، الذي أتم علينا وافر نعمته. وتفضل فرضي لنا الإسلام ديناً بكمال منته. وأمرنا أن نستهديه صراطه المستقيم لعظم شأنه وشرفه. وأوضح لنا قواعد دينه الإسلام وملته، ونصب رايات الهدى فهي تنادي لدار الخلد من جنته، المتحجب إلى خلقه بفتح أبواب رحمته. والمحسن إلى أهل ملته الحنيفية بترادف أنواع الخير من نعمته. وميسر لمن اختاره بنصرة دينه أسباب علو المهمة، وما منحهم باقامتهم عليه كشف كل شدة وغمه، والملمهم لتوحيده حمداً موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم وعده ووعيده. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله، اللهم فصل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاماً دائماً دائمين متلازمين ما استدار الزمن في تكوره وتكويره.

أما بعد .

فإن الله عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما من الآيات ليعرف وتعلم حكمته، وقدرته، فيعبد وحده لا يشرك به، ويكون الدين كله بأنواعه له مختص بجلاله. وذلك معلوم ضرورة قال الله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ وقال عز من قائل: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ وقال تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ وقال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض. كما

قال جل ذكره: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ ومن أعظم القسط التوحيد، بل هو رأس العدل وقوامه. وأن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل، وأوجب الواجبات وأفرض الطاعات، ولما كان الشرك بالله منافياً بالذات لتوحيده تعالى وإخلاص العبادة له كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته، ولأن الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً أو يقبل فيه شفاعته، أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقبل له فيها عتوه، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه، وقد أرسل سبحانه وتعالى رسوله إلى خلقه، وأنزل كتبه ليعلموا ذلك ويتيقنوه إقامة للحجة عليهم، كما قال عز من قائل: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ وقال تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ إلى أن قال: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ فدين الرسل واحد. لم يختلفوا في شيء من أصله. وإنما تحصل الفترة بين الرسولين فيندرس الدين أو بعضه فيجهل ويترك.

وقد بعث الله محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل وأهل الأرض مقتهم الله عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا أو أكتهم قبل مبعثه صلوات الله وسلامه عليه، والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب إما مبدل، أو مبدل ومنسوخ، والدين كله أو بعضه مجهول متروك، وأمسى من عربي وعجمي مقبل على عبادة ما استحسنته وظن أنه ينفعه من نجم أو وثن أو قبر وتمثال أو غير ذلك، والناس في جاهلية جهلاء من مقالات يظنونها علماً وهي جهل، وأعمال سيئة يحسبونها صلاحاً وهي فساد، وغاية البارع منهم علماً وعملاً أن يحصل قليلاً من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين قد اشتبه عليه حقه بباطله، أو يشتغل بعمل القليل منه مشروع وأكثرو مبتدع. فهدى الله الناس بنبوّة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى

هداية جلت عن وصف الواصفين وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عموماً وأولي العلم منهم خصوصاً من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والسنن المستقيمة مالمو جمعت حكمة سائر الأمم علماً وعملاً الخالصة من كل شوب إلى الحكمة التي بعث بها ﷺ لتفاوتا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما. والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية تدل على ذلك والله الحمد والمنة. (وقد روى مسلم في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوى لي منها وأعطيت الكثرين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضاً» ورواه أيضاً البقائي في صحيحه وزاد «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي المشركين، وحتى تعبد طوائف من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى» .

فملك الأمة لأقطار الأرض، ثم افتراقهم الحاصل لهم، والاختلاف بينهم محقق مضبوط محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه. وكان ﷺ يحذر أمته منه لينجو من شاء الله منهم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خط رسول الله ﷺ خطاً ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن شماله وقال هذه السبل المتفرقة وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رواه الإمام أحمد وغيره . ومع أن الله تعالى حذرنا هذه السبل فقضاؤه سبحانه نافذ بما أخبر به رسوله ﷺ بما سبق به علم الله تعالى، حيث قال الصادق المصدوق فيما خرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

قال : قال رسول الله ﷺ : « لتبتعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر بضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبراً بشبر وذراعاً بذراع » فقيل يا رسول الله فارس والروم قال : « ومن الناس إلا أولئك » فأخبر ﷺ أنه سيكون في أمته مضاهاة لمن سلف من الأمم اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب وفارس والروم وهم الأعاجم . وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء . وليس اخباراً عن جميع الأمة ، بل قد تواتر عنه عليه الصلاة والسلام أنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة ، وأخبر أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة ، وإن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته ، وفي الصحيحين عن عقبة بن عامر : « أن النبي ﷺ خرج يوماً ف صلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال إني فرط لكم وإني شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو قال مفاتيح الأرض وإني والله مأخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها » وفي رواية : « ولكنني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبكم » قال عقبة فكان آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر . فعلم بحبه الصادق أنه في أمته قوم مستمسكون بهديه الذي هو دين الإسلام محضاً ، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود أو النصارى والمشركين . وفي حديث الثوري وغيره عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لياتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل افترقت على اثنين وسبعين ملة وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : من هي يا رسول الله قال : « ما أنا عليه وأصحابي » رواه أبو عيسى الترمذي وقال هذا حديث غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وهذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص ومعاوية وعمرو بن عوف الأشجعي وغيرهم فعن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: « تفرقت اليهود على أحد وسبعين فرقة أو اثنين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح وعن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أهل الكتاب افرقوا في دينهم على اثنين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة يعني أهل الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » وقال: « انه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه فلا يقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به محمد ﷺ لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به » هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو. وعن الأزهري بن عبد الله الرازي عن أبي عامر عبد الله بن لحي عن معاوية، رواه عنه غير واحد، منهم أبو اليمان وبقية وأبو المغيرة، ورواه الإمام أحمد وأبو داود في سننه، وقد روى ابن ماجه هذا المعنى من حديث صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن ابن عوف بن مالك الأشجعي، ويروى من وجوه أخر فقد أخبر ﷺ. بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة، والشتان والسبعون لارباب أنهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم. ثم هذا الاختلاف الذي أخبر به النبي ﷺ إما في الدين فقط، وإما في الدين والدنيا معاً. ثم قد يؤول إلى سفك الدماء لأجل الدنيا فقط. وأولها وللدين معاً، أو للدين فقط. وهذا الاختلاف هو مانى عنه الله في قوله سبحانه: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ الآيات وقوله: ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ وقوله: ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وقوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ﴾ الآية ومنشأ هذا الاختلاف وأصله إما من جهة عدم العمل

بالعلم، كالذي يعرف الحق من الباطل ويميز بينهما ولا يتبع الحق علماً ولا قولاً ولا عملاً، وإما من جهة العمل بلا علم فيجتهد في أصناف البدع بلا شريعة من الله ويقول على الله بلا علم.

فالأول: من مشابهة اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

والثاني: من مشابهة النصارى الغالين في الدين والناقضين فيه غير الحق والضالين عن سواء السبيل. وقد ابتلى الله طوائف من هذه الأمة من المنتسبين إلى العلم بما ابتلى به اليهود من الرياسة وحب الدنيا وإيثارها وكنم الحق، فإن هؤلاء المنتسبين إلى العلم تارة يكتمون العلم بخلاً به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل مانالوه، وتارة اعتياضاً برياسة أو مال فيخاف من اظهاره انتقاص رياسته أو ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل السنة يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الهوى لا يكتبون إلا ما لهم. وكان السلف منهم سفيان بن عيينة وغيره يقولون إن من فسد من علمائنا فقيه شبهة من اليهود، ومن فسد من عبادنا فقيه شبهة من النصارى، وليس الغرض من هذا تفصيل ما يجب وما يستحب، وإنما الغرض التنبيه على منهج الحق المتبع وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وفي قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه العرياض بن سارية السلمى رضي الله عنه: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح ورواه ابن ماجة وفيه قال عليه ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك» وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني خلقت فيكم مالم تضلوا بعدهما مأخذتم بهما أو عملتم بهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض» والنظر بعين الانصاف إلى ما تشعب فيه الناس، وأصبح غالبهم نابذاً كتاب الله وسنة نبيه وراء ظهره زاعماً أن كتاب الله ما بقي من حكمه الآن إلا

مجرد التلاوة باللسان، وأما فهم معانيه وتدبره والعمل بما فيه فلا وصول لأحد إليه، وكذلك الأحاديث. فالقرآن مصرح بنقيض قولهم ورد حججهم قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فهذا كله مشعر بأن القرآن محفوظ ومصون عن التبديل والتغيير والنسخ جملة وعدم فهم معانيه وتدبره فإنه للذين آمنوا نور وهدى، ولم ينزله الله إلا للعمل به، وذلك متوقف على معرفة معانيه. وكذلك الأحاديث فإنها تفسر القرآن، كما أن بعضه يفسر بعضا. وقد فسر الصحابة رضي الله عنهم وتفقهوا في الدين منه. كما تفقهوا من السنة. وكذلك كتب الأئمة الأعلام الذين يؤخذ بأقوالهم من أهل الملة الغراء والمحجة البيضاء المفسرين له والمؤولين لمعانيه، والجامعين للأحاديث النبوية، المفارقين كل فرقة غوية، ليس في أيديهم منها إلا مجرد تلاوتها من غير تذكر لها ولما فيها ولا عمل بمعانيها، بل استغنوا عن ذلك كله بزخرفات المبطلين واتباع حجج المعطلين، واتباع الهوى وذلك كله من عموم البلوى حتى كتب الفقه التي في أيديهم، ويزعمون العمل بها وبما فيها إنما يأخذون منها ومن معانيها ما تضمنته ما كان موافقا لتحذيق الكلام والتشديد به من تعلم الدعاوي والخصومات وتعليمها، وأما العبادات والحدود فإنما تتلى باللسان تلاوة وقل ما توجد عند فقيه مستجمع لها، بل ان وجدت فهي عند الخواص من ذوي الثروة يساطرها مخزونة عنده من غير انتفاع بها ولا عمل بمعانيها، بل تفاخرا وتكبيرا وحب رياسة، وهوربما لا يعلم اسمها ولا اسم مؤلفها، وينضاف إلى ذلك عداوة الحق ودحضه، وإيثار الباطل وحبه، اجتلاب لقلوب العوام، وجمع الخطام، ففي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان قوم يحبون الدنيا بالدين ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل أبلّ تغترون وعليّ تجترئون فبني حلفت لأبعثن

على أولئك منهم فتنة تدع الحليم فيهم حيراناً » وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال علي كرم الله وجهه : (يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى ، علمائهم شر من تحت أديم السماء ، منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود) وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية أن النبي ﷺ قال : « سيظهر شرار أمتي على خيارها حتى يستخفي المؤمن كما يستخفي المنافق فينا اليوم » ومنشأ ذلك وسببه إنما هو الاعراض عن منهاج الرسول وما كان عليه هو وأصحابه صلاة الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، والإقبال والانقياد إلى طاعة هذا العدو اللعين ، الذي توعده وجد واجتهد في قوله لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . وقد قال تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ فلذلك حصل الران والغمرة ، ووجدت الغفلة فانعكس الأمر وهجر ما الله به أمر ، وارتكب ماعنه نهي وزجر . فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً واتبعت الأهواء وعمت البلوى ، فالأمر بالمعروف ينكر عليه ، والمتبع لهواه المنقاد إلى الباطل والمتنسك به يجبل ويوقف بين يديه . وقد آل ذلك إلى عمى القلوب ، والجهل بما هو من العبيد مطلوب حتى إذا أوجد الله رجلاً أحيا به قلوباً قد انعكفت وانهمكت في أنواع باطل مضاد للحق متناول للشرك الأكبر فما دونه ، فبصرهم به وأنقذهم منه ونهاهم عنه ثم قادهم إلى سبيل الخير والنجاة الذي هو منهاج نبيهم وأصحابه وما أنزل القرآن لأجله قام عليه أهل الأهواء فجرحوه وبدعوه ، ومنهم من جعل اليهود والنصارى أخف شراً منه ومن اتباعه بلا تدبر ولا تذكر ولا تفكر في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ولا في كلام الأئمة الأعلام ممن سلف من الأنام ، وما حصل لهم وعليهم من الأذى في ذات الله تعالى حسداً وبغياً ، إما لأجل حق عملوا به وقالوه ونهوا عن ضده واجتنبوه أو لتصنيف صنفوه أو على غير ما شيء من ذلك أسلفوه ، وإنما هو بسبب عدم موافقتهم لهم فيما اعتادوه .

ومن تأمل أحوال السلف وما جرى عليهم من أنواع البلوى إما قتلاً وإما حبساً أو نفيّاً أو ضرباً ابتلاء لو ذكرت أسبابه على تفصيلها وذكر عدد من ابتلى ممن سلف لاحتمل ذلك مجلدات ضخام ولكن لنا في الاختصار أسوة علم علم اليقين أن الله

سبحانه يتلى أحبابه ابتلاء له فيه حكمه ، ولو لم يكن فيه إلا رفع المقامات أو تكفير السيئات ، خصوصاً هذا التوحيد فإنه سبحانه من حكمته لم يعث به نبياً قط إلا جعل له أعداء يؤذونه كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ .

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء جعل الله لمن كان منهم عاملاً بعلمه مهتدياً بقول الله متبعاً لسنة رسول الله ﷺ عدواً من الانس والجن يؤذونه ويشوشون عليه اتباعه ويردون عليه ما قال عن الله ورسوله أقواله ، وهذا كله من الله عدل إذ فيه رفع درجات الأنبياء ، وإظهار مقامهم صلوات الله وسلامه عليهم ، وتكفير سيئات هؤلاء العلماء ورفع درجاتهم وتعظيم أجورهم رضي الله عنهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك مافعلوه ﴾ ومع ذلك فلا بد من نصر ما جاءت به الرسل الذي عملت به هؤلاء العلماء ودعت إليه قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقال تعالى : ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ﴾ فمن صبر من هؤلاء العلماء المذكورين نصره الله كما نصر رسله ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

وهكذا لم تزل السلسلة في صعود وهبوط إلى أن حل بهذا الرجل ما حل بالأسلاف الذين خلوا من قبله من صالح سلف الأمة وخيارها . لكن قد هدى الله به أمماً ضلالاً منهمكة في أكبر الكبائر على الإطلاق فحاز من الأجر العظيم مغنماً لقوله ﷺ فيما صح عنه : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء » أخرجه مسلم وابن ماجه والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه فله الحمد والمنه .

(١) — ماورد إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الرسائل :

وقد وردت إليه أسئلة من علماء الحرمين والشام وأقطارها، وعلماء نجد وسكانها، وعلماء الاحساء واتباعها، متعلقة بكشف أحواله، وما يدعو الناس إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له، ومتضمنة للسؤال عن بيان ما يدعيه وما يقوله وما دليله فيه، فأجابهم بإجابة من الكتاب والسنة واجماع صالح سلف الأمة ما يمثلها يهتدي المهتدون، وعليها يقف المنصفون، وبها يأخذ المستدلون، فهدى الله به من اهتدى وخاض في لجج طغيانه من شقى، ولو ذكرنا ما حصل من ذلك على التفصيل اللائق لطال الفصل، وانعكس الوصل، ولكن يكفي اللبيب ما قد شاع عنه وذاع، وتقطعت به الأسماع، من أنه يدعو الناس إلى توحيد الله وحده لا شريك له في عبادته ومعاملته وإخلاص وحدانيته وعبادته بأنواعها له وحده ليكون الدين كله له، وهذا مادعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب .

القول على خطبة رسالة عبد الله الراوي :

وقد وردت إليه رسالة تنسب إلى عبد الله أفندي الراوي البغدادي خطيب المسجد المنسوب للوزير سليمان باشا، وقيل لعبد القادر الجيلي رحم الله روحه ونور مرقده وضحى، وكان ارسالها بأمر الوزير سليمان باشا المقيم فيه الآن، هداه ربنا الرحمن في السر والاعلان، ومضمونها: أن التوحيد إنما هو مختص بمعنى الربوبية، فالاله اسم مختص بالخالق الرازق الضار النافع وهو الله، ولا يكون اسماً لغيره إلا أن اعتقد أن ذلك الغير يوجد ذلك الضر والنفع اعتقاداً علمياً مع اعتقاد ذلك الغير أيضاً شريكاً لله حتى يطلق على ذلك المعتقد اسم المشرك واسم الكفر الموجب لسفك دمه وخلوده في النار، فأما من قال بلسانه لا إله إلا الله محمد رسول الله وآمن بالله واليوم الآخر ثم دعا غير الله من ولي أو ملك أو نبي بشيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى، واعتقد في ذلك الغير أنه يضر وينفع فهو يعتقد فيه ذلك الذي لا يقدر عليه إلا الله، ولكن لا يعتقد أنه

شريك لله. بل إذا سئل فقل له الله شريك، قال لا. ولكني أدعو هؤلاء لقربهم
وصلاحهم، فهم يكشفون شدتي، ويفرجون كربتي، وأطلب منهم شفاعتهم، فإن ذلك
لا يخرج عن الملة بل فيه مجرد الحرمة والاثم فقط. ثم استثنى جواز سؤال الشفاعة منهم
في هذه الدار وأنه إن دعاهم لشفاعتهم له وطلبها منهم فلا بأس بذلك، وفيه
أيضاً: أن تارك الصلاة عامداً لا يكفر فلا يقتل وفيها أيضاً: جواز شد الرحال إلى زيارة
القبور، وأنه قريب من الواجب حيث كانت قبور الأنبياء، وفيها مسائل ومسائل
واعتراضات كما سنذكرها إن شاء الله تعالى، وقد أرسلها الوزير المكرم لننظر فيها ثم
نجيب عنه، فنقول بعد الاستعانة بالله والاتكال عليه والبراءة من الحول والقوة.

أما قولكم بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله أحمدته وأستعينه، وأستغفره وأعوذ
بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا
هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده
ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه وجنده وحزبه وعلى من تبعهم بإحسان، وفقى أثرهم إلى آخر الزمان.

فنقول هذا الابتداء بالبسملة، والحمد له، والاستعانة، والاستغفار، والاستعاذة بالله
من شرور النفس وسيئات الأعمال والخبار، بأن من يهد الله فلا مضل له ومن يضل
فلا هادي له والشهادة بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله،
والاخبار بارساله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وانشاء الصلاة عليه وعلى
آله وأصحابه وجنده وحزبه ومن تبعهم بإحسان وفقى أثرهم إلى آخر الزمان، مشروع
للتأسي بالكتاب العزيز ومأمور به في قوله ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم
الله فهو أتر» وفي رواية فهو أجزم. وفي رواية فهو أقطع. والأتر في اللغة
مقطوع الذنب. والأجزم مقطوع الأنف. والأقطع مقطوع اليد. أطلق الشارع
ﷺ كلا منها في الحديث على ما فقدت البركة منه تشبيهاً له بما فقد ذنبه الذي به
تكمل خلقته، أو بمن فقدت يداه اللتان يعتمدهما في البطش ومحاولة تحصيل ما يروم
تحصيله. فاطلاق كل منها في هذا على وجه التشبيه البليغ أو الاستعاذة، ومعنى ذلك
في هذا المعنوي ناقص البركة فهذا حث منه ﷺ على البدء بالبسملة التي هي سبب
تمام البركة في كل ما يهتم به شرعاً، وكما أن الحديث وارد بالبدء بالبسملة فكذلك

الحمدلة . ولذلك المصنفون يجمعون بينهما . لكن الابتداء بالبسملة حقيقي ، وبالحمدلة اضافي ، ليندفع التعارض . والاسم مشتق من السمو ، وهو العلو ، أو من السمة وهي العلامة . وفيه ست لغات كما هي مبسوبة في محالها من مطولات ومختصرات ، ووشرت سينه للتمييز بينه وبين الفاصل للميم عنه . ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب الناس على توشيره ، وعلى مد الالف المتصلة به قدام الباء ، التي وضعت عوضاً عن الالف المتصلة بالباء في حال انفرادها عن السين ، كما في باسم ربك ، وأفردت نقطة الباء التي تحت الاسم اشارة إلى تفرده تعالى بالالوهية والوحدانية ، ودورت ميمه اشارة إلى احاطة ملكه سبحانه وتعالى جميع الكائنات ، فاجتمع فيه معنى الالوهية والربوبية ، ثم هذا المبدوء به المذكور في صدر المقدمة يحتاج كل ذاك له وقائل به إلى علم معانيه والعمل بما يدعيه ، فإن معنى قول القائل بسم الله ، أي أستعين وأتبرك بكل اسم للذات الاقدس ، المسمى بهذا الاسم الانفس ، الموصوف بكمال الانعام ومادونه ، فالباء متعلقة بمحذوف مقدر بقوة المذكور وكونه فعلاً أولى لأنه الأصل في العمل ، وعمل الاسم بالحمل عليه وخاصة من مادة المفعول أولى أيضاً ، فمريد السفر يقدر بسم الله أتبرك وأستعين به على السفر ، والمؤلف يقدر على التأليف ، فهو في معنى أسافر أو أولف ونحو ذلك ، لما فيه من الاستعانة والتبرك في جميع أجزاء الفعل بخلاف الابتداء والافتتاح سواء قلنا معنى الباء الاستعانة أو المصاحبة أو التعديّة ، وكونه مؤخراً عن لفظ بسم الله أولى أيضاً ، ولا يجوز بينهما والأولى تأخيره عن الرحمن الرحيم لمن أتى بهما ، وذلك لأن رتبة العامل التقديم ، فتأخيره لنكتة وهي افادة الاهتمام مطلقاً والاختصاص والحصر غالباً وهو من حصر القلب ان كان المشركون يتبركون باسماء آلهتهم وما يعبدون من دون الله ، أو من قصر الافراد ان كانوا يتبركون بالابتداء باسماء الله وأسماء آلهتهم ، واستظهره السعد وغيره . فلذلك وجب على الموحّد قصر الاستعانة والتبرك على اسم الله تبارك وتعالى ، أي الاتيان بما يفيد ذلك وان لم يلاحظه أو لم يعرفه ، ولا يغني عنه كون المتكلم لا يعتقد ذلك لعدم اطلاعه عليه ومعرفة اياه ، إذ الجهل بالشيء لا يزيل حكمه . وأما قوله تعالى اقرأ باسم ربك فللاهتمام بالقراءة لخصوص المحل ، فان أول هذه السورة أول ما نزل من القرآن وأقرأ فيها راجع للبسملة لأنها بعض ذلك الاول ومقدمة عليه ، فهي أول آية نزلت على الاطلاق كما اقتضى الاختصاص والحصر ، اياك نعبد واياك نستعين ، والمعنى نخصك بالعبادة

والاستعانة، فلا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك، ففي تقديم اسم الله اهتمام به للتعظيم واختصاص أيضاً، وحصر للذوق السليم، وتنبيه على أنه ينبغي للعابد أن يكون نظره ابتداء إلى المعبود ثم إلى العبادة، لا من حيث انها عبادة صدرت عنه بل من حيث أنها نسبة شريفة إليه، ووصلة بينه وبين معبوده، وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رؤس الآي، ولأن تقديم الوسيلة التي هي القرية والاعمال الصالحة على طلب الحاجة أدعى إلى القبول والاجابة، وللإشارة إلى أنه لا توجد العبادة من العابد إلا مع الاستعانة، ولذلك قيل ان الواو للحال، وكرر الضمير اشارة إلى حصر الاستعانة به تعالى، وذكر السين في بسم الله للفرق بين التيمن واليمين .

(والله) أصله اله زيدت فيه اللام وشددت وفتحت همزته فصار الله، وهو علم على ذاته تعالى وتقدس يوصف ولا يوصف به (والرحمن الرحيم) اسمان بنيا للمبالغة من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمن أبلغ من الرحيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، وإنما قدم، والقياس يقتضي الترقى لأنه صار كالعلم من حيث أنه لا يوصف به غيره تعالى لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها وذلك لا يصدق على غيره، أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم ليتناول ماخرج منها، فيكون كاللتمة، وفي ايثار هذين الوصفين المقيدين بالمبالغة في الرحمة اشارة لسبقها وغلبتها على أضدادها وعدم انقطاعها ، فلينظر القائل بسم الله أهو عامل بمعناه، لقصور الاستعانة والبركة على اسم الله خاصة، فلا يعتقد معنى ذلك في غيره تعالى كما كان يعتقد المشركون في آلهتهم ولا يرضى به أيضاً، وإن أشعر تقديم العامل بالاحتمال فاعتقاده باق على حاله، أو هو يعتقد ذلك المعنى في غير الله مع كونه إنما ذكر اسم الله خاصة، أو لم يعتقد له لكنه يرضى به من غيره، فهذا لم يقصر الاستعانة والبركة على اسم الله وإن أتى بما يفيدهما لفظاً، لأن عقيدته أفسدت عليه.. (ومعنى الحمد لله) أي جنس الوصف بالجميل أو كل فرد منه مملوك أو مستحق للمعبود بالحق المتصف بكل كمال على الكمال. والحمد هو الثناء بالصفات الجميلة الاختيارية، والأفعال الحسنة المرضية، سواء كان في مقابلة نعمة أم لا . وفي الاصطلاح فعل ينشأ عن تعظيم المنعم بسبب انعامه على الحامد أو غيره. والشكر لغة هو الحمد ومعناه اصطلاحاً صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه لما خلق لأجله .

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ وبين الحمد والشكر اللغوي عموم وخصوص من وجه، فإن الحمد مورد خاص، ومتعلقه عام، والشكر مورد عام، ومتعلقه خاص، كقوله:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

(ولينظر القائل الحمد لله) أيضاً هل هو خاص بالمعبود بالحق المتصف بكل كمال على الكمال بما هو حق له، فما كان من جلب نفع أو كشف ضرر فلا ينسب إلا إليه تعالى ويثنى عليه به، لأنه المنعم الحقيقي، وغيره وإن أسدى معروفًا فالثناء عليه مجاز، لأن الله هو الخالق لذلك الغير، وهو المعطي له ما أسداه وحببه إليه وقواه عليه، فهو سبحانه المعطي المانع الضار النافع، وازمة الأمور كلها في يده ومرجعها إليه، فصار معنى الحمد مختص لله تعالى بهذا الاعتبار، وإن أثنى على الناس خيراً، أو هو ينسب شيئاً من ذلك لغيره تعالى فقد عدله به. وإن قال الحمد لله لفظاً، فإن كان قد خص المعبود بما هو حق له فقد أتى بمعنى أحمده، لأن معناه أصفه بجميع صفاته التي كل منها جميل، وأثنى عليه بها فإن رعاية الجميع أبلغ في التعظيم، وهذه الصيغة يدل معناها على إيجاد الحمد الذي هو الثناء على الله بجميع المحامد لا الاعلام بذلك، وإن لم يخصه تعالى بما هو حق له لم يأت بالمعنى وإنما هو مجرد لفظ خال منه. (ومعنى) أستعينه أي أطلب المعونة في أموري كلها منه، فأنا متوكل عليه ومتبرئ من حولي وقوتي ولا أرضى من نفسي ولا من غيري إلا بذلك، فإن عمل به فقد أتى بمعناه، وإلا فهو مجرد لفظ. (ومعنى) استغفره أي أطلب منه المغفرة. ثم إن كان المستغفر قد فعل ذنباً أقطع عنه وندم عليه وعزم أن لا يعود إليه فذلك توبة، وإلا فهو مجرد دعاء، والمستغفر المقيم على ذنبه كالمتبرئ بربه. (ومعنى) أعوذ أي ألوذ وأتخصم واعتصم وأستجير بالله من شر هذه النفس الأمارة أن تصدني عن فعل ما أمرت به، أو تخنني على فعل ما نهيت عنه، فيحصل لي الشر من قبلها لأنها قد حسنت لي سيئات الأعمال، فأعوذ بالله من شرها ومن سيئات أعمالها. فعلامة الصدق في ذلك فعل المأمورات واجتناب المنهيات والانقياد إلى قول الله والاتباع لدين محمد بن عبد الله، وإلا فهو مجرد لفظ خال من معناه. (ومعنى) من يهد الله فلا مضل له أي من يرشده الله إلى

سبيل الرشاد وهو الصراط المستقيم الذي أنعم الله به على النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فلا يحيد له عن ذلك، ومستهل الهداية دخول الدليل إلى الفؤاد والانبساط له كما يراد، ثم خفة الطاعة بعد القيام بمعنى الشهادتين والحمد على الخروج من ساحة الاضاعة ونور البصيرة وجلاء عين السرية والسلوك في مدارج السالكين، ومناهج المتقين، والسفر إلى أعلى عليين، ومحبة أرحم الراحمين، والاقتداء بأفضل المرسلين، وأما من كان من الضالين — أي الهالكين الغائبين — عن الهدى الزائغين عنه بتقدير الله عليه ذلك فلا هادي له مصداقه قوله تعالى: ﴿من يهد الله فلا مضى له﴾ فهو المهتد ومن يضلل فلا تجد له ولياً مرشداً ﴿بل قلبه عن الحق مقفل قد نابذ جميع أوامر الله عز وجل، وانتقش في خاطره الكثيف بغض الحق وأهله، وامتلأ قلبه وقاله بحب الباطل وأهله، والشيطان وحزبه والتلذذ بكل نوع من الطغيان، فنفرت منه كل جارحة عن حزب الرحمن، لاشيء أحب إليه من اطفاء نور الايمان وتكثير جند الطغيان، وفي المعنى يقول الرحمن: ﴿ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ وهذه الآية على هؤلاء أشد بلية وأجل رزية، فإنهم يحاولون بجدهم وجهدهم اغواء المؤمنين، ونقض عهدهم مع الموحدين ليرجعوا إلى ما هم عليه من الباطل والطغيان. ومن ذاق طعم الايمان لأن يقذف في النار أحب إليه من أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه رب العالمين. فحلاوة الايمان لا ألد منها عند الموحدين، ثم النصر والتأييد لهم في كل حين. وحزب الشيطان يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. والمهتدي إذا صارت نفسه لوامة خاف من موارث الندامة فحزن على مافات وخاف مما هو آت. ومقام الخوف من أجل المقامات ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ وقد أخبر ﷺ أنه أخوف الأمة لمولاه. فلينظر الانسان من أي الفريقين هو أمن حزب الرحمن، أم من أولياء الشيطان الذين لم ينقادوا لاتباع ماجاءت به الرسل فقلب قلبه عن الحق بعدم الانقياد كما قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وكنزهم: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فجعل علة التقلب والطبع عدم الانقياد لاتباع ماجاءت به الرسل، وذلك أنه تعالى قد فطر عباده على الهدى فمن بقي على الفطرة وقبل ماجاءت به الرسل زاده هدى ولطفا وتوفيقاً. ومن

غير الفطرة وعاند ماجاءت به الرسل ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً، ويسره للعسرى وخذله. (ثم ليعلم) أن ارادته تعالى الخير من عباده، وارادته الشر لا يستلزم وقوع المراد منهم ضرورة، إنه أراد ذلك منهم مع بقائهم مختارين كما أراد الايمان منهم فهو أراد وقوع الخير منهم وهم مختارون، فقد يقع ماأراده تعالى منهم وقد يتخلف هذا بخلاف مايريده تعالى من أفعاله فإنه لايتخلف عن ارادته وقوع مراده مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ بخلاف الأول ومنه ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ فإن المراد يريد منكم أن يتوب عليكم فيتوب عليكم أي يتقبل توبتكم، إلا ان مع ارادته تعالى الخير لعبده يكون أقرب إلى فعل ماأراده منه لأنه من اللطف، وعكسه ارادته بعبد الشر . إذا عرف هذا فليجعل هذا البحث نصب العينين فقد زلت بجهله عوالم وتهاوش حوله طوائف ولم يقع لهم محرراً مقررأ. (ومعنى نشهد) أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له أي أذعن بقلبي واعترف بلساني وأعمل بمقتضى ذلك أن لامعبود بحق في الوجود إلا الله، فمن عبد من دونه أو معه فعبادته زور وظلم وبهتان، وأنا برىء من العابد وعبادة المعبود واشتقاق الاله من التوله، ومعناه المألوه وهو الذي تتأله القلوب بالحبّة والتعظيم والاجلال والخوف والرجاء والاتجاء والتوكل والانابة وذبح النسك . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ فالحبّة التي في الله غير التي كحب الله لأن الأولى محمودة شرعاً كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله والثانية تأله : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نَسُوا اللَّهَ فَرَسَوْا رَبَّهُمْ ﴾ وكذلك الخوف ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ والتوكل ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَحَيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فهذا كله يفيد الحصر . ثم استعمل في كل مايعبد بما تقدم ذكره من دون الله أو معه، فنفى ذلك بلا النافية للجنس وأثبت الألوهية لمستحقها وهو الله بألا المفيدة للحصر . (وحده) أي حال كونه مفرداً بها عما سواه (لا شريك له) حال ثانية مؤكدة للأولى . أي لا شريك له في هذه الألوهية التي نفيت عن غيره واختصت بجلاله وعظمته، فالعبادات بأنواعها له خاصة به ليس لأحد منها شيء البتة، فهذه الكلمة

الطبية التي قد قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد وبها أمر الله سبحانه جميع العباد، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها ومفتاح عبوديته التي دعا الأمم على السنة رسله إليها فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وأساس الفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة. ضد الكلمة الخبيثة التي كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فهي خراب الكائنات وعليها تثبت أنواع المنكرات، وبها وجد الذل والصغار ولأجلها فتحت أبواب النار فكل من لم يعمل بمعنى هذه الشهادة التي قد شهد بها فهو كاذب في ادعائه إياها كما كذب الله الذين شهدوا بالرسالة فلم يعملوا بمعناها. (وان محمداً عبده ورسوله) أي أشهد أن محمداً عبده ورسوله، فمحمداً اسمه ﷺ وكنيته أبو القاسم، وسمي به لكثرة خصاله الحميدة سمي به قبله سبعة عشر شخصاً على ما قاله ابن الهائم عن بعض الحفاظ، بخلاف أحمد فإنه لم يسم به قبله عبد قال أبو علي الدقاق ليس شيء أشرف ولا أتم للمؤمن من الوصف بالعبودية، ورسوله إلى كافة الخلق. والرسول انسان ذكر أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه أخص من النبي فبينهما عموم وخصوص مطلق يجتمعان في مادة وينفرد أحدهما في أخرى، وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين، وحجة على المعاندين، وحسرة على الكافرين، (أرسله بالهدى ودين الحق) الذي هو التوحيد بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فأنعم به على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكوراً فأمدّه بملائكته المقربين، وأيده بنصره وبالمؤمنين، وأنزل عليه كتابه المبين الفارق بين الهدى والضلال والغي والرشاد والشكر واليقين، فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وفرض على العباد طاعته ومحبته والقيام بحقوقه وسد الطرق كلها إليه وإلى جنته، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه فهو الميزان الراجح الذي على أخلاقه وأقواله وأعماله توزن الأخلاق والأقوال والأعمال، والفرقان المبين الذي باتباعه يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فلم يزل ﷺ مشمراً في ذات الله لا يرد عنه راد، صادعاً بأمره لا يصد عنه صاد، صادق إلى أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فأشرفت برسالته الأرض بعد

ظلماتها، وتألقت به القلوب بعد شتاتها، وامتألت به الدنيا نوراً وابتهاجاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلما أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى، والحل الأسنى، وقد ترك أمته على المحجة البيضاء، والطريق الواضحة الغراء، فصلى الله وسلم وملائكته وأنبيأه ورسله والصالحون من عباده عليه. كما وحد الله وعرف به ودعا إليه. ومن لازم صحة هذه الشهادة الإيمان بما أرسل به وهو التوحيد قولاً وعملاً واعتقاداً، وتصديقه بجميع ما أخبر به وإلا فهو مكذب ودين الحق هو المؤيد المنصور لقوله تعالى ﴿ ليظهره ﴾ أي يعليه ويعزه

﴿ على الدين كله ﴾ سائر الأديان المخالفة لدينه (صلى الله وسلم عليه) قال الأزهري معنى الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدمي التضرع والدعاء بخير، وقال أبو العالية صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء والسلام إما بمعنى التحية أو بمعنى السلامة من النقائص والذائل وتستحب الصلاة عليه بتأكده، وتؤكد كلما ذكر. وقيل بوجوب الصلاة عليه كلما ذكر اسمه (وعلى آله) وهم في مقام الدعاء أتباعه على دينه عند أكثر أهل العلم، قال تعالى: ﴿ ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أي أتباعه. وقيل هم الأتقياء من أمته. وأما في مقام الزكاة فهم أقاربه المؤمنون من بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف، وقدموا على الصحب للأمر بالصلاة عليهم وإضافته إلى المضمر جائزة عند الأكثر، وعمل أكثر المصنفين عليه، ومنعه جمع منهم الكسائي والنحاس والزبيدي (وصحبه) جمع صاحب، وجمع الصحب أصحاب، والصحابي من لقي النبي ﷺ واجتمع به مؤمناً ومات على ذلك. وعطفهم على آل من عطف الخاص على العام، وفي الجمع بين الصحب وآل مخالفة للمبتدعة لأنهم يوالون آل دون الصحب (وجنده) هم خاصته من المؤمنين (وحزبه) المعاوين له بالنصرة (وعلى من تبعهم بإحسان) لم يغيروا بعدهم ولم يبدلوا سيرتهم الحسنى (وقضى أثرهم) على السيرة الحمودة (إلى آخر الزمان) فمن لم يتبع بل غير وبدل فهو مبتدع، وقد أثنى الله على الذين يطلبون المغفرة من ربهم لأنفسهم ولن سبقهم من المؤمنين فقال تعالى: ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ فهذا هو المطلوب بعكس

ماعليه أهل الأهواء من الوثوب على مسبة الحق الذي جاء من عند الله فهو له غير محبوب، وتفريق كلمة المؤمنين وسب أكابر الصحابة والتابعين .

وماأمروا إلا ليستغفروا لهم فسبوا كراماً سبهم لم يحل

وقال الإمام مالك رحمه الله : من أصبح وفي قلبه بغض لأحد من الصحابة فقد أصابته الآية يعني قوله تعالى : ﴿ لِيُغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

وصرح بعض الحنفية بتكفير الرافضة لسبهم الصحابة . فقال صاحب تبين

المحارم :

واعلم أن الروافض كفار عندنا لأنهم يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وكذا من أنكر خلافتهما يكفر عندنا في الأصح وقد أثنى الله سبحانه على السابقين من الأولين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وإنما المتبع لهم العامل بمنهاجهم، والمقتدي بهديهم هو الذي لم يحدث في الدين ولم يغير ما جاءت به سنة سيد المرسلين .

سبب تأليف الرسالة :

وأما قولكم (وبعد فلما ان ورد كتابكم إلى حضرة سليمان باشا طلبتم منه أن يجمع علماء مملكته لينظروا في كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب كي يطلعوا على ما انطوى عليه من الأحكام ويميزوا بين ما يستوجب النقص والإبرام صدر منه الأمر الواجب القبول والاتباع وأشار إليّ وإشارته حكم وطاعته غنم فامتثالاً لأمره نظرنا فيه فبعد أن طالعناه، وفهمنا فحواه، وجدناه كتاباً جامعاً لشتات من المسائل مشتملاً على عدة رسائل لكنه قد جمع فيه بين غث وسمين، وقوي ووهين ووجدنا أحواله أحوال من عرف من الشريعة شطراً، ولم يمعن فيها نظراً، ولا قرأ على أحد ممن يهديه إلى النهج القويم ويدله ويوقفه على العلوم النافعة التي هي الصراط المستقيم .

فنقول (وبعد) هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من غرض إلى غرض آخر ويندب الاتيان بها في الخطب والمكاتبات كما كان عليه السلام يأتي بها في خطبه ومكاتباته . رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين له عن أربعين صحابياً ، وأول من تكلم بها داود عليه السلام فهي فصل الخطاب الذي أوتيّه، والصحيح أنه فصل الخصومات كما عليه جل العلماء، وقيل أول من تكلم بها يعرب بن قحطان، وقيل قس بن ساعدة، وقيل غير ذلك، وهي من الظروف التي تقع على الزمان والمكان، ويجوز هنا ارادة كل منهما، وهي مبنية على الضم لنية معنى المضاف إليها ويجوز نصبها لنية لفظه كما لو ذكر وان لم ينو شيء من ذلك جاز تنوينها نصباً وضمّاً، والواو نائية عن أماء، وأما نائية عن مهماء، والاصل مهما يكن من شيء بعد الحمدلة إلى آخره . (فلما) أو غير ذلك (ان ورد) من ورد الشيء إلى مستقره أي وصل (كتابكم) أي مكتوبكم (إلى الوزير) المذكور اسمه اعلاه وفقه الله وهداه وأصلح أحوالنا وإياه (وطلبتم منه أن يجمع علماء مملكته) أي دولته وسلطنته وهم علماء بلده المقيمون فيه .

ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذكر من أخذ عنه العلم :

(لينظروا في كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب) بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ادريس بن علي بن محمد بن علوي بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيع بن ساعدة بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان بن عدي بن عبد مناة بن تميم ولد سنة ١١١٥ دخل البصرة والحجاز وأخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ علي أفندي الداغستاني لما اجتمع به في المدينة المنورة مجاوراً بها شيخ مشايخ الشام بأجمعهم بعد الشيخ أبي المواهب والشيخ اسماعيل العجلوني فان أبا المواهب الكبير وهو المحدث عبد الباقي متقدم عليه والشيخ العجلوني كان في عصره وأخذ أيضاً عن عبد الله بن ابراهيم نزيل المدينة والمشهور بها وأخذ أيضاً عن عبد اللطيف الاحسائي العفالقى وأخذ أيضاً عن محمد العفالقى الاحسائي فقد قرأ على الشيخ عبد الله بن ابراهيم وأجازه من طريقين :

(أحدهما) : عن ابن نصر الله عن الشيخ محمد البلباني عن الشيخ أحمد بن علي الوفاي المفلحي عن الشيخ موسى الحجاوي عن القاضي برهان الدين بن مفلح وهما عن والده نجم الدين بن مفلح عن والده القاضي صاحب الفروع عن جده عبد الله بن مفلح عن الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية عن شمس الدين بن أبي عمر عن عمه موفق الدين بن قدامة عن الشيخ عبد القادر الجيلي عن القاضي أبي يعلى المرادوي عن ابن حامد عن أبي بكر الخلال عن أبي بكر المروزي عن الإمام أحمد عن سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ عن جبرائيل عليه السلام عن رب العزة تبارك وتعالى .

(والثاني) : عن عبد القادر التغلبي عن عبد الباقي أبي المواهب المحدث عن الشيخ أحمد الوفاي عن موسى الحجاوي عن أحمد الشويكي عن العسكري عن عبد الرحمن بن رجب عن ابن القيم عن تقي الدين أحمد بن تيمية عن شمس الدين نجل أبي عمر عن عمه موفق الدين عن الشيخ عبد القادر الجيلاني عن أبي الوفا بن عقيل عن القاضي أبي يعلى عن ابن حامد عن أبي بكر المروزي عن الخلال عن الأثرم عن الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة أيضاً عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى، وقد أجازاه أيضاً كل من الشيخ علي أفندي، وعبد الله بن إبراهيم، وعبد اللطيف العفالق، في كل ما حواه ثبت الشيخ عبد الباقي أبي المواهب الحنبلي قراءة وتعلماً وتعليماً من صحيح البخاري بسنده إلى مؤلفه، وصحيح مسلم بسنده إلى مؤلفه، وشروح كل منهما، وسنن الترمذي بسنده، وسنن أبي داود بسنده، وسنن ابن ماجه بسنده، وسنن النسائي الكبرى بسنده، وسنن الدارمي ومؤلفاته بالسند، وسلسلة العربية بسندها عن أبي الأسود عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكتب النووي كلها وألفية العراقي، والترغيب والترهيب، والخلاصة لابن مالك، وسيرة ابن هشام، وسائر كتبه، ومؤلفات ابن حجر العسقلاني، وكتب القاضي عياض، وكتب القراءات وكتاب الغنية لعبد القادر الجيلاني، وكتاب القاموس بالسند إلى مؤلفه، ومسند الإمام الشافعي، وموطأ مالك، ومسند الإمام الأعظم، ومسند الإمام أحمد، ومسند أبي داود ومعجم الطبراني وكتب السيوطي فقه الحنابلة وسلسلتها وأصولهم. ثم أنه رجع إلى نجد فوجد أهلها ضالين وعلى أصنام يعبدونها من دون الله عاكفين مابين أشجار وأحجار وغيران وطواغيت من الانس والجنان فأتين ومفتونين فلم يسعه إلا الصدع بالحق والاعراض عن المشركين، والنصيحة لهؤلاء العاكفين عملاً بنصيحة الدين وخوفاً من حلول اللعنة إلى يوم الدين ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ فتحتم عليه البلاغ والعلم والتعليم. فشرع في ذلك وهو على الله متوكل، وبآيات الله متفكر وبجمله معتمد بعد أن طرأ في خلده وخطر في هاجسه أنه مما هم به على خطر، وأنه من ذلك على حذراً فلما أن توكل على الذي ليس دونه مفر ولا يغني عنه مفر، كفاه ومنحه وحياه.

فادركت العناية الإلهية والهداية الربانية من أراد الله هدايته لإقامة دين الإسلام والتمسك في سبيل السلام أمير بلدته التي فيها محلته مرحوم الودود محمد بن سعود، فشرح الله لذلك صدره ويسر له أمره ففتحت عين بصيرته وانجلت غشاوة سريرته، فسمع ووعى وذكر وأوعى، وزادته العناية توفيقاً والهداية في قلبه ترفيقاً، فأجد وأمد وعن ساعده شمر، واجتهد مقبلاً على إقامة التوحيد وداعياً إليه العبيد، فلذلك عاداه أهل هذا الباطل وأقاموا بأنواع العداوة عليه فأجمعوا جدهم وجهدهم من خيلهم ورجالهم ومدافعهم التي هي غاية ما عندهم ليرجعوه هو واتباعه عن إقامة التوحيد، والدعاية إليه وإخلاص الوجدانية والعبادة كلها بأنواعها لله وحده، إلى ما كانوا عليه من الطغيان، وعبادة الشيطان، من الانس والجان، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون. ولم يزل ذو العناية والهداية معتصماً بحبل الله معداً لأوليائه الشيطان ما استطاع من قوة الآلات ومن رباط الخيل في سبيل الله ممثلاً قوله تعالى في الآيات البينات: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَاتَنَفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فأعز الله به الإسلام والمسلمين وألف به بين قلوب المؤمنين وظهر الحق وانتصر الدين وقمع الباطل وأوليائه المشركين وهكذا لم يزل الأمر حتى توفاه الله إليه، واختار له مالدیه من النعيم المقيم أبد الآبدين قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ فقام مقامه وانتصب انتصابه ناصر السنة والدين وخاذل البدعة والمشركين المجاهد في سبيل الله إيماناً واحتساباً والداعي إلى الله إيجاباً نجله الأواه المعتصم بالله الحميد المحمود، عبد العزيز بن محمد بن سعود، فجاهد في الله واجتهد، وبذل نفسه لله وأمد، فأفشى الله به الإسلام وأوسع، واضمحل به الباطل وقمعه، ولا قام صاحب باطل وهوى على اطفاء نور الله إلا وأهلكه الله في ساعة قصيرة فلله الحمد والمنة، حتى وقع في الإسلام وقائع غرائب وعجائب كما مضى في صدر سلف هذه الأمة عيناً بعين ومثلاً بمثل ما لو جمع ذلك لاحتمل مجلدات لكثرة البلاوي والوقائع الغريات بمعادات هذا الدين، والتصديق والانقياد لقول أعدائه من شياطين الانس المفتونين إذ

قالوا وكذبوا وشنعوا وان لم يحققوا ويتحققوا، فقد آل الأمر إلى تجذيب النساء مع الرجال من تحت أستار الكعبة في وقت الشريف مسعود، فحبس وعذب، وسرقن عن بلد الله الحرام من كان فيه تهمة من هذا الحق والتنسك به وانتساب إليه، وغرب عداوة للدين وطواعية للشياطين الانس المعاندين بلا مراجعة ولا مفاكرة ولا عداوة دينوية سابقة وإنما هو عناد وطعن في الحق المراد بلا تحقق ولا تذكر ولا تفكير، ولما حذر الشيخ محمد ابن عبد الوهاب عن هذا الشرك الأكبر فعنه أُنذر وأقام عليه البراهين من القرآن والسنة وكلام الأئمة فقرر وحرر أحب أن يجمع فيه كتاباً مختصراً جامعاً لمعنى دين الرسل من أولهم إلى آخرهم ومعرفته، ومعنى دين المشركين المتقربين إلى الله بأبغض الأشياء إليه من أعمال المعاندين، بأدلتها الجامعة من الكتاب والسنة وكلام صالح سلف الأمة، وليس هو يدعو الناس إلى التزام بمذهب معين فيجمعهم عليه، وينكر كلام واجتهاد الأئمة المجتهدين من غيره، ولا إنه يدعي الاجتهاد بنفسه، وإنما يدعوهم إلى العلم والعمل بمعنى هذه الكلمة الطيبة التي أرسلت بها الرسل وأنزلت في تقريرها الكتب للعلم بها والعمل بمعناها، وترك الكلمة الخبيثة عملها ومنشأها وسماها (كتاب التوحيد) فيما هو حق على العبيد، وكشف شبه المرتاب فيما التبس عليه من الخطأ والصواب، فشاع وذاع ونفع من الله نقاد وأطاع، وقد أرسل نسخة منه ولي الأمر المجاهد الأواه من ذكر اسمه المنيف أعلاه، إلى جانب العزيز المكرم سليمان باشا، بحجة إليه ونصيحة وحرصاً عليه وفضيلة وليتأمل بعين الانصاف هو ومن كان عالماً من أهل الانصاف، فيعمل بعد تحققه ذلك باقامة الدين ويترك قول الشياطين المعاندين، ويحقق التوحيد المطلوب من العبيد، وما أصبح عليه غالب الناس من جعلهم من لا يداني رسول الله ﷺ الذي خاطبه ربه في قوله تعالى: ﴿ ولقد أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ بل لعله عدو لرسول ﷺ الله بمنزلة رب العالمين والسموات السبع، والأرضين السبع، ورب العرش العظيم، فيعذرن في أمرنا ونهينا ولا يطيع الخصم فينا، لأن العاقل اللبيب إذا فهم ذلك وأتقنه تيقن ان أمرنا الذي قمنا به وبأشرنا به واجب ومتحتم علينا قال الله تعالى: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ وقال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر ﴿ ولا منكر أعظم ولا أكبر من الشرك بالله ﴾ ونحن قد مكنتنا الله في الأرض والله الحمد فلا عذر لنا، ومن لم يمكنه الله فيها ولم يقدر على اظهار ما طلب منه وجب عليه شرعاً أن يأوى إلى من ينصره حيث وجد ويعاونه على البر والتقوى كي يطلعوا على ما انطوى عليه من الأحكام ويميزوا بين ما يستوجب النقض والابرار أتى بكى التعليلية التي تفيد أن الاطلاع والتمييز علة لارسال الكتاب أي لم يرسل إلا ليطلعوا عليه ويميزوا ما فيه مما يستوجب النقض والابرار فأما الإطلاع على ما فيه من الأحكام فنعم .

والأحكام: جمع حكم، وهو ما شرعه الله من حلال، وحرام، ومكروه، ومباح، ومندوب . والمقصود بها هنا أبوابه ومسائله الشاملة لذلك، وبيان أصله المشتمل على التوحيد بأدلته التفصيلية، وأما التمييز بين ما ذكره فليس هو علة للارسال إذ لم يرسل ليحرر ويمر بل قد حرر وأمر عند شيوخ أفاضل وجهابذة أكابر منهم المشايخ الشاميون الشيخ على أفندي الداغستاني الذي قد ذكرنا اسمه، وابن عمه الشيخ عبد الكريم أفندي الداغستاني، والشيخ محمد البرهاني، والشيخ عثمان الديار بكري نزيل المدينة المنورة، والشيخ محمد السفاريني نزيل نابلس، وأرسل إليه بنسخة فأمرها وأقرها من غير مشايخه الذين قد ذكروا، فإن منهم من أدرك كلامه وكلهم قد أقروه وحرروه وأجازوه، ولكن عذرهم عدم المساعد لهم في قيام ماتضمنه من اقامة الدين وإخلاصه لرب العالمين وإلا هو الذي يدينون الله به في أنفسهم وأهليهم وأصحابهم من عشائرتهم لكن لا يقدرون على نهي الناس عما اعتقدوه وعملوا به وقالوه لأن ذلك يعتاز إلى سيف قائم وإمام عادل وذلك متعذر الآن إلا بتوفيق الله وإيجاده، وإنما أرسل الكتاب لأمرين .

الأول : ليحصل العلم عند الخاص والعام إنا لم نقاتل الناس إلا على إقامة دين المصطفى محمد ﷺ من العلم بمعنى هذه الكلمة الطيبة والعمل بها وعمل سائر المعروف التابع لها من صلاة وزكاة كفعل أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع المانعين لها والتعلم بما أوجب الله على عباده وما طلبه منهم وخلقهم له وبما نهاهم عنه وحذرهم منه فإن الرجل من أهل هذا الزمان يشب ويشيب وهو لا يعرف المعروف بأنواعه بل

حتى التوحيد وضده وفروض وضوئه وصلاته وما يطلهما لا يعلمه بل هو منهمك في القول والقليل بلا فائدة ولا عائدة، وعلى ترك ضدها المنافي لها وهو الشرك الذي قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وإزالة سائر ما هو تابع لها من زنا وربا وشرب خمر ولواط وسائر المحرمات ومع ذلك نحن لانكفر بالمعاصي كما توهمه مطيعو العدو وإنما نكفر المشركين الذين كفرهم الله في كتابه المبين أو الراضين أعمالهم المظاهرين هم علينا والمكفرينا بأمرنا ونهينا لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ ونقاتلهم عليه وعلى سائر أفعال المعروف المتروكة.

الثاني: النصيحة لهذا الوزير الذي هو عندنا في محل، حرصاً عليه وشفقة منا إليه لودنا له ما وودنا لأنفسنا من أنواع الخير، فيتأمل ويعمل ورجاء أن الله يهدي به خلقاً كثيراً كما قال ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» وليتأمل أيضاً ببصيرة قلبه خير القرون الماضية وأهلها الذين قال عنهم النبي ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» والقول بأننا لانقدر على ذلك ليس بعذر شديد لأن الله قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقال ﷺ فيما صح عنه: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» وليس له ﷺ طريق ولأصحابه آخر، ولا لأصحابه طريق ولنا آخر، بل الطريق الذي فطر الله عليه الأمة وأمرها اتباعه واحد، فالنبي ﷺ يتقدمنا فيه ونحن نفتني أثره وأثر أصحابه كما كان عليه السلف الصالح، والدنيا فانية مفروغ منها والأمر أسرع من ذلك والعز بأنواعه لم يوجده الله إلا في الإسلام والاقامة عليه، والذل والصغار والحق في ضده ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ (صدر منه الأمر الواجب القبول والاتباع وأشار إلى وإشارته حكم وطاعته غنم فامتثالاً لأمره نظرنا فيه) صدر أي مضى من هذا الوزير الأمر لعلماء مملكته لينظر وإفي هذا الكتاب، والله أعلم بنيتة، الواجب القبول والاتباع صفتان للأمر ولا شك أن طاعة الأمير واجبة لكن في غير المعصية.

تعصب الراوي وكبره :

وأشار إليّ فيه ان هذا المشار إليه يدعي أنه من أجل علماء المملكة وأكبرهم قدراً عنده فلذلك خصه من بينهم فامثالاً لأمره نظرنا فيه، يعني وإلا لولا أمره لم ننظر فيه ولم نطالعهم، ولم نتأملهم، وهذا من أعظم التعصب وأكبر التوثب على الركون إلى الرأي العقلي بلا حجة قطعية ولادليل نقلي، فهو من نوع التوكل على مجرد الرأي، وذلك هو الموجب لقول الزور والبهتان والوقوع في الإثم والعدوان، إذ مامن مستغن برأيه عن مشاهدة الحق وأتباعه والتأمل في أحواله إلا وفات عليه خير كثير ولم يحصل له ما خيل إليه مما يزعم أنه لديه وهذا من العلم العقلي المخالف للدليل النقلي الناشئ عن الجهل الكلي قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ وقد قال النبي ﷺ عن ذلك أنه أتباع هوى واعجاب، فروى أبو ثعلبة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك » والترفع عن أخذ العلم والحق وعن سماعه وادعاء الانتهاء فيه والاستغناء عنه من أكبر العجب، وهذا ادعاء فيما لاسبيل له إليه ولاملك له فيه وان زعم كمال الفهم فيه والاطلاع عليه إذ مامن عالم إلا وفوقه أعلم منه ، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ أي لكل ذي علم من المخلوقين أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله عز وجل، ولذلك عتب الله على موسى عليه السلام حين قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل هل أحد أعلم منك؟ قال: لا، قال الله: بلى إن عبدنا خضراً هو أعلم منك، فلا زال يطلبه حتى وجده ليأخذ عنه العلم. ومن استغنى برأيه وزعم ان الباطل حق باستدلالاته التي قامت مخايل جفيلها الخالي في ذهنه وقرب سراها النائي في ظنه فتخيل ان جميع معانيها ومافيه منسوبة عنه وإليه ولم يعلم أنها حجة عليه، فقد أخطأ سبيل الرشاد وتعنت في أنواع العناد مقلداً لما سمعه من

عدو الحق بلا تحقق، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته والله تعالى يقول: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ وفي المسند للإمام أحمد عن ابن عمر يرفعه إلى النبي ﷺ: «من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان» وقال ﷺ: «إن شر الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء» رواه الدارمي في مسند الفردوس وذلك لأنهم سبب صلاح العالم، واليهم ينتهي أمور الدنيا والدين، وبهم الحل والعقد، فإذا فسدوا فسد الناس كلهم، وسبب فسادهم الضار بالخاص والعام متابعة الهوى وحب الرئاسة والعجب بالرأي، وقد يظهر للناس ما يدل على صلاحه من أمر أو نهي وهو في قيد هواه معجب في نفسه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد فأُتي به فعرفه نعمته فعرفها فقال ما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى قتلت قال كذبت ولكن قاتلت ليقال هو جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأُتي به فعرفه نعمته فعرفها فقال ما عملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فقال كذبت ولكن تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأُتي به فعرفه نعمته فعرفها فقال ما عملت فيها فقال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» وفي لفظ: «فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون أي فلان ماشأناك أأنت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمرم بالمعروف ولا آتية وأنهم عن المنكر وآتية» وسبب هذا إنما هو اتباع الهوى، والقصور على مجرد الرأي من أعظمه وإن زعم العلم وادعاه، ولذلك ذم الله سبحانه المعارضين للحق لما جاءهم بما قام في أنفسهم من الادعاء للعلم والاستغناء به عما جاءهم قال تعالى: ﴿فلما

جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴿ قال أهل التفسير يعني رضوا عن ذلك بما عندهم من العلم في زعمهم فرح استهزاء وضحك منكبين للحق، وسماه سبحانه علماً باعتبار ما قام في ذهنهم وإلا فهو أقبح الجهل، والاستغناء بمجرد الرأي الخالي عن الدليل النقلي موجب للتعاون على الإثم والعدوان اللذين نهى الله عنهما في قوله: ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ والمعاونة عليهما من دحض الحق والعمل بنقيضه، وهذا من تسويل إبليس وتحسينه ليدخل الإنسان في ملته، فمن فعل فقد أحيها فصار من حزبه وأعوانه ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ والمعاونة على الإثم طبقات أقبحها وأفحشها ما يقع من العلماء وهي إما بالفعل أو بالقول، فإن كانت من الفعل فهي من أعظم الضرر على البقية، وذلك أن العلماء إذا عملوا عملاً ليس من الدين ولا سنة أفضل المرسلين صاروا سبباً لاقدام العوام إليه ولعكوفهم عليه لاعتقادهم أنه من الدين، وأنه مما يتقرب به إلى رب العالمين، وهذا السبب في كل بدعة، وما من فتنة في الوجود تنشأ إلا عنها. وفي هذا المعنى يقول العزيز الحكيم في التحذير من مخالفة أوامر من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ وقد أصيب الناس بفتنة أضرت بالخاص والعام فلم يرض أحد عن أحد غير معتقده ولم يتركه إلا باتباع ما ارتكبه، وهذا نوع من الزيف وقد أخبر الصادق المصدوق أن هلاك من كان قبلنا بسبب الاختلاف، وحذر أمته أن تصنع كما صنعوا فيقعوا فيما وقع فيه من مضى من الأسلاف قال عليه السلام: « دعوني ما ترككم فأنا أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » رواه البخاري ومسلم وفي رواية لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » وهؤلاء المتدعون يصيرون سبباً لفتنة كل مفتون. ويكون هذا منهم كاعطاء السيف لقاطع طريق المسلمين، وكذكراك الحجر للمجانين، وكاغراق السفينة في الماء، وكاحراق المدينة في النار، وإن كانت في القول فهي أعظم ضرراً من الفعل فإنهم إذا أحلوا ما حرم الله أو حرموا ما أحل الله تبعهم العوام مقتدين بهم فبذلك يصيرون

عاملين بالاثم ومعاونين عليه فحصل لهم كفلال من العذاب. عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ قوله تعالى: ﴿ اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية فقلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم قال: « أليس يجرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه فقلت بلى قال تلك عبادتهم » رواه الامام أحمد والترمذي وحسنه والتحليل والتحريم ليس قيلاً لوجود الاثم بل هو موجود بمجرد الأمر والنهي المخالفين للدين ثم ان كان ذلك المأمور به فعله مكفراً والنهي عن فعله تركه مكفراً فله حكمه وإلا فهو ذنب ان لم يستحل ولهذا كان السلف يقولون: (احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه) وكانوا يقولون: (احذروا فتنه العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنه لكل مفتون) فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم. وقد وصف الله تعالى أئمة المتقين فقال: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ فبالصبر ترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، ومنه قوله تعالى: ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ وقوله: ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ ووصف بعضهم الامام أحمد رحمه الله فقال: عن الدنيا ما كان أصبوه، وبالماضين ما كان أشبهه، أئمة البدع فتفاهوا بالدنيا فأبأها، ومنه الحديث المرسى عن النبي ﷺ: « إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات وبحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » وقد دل قوله تعالى ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم ﴾ على اتباع الشهوات وهو داء العُصاة، وقوله: ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ على الشبهات وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات وكثيراً يجتمعان، فقل من تجدد في اعتقاده فساداً إلا وهو يظهر في عمله، وقد دلت الآية على أن الذين قبله استمتعوا وخاضوا وهؤلاء فعلوا مثل أولئك لأن قوله استمتعتم وخضتم خبر عن وقوع ذلك في الماضي، وهو ذم لمن يفعله إلى يوم القيامة كسائر ما أخبر الله به عن الكفار والمنافقين عند مبعث النبي ﷺ فإنه ذم لمن حاله كحالهم وعمله يشبه عملهم إلى يوم القيامة قد أشار إلى ذلك الإمام البغوي والحافظ ابن كثير وغيرهما من المفسرين عند هذه الآية بحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: « لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر

ضرب تبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال: فمن » وفي رواية أبي هريرة: « وهل الناس إلا أولئك » وقال ابن مسعود: (أنتم أشبه الأمم ببني اسرائيل ستماً وهدياً تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة غير ان لا أدري تعبدون العجل أم لا) وهذا أيضاً يكون خبراً عن أمر دائم مستمر لأنه وان كان بضمير الخطاب فهو كالضمائر في نحو قوله ﴿ اعبدوا واركعوا واسجدوا وآمنوا ﴾ فكما ان جميع الموجودين في وقت النبي ﷺ مخاطبون بهذا الكلام لأنه كلام الله وانما الرسول مبلغ، فكذلك هو متناول لمن بعدهم إلى يوم القيامة، وهذا مذهب عامة المسلمين، وان كان بعض من تكلم في أصول الفقه اعتقد ان الضمير يتناول الموجودين حين تبليغ الرسول وان سائر الموجودين بعدهم دخلوا إما بما علمناه بالاضطرار من احتواء الحكم كما لو خاطب النبي ﷺ واحداً من أمته وقصد غيره من سائر الأمة، وإما بالسنة، وإما بالاجماع، وإما بالقياس، فيكون كل من حصل في هذا الاستمتاع والخوض مخاطباً بقوله تعالى ﴿ فاستمتعتم وخصتم ﴾ وقد توعد سبحانه هؤلاء المستمتعين الخائضين بقوله: ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ فأخبر سبحانه ان في هذه الأمة من استمتع بخلافه كما استمتع الأمم قبلهم، وخاض كالذين خاضوا، وذمهم وتوعدهم على ذلك، ثم خصصهم على الاعتبار بمن قبلهم، فقال عز من قائل: ﴿ ألم يأتكم نبيّ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ الآية فطاعة الله ورسوله وصف للمؤمنين قال تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرجحهم الله ان الله عزيز حكيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ والاستمتاع بالخلاق والخوض، وصف لمن فيه مشابة للقرون المتقدمة وقد ذم الله من يفعل ذلك، وأمر نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين بعد هذه الآية دليل على جهاد هؤلاء المستمتعين الخائضين، ثم هذا الذي دل عليه الكتاب من مشابة بعض هذه الأمة للقرون الماضية في الدنيا وفي الدين، وذم من يفعل ذلك دلت عليه أيضاً سنة رسول الله ﷺ، وتأول الآية على ذلك أصحابه رضي الله عنهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعاً

بذراع وشبراً بشبر وباعاً ببيع حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه» قال أبو هريرة اقرؤا إن شئتم ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة﴾ الآية قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب. قال: «فهل الناس إلا هم» وعن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية أنه قال ما شبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم. وعن حذيفة بن اليمان قال: (المنافقون الذين منكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ قلنا: وكيف. قال: أولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه) وقد جاءت السنة بالآخبار بمشابهتهم في الدنيا وذم ذلك والنهي عنه، وكذلك في الدين، فمن الأول ما في الصحيحين عن عمرو بن عوف من حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ إلى البحرين الحديث بتمامه. ومن الثاني ما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل الحديث» حتى في الرئاسة وحب الدنيا وإيثارها.

ما ذكره الراوي في شأن رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

(فبعد أن طالعناه وفهمنا فحواه وجدناه كتاباً جامعاً لشتات من المسائل مشتملاً على عدة رسائل).

الضمير في طالعناه يرجع إلى الكتاب المذكور، رأى نظرنا فيه وفهمنا فحواه أي معناه ومذهبه فيه وما يميل إليه، وقوله وجدناه من وجد الشيء إذا علمه وأحسن به كتاباً أي مكتوباً جامعاً أي حاوياً لشتات من المسائل جمع مسألة من السؤال وهو ما يبرهن عنه في العلم مشتملاً حال من الضمير في وجدناه على عدة رسائل (منها كتاب التوحيد) وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ثم أتى فيه بأحاديث من الصحيحين وبآبوابها على تراجم معلومة وأحاديث منها منقولة (ومن كتاب الكبائر) وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ان تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الآية وبآبوابها على تراجم معلومة وأحاديث من الصحيحين

مشهورة منقولة (ومنها كشف شبه المرتاب) مصدرة في معرفة حقيقة التوحيد وما هو حق الله على العبيد وكيفية الشرك الذي قال الله عنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وكيف كان صفة شرك الذين قاتلهم رسول الله ﷺ وانهم مقرون بتوحيد الربوبية وانما قصدهم شيئاً يتقربون به إلى الله من خلقه يدعونهم ويرجونهم ويتوكلون عليهم لشفاعتهم لهم زاعمين رضاء الله والقرب إليه، فضرهم ذلك وأفسد عليهم (ومنها شرح الكلمة الطيبة) بمعناها المراد من لفظها والكلمة الحبيثة التي ضد الطيبة ودلائلها وانهما لا يجتمعان، وان معنى الاله هو المعبود سواء كان بحق أو بباطل وان من جعل بينه وبين الله من خلقه وسائط يدعوهم ويرجونهم ويتوكل عليهم ويتقرب بهم فقد جعلهم آلهة مع الله لقول بني اسرائيل لموسى اجعل لنا الهاً (ومنها كلام الإمام أحمد) في عدة وريقات كتبه رسالة له في مسابقة المأموم امامه في الصلاة .

رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونقد الراوي لها :

(ومنها) رسالة له متعلقة بسيرة الأولين ومعرفتهم للدين وفعلهم مع المعاندين المخالفين (وله رسالة في الجهاد) وفضله وكيف كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجاهدون (وفيه رسائل غير ذلك) متعلقة بالتوحيد وغيره من مسائل الدين (لكنه قد جمع فيه بين غث وسمين وقوي ووهين) هذا استدراك من قوله كتاباً جامعاً أي لكنه يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد جمع فيه أي في كتابه المتقدم ذكره بين غث عني به الجاف الهشيم الذي لاطعم فيه؛ بدليل ما يقابله في قوله وسمين أي جمع في هذا الكتاب بين ما هو خالي المعنى المراد من الترجمة التي عقدت لأجله، فما قصده فيها هو معلوم لا تؤدي تلك الترجمة وما تضمنته معناه بل ما قام في ذهنه واستدل عليه به فدليله خال مما أراده ليس فيه منه شيء، وبين ما هو موافق لما أراده فمعناه فيه موجود موافق. وقوله وقوي ووهين عطف مغاير، أي جمع في هذا الكتاب أيضاً بين قوي وهو مالم ليس فيه شيء يوجب ضعفه، ووهين هو الضعيف الذي فيه شيء يوجب نقصه عن درجة ما قبله، وأشار بذلك هذا المعترض إلى أنه ناقد بصير مميز بين الأشياء المتضادة والمتوافقة وماتؤديه من المعاني المتغايرة أو المتناسبة وما يراود منها وما

متعلقها ونتيجتها وبين ما فيه قوة وضعف وصحة وبطلان وأنه قد نقد هذا الكتاب فوجده كما وصفه .

ونحن نقول من تأمل كلامه الآتي علم يقيناً أن ليس عنده من ذلك إلا مجرد الادعاء، إذ هو الجامع للمتضادين جنساً، وهو المازج للصفتين نوعاً، وهو الخابط فيه خبط العشوى فلم يفرق فيه بين الجنسين، ولم يميز بين النوعين لعدم معرفته الدين مع قصد الأولين وإقارهم برب العالمين، فإن قصدهم القرب إليه والتحصيل لما لديه، لكن ضرهم جهل الكيفية التي يكون بها التعبد أجل مطلوب ومقرباً إلى المحبوب، لكن من له اطلاع على أصحاب التصانيف الحسان، وما حصل لهم وعليهم من الاقارن علم يقيناً أن ما كان أولاً فهو بالأولى وقوعاً في آخر الزمان وما أحسن ما قيل في ذلك :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

ومن رزق التوفيق هدي إلى الصواب، ومن استفتح فقد نجح، فيرزق العلم بقول الله وبما جاء عن محمد رسول الله مشروح الصدر للإيمان على نور من ربه يعرف الحق ويقود إليه ويعرف الباطل ويدود نفسه وغيره عنه .

(ووجدنا أحواله أحوال من عرف من الشريعة شطراً ولم يعن فيها نظراً، ولا قرأ على من يهديه إلى النهج القويم، ويدله ويوقفه على العلوم النافعة التي هي الصراط المستقيم) .

الضمير في وجدنا أحواله يرجع إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحوال من عرف من الشريعة أي المشروعة التي شرعها الله على لسان رسول الله ﷺ شطراً شطر المكان جهته، وشطرن الشيء والمتاع ضعفه، وشاطر الوادي جانبه كشاطئه ومعناه أنا وجدنا أحوال هذا الرجل أحوال الذي عرف من الشريعة شطرها أي جهتها التي تؤدي إليها وبعضها التي فيها ولديها، ولذلك قال ولم يعن فيها نظراً يعني لم يصل إلى معناها الكلي بعد أن عرف الجهة التي هي اللفظ، وملخصه أنه قد عرف لفظ الكلام من الكتب ولم يفهم المعنى .

رد الشيخ على قول الخصم :

ونحن نقول من تأمل القرآن وآياته البينات، وسبب انزاله وموضوعه، وسنة النبي ﷺ وهديه، وما أرسل به، وسنة أصحابه، ومن تبعهم بإحسان، فهم يقيناً أن ما قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأمر به ودعا إليه هو عين ماتضمنه القرآن من توحيد الله الذي هو حقه على العبيد، وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وأئمة الدين بعدهم، وأنه بذلك قد علم الشريعة وحققها، وأمعن نظره في سنة النبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، وقررها وأظهرها، فإن آيات الله دالة على وحدانيته تعالى في ألوهيته وتفرد في معاملته مما هو حق على عبيده، فإنزاله سبب لمعرفة حق الله تعالى وتقديره واخلص الدين كله له وحده، وهذا موضوع القرآن مع كونه مصرحاً بأن الأولين مقرون ومعترفون لله بالخلق والرزق والامانة والاحياء والتدبير والضر والنفع وإنما قصدهم الجاه والقربة بواسطة ووسيلة من المخلوقين، أو صورهم توصلهم إلى غاية قصدهم ومطلوبهم ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ إلى أن قال: ﴿ سيقولون لله قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله ﴾ ثم قال بعد تقريرهم وقرارهم بأن ملكوت كل شيء بيد الملك الحي ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ وقال تعالى: ﴿ قل أرأيتم ان أناكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ وقال تعالى: « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ ووصف الإنسان بأنه إذا مسه الضر دعاه وإذا كشفه عنه أشرك معه سواه قال تعالى: ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منياً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ وهذه أقبح حالة إذا مسه الشر دعا لحاجته فإذا أنعم عليه مولاه جاءته الاستحالة، وهم قالوا مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ولشفاعتهم لنا عند الله. فمن عرف لفظ هذه الآيات القرآنية

ووفق لفهم معناها، وانهم مقرون له تعالى بالربوبية علم ان هذا المقام لانزاع فيه، وانما اتخذوهم وسائط ووسائل بينهم وبين ربهم كما تكون الوساطة بين الملك ورعيته، وهذه الوسائط التي يدعونها في حال الرخاء فقط ويرجون شفاعتها وقت الشدة يسمونها الآلهة لتأله قلوبهم بها ورجاؤهم منها القرب والتقريب، كما قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً على جهة أن ذلك لا يكون لأنهم ظنوا أن الإله الواحد وهو الله لايسع الخلق إلا بآلة معه يدخلون عليه بهم ويصلون إلى قضاء الحوائج بشفاعتهم لديه، ومنه قول بني اسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ قال أهل التفسير انهم لم يكونوا شاكين في الدين وانما أرادوا شيئاً يعظم عندهم وفي نفوسهم ويتقربون بتعظيمه وشفاعته إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر في الدين لشدة جهلهم.

ومن عرف وحقق معنى الشهادتين اللذين هما رأس الاسلام وقوامه، شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم شهد بهما لزمه العمل بمقتضاها قولاً وفعلاً واعتقاداً وترك المنافي والمناقض لهما قولاً وفعلاً واعتقاداً، فإن معنى الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو تتضمن اخلاص الألوهية له وحده في عبادته ومعاملته، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره لا بحب ولا خوف ولا رجاء ولا اجلال ولا اكرام ولا رغبة ولا رهبة بل لابد أن يكون الدين كله لله كما قال جل ذكره: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغيره كان في ذلك من الشرك بحسب ماكان لغيره، ثم ان كان أصغر مثل الرياء فله حكمه، وان كان أكبر مثل مايتأتى بيانه فله حكمه، وكال الدين كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) فالمؤمنون يحبون الله والمشركون يحبون مع الله وهي الأنداد التي ذكرها في قوله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ الآية.

والشهادة بأن محمداً عبده ورسوله تتضمن تصديقه ﷺ في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر به، فما أثبتته وجب اثباته، وما نفاه وجب نفيه، كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عن نفسه من مماثلة المخلوق، فيخلصون من التعطيل والتمثيل، ويكون في اثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل

وعليهم أن يفعلوا ما أمر الله به وينتهوا عما نهى عنه، ويحللوا ما حلله، ويحرموا ما حرمه، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله، ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما لكونهم حرموا ما لم يحرم الله وشرعوا ديناً لم يأذن به الله كما في قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ إلى آخر السورة وما ذكره في صدر سورة الأعراف وكذا قوله تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه﴾ فأخبر أنه داع إلى الله بإذنه، فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، والشرك بدعة والمبتدع يؤول إلى الشرك، ومن خاض كما خاض فيه الأولون فلم يعرف اللازم من الملزوم فقد جردهما من المعنى. وإذا كان سبب النزول أحوال مشركي العرب فالعام لا يقصر على السبب. وكذلك الأحاديث الصحيحة كحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يامعاذ أتدري ما حق الله على العباد» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدري ما حقهم عليه؟» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «أن لا يعذبهم وفي لفظ أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً» قلت: أفلا أبشر الناس قال: «لا تبشروهم فيتكلموا» أخرجاه في الصحيحين فإنه قاض في الأخبار بلفظه عن حق الله على العباد من توحيدِهِ سبحانه وإخلاص الألوهية له تعالى كما قال جل شأنه: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وقوله: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ فقد أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته ورضى لنا الإسلام ديناً، وأمرنا أن نتبع صراطه المستقيم ولا نتبع السبل فنفرق بنا عن سبيله، وجعل هذه الوصية خاتمة وصاياهِ العشر التي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات العشر التي أنزل الله على موسى في التوراة وإن كانت الكلمات التي نزلت على نبينا ﷺ أكمل وأبلغ وأتم، ولهذا قال الربيع بن خيثم وعبد الله بن مسعود: (من سره أن يقرأ كتاب محمد الذي لم يفيض خاتمه بعده فليقرأ آخر سورة الأنعام) ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ إلى قوله: ﴿وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾

(الآية) وأمرنا أن لانكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأخبر رسوله ﷺ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﷻ وذكر أنه جعله على شريعة من الأمر، أمره أن يتبعها ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون وقال تعالى: ﷻ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ﷻ إلى قوله: ﷻ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﷻ فأمره أن لا يتبع أهواءهم عوضاً عما جاءه من الحق، وإن كان ذلك المتبع شرعاً أو طريقاً لغيره من الأنبياء فإنه سبحانه قد جعل لكل منهم سنة وسبيلاً ولكنه ﷺ حذره ربه أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، وإذا كان هذا فيما جاءت به شريعة غيره، فكيف بما لم يعلم أنه جاءت به شريعة قط، بل لم ينزل الله به الكتب ويرسل الرسل إلا بتقييده والإندار عنه، ونحبت فاعله والحكم عليه بالذل والصغار والخلود في النار، حتى قرر ذلك وحرر في كتب الفقه التي تداولها الأيدي لعلماء كل مذهب فإنهم عقدوا فيه باباً للردة بعبارات مختلفة اللفظ متفقة المعنى .

تعريف المرتد :

منها قولهم المرتد لغة الراجع، يقال ارتد فهو مرتد إذا رجع قال تعالى: ﷻ ولا تتردوا على أديباركم فتقبلوا خاسرين ﷻ وشرعاً الذي يكفر بعد اسلامه نطقاً أو اعتقاداً أو شركاً أو فعلاً، وبعض هؤلاء الأئمة قال ولو مميزاً فتصح ردة كإسلامه، وهم الحنابلة ومن وافقهم طوعاً لأمكرها بأن فعل لداعي الإكراه لاعتقاده ما أريد منه لقوله تعالى: ﷻ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً ﷻ الآية إلى أن قالوا أو أشرك بالله، بأن جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم ويتوكل عليهم لقوله تعالى: ﷻ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﷻ وقوله تعالى: ﷻ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيراً ﷻ وهذا قد أجمع عليه أئمة المسلمين وعلماء الدين .

ونعني بهذا الإجماع ما قاله الإمام الغزالي : هو اتفاق أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور الدينية . ولا عذر في الجهل بعد الانذار بالكتاب والرسول وإن جادل وعاند وزعم أنه محق فهو بنزول العذاب والبلاء مستحق . وفي هذا يقول نبي الله هود : على محمد وعليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام مخاطباً لقومه وقد أكثروا عليه في تركهم الآلهة وشددوا في لومه ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ فهذه المجادلة بالباطل وقوع الرجس والغضب هو الحامل عليها بعد أن تقدم منهم السبب .

حكم التوسل بالأعمال الصالحة وبأسماء الله وصفاته :

فلم يبق إلا التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل أهل الإيمان في قولهم ﴿ ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا ﴾ الآيات وتوسل أصحاب الصخرة المنطبقة عليهم ، الحديث في البخاري لأنه تعالى وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، وكسؤاله بصفاته وأسمائه كالأدعية المعروفة في السنن « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد أنت الله الحنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام » وفي الحديث الآخر « اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وفي الحديث الآخر « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو أستأثرت به في علم الغيب عندك » فهذه الأدعية ونحوها مشروعة باتفاق العلماء ، وأما الإقسام على الله بمخلوق فهو منهي عنه باتفاق الأئمة . وهل هو نهي تحريم أو تنزيه على قولين أصحابهما أنه نهي تحريم . وأما سؤاله تعالى بمعاقد العز من عرشه فيأتي بحته إن شاء الله تعالى ، ومن أثبت مانفاه الله أو نفى ما أثبتته الله في كتابه أو على لسان رسوله فقد ضل الطريق وأخطأ المعنى وإن ادعى الحفظ والفهم . عن عبد الله بن مسعود قال : (سألت رسول الله ﷺ أي

الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» (فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾) رواه البخاري ومسلم عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير. فهذا الحديث الصحيح له معان ودرجات على الترتيب في عظم الذنب، وأكبره جعل الأنداد، ومادونه وإن كان ذنباً فليس مساوياً له إلا أن استحل فيوافقه في اسم الكفر، وجعل الند لله أكبر منه، ولكن ليس على العبد أشد من دحض الحق والعمل بخلافه ومعاداته وأهله والقده عليهم فيه، فمعاداة الحق وأهله سنة متقدمة وعادة مطردة ولذلك لما أنزل الله على نبيه ﷺ ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ صدع بأمر الله لاتأخذه فيه لومة لائم فدعا إلى الله الكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى والجن والانس، فلما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة وبإداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد أذاهم له ولمن استجاب له وادعوا جهلهم وجنونهم، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ وقال: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن﴾ وقال كذلك: ﴿ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ الآية فعزى الله سبحانه نبيه بذلك وإن له اسوة بمن تقدمه من الرسل وعزى سبحانه أيضاً أتباعه وهم العلماء العاملين بأمره الداعون إلى شريعته بقوله سبحانه: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ الآية وقوله: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا..﴾ إلى قوله: ﴿أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾.

ومن تأمل سياق هذه الآيات وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم علم أن الناس بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن يأبى فيستمر على السيئات من مخالفة دين الرسل، فمن قال آمنا ابتلاه ربه واختبره ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يتبع دين الرسل فلا يحسب أنه يفوت الله ويسبقه، فمن آمن بالرسول واتبع دينهم واهتدى بهديهم عاداه أعداؤهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وماتقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ومازال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله

التي يمشي بها ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وماترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » أخرجه البخاري في صحيحه في باب التواضع من كتاب الرقائق، ومن كان طالباً للرتبة العلية تنقل في المقامات العلوية وفارق كل فرقة غوية . ومن كان من حزب الشيطان يعود شيطاناً وإن كان في صورة الانسان .

(ولاقرأ على من) أي على الذي (يهديه إلى النهج القويم) يعني أنه لم يقرأ على شيخ يرشده إلى الطريق الذي لا عوجاج فيه، وقد تقدم في ترجمته عند ذكر اسمه عدة مشايخه الذين قد اجتمع بهم وأخذ عنهم اجازة ودراية .

تعريف الدليل لغة واصطلاحاً :

(ويدله ويوقفه على العلوم النافعة التي هي الصراط المستقيم) الدليل لغة : هو المرشد وهو الناصب والذاكر وما به الارشاد، واصطلاحاً : ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري وفاقاً وقيل إلى العلم به فتخرج الامارة، قال الأصوليون لابد للمستدرك من دليل ونظر وعلم، قال الامام أحمد الدال هو الله، والدليل هو القرآن والمبين هو الرسول ﷺ والمستدل أولو العلم، هذه قواعد الإسلام والنظر هو الفكر لمعرفة مطلوب من تصور أو تصديق، والعلم وهو حكم الذهن الجازم المطابق الموجب فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهو الدليل عليه وبه يهتدي في ظلمات الجهل والشبه والشكوك ولهذا سمي الله كتابه نوراً لأنه يهتدى به في ظلمات الجهل والوهم قال الله تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ومثل النبي ﷺ حملة العلم الذي جاء به، بالنجوم التي يهتدى بها في الظلمات، ففي المسند للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ان مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر »

فإذا انظمست النجوم أوشك أن تضل الهداة وما دام العلم باقياً في الأرض فالناس
 على هدى وبقاء العلم ببقاء حملته العاملين به، فإذا ذهبت حملته أو من يقوم به وقع
 الناس في الضلال، كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي
 ﷺ قال: «إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ولكن
 يقبضه بقبض العلماء فإذا لم يجدوا عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير
 علم فضلوا وأضلوا» وذكر النبي ﷺ يوماً رفع العلم فقليل له كيف يذهب العلم
 وقد قرأنا القرآن وأقرأنا نساءنا وأبناءنا فقال النبي ﷺ: «هذه التوراة والإنجيل عند
 اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم شيئاً» فسئل عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن
 هذا الحديث فقال: (لو شئت لأخبرتكم بأول علم يرفع عن الناس الخشوع) وإنما
 قال عبادة هذا لأن العلم قسمان: أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان وهو العلم بالله
 وأسمائه وصفاته وأفعاله المقتضية لحشيته ومهابته واجلاله والخضوع له ورجائه ومحبته
 ودعائه والتوكل عليه ونحو ذلك مما هو عبادة مختصة بجلاله فهذا هو العلم النافع كما
 قال ابن مسعود رضي الله عنه إن اقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في
 القلب فرسخ فيه نفع، وقال الحسن العلم علمان: علم اللسان فذلك حجة الله على
 بني آدم وهو كما في الحديث: «القرآن حجة لك أو عليك» وعلم القلب وهو
 العلم النافع الذائد لصاحبه عن جميع المهالك وهذا لا يمكن إلا بصلاح تلك المضغة
 التي قد نص عليها النبي ﷺ في قوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت
 صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» أخرجه البخاري
 ومسلم من رواية الشعبي عن النعمان بن بشير وقد أرشد الله نبيه ﷺ إلى الهدى
 والعلم وأمره أن يسألهما منه عند الاختلاف فيه رغبة إليه سبحانه واعراضاً عن
 المشركين الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دَعَى
 اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ فروى مسلم وأبو داود
 وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام يصلي من الليل
 يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض علم الغيب
 والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من

الحق بإذذك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » وذلك أن الله يقول : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ أي فاختلّفوا وقد قيل أنا كذلك في حرف عبد الله ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ واهداية تورث الإلهام من ذي الجلال والإكرام المنان، وهو نفث في الروح من المولى الكريم لذوي الاستسلام، ويعقبه السكينة معنى ينزله الكريم المنان والطمأنينة نتيجة السكينة إذا قوي اليقين يأمن بها العبد إذا زعر غيره من العبيد في مظاهر الانتقام والمجاهدة لاعداء كلمة الاسلام، فالشيخ محمد بن عبد الوهاب قد هدى فاهتدى، وهدى الله به من اهتدى بعد الاسترشاد إلى الرشاد والانحياد عن أهل الفساد، وهو لا يفتر عن الورد ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحانه لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد. السلام على النبي ورحمة الله وبركاته. هكذا لا يفتر أبداً لا وقت نوم أو درس لكن لغربة الإسلام أنكر عليه وللحسد والبغضاء عودي ونسب كل فعل قبيح إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل وما أحسن ما قيل في ذلك :

أقول الله ربي والإسلام	ديني والقرآن لي إمام
مقتدياً بأحمد وآله	مخالفاً طوائف الكفر فهل ألام
قد غاظ دين الله كل كافر	ليس له بجبله اعتصام
أصم أعمى ماله معرفة	إلا بما تغذي به الأجسام
قد جهل القرآن من شقائه	فقاته بجهله المرام
يالا ائمي إني أطعت أمر من	عصيانه سبحانه حرام

مستمسكاً بالعروة الوثقى التي
أدعو إلى القرآن من لم
عاديتني والله قد أكرمني
تريد أن تطفي نور خالقي
والحق كالشمس إذا ما أشرقت
وفضله سبحانه إذا أتى

ليس لها يالائمي انفصام
يتبع آياته وكلها أحكام
أفق فداعسي الله لا يضام
ونوره غايته الإتمام *

أنوارها انجلي عنها الظلام
عبداً فلا ترده الأنعام

وفي ذلك أيضاً:

إن الإله على نصري لمقتدر
إذا تجروا على ظلمي فأني
إن المشركين قوم لاعقول لهم
أمرتهم باتباع الذكر فامتثلوا
لايستجيبيون للداعي إذا سمعوا
ولايعون فما نصح بنافعهم
إني لأرجو الإله أن يصيهم
ياصم يابكم ياعمي الكتاب
فاتلوه واتبعوا آياته ودعوا
أتهجرون كتاب الله ويلكم
لقد مرقم من الإسلام فانتبهوا
ماصح إيمان من لم يتبعه ولو

فما أبالي بأعدائي ولو كثروا
بأقوى من هم انتصروا
يلقيهم الجهل في الكفر الذي حذروا
غيظاً فهل آمنوا أم كفروا
ولا يرون سبيل الرشd لو نظروا
كأنهم بيننا من جهلهم بقر
بنقمة منه لاتبقي ولاتذر
هدى للمتقين وعلم ليس ينحصر
مذاهب السفهاء إنها ضرر
هل فارس نفسالكم قوم له هجروا
فليس ترك كتاب الله يغتفر
صلوا وصاموا وحجوا البيت واعتمروا

وقد أرسل إليه العالم الفاضل المدقق شيخ جهابذة العلماء الاعلام في عصره،
رباني أهل وقته، شيخ صنعاء اليمن، وزبيدها عمدة دقيقتها وجليلها محمد بن اسماعيل
الأمير أرجوزة يثني فيها على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعلى عقيدته ويشكره على
أمره ونهيه وهي هذه:

قصائد في مدح الشيخ من علماء الأقطار :

وإن كان تسليمي على البعد لايجدي
رباها وحياتها بقهقهة الرد
ألاياصبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجداً على وجد
به يتهدي من ضل عن منهج الرشد
فياحبذا الهادي وياحبذا المهدي
بلا صدر في الحق منهم ولاورد
وماكل قول واجب الطرد والرد
فذلك قول جل ياذاعن الرد
تدور على حسب الأدلة في النقد
يعيد لنا الشرع الشريف بما يدي
ومتدع منه فوافق ماعندي
مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
يغوث ووداً ليس ذلك من ودي
كما يهتف المضطر بالواحد الفرد
أهلت لغير الله جهراً على عمد
ومستلم الأركان منهن باليد
وكنت أرى هذي الطريقة لي وحدي
ويخفوه من قد كان يهواه عن بعد
لتنقيصه عند التهامي والنجدي
ويرميه أهل النصب بالرفض والجحد
بتحكيم قول الله في الحل والعقد
وهل غيره بالله في الشرع من يهدي
به حبذا يوم انفرادي في لحدي

سلامي على نجد ومن حل في نجد
وقد صدرت من سفح صنعاسقى الحيا
سرت من أسير ينشد الريح إن سرت
يذكرني مسراك نجداً وأهله
قفي واسألني عن عالم حل سوحها
* محمد الهادي لِسُنَّة أحمد
لقد أنكرت كل الطوائف قوله
وماكل قول بالقبول مقابل
سوى ماأتى عن ربنا ورسوله
وأما أقاويل الرجال فإنها
* وقد جاءت الأخبار عنه بأنه
وينشر جهراً ماطوى كل جاهل
ويَعْمُر أركانَ الشريعة هادماً
أعادوا بها معنى سواعاً ومثله
وقد هَتَفُوا عند الشدائد باسمها
وكم عقروا في سوحها من عقيرة
وكم طائفاً حول القبور مقبلاً
لقد سرتني ماجاءني من طريقه
يصب عليه سوط ذم وغيبة
ويعزي إليه كل مالا يقوله
فَيَرْمِيهِ أهل الرفض بالنصب فرية
وليس له ذنب سوى أنه أتى
* ويتبع أقوال النبي محمد
لئن عدّه الجهال ذنباً فحبذا

سلامي على أهل الحديث فإنني
هم بذلوا في حفظ سنة أحمد
وأعني بهم أسلاف سنة أحمد
أولئك أمثال البخاري ومسلم
بحور أحاشيهم عن الجزر إنما
رَوَوْا وارتووا من بحر علم محمد
كفاهم كتاب الله والسنة التي
أنتم أهدي من صحابة أحمد
أولئك أهدي في الطريقة منكم
وشتان ما بين المقلد في الهدى
فمقتدياً كن في الهدى لامقلداً
وأكفر من في الأرض من قال أنه

من الكلب والخنزير والفهد والقرد
سواء عذاب النار أو جنة الخلد
ولا تهمهم في اللوم ليس على رشد
تنادي خذوا في النظم مكنون ماعندي
بي الدهر حتى صار ابليس من جندي
دقائق كثر ليس يدركها بعدي
يذوقون طعم الحق فالحق كالشهد
عزيز فلا بالشم يدرك والحد
بأنهم عن مطلب الحق في بعد
ويرجع أحياناً ويهدي ويستهدي
أباه كان الحق في الأب والجد
على ملة الآباء قرداً على قرد
غريب وأصحابي كثير بلا عد
فكم أكلوا لحمي وكم مزقوا جلدي

مسماه كل الكائنات جميعها
وإن عذاب النار عذب لأهلها
وعباد عجل السامري على هدى
تناشدنا عنه نصوص فصوصه
وكننت امرأ من جند ابليس فارتمى
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده
يلذون عند العجز بالذوق ليتهم
نقول لهم ما الذوق قالوا مثاله
ففسرهم بالكشف والذوق مشعر
ومن يطلب الانصاف يدلي بحجة
وهيات كل في الديانات تابع
كذلك أصحاب الكتاب تابعا
وهذا اغتراب الدين فاصبر فأنني
إذا مارأوني عظموني وإن اغب

* هنيئاً مريئاً في اغتياي فوائد
يصلي ولي أجر الصلاة وصومه
وكم حاسد قد أنضج الغيظ قلبه
فدونكها تحوي علوماً جليلة
فلا مدحت وصلا لليلي وزينب
إليك طوت عرض الفيافي وطولها
أناخت بنجد فاستراحت ركبها
فاحسن قراها بالقراءة ناظماً
وقد طولت جبراً لضعف نظامها
وصل على المختار والآل انهم
فكل فتى يفتابني فهو لي يهدي
ولي كل شيء من محاسنه يدي
ولكنه غيظ الأسير على القد
منزهة عن وصف خد وعن قد
ولا هي ذمت هجر سعدى ولاهند
فكم جاوزت غوراً ونجداً إلى نجد
وراح خليا عن رحيل وعن شد
عليها جواباً فهي من جملة الوفد
كما ستر الوجه المشوه بالبرد
لحسن ختام النظم واسطة العقد

وقد صفحنا عن جوابها إيجازاً واختصاراً إدراكاً للمأمول وتحصيلاً للمسئول،
فالشيخ محمد بن عبد الوهاب لما قام يدعو الناس إلى إقامة سنة النبي ﷺ ودينه
وهديه ليقتفوا به وبأصحابه من بعده فيقوموا الشريعة التي عليها من سلف من الأمة،
عاداه الناس وآذوه، ونسبوا كل عقيدة باطلة وفعل قبيح إليه، وانقسموا فيه بين مكفر
ومخرج، وأجلبوا بجيوشهم ومدافعهم عليه، وماذنبه إلا أنه يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة
والموعظة الحسنة، فهو الداعي إليه، وهو القائم عليه، ممثلاً قول الله تبارك وتعالى
ومقتدياً برسوله ﷺ وبمن مضى من الصحابة والتابعين في إقامة الدين ﴿ ادع إلى
سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن
ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وقال تعالى: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى
الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ ومن أعرض ونأى بجانبه عن ملة نبيه
محمد ﷺ نبي الرحمة الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فقد أخطأ
وضل وأضل فألى أين العدول عن ملته أين تطلب النجاة في غير طريقته، أي دعى
مسلم اتباع من لا يشك أنه على الصراط المستقيم وأنه رسول رب العالمين أرسله
بألهدى ودين الحق فيتركه ويتبع الشيطان الرجيم الذي قد أخبر الله عنه ﴿ إنما يدعو
حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

رد قول الخصم أن الشيخ أخذ علمه من كتب ابن تيمية :

وأما قولكم : (بل طالع بعضاً من مؤلفات أبي العباس بن تيمية ومؤلفات تلميذه ابن القيم وقلدها من غير اتقان مع أنها يحرمان التقليد وأخذ العلم من غير تسديد) .

معناه أن هذا الرجل لم يقرأ على أحد من العلماء يدلّه على أمره ويساعد على قصده بل اكتفى عن ذلك بمطالعة بعض الكتب التي ألفها شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية وتلميذه أبو عبد الله ابن القيم فقلدهما فيما قالاه في كتبهما وهما لا يجوزان التقليد فأخذ العلم من المؤلفات بلا تسديد، فنقول لا يلزم من مطالعة كتب الثقات وامعان النظر فيها وفي دلائل ماتضمنته وفهم معاني ماحكتة عدم أخذ العلم عن أهله وممارسته وتكرار درسه ولا تنافيه، بل أخذ العلم بحثاً وتقريراً عن العلماء الثقات عند الخاص والعام والجهابذة الاعلام هو الحامل عليها، وهو الدال إليها، وفراسته وفهمه فيها هما الحاملان عليها، وفهمه في كل فن هو الحامل على تخصيص أمره في نصحه وإيجاد قصده القائم في ذهنه، وهو المقتضي لأمره ونهيه . ودليل ذلك اعتناؤه بكتب الثقات من أولي العلم، والرجوع إلى الآيات البينات والأحاديث الصحيحة عند اختلاف الفهم، أخذاً من كلام الأئمة النقاد وماصححوه مما اتفقوا عليه أو اختلفوا فيه، لمدعي الاجتهاد، وليس هو يدعو الناس إلى الاتفاق في مسائل الفروع التي قد وقع الاختلاف فيها، وإنما يدعوهم إلى العمل بما هو مطلوب منهم اتفاقاً مما لا تقليد فيه، وترك ما نهوا عنه كذلك والرجوع إلى الكتاب والرسول والاجماع ليس بتقليد لقيام الحجة في ذلك، إذ وجود الباري تعالى وتقدّس وتوحيده وإخلاص العبادة له والايان برسالة محمد ﷺ وبما جاء به لانتقليد فيه فتجب معرفة وجود ذات الله بصفات الكمال شرعاً بالنظر في الوجود والموجود على كل مكلف قادر وهي أول واجب له تعالى وتقدس، وكذلك وحدانيته وألوهيته فيستدل عليهما بمخلوقاته ومصنوعاته . قال تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فمعرفة ذلك ليست ضرورية بل نظرية، بخلاف علمه سبحانه وتعالى بجميع مخلوقاته فليس هو بضروري ولا نظري ولا كسبي ولا استدلال بل هو قديم باق ذاتي محيط بكل معلوم كلي أو جزئي على ما هو عليه فلا يتجدد بتجدد المعلومات ولا يتعدد بتعددّها .

تعريف التقليد :

قال الأصوليون : التقليد لغة :وضع الشيء في العنق محيطاً به . واصطلاحاً :أخذ قول الغير من غير حجة .والرجوع إلى الرسول وإلى الاجماع ليس بتقليد لقيام الحجة . ثم قالوا : وهل يصح إيمان المقلد ، على قولين للعلماء ، فعن الأشعري لا يصح ومن قال يصح يوجب عليه الاستدلال بالنظر والرجوع إلى الدلائل الظاهرة والآيات الباهرة ، ثم ان من قام في ذهنه دلائل قصده ومطلوبه فأراد اقامتها على ما ادعاه من كتاب الله وسنة رسوله وكلام الأئمة الاعلام فباحث وناقش ودل واستدل فتوافق هو وغيره في الدليل والاستدلال والعقيدة فيما هو مطلوب لاحمال لا يلزم من ذلك التقليد لذلك الغير بل ولا يؤديه معناه لوجهين :

أحدهما : أن كثيراً ما يوافق مجتهد مجتهداً ، وليس هو مقلداً له فيما قاله وإنما هو موافق له فيه ، فالواقع إنما هو اتفاقهما في الحكم والدليل ، لا تقليد أحدهما الآخر فيه . وهذا مشاهد في كلام الأئمة وتوافقهم في المسائل الاجتهادية ، وقد وافق الإمام الشافعي الإمام زيد بن ثابت رضي الله عنهما مع أن الشافعي ليس مقلداً لزيد .

الثاني : أن تعريف التقليد هو أخذ قول الغير والعمل به من غير حجة للمقلد ، وإنما هو اعتماد على قول مقلده وقصر على منطقته ومفهومه بلا نظر في دليله من ضعفه أو ترجيحه قاله الأصوليون . وقالوا يلزمه أن يقلد في مسائل الفروع الأرجح الفاضل عنده فيجتهد في ذلك على الأصح . وأما توحيد الباري تعالى وتقدس في معاملته وإخلاص عبادته فلا تقليد فيه البتة ، وإنما يقتدي باللاحق بالسابق فيه ، والاقتداء ليس بتقليد ، فكما أن شيخ الاسلام تقي الدين قد استدل في وقته بالكتاب والسنة وبكلام صالح سلف الأمة على التوحيد الذي هو وظيفة العبيد ، وعلى الشرك ومعناه الذي هو ضد التوحيد ، وحرمة الله وأوهنه وعلق على وجوده عدم المغفرة فعودي وأوذني ، كذلك هذا الرجل لما قام يأمر أهل وقته بإخلاص التوحيد لله وحده فلا يجعل حقه تعالى لغيره ، أو معه ومع غيره ، وميّز لهم التوحيد من ضده ، وأقام عليه الدلائل والبراهين من الكتاب والسنة ، وكلام صالح سلف الأمة ، من غير تقليد لأحد فيه ، إن كان ولا بد

فهو نقل كلام لإمام مجتهد حجة على من قلده ليعلم ذلك المقلد أنه قد خالف مقلده فيما قاله واعتقده، نسبوه إلى تقليد الشيخ تقي الدين في التوحيد، ولعل كلامه وافق كلام شيخ الإسلام تقي الدين في شيء من ذلك حتى في استدلالاته فليس هو تقليداً له ولا أخذاً منه . والشيخ تقي الدين وتلميذه رحمهما الله تعالى بل وغيرهما إنما يحرمون التقليد في توحيد الله ورسالة النبي ﷺ وما علم كونه من الدين ضرورة كأركان الإسلام، ويدعيان الإجماع على ذلك وعبارتهما: (التقليد السائق في المسائل المستفتى فيها وهي الاجتهادية) وأما العقلية كوجود الباري تعالى وتوحيده والرسالة فلا تقليد فيها، وكذا ما علم كونه من الدين ضرورة كأركان الإسلام اجماعاً . وقال الشيخ تقي الدين في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم: (أما مسائل الفروع التي يسوغ الاجتهاد فيها والتقليد، لا ريب ان المجتهد فيها على أجر فان أصاب فله أجران وان أخطأ فله أجر . وكذا المقلد له أجر على حسن قصده وعمله، وإنما انكارهما شديد على من أوجب اتباع طريقة شيخ من مشايخ الدين والصلاح كالشيخ عبد القادر، والشيخ حيوة وأمثالهما . وكذلك من أوجب اتباع إمام معين من أئمة العلم والدين وألزم الناس الاختصار عليه في كل ماقاله أو أمر به ونهى عنه، وعلى من عادى وولى في هذه المذاهب أو عليها كالأئمة الأربعة لما فيه من الترجيح، قال ولكن طاعة الرسول إنما تمكن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به، فإذا ضعف العمل والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر، وان كان وقت دعوة ونبوة في غيره) وقال أيضاً في رسالته السنية: (وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله مثل أن يقال للرجل أنت شكيلي أو قرقندي أو نقشبندي، فان هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأمة لاشكلى ولا قرقندي ولا نقشبندي، والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول لا أنا شكيلي ولا قرقندي ولا نقشبندي بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله . وقد روينا أن معاوية بن أبي سفيان سأل عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال أنت على ملة علي أو على ملة عثمان فقال لست على ملة علي ولا ملة عثمان بل أنا على ملة رسول الله ﷺ . وكذلك كان كثير من السلف يقولون كل هذه الأهواء في النار، ويقول أحدهم مأبالي أي النعمتين أعظم على ان هداي الله

للإسلام وإن جنبني هذه الأهواء، والله تعالى قد سمانا في القرآن المسلمين المؤمنين عباد الله، ولا يعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، بل الأسماء التي يسوغ لتسمى بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي أو انتسابهم إلى شيخ كالقadari والعدي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي واليماني أو إلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري، لا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها. ولا يولي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان وأولياء الله الذين هم أولياؤه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وقد أخبر سبحانه أن أوليائه هم المؤمنون المتقون وقد بين المتقين في قوله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذري القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ والتقوى هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه (انتهى .

وأما التقليد في أصل الدين من التوحيد فقد أغنى الشارع ﷺ بالتفصيل وبين الحق وسواء السبيل. ونص على ما يعصم من المهالك نصاً قاطعاً للذر. قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ وقال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وقال تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وقال تعالى: ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقال: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ وقال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم﴾ الآية والتي بعدها وقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ وقال أبو ذر رضي الله عنه: (لقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا فيه علماً) وفي صحيح مسلم أن بعض المشركين قالوا لسلمان لقد علمكم رسولكم كل شيء حتى الخراء قال أجل. وقال

ﷺ: « لقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك »
وقال: « ماتركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به ولا من شيء يقربكم
من النار إلا وقد حدثتكم به » وقال: « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن
يدل أمته على خير ما يعلمه خيراً لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه شراً لهم » .

وهذا يعلم تفاصيله بالبحث والنظر والتتبع والاستقراء والطلب لعلم هذه
المسائل في الكتاب والسنة وكلام صالح سلف الأمة، فمن طلب ذلك وجد في الكتاب
والسنة من النصوص القاطعة للعدر في ذلك ما فيه غاية الهدى والبيان والشفاء وذلك
يكون بشيئين :

أحدهما : معرفة معاني الكتاب والسنة .

والثاني : معرفة معاني الألفاظ التي ينطق بها المختلفون، حتى يحسن أن يطبق التمييز
بين معاني التنزيل ومعاني أهل الخوض في أصول الدين، فحيث يبين له أن الكتاب
حاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله
النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا
فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله
الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾
وقال تعالى: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ وقال تعالى: ﴿ فإن تنازعتم
في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ وقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا
بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن
يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل
الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ فكل العبارات من الألفاظ
الجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل . كان السلف والأئمة ينهون عن اطلاق
موارد النزاع بالنفي والاثبات لأن في اثباتها إثبات حق وباطل وفي نفيها نفي حق
وباطل، فيمتنع من كلا الاطلاقين تقليداً وغيره وليس ذلك لحل النقيضين عن الحق
ولا قصوراً أو تقصيراً في بيانه، وإنما هو لقطع المادة بخلاف النصوص الإلهية . فإن فيها

فرقين، فرق الله بهما بين الحق والباطل ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله وكلام رسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه فيثبتون ما ثبت الله ورسوله، وينفون ما نفاه الله ورسوله، ويجعلون العبارات الجملة المحدثثة المتشابهة ممنوعاً من إطلاقها نفيّاً وإثباتاً لا يطلعون اللفظ ولا ينفونه إلا بعد الاستفسار والتفصيل، فإذا بين المعنى أثبت حقه ونفى باطله، بخلاف كلام الله ورسوله فإنه حق يجب قبوله وإن لم يفهم معناه. وكلام غير المعصوم لا يجب قبوله حتى يفهم معناه.

وأما المختلفون في الكتاب والمخالفون له فتجعل كل طائفة ما أصلته من أصول دينها الذي ابتدعته إماماً لها تتبعه، أو المحلات المتشابهات من الكتاب والسنة التي لا يجوز اتباعها بل يجب ردها إلى المحكم. ويتعين حملها عليه، فهم يتبعونها ابتغاء الفتنة ويحملونها على ما يوافق أصلهم الذي ابتدعوه وهذان الصنفان يشبهان ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله من البدع الباطلة وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن فلم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه باللسان، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله ليتناول به رئاسة أو جاهاً أو ديناً وقال هذا هو الشرع والدين، كما لو قال هذا من عند الله وهذا هو معنى الكتاب والسنة، وهذا قول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتم ما عنده من معنى الكتاب والسنة لئلا يحتج به مخالفة في الحق الذي يقوله وهذه الأمور كثيرة جداً في كلام أهل الأهواء جملة كالرافضة والجهمية وأهل الاعتقادات الفاسدة والبدع المضلة نسأل الله العفو والعافية.

وأما قولكم (فاحتاج إلى تمييز الخطأ عن الصواب والقشر عن اللباب وبيان ما عليه الفرقة الناجية وهم أهل السنة والجماعة كي يظهر الحق لقليل البضاعة). هذا

مفرع على قوله وأخذ العلم من غير تسديد معناه ان هذا الرجل لما لم يأخذ العلم عن تسديد اعتاز إلى تمييز الخطأ الذي هو ضد الصواب، عن الصواب الذي هو مطابق للحق، أي اعتاز إلى من يميز له ذلك ويفرق له بينهما ويميز له أيضاً بين ما التبس عليه من القشر الذي هو الظرف الساتر عن اللباب الذي قد ستره القشر فهو مظروف فيه استعار لفظ القشر واللباب للتشبيه والتكنية من عدم تمييز معاني المسائل التي يفصل بعضها عن بعض في اللفظ والمعنى لأخذه العلم من غير تسديد، وإلى من يميز له بيان ما عليه من الفرقة الناجية وهم أهل السنة والجماعة، من ضدهم وهم من ترك السنة وفارق الجماعة. والعلة في اعتيازه التمييز بين هذه الأشياء المذكورة ظهور الحق بلا التباس بضده لقليل البضاعة من المعرفة بمعاني مسائل العلم قبل ظهور الحق له بالتمييز المذكور.

فنقول يكفي في تمييزه ومعرفته وإدراكه في قصده ومرامه ما قد شاع عنه وذاع وتقطعت به الأسماع من أنه يدعو الناس إلى سبيل النجاة والفوز الأبدي وهو الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى عباده أن يسألوه إياه في كل صلاة والدليل على ذلك أنه لأحد كائناً من كان يفعل خصلة يحبها الله ويكرهاها أهل الفساد والعناد إلا ونسب ذلك الفعل والفاعل إليه فقليل له وعنه وهائي أو عارضي أو شرقي، وهذا كقول كفار قريش لمن تبع ما جاء من عند الله أنه صائى وإن كان ذلك الفاعل في نفس الأمر عدواً ظاهراً وباطناً نسبوه إليه بفعله فلو لم يكن فيه من السمة والعلامة على فضله ومعرفته وتمييزه وهديه إلا ذلك لكفى.

شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء

فبذلك يستدل على فضله المستدلون، ويهتدي بما دعا إليه المهتدون، ويرجع إلى اتباع الحق المبعدون، ويكف عن خوضهم في طغيانهم الخائضون، فإن من رزق التوفيق تأمل بعين انصافه ما قاله هذا الرجل ودعا الناس إليه من الإخلاص لملك الناس، فميز بينه وبين ما اعتقده أصحاب العقائد الفاسدة والبضايح من الدين الكاسدة الآمرين بالباطل، والقائمين عليه، والناهين عن سبيل الحق وما يوصل إليه، وهم المجوزون لمن شاء

أن يتخذ معتقداً من الخلق ويدعوه ويرجوه عند الشدائد ويتوكل عليه عند أي شدة كانت يعتقد فيه لذلك نائياً كان معتقده أو قريباً. ومن يزعم أنه ذو تنسك وعلم، قال ان معناه وسيلة وهي جائزة مطلوبة وهذا منها. فهم أمروا بذلك وجوزوا الشرك. ومن نهى عنه وتبرأ منه وعاداه وأهله خرجوه وبدعوه وقتلوه زيادة على جنس المنكر الشامل لأنواعه في بلد الله الحرام الذي قال الله فيه: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ وغيره مما اكتسبوه وأقروه ففرق حينئذ بين الباطل والحق، فلم يرض من نفسه إلا اتباع الحق قولاً وعملاً واعتقاداً. ودحض ضده كذلك، لاسيما ان انضاف إلى ذلك تأمل أحوال هؤلاء المشركين وماهم عليه من عدم الرضا إلا باعتقادهم في معتقاداتهم. وتأمل معنى قوله تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ فإن هؤلاء المعتقدين إذا قيل لهم توبوا وارجعوا إلى الله وادعوه واستعينوا به وحده واستغفروه نظروا إلى القائل بعين العداوة نظر المغشي عليه من الموت اشمأزاً لقوله وكراهة، وزعموا أنه قد سب الأولياء وأنكر كراماتهم، فإن لم يذكر لهم شيئاً من ذلك ولم ينكر عليهم بل أثنى عليهم وعلى عقيدتهم وان ما اعتقدوه في معتقدهم حق ولعله عدو لله ظاهر الفسق استبشروا وسروا واتخذوه صديقاً لهم.

والإيمان باليوم الآخر لا يعصم إلا بوجود التوحيد الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب لتكليفه على العبيد، وقد صحح الله به عقائد كثيرة حتى من أعدائه والله الحمد، فهم مع شدة العداوة له لعهدهم الأول إما تقليداً وجهلاً أو تكبراً أو تجبراً عن الحق الذي قال ودعا إليه قد اكتسبوا منه وأخذوا عنه ولكن يسبونهم ودينه ومأمراً به عناداً وبغياً وحسداً كما حل بالاسلاف الذين مضوا قبله، وذلك كله دليل على فضله وعلمه، وأنه قد ميز بين الخطأ والصواب، ومازاد، وفرق القشر عن اللباب لتفرقه بين مأمراً الله به العباد وأرسل به الرسل وأنزل به الكتب ومعناه وكيفيته، وبين ما نهاهم عنه وعلق على وجوده عدم المغفرة مع أنه كتب على نفسه الرحمة وبين ما غفر أنه تحت مشيئته تعالى ومعنى كل منها. ثم انه دعا الناس إلى الحق وأسر وقال مفرقاً بين ما عليه الفرقة الناجية ووضحهم بسيماهم وميزهم عن ضدهم فبينهم بعلا ماتهم. وإنما الذي

لم يميز بين معنى قوله وما في تسطيحه فهو الناقض لحكم الله ورسوله قولاً واعتقاداً مستندلاً على ذلك بما يخالفه منطوقه ومفهومه، لكن ضاقت عليه مدارج الإدراك والشعور فعدل إلى مجرد الإدعاء بلا نور، كما قيل الأقرع يفتخر بحمد ابن عمه وابن الحمقاء يذكر حاله إذا عيب بامه .

وأما قولكم (وتفرعكم في مقدمتكم التي قال فيها قائلكم فأقول وبالله التوفيق ويده أزمة التحقيق أجمعت الفرقة الناجية المستثناة الذين قال النبي ﷺ فيهم : « هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي » وهم الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة على حدوث العالم ووجود الباري وأنه لاخالق سواه) .

فنقول معنى التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة ضد الخذلان لأنه حصول الشر والمعصية وأزمة الشيء ما يقوم بها وينتهي إليها والتحقيق هو المعنى المطابق للحق وهو اسم مصدر حقق والواو في قوله بالله والحال وهذا اقرار القائل بلسانه فإن صح اعتقاده حصلت الموافقة لقوله فيما أقر به وإلا فهو مجرد لفظ .

تعريف الإجماع :

والاجماع لغة يطلق على معنيين :

أحدهما : العزم كقوله ﴿ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ أي إعزموا ومنه لاصيام لمن لا يجمع الصيام من الليل .

وثانيهما : الاتفاق وحقيقة أجمع صار ذا جمع كالبن وأثر .

وفي الاصطلاح : اتفاق خاص وهو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ في عصر على أمر، فلا يعتبر موافقة المقلد ومخالفته والمراد بقولنا في عصر في زمان ماقبل أو أكثر وقولنا على أمر يتناول الديني والدنيوي، ثم أنه قد اختلف في أنه هل يشترط في الإجماع وانعقاده حجة انقراض عصر المجمعين، فمن اشترط ذلك لا يكفي عنده الاتفاق في

عصر بل يجب استمرار ما بقي من المجمعين واحد، فيزيد في الحد إلى انقراض العصر ليخرج اتفاقهم إذا رجع بعضهم فإنه ليس بالإجماع المقصود وهو ما يكون حجة شرعاً، وأيضاً قد اختلف الأصوليون في أنه هل يجوز حصول الإجماع بعد خلاف مستقر من حي أو ميت أم لا؟ فإن جاز فهل ينعقد أم لا؟ قال يجوز أو قال يجوز وينعقد فلا يحتاج إلى اخراجه عن الحد، ومن يرى أنه لا يجوز ولا ينعقد فلا بد أن يخرج عن الحد بأن يزيد فيه ولم يستقر خلاف مجتهد. وقال الغزالي هو اتفاق أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور الدينية مستدلاً بقوله عليه السلام: « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ويقول: « لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة » ويقول: « يد الله على الجماعة من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية » واستدل الإمام الشافعي على حجية الإجماع بقوله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ بضمه إلى مشاقة الرسول التي هي كفر فيحرم إذ لا يضم مباح إلى حرام في الوعيد، وإذا حرم اتباع غير سبيلهم فيجب اتباع سبيلهم إذ لا يخرج عن طاعة الرسول واتباع سبيل المؤمنين، وهذا أصل كلي خال من معارض ظني إذ متابعة الرسول شاملة لنصرتة في حياته أو شريعته بعده، ولما به صاروا مؤمنين وهو التوحيد والإيمان به لا مخصوصة بما لا يخرج عن شريعته.

رجوع اسماعيل بن اسحق الأشعري عن معتقده:

وقولكم (الفرقة الناجية المستثناة الذين قال النبي ﷺ فيهم هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي وهم الأشاعرة) وهذا غلط ظاهر لوجوه:

منها: أن هؤلاء المنتسبين إلى عقيدة الأشعري لم يرجعوا عنها كما رجع عنها وتاب وأقلع منها فإنه اسم علي بن اسماعيل بن اسحق الأشعري من ذرية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكنيته أبو الحسن ولد بالبصرة سنة سبعين وقيل ستين ومائتين وتوفي ببغداد ودفن بها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة كما قال ابن الصلاح، وكان من تلامذة المعتزلة كأبي علي الجبائي، ومال إلى طريقة ابن كلاب وأخذ عن زكريا الساجي أصول

الحديث بالبصرة، ثم انه رجع إلى بغداد فتاب من عقيدته وانتسب إلى الإمام أحمد وغيره من السلف وانتصر لطريقة أحمد كما ذكر ذلك الأشعري في كتبه التي صنفها ومنها كتابه الابانة الذي سماه في أصول الديانة، وكتابه الذي صنفه في اختلاف المضلين ومقالات الاسلاميين، وكما قاله أبو اسحق الشيرازي إنما حل الأشعري في قلوب الناس لانتسابه إلى الحنابلة، وكان أئمة الحنابلة المتقدمين كأبي بكر عبد العزيز وأبي الحسين التميمي ونحوهما يذكرون كلام الأشعري ورجوعه وتوبته في كتبهم وتفقه على أبي اسحق المروزي الحنبلي وأخذ عن حنبلة بغداد أموراً من العقائد وسائر العلوم الشرعية، وكان ذلك آخر أمره كما ذكره هو أصحابه في كتبهم. ومن أجل أصحابه القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم فهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري ليس فيهم مثله لاقبله ولابعده وقد تاب عن عقيدته ومايقول أهل الكلام ورجع إلى سلف الأمة وخيارها، ذكره ابن الصلاح والشيخ تقي الدين وغيرهما فالمنتسبون إليه لم يرجعوا كما رجع، بل خاضوا في علم الكلام حتى زعموا أن النصوص عارضها من معقولاتهم مايجب تقديمه وهم حيارى في أصول مسائل التوحيد. ولهذا كثير منهم لما لم يتبين له الهدى نكص على عقبيه فاشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه أو رياسته وماله ونحو ذلك لعدم العلم واليقين بما كان عليه السلف الصالح، وفي الحديث المأثور: «إن أخوف ماأخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومعضلات الغث في قلوبكم» وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية يجتمع فيهم هذا وهذا. فهم بخلاف الفرقة المستثناة.

(ومنها) أن غالب مايعتمدونه يؤول إلى دعوى لاحقيقة لها، أو شبهة مركبة من قياس فاسد، أو قضية كلية لاتصح إلا جزئية أو دعوى اجماع لاحقيقة له والتمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة (وإذا كان فحول النظر) وشياطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلا إلى حيرة وارتباب، وأما إلى الاختلاف بين الأحزاب، فكيف غيرهم المقلدون لهم ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ماسلكوه، أم كيف يكون هؤلاء المقلدون للمتكلمين الذين قد كثر في باب الدين اضطرابهم وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية أقدامهم بما انتهى

إليه من مرامهم حيث يقول :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم كقول
بعض رؤسائهم وهو الفخر الرازي :

نهاية اقدام العقول عقلال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسمونا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

من الذين أننى الله عليهم في كتابه ومن استثناهم النبي ﷺ في جملة اتباعه
وأحبابه لأن هؤلاء داخلون في عموم قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري
من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ فهم ورثة الأنبياء وخلفاء
الرشد وأعلام الهدى الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا وبه نطق الكتاب وبه نطقوا، قد
وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر اتباع الأنبياء، وأحاطوا من حقائق
المعارف وبواطن الحقائق ما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة،
بعكس من نبذ الكتاب وراه واستدل بقول الأخطل. فإن من تأمل عقيدة المتكلم
والمقلد له تأملاً يميز به بين الضدين ويفرق فيه بين الجسنيين. علم يقيناً أن من أعرض
عن الكتاب لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو مركب. فالأول ﴿ كسراب ببيعة
يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله
سريع الحساب ﴾ والثاني ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج
من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل
الله له نوراً فما له من نور ﴾ فأهل البسيط أهل الحيرة. وأهل المركب أرباب
الاعتقادات الباطلة التي يزعمونها عقليات .

(ومنها) أن الإمام الشافعي رضي الله عنه تكلم على أهل الكلام ومن قلدهم فقال رحمه الله : (حكمي فيهم أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام والعقل فإنهم أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً أعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ومن كان عليماً بذلك ظهر له من الفرقة المستثناة وكيف كان حذقهم وفضلهم وعلمهم وإن من لم يقتصر على ما جاء عن الله ورسوله لم يزد من الله إلا بعداً فنسأل الله العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم) .

تعريف السلف

(وإذا عرف ذلك فنقول معرفين السلف) وهم النبي ﷺ وأصحابه وأفضل الأصحاب الخلفاء الراشدون الذين قال النبي ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » (ومنهم أيضاً الأئمة المجتهدون) الذين يقولون الحق وبه كانوا يعدلون . ثم من تبعهم بإحسان وقفى أثرهم عاملاً بطريقتهم إلى آخر الزمان ، لم يغير ولم يبدل ما كانوا يقولون ويعتقدون . وهؤلاء هم الذين نص عليهم النبي ﷺ في قوله : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » وكثير من المبتدعة الضالين يفضلون طريقة غيرهم ظانين أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ وإن طريقة غيرهم هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات . فهذا الظن الفاسد أوجب قول طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، فإنه لا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين . فلم يعرف قدر السلف من هذا وصفه ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين حقيقة المعرفة الأمور بها ، لأن هؤلاء المحجوبين المنقوصين المسبوقين الحيارى لم يكونوا أعلم بالله

وأسمائه وصفاته وأحكام في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء الذين وهبهم الله علم الكتاب وحكمته، وأحاطوا من حقائق معارفه وبواطن حقائقه ما عجز أولئك عن فهم معانيه وإدراكه. ثم كيف يكون خير قرون الأمة انقصر في العلم والحكمة لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم. أم كيف يكون المتفلسفة واتباعهم واليونانيون وورثة المجوس والمشركين وضلال الصابئين واشباههم واشكاهم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان، وقد استولى الضلال والتفكك على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وأعراضهم عما بعث الله به محمداً من البينات والهدى وتركهم البحث عن طريق السابقين، والتماسهم علم معرفة الله تعالى بصفات الكمال ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه وبشهادة الأمة عليه، وبدلالات كثيرة منها انهم يزهون وهم يكذبون. وهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الاسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة غيرهم، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي اشركوا فيها اخوانهم من المتفلسفين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهي التي يسمونها طريقة السلف، وبين صرف اللفظ لمعان بنوع تكلف وهي التي يسمونها طريقة غيرهم. فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل وانكار السمع، فان النفي انما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه فلما انبنى أمرهم على هاتين القاعدتين كانت السجية استهمال السابقين الأولين واستبلاهم واعتقاد أنهم كانوا قوماً أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي. وإن غيرهم هم الفضلاء فقد حازوا قبض السبق في هذا كله.

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة بل في غاية الضلال. فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة ان من اتبع غير سبيل

المؤمنين ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً، فليس أهل السنة والجماعة إلا السلف الصالح وذوو العقل الراجح والواقفون عند النص من كتاب الله وسنة رسوله، مستغنين بهما عن كل هاجس وقول يخالف للكتاب والسنة مما هو عارض تائـح، فهم بحبل الله معتمـصون وبكلام رسوله آخذون وعليه واقفون وبالعروة الوثقى مستمسكون. والدليل على ذلك أنهم في باب أسماء الله وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون في أسمائه وآياته ويعطلون حقائق مانعت الله به نفسه حتى شبهوه بالمعدوم وبالأأموات، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بال مخلوق. فتؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تمثيل وتكـييف. وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدر الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشـيئـته الشاملة وخلقـه كل شيء، وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عملاً فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب فيصـيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ فتؤمن أهل السنة والجماعة بأن الله على كل شيء قدير فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا يكون في ملكه مالا يريد ولا يعجز عن انفاذ أمره، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشـيئة وعمل وأنه مختار ولا يسمونه مجبوراً إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره، والله سبحانه جعل العبد مختاراً بما يفعله، فهو مختار مريد والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس لله نظير فان الله ليس كمثله شيء لافي ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مـخلـدين في النار ويخرجونهم من الإيمان بالكلية ويكذبون بشفاعـة النبي ﷺ، وبين المرجئة الذين يقولون إيمان الفاسق مثل إيمان الأنبياء. والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان. ويكذبون بالعقاب بالكلية. فتؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة وأنهم لا يخلدون في النار بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان، وإن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته، وهم أيضاً في أصحاب رسول الله

ﷺ وسط بين الغالية الذين يغفلون في علي رضي الله عنه فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو يعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما، وأن الصحابة رضي الله عنهم ظلموا وفسقوا وكفروا، والأمة بعدهم كذلك وإنما جعلوه نبياً وإلهاً. وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان ويستحلون دمهما ودماء من تولاها أو يستحلون سب علي وعثمان ونحوهما، أو يقدحون في خلافة علي وإمامته، وكذلك في سائر أبواب السنة، هم وسط لأنهم مستمسكون بكتاب الله وسنة رسوله وماتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

حدوث العالم وأنه لاخالق سوى الله :

(وقولكم على حدوث العالم ووجود الباري وأنه لاخالق سواه) .

فنحن نقول كل ماسوى الله وصفاته حادث . والله سبحانه هو الذي أوجده وخلقه وابتدأه من العدم، لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، بل بالحق والحكمة التي لو لم يكن منها إلا ليعرف بسائر صفات الكمال فيعبد وحده لا يشرك به، ويكون الدين كله بأنواعه له مختص بجلاله كما أن الأمر كله له تعالى فلا خالق للجسم ولا جوهر ولاعرض ولاشيء إلا هو تعالى، وجميع أفعال العباد كسب لهم، وهي مخلوقة لله خيرها وشرها حسنها وقيحها، فالله خالق لا مكتسب . والعبد مكتسب لاخالق، وخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والرياح والسحاب وغير ذلك من الأجسام العظيمة دال على وحدانية الصانع فهو المتفرد بالألوهية، كما أنه متفرد بالربوبية فهو الخالق لجميع العوالم كلها، وبه قامت الحوادث كلها، إذ هو القادر على أن يمسك العالم كله في قبضته، كما جاءت به الآثار الإلهية، وكما قال تعالى : ﴿ وما قدر الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود وابن عباس ما يوافق مضمون هذه الآية، وأن الله تعالى يقبض العالم العلوي والسفلي ويمسكه ويهزه ويقول أنا الملك أين ملوك الأرض . وفي بعض الآثار : « ويدحوها

كما يدحو أحدكم الكرة» وقال ابن عباس: (ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم) وهو تعالى لخالق سواء. وهذا مما أجمع عليه أهل الملل كلها فلم ينكر أحد أنه خالق لجميع المخلوقات، إلا أنه قد جرى للمعتزلة كلام في خلق الإنسان أفعاله نفسه وخلافهم غير معتمد به بعد قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعْمَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ فإن العبد غير موجد ولا خالق لأفعاله. لأنه تعالى طعن في ألوهية الأجسام بسبب أنها لا تخلق شيئاً. فهذا يقتضي أن كل ما كان خالقاً كان إلهاً، فلو كان العبد خالقاً لأفعال نفسه لكان إلهاً، ولما كان ذلك باطلاً علمنا أن العبد غير خالق لأفعال نفسه.

ومن الدليل على علم ذلك عند كل أحد، تقرير الله الخلق وإقرارهم بأن الله هو الخالق وحده. قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ولذلك قرعهم سبحانه بالاستفهام الإنكاري في قوله عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ لكن لما كان بعضهم منكراً للمعاد الجسماني أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ثم انه جرى كلام هل الخلق غير المخلوق أو هو هو، والجمهور يقولون الخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول، إذ الخلق مصدر، والمخلوق هو المفعول، والمصدر مغاير للمفعول لا نفسه. وهذا قول جماهير الصوفية وأهل الحديث بل كلهم، ولأصحاب مالك والشافعي وأحمد في ذلك قولان والذي عليه أئمتهم ان الخلق غير المخلوق وهو أيضاً قول أكثر أهل الكلام وهو الذي حكاه البغوي عن أهل السنة.

(وأما قولكم وأنه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الكمال والجلال منزّه عن سمات النقص) .

فنقول إنه تعالى قديم أزلي، فإن كل أزلي قديم ولا عكس، فهو الأول ولابدأية، والآخر ولا نهاية، لم يزل ولا يزال سبحانه متصفاً بصفاته العليا وأسمائه الحسنی، فهو إله واحد لا شريك له في عبادته فلا يتجزأ في ذاته. أحد لا من عدم، فرد صمد لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ولا معين له في خلقه، ولا مثل

له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، حي موجود لم يزل ولا يزال. ومتصف سبحانه بالعلم. فهو تعالى عالم بعلم واحد قديم باق ذاتي محيط بكل معلوم كلي أو جزئي على ماهو عليه فلا يتجدد علمه تعالى بتجدد المعلومات ولا يتعدد بتعدددها. ليس بضروري ولا كسبي، ولا نظري، ولا استدلال، ومتصف بالقدرة، فهو على كل شيء قدير، وقدرته واحدة وجودية قديمة باقية ذاتية متعلقة بكل ممكن، فلم يوجد شيء إلا بها لأن الفعل صفة والله قادر عليه لا يمنع منه مانع. وقد خلق المخلوقات فوجدت بالفعل الذي هو الخلق بقدرة الله تعالى. والقدرة على خلق المخلوق هي القدرة على الفعل. قال تعالى: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾ وقوله: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وقوله: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وقوله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ الآية ونحو ذلك مما فيه وصف الله بالقدرة على الأفعال المتناولة للمفعولات، وفيه بيان أن الخلق ليس هو المخلوق، لأن نفس خلقه السموات والأرض غير السموات والأرض، ومتصف سبحانه بسائر صفات الكمال والجلال فهو تعالى مريد ارادة واحدة ذاتية قديمة باقية متعلقة بكل ممكن. وهو تعالى حي بحياة واحدة وجودية قديمة ذاتية. وهو تعالى سميع وبصير بسمع وبصر قديمين ذاتيين وجوديين متعلقين بكل مسموع ومبصر. وهو تعالى قائل ومتكلم بكلام قديم ذاتي وجودي غير مخلوق ولا محدث ولا حادث بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تكيف يسمعه منه أهل الجنة في الجنة إذا دخلوها. والمراد بقوله تعالى: ﴿ما يأتهم من ذكر من ربهم محدث﴾ من جهة النزول لأنهم لم يسمعه قبل انزاله قط ولا يشبه كلام المخلوقين، أو المراد بالذكر المحدث تذكير النبي ﷺ، فإنه لم يذكرهم قبل أن ينبا، ونسبته إلى الله تعالى لأن المذاكرة من النبي ﷺ لهم كانت بأمره تعالى، ومنزه تعالى عن سمات أي علامات النقص، فهو تعالى لا تحله الحوادث ولا يحل في حادث ولا ينحصر فيه. فمن اعتقد أو قال أن الله بذاته في كل مكان أو في مكان فكافر، بل يجب الجزم بأنه تعالى بائن من خلقه مستو على عرشه من غير تكيف ولا تشبيه ولا تمثيل، فالله تعالى كان والامكان، ثم خلق المكان، وهو تعالى كما كان قبل خلق المكان، ولا يعرف بالحواس ولا يقاس بالناس، ولا مدخل في ذاته وصفاته وأفعاله للقياس، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، فهو الغني عن كل شيء، ولا يستغني عنه شيء، ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فمن شبهه

بمخلوقه فقد كفر. وأما قوله تعالى: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ فقال ابن عباس مامن شيء تناجي به صاحبيك إلا هو رابعهم بالعلم، يعني أن نجواهم معلومة عنده كما تكون معلومة عند الرابع الذي هو معهم.

المعاد الجسماني والمجازاة:

وأما قولكم (وإن المعاد الجسماني حق وكذا المجازة والمحاسبة والصراف والميزان وخلق الجنة والنار وخلود أهل الجنة وخلود الكفار في النار) فنقول هذا مما أجمع عليه المسلمون قاطبة وعلم من الدين ضرورة، إن إعادة الأجسام على هيئتها قبل الموت بعبثة ثم مجازة ومحاسبة فهذا حق واجب الإيمان به قال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لايعلمون ليين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جداً منها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث كل عبد على مامات عليه فالؤمن على إيمانه والكافر على كفره » وكذا حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فعد منه الإيمان باليوم الآخر والمجازة على فعل الخير والشر قال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ﴾ والمحاسبة على ماضى من جميع الأعمال حق قال تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فأممن أوتي كتابه بيمينه ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وحديث من نوقش الحساب عذب . رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، فيحاسب المسلمون المكلفون إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب . وكل مكلف مسؤول . ويسأل الله من شاء من الرسل عن الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل . فالكفار لا يحاسبون ولا توزن صحائفهم قال تعالى : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة

وزنا ﴿ وإن فعل كافر قرينة من نحو عتق أو صدقة أو عمل حسن وفي له في حياته الدنيا، وليس له في الآخرة جزاء عمل، لكن نرجو أن يخفف عنه من عذاب معاصيه. لحديث ثوية حين أعتقها أبو طالب . وكذا الصراط وهو جسر ممدود على ظهر جهنم مدحضة مزلة، أحد من السيف وأدق من الشعر، وأحر من الجمر، عليه خطاطيف تأخذ الأقدام، وعبوره بقدر الأعمال، مشاة وركباناً وزحفاً، يمر عليه المسلم والكافر فيجوزه المؤمن كالبرق والريح وأجاويد الخيل والركبان والمشاة فنجا مسلم ومخدوش ومكردس في النار، قد روى ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه قال الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى في وصفه الصراط أنه سبع جسور فيحاسب العبد في أولها على الإيمان فإن سلم إيمانه من النفاق والرياء والشك والعجب نجا وإلا تردى في النار، وفي الثانية عن الصلاة فإن أداها مكملأ شروطها وأركانها وواجباتها نجا وإلا تردى في النار، وفي الثالثة عن الزكاة فإن أداها تامة بطيب نفس نجا وإلا تردى في النار، وفي الرابعة عن الصيام فإن أداها تاماً نجا وإلا تردى في النار، وفي الخامسة عن الحج والعمرة فإن أداها تامين بشرائطهما وأركانها نجا وإلا تردى في النار، وفي السادسة عن الوضوء والغسل من الجنابة فإن أداها تامين نجا وإلا تردى في النار، وفي السابعة عن بر الوالدين وصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أتمه نجا وإلا تردى في النيران .

وكذا الميزان الذي توزن به الأعمال من الحسنات والسيئات، وفيه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فهو حق وله لسان وكفتان توزن بهما صحائف الأعمال. قال ابن عباس رضي الله عنهما : (توزن الحسنات في أحسن صورة وتوزن السيئات في أقبح صورة) وكذا خلق الجنة والنار وأنها موجودتان الآن، فعن أبي سلمة وهو ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة قال لجبريل اذهب فانظر إليها فنظر إليها ثم جاء فقال : أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها . ثم حفها بالمكاره . ثم قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال : أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد . فلما خلق النار قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات ، ثم قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال : أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها » رواه أبو داود

والترمذي والنسائي. قال الترمذي حسن صحيح. وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وأخرجه أيضاً في صحيحه من حديث الأعرج عن أبي هريرة، وقد ذكر بعضهم أن هذا من بديع الكلام وجوامع الذي أوتي به ﷺ من التمثيل الحسن، وأن حفاف الشيء جانبه فكأنه أخبر ﷺ أنه لا يوصل إلى الجنة إلا بتخطي المكاره، وكذلك النار لا يوصل إليها إلا بتخطي الشهوات وماتيل إليه النفوس، وإن اتباع الشهوات يلقي في النار ويدخلها وأنه لا ينجو منها إلا من تجنب الشهوات. ففي هذا الحديث حث على اجتنابها وعن سهل بن حوشب أن رسول الله ﷺ قال: « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها » وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: « أن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال حين مات إبراهيم: « أن له مرضعاً في الجنة ». وعن أبي هريرة مرفوعاً: « اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير » وعنه أيضاً مرفوعاً: « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قيل يا رسول الله ان كانت لكافية قال لقد فضلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها » وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا: ومن أبى قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » أخرجه البخاري في صحيحه.

وخلود أهل الجنة فيها وخلود الكفار في النار حق قال عز من قائل: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ قال ابن عباس في الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال مقاتل والضحاك الزفير أول نهيق الحمار والشهيق آخره إذا رده في جوفه. وقال أبو العالية الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر. وخالدين فيها أي مقيمين مادامت السموات والأرض. قال الضحاك: مادامت سموات الجنة والنار وأرضها. فكل ما علاك وأظلك فهو سماء. وكل

ما استقر عليه قدماءك فهو أرض. وقال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأييد، أتى به على عادة العرب، يقولون لا آتيك أو لا يكون الأمر كذا مادامت السموات والأرض، أو ماختلف الليل والنهار، يعنون لا يكون ذلك أبداً وأما الاستثناء في قوله: إلا ما شاء ربك، فقال بعضهم هو في الأول منفصل معناه إلا من مات موحداً فإنه يخرج من النار فيدخل الجنة وسماه الله شقياً لدخوله النار بالمعصية مع من شقى وهذا المعنى قد روي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وعمران بن حصين. فأما حديث أنس ابن مالك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليصين أقواماً سفع من نار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضلهم ورحمته يقال لهم الجهنميون» وأما حديث ابن حصين عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ بإذن الله فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميون». وما وإن كان وضعها لما لا يعقل غالباً فهي هنا للوقت، ولكن لما كان الكلام عن حال من يعقل صار لها مناسبة فيه، وقال بعضهم إلا بمعنى سوى أي خالدين فيها هذا القدر سوى ما شاء الله من الزيادة عليه وقيل إلا بمعنى الواو أي وما شاء ربك كقولهم لعمر: أليك إلا الفرقدان. أي والفرقدان، وأما معناه في الثاني وهو قوله: ﴿وَأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ فهو استثناء متصل إذ لا يخرج من الجنة بعد دخولها أحد، ومعناه يرجع لمدة لبث هؤلاء المستثنين في النار قبل دخولهم الجنة. وقيل ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث قبل مصيرهم إلى الجنة والنار يعني هم خالدون في الجنة والنار إلا هذا المقدار. ولذلك قال الضحاك عند قوله إلا ما شاء ربك: إي إلا ما مكثوا في النار حتى دخلوا الجنة فهو مراد الفريق. وظاهر اللفظ يأباه. وقال قتادة: الله أعلم بتهيأه. والحاصل أنه يجب علينا اعتقاد أن المؤمن يخلد في الجنة، وأن الكافر يخلد في النار، وإن كلا لا يخرج عن محله بعد أن يدخله، وماروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً) وعن أبي هريرة نحوه فمعناه عند أهل السنة إن ثبت أن لا يبقى فيها أحد من أهل التوحيد والإيمان. فأما مواضع الكفار فمملوءة منهم ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَبْقَى فِيهَا أَحْقَاباً﴾ واحداً حقاً وهو ثمانون سنة. قال المفسرون الحقب

الواحد بضع وثمانون سنة. السنة ثلاثمائة وستون يوماً. مقدار اليوم ألف سنة من أيام الدنيا وقال الحسن: لم يجعل الله لأهل النار مدة بل قال أحقاباً فو الله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر هكذا أبداً، وقد بشر الله أهل الجنة بدوام لبثهم فيها قال: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يغيون عنها حولاً﴾.

جواز العفو عن المذنبين:

(وأما قولكم ويجوز العفو عن المذنبين) .

فنقول أجمع أهل السنة على أن المسلم لا يكفر بذنوب فكل من لم يأت بما يقتضي الخروج عن الملة يجوز العفو عنه ويدخل تحت مشيئته تعالى إن شاء غفر له بفضلته وإن شاء عاقبه بعدله مع عدم تخليده في النار، كما نطق به القرآن والسنة قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ إلى قوله: ﴿إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ فسامهم مؤمنين وجعلهم أخوة مع الاقتتال وبغي بعضهم على بعض. وفي البخاري عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: (أن رجلاً يشرب الخمر يقال له عبد الله فأتى به شارباً فلعننه رجل فقال رسول الله ﷺ: « لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله ») وفي المسند للإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يعبأ به فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم تركه وصلاة تركها فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة. وأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك. قال عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ ثم إن كانت

الذنوب صغيرة وضابطها ما أوجب تعزيراً فأقل فهذا يغفر بالوضوء والصلاة والجمعة والصيام ما اجتنبت الكبائر .

وإن كانت كبيرة فإن استحلّت فهي كفر، وضابطها ما أوجب حداً في الدنيا ووعيداً في الآخرة، وإن لم تستحل فإن تاب قبل الغرغرة أو رؤية الملك قبلت التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها وإن لم يتب بأن مات مصراً فأمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له . وفي صحيح مسلم من حديث المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بقرابها مغفرة » وخرج الإمام أحمد من رواية اخفش السدوسي قال : دخلت على أنس رضي الله عنه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم غفرت لكم » .

شفاعة الرسل :

(وأما قولكم والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) .

فنقول : أما الشفاعة فقد قال أهل المعاني أنها مأخوذة من الشفع المقابل للوتر، فاستعملت في الشفيع باعتبارين :

الأول : كونه شافعاً لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسئلة .

الثاني : كونه شافعاً للمسئول منه قضاء الحاجة في قضائها إذ هي لم تقض إلا بسبب شفاعته فكأنه شاركه وشفعه فيها . فمن الأول قوله تعالى : ﴿ من يشفع ﴾ من يشفع

شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منه ﴿ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ وقوله: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴿ الآية وقوله: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴿ .

ثم ان الشفاعة من حيث هي قد افترق الناس فيها ثلاث فرق: طرفان ووسط . فالمشركون ومن وافقهم من مبتدعة أهل الكتاب كالنصارى ومبتدعة هذه الأمة قد أثبتوا الشفاعة التي نفاها الله وذلك أنهم اتخذوا وسائط ووسائل من الخلق شفعاء لهم يسمونهم آلهة ومنه قول صاحب يس: ﴿ آتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون إني إذا لفى ضلال مبين ﴿ لكن هؤلاء الباقون نفوا بالسننهم اسم الإله عما سوى الله وأثبتوا معناه في معتقدهم وقولهم الذي يسمونه واسطتهم ووسيلتهم من الخلق في تفرج كربهم وكشف شدائدهم . كما تكون الوسائط والوسائل بين السلطان ورعيته فشبها الخالق تعالى بالخلق . وصرح القرآن من أوله إلى آخره راداً عليهم إذ السلاطين جاهلون أحوال الخلق إلا بمنبه ومفطن، والله تعالى عالم يعلم ما في السموات وما في الأرض، كما أن له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . والملوك عاجزون عن تدبير الخلق إلا بمعين ومظاهر والله تعالى هو المدبر للأشياء كلها ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيراً ﴿ والملوك محتاجون إلى محرك خارجي يحركهم بالموعظة ونحوها والله تعالى لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، بل هو الخالق للسبب والمسبب وليس في الأسباب ما هو مستقل بل هي جميعها من الله وحده لا شريك له لا قيام لها إلا بمشيئته وقدرته، فلا حول وهي الحركة والتحول من حال إلى حال ولا قوة على ذلك الحول إلا به تعالى وسواء في ذلك الحول والقوة الموجود في السماء والأرض والآدميين والملائكة والجن وسائر الدواب وغيره ﴿ قل ادعوا الذين

زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له فليس لغيره ملك ولا شرك في ملك غيره ولا شريك له . وهذان الصنفان هما اللذان لهما ملك إما كامل وإما مشاع ، ومن ليس له ملك فإما أن يكون عوناً للمالك كالوكلاء والاجراء والغلمان والجند والأولياء . وإما أن يكون سائلاً طالباً منه لأنه إما أن ينفع المالك فيكون له عليه حق وإما أن لا ينفع لكن يسأله فأخبر سبحانه أنه ليس له من المخلوقات من ظهير .

وأما مسألة الشفاعة فلم ينفها لكن أخبر أنها لا تكون ولا تنفع إلا لمن أذن له ، فالشفاعة بعد رضائه تعالى عن المشفوع فيه وهذا بخلاف الشفعاء للمخلوقين فإنهم قد يشفعون لمن لم يؤذن لهم في الشفاعة له وقبل استئذان المشفوع إليه . وهكذا كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال : ﴿ مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ وهذا يوجب انقطاع تعلق القلوب بغيره ولو كان ملكاً أو نبياً فكيف بالمشايخ والعلماء والملوك فإن غاية الراجي لهم المعتمد عليهم أن يقول هم يشفعون لي فقد أخبر سبحانه أنه مامن شفيع إلا من بعد إذنه وأنكر أن يشفع أحد إلا بإذنه وأخبر أن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له . ولهذا إذا جاء سيد

الشفعاء ﷺ يوم القيامة إلى ربه ورآه سجد وحمد بحمamd يفتحها عليه ولا يتدىء بالشفاعة حتى يقال له : أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع . وهذا تبين الشفاعة المنفية يوم القيامة كما قال جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وذلك ان الانسان في الدنيا يحصل ما ينفعه تارة يكون بمعاوضة حسية ، وتارة معنوية ، والله تعالى خالق كل شيء وربّه ومليكه فهو الغني عن كل ماسواه وكل ماسواه فقيراً إليه بخلاف الخلق فإنهم محتاجون إلى ظهير يظاھرهم ويعاونهم فهذه الوسائط في الحقيقة شركاؤهم والله سبحانه ليس له شريك في الملك كما ليس له شريك في استحقاق العبادة بل هو المختص بها ولا تليق إلا لجلاله وعظمته فلا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله

الحمد وهو على كل شيء قدير، ولهذا حسم مادة الشفاعة عن كل أحد بغير إذن الإله فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه لأملاك ولأنبي ولاغيرهما لأن من شفع عنده غيره بغير اذنه فهو شريك له في حصول المطلوب لأنه أثر فيه بشفاعته لاسيما إن كانت من غير اذنه فجعله يفعل ماطلب منه والله تعالى لاشريك له بوجه من الوجوه، وكل من أعان غيره على أمر فقد شفعه فيه، والله تعالى وتر لايشفعه أحد بوجه من الوجوه، ولهذا قال عز من قائل: ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم ترعمون ﴾ وقال تعالى: ﴿ مالكم من دونه من ولي ولاشفيع أفلا تتذكرون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولاشفيع لعلهم يتقون ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً رادة على المشركين قوهم وعقيدتهم.

انكار الخوارج والمعتزلة للشفاعة :

وأما الخوارج والمعتزلة فقد أنكروا شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر من أمته . بل أنكرت طائفة من أهل البدع والأهواء انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه غير الواجب باصل الشرع عنه . وأنكروا الشفاعة من أصلها محتجين بقوله تعالى : ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولاخلة ولاشفاعة ﴾ وبقوله : ﴿ ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع ﴾ وغير ذلك .

عقيدة السلف الصالح في الشفاعة :

وأما سلف الأمة وخيارها وأئمتها ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة فأثبتوا ما جاءت به السنة عن النبي ﷺ . ففي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » وروى حديث

الشفاعة بطوله أنس بن مالك. وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال (أتى النبي ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ومالا يحتملون » ثم ساق الحديث بطوله والشفاعة العظمى العامة هي المقام المحمود الذي جاء منكرًا في الآية لعظم شأنه قال تعالى : ﴿ عسى أن يعثرك ربك مقاماً محموداً ﴾ فأهل السنة والجماعة أثبتوا ما أثبت الله ورسوله ونفوا مانفى الله ورسوله .

بعثة الرسل بالمعجزات حق :

(وكذلك بعثة الرسل بالمعجزات حق) قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقد جعل ذلك النبي ﷺ من الإيمان وفسره به في حديث جبريل الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب والإيمان المفسر هو الاعتقاد فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وفي رواية واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. وقد ذكر الله في كتابه الإيمان بهذه الأصول الخمسة في مواضع كقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ وقال تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما جاءوا به من الكتب والتوحيد ومعجزاتهم التي جعلها الله لهم علامة على صدقهم فيما يدعون ويقولونه وما أخبروا به مما غاب عنا .

وكذلك الملائكة والكتب والأنبياء والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به من صفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة والنار . ومن كذب بشيء من ذلك بأن نفى ما أثبتوه، أو أثبت ما نفوه، فقد كذبهم وإن نطق بذكرهم لسانه. إذ

الغرض من الإيمان بهم تصديقهم في جميع ما أخبروا به . والإيمان بجميع ما جاؤا به ، والعمل بمقتضى ذلك ، إذ لازم الإيمان ، لعمل فلا يكون بدونه ولا ينفك عنه . قال علماء السلف وأهل الحديث ان الإيمان قول وعمل ونية وان الأعمال كلها داخلية في مسمى الإيمان . وحكى الإمام الشافعي اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم وقد أنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان انكاراً شديداً . ومن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثاً سعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ، وقتادة ، وأبو أيوب السخيتاني ، والنخعي ، والزهرري ، وابن أبي كثير ، وغيرهم قال الأوزاعي : (كان من مضى من السلف لا يعرفون الإيمان إلا العمل) . وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... إِلَى قَوْلِهِ ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بحث الإيمان في محله بآتم من هذا ونبين الفرق بينه وبين الإسلام . والرسول عام يطلق على الملك والبشر . والنبي خاص لا يطلق إلا على البشر . وفي معالم التنزيل وجملة مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . والرسول منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر . والمذكور في القرآن منهم ثمانية عشر نبياً ، وأولو العزم منهم خمسة : محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى صلى الله عليه وسلم ، وأول الرسل نوح كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فذكر عدة من الرسل الذين أوحى إليهم وبدأ بذكر نوح لأنه أول نبي من أنبياء الشريعة المرسل بها وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك الله أهل الأرض بدعائه ، وكان أطول الأنبياء عمراً وجعلت معجزته في نفسه لأنه عمر ألف سنة فلم ينقص له سن ولم يشب له شعرة ولم ينقص له قوة ولم يصبر على أذى قومه أحد ماصبر هو على طول عمره . وأما آدم عليه السلام فهو نبي لارسل إلى أمة . وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم بالنص والاجماع .

تعريف النبي والرسول :

والنبي : من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه والرسول : هو المأمور بالتبليغ وفي العمدة لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن يؤيده قوله

تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ وفي ربيع الأبرار للزخشي عن فرقد السنجي: لم يبعث نبي قط من مصر من الأمصار وإنما بعثوا من القرى، لأن أهل الأمصار أهل السواد، والريف وأهل القرى أرق. وعن أبي ذر الغفاري قال: قلت يارسول الله من أول الأنبياء قال: «آدم» قال: قلت: من أول الرسل قال: «نوح» ثم قال: «يأبأ ذر أربعة سريانيون آدم وشيث وأخنوخ وهودريس وهو أول من خط وخط ونوح، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يأبأ ذر وأول أنبياء بني اسرائيل موسى وآخرهم عيسى» قلت: كم أنزل الله من كتاب قال: «مائة صحيفة وأربعة كتب على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والزبور والإنجيل والفرقان ولم يذكر آدم».

أهل الشجرة وأهل بدر من أهل الجنة:

(وأما قولكم وكذلك أهل بيعة الرضوان تحت الشجرة وأهل بدر من أهل الجنة) .

فنقول أما الشجرة فهي شجرة كانت في الحديبية وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة توهم أنها الشجرة التي بويع الصحابة تحتها بيعة الرضوان لما رأى الناس يتناوبونها ويصلون عندها كأنها المسجد الحرام أو مسجد المدينة. وأما الصحابة المبايعون رضي الله عنهم فكان عددهم ألفاً وأربعمائة وقيل وسبعمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وستمائة وقيل وخمسمائة وعشرين وقد بايعوا النبي ﷺ تحتها على أن لا يفروا من قريش وأن يناجزوهم وذلك معنى قول بعضهم:

على الموت بايعت الرسول قتالا فإما النصر وإما الموت بلا فرار

وكان سبب البيعة أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً عام الحديبية وأرسل خراش بن أمية الخزاعي لقريش يعلمهم بما جاء رسول الله ﷺ له، وحمل على جمل يقال له الثعلب فعمروا به الجمل وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش، فرجع وأخبر رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ لَهُمُ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ مُخْبِراً بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَجَارَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ حَبَسُوهُ عِنْدَهُمْ فَشَاعَ فِي النَّاسِ أَنَّ عَثْمَانَ قُتِلَ وَلَمْ يَرِحْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي بَلَغَهُ فِيهِ الْخَبْرَ حَتَّى بَايَعَ أَصْحَابُهُ ، ثُمَّ أَتَاهُ الْخَبْرُ أَنَّ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَقْتُلْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ الْآيَةَ . وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا » قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ : قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطْعاً كَمَا صَرَحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ حَدِيثُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَإِنَّمَا قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِلتَّبَرُّكِ ، وَأَهْلُ بَدْرٍ عَدَدُهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخَاطِباً لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : « وَما يدريك لعلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ » الْحَدِيثُ فِي مُسْلِمٍ قَالَ النَّوَوِيُّ : قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ الْغُفْرَانُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَإِلَّا فَلَوْ تَوَجَّبَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ حَدٌّ أَوْ غَيْرُهُ أَقِيمَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، وَنَقَلَ الْقَاضِي عِيَاضُ الْإِجْمَاعِ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ ، وَأَقَامَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى بَعْضِهِمْ قَالَ وَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْطِطاً الْحَدَّ وَكَانَ بِدْرِياً وَهُمْ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الْعَشْرَةِ .

وجوب نصب الإمام على المكلفين :

(وأما قولكم الإمام يجب نصبه على المكلفين) .

فنقول هذا الحد وهم إذ نصبه فرض كفاية، وحده شرعاً ما إذا قام به من يكفي سقط عن الباقيين، فهو مبين للواجب لغة، مرادف له شرعاً، إلا أن الواجب وضعه على الأعيان والكفاية على العموم . وقالت الحنفية الكفاية أكد من الواجب لأن حده ماثب بدليل قطعي، والواجب ماثب بدليل ظني، وهو رواية عن أحمد، وحد الواجب من حيث ما عوقب تاركه أو توعد بالعقاب على تركه . فنصب الإمام فرض كفاية يخاطب بذلك طائفتان من الناس أحدهما أهل الاجتهاد حتى يختاروا الأصلح . الثانية من توجد فيه شرائط الإمامة حتى ينتصب أحدهم لها ويعتبر في أهل الاختيار ثلاثة

شروط. أحدها العدالة. الثانية العلم المتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة. الثالث أن يكونوا من أهل الرأي والتدبير المؤدبين إلى اختيار من هو الأصلح للإمامة. ويشترط فيه الحرية والذكورة والعدالة والعلم بالأحكام الشرعية والكفاية في أمر المسلمين وسياستهم واقامة الحدود لاتباعه رافة في ذلك، وبجبر شخص متعين لها وهو وكيل المسلمين فيما لهم وما عليهم ويثبت نصبه باجماع أهل الحل والعقد، وينص امام بها لمن بعده لأن أبا بكر رضي الله عنه عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يحتج في ذلك إلى أحد، ويثبت باجتهاد كفعل عمر وجعله الأمر شورى بين ستة من الصحابة ويثبت بقهر كما لو تنازع الإمامة عدد يصلح كل منهم لها فقهر أحدهم من سواه فإنه تثبت له الإمامة وتلزم الرعية طاعته لما في الخروج على من تثبت امامته بالقهر من شق عصي المسلمين وارقة دمائهم وذهاب أموالهم، والخارج قد دخل في عموم قول النبي ﷺ: «من خرج على أمتي وهم جمع فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان». وقريش إن وجدوا وتوفرت فيهم الشروط المذكورة أحق لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها وفجارها أمراء فجارها» أخرجه الحاكم من حديث علي بن أبي طالب وله شواهد أخر عنه ﷺ، والمراد بالفجار الفسقة المسلمون، وإنما نصب الإمام لأن بالناس إليه حاجة الحماية لبيضة المسلمين والذب عنهم واقامة الحدود واستيفاء الحقوق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي نصب الإمام مصالح الدنيا والآخرة وسعادة المسلمين في الدنيا ونظم مصالحهم في معاشهم وما يستعينون به على اظهار دينهم وطاعة ربهم، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ان الناس لا يصلحهم إلا إمام برأ كان أو فاجراً يعبد المؤمن ربه.

وقال الحسن في الأمراء: ثم إنهم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم وان جاروا وظلموا والله إن الله ليصلح بهم أكثر مما يفسدون. وتحرم مشاقة الإمام والخروج عن طاعته فيما ليس بمعصية، فأخرج الخلال في كتاب الإمارة من حديث أبي أمامة قال: أمر النبي ﷺ أصحابه حين صلوا العشاء أن احشدوا فإن لي إليكم حاجة فلما فرغوا من صلاة الصبح قال: «فهل حشدتم كما أمرتكم» قالوا: نعم قال: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً هل عقلتم هذه ثلاث مرات» قلنا: نعم. قال: «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

هل عقلتم هذه؟ ثلاث مرات « قلنا : نعم . قال : « اسمعوا وأطيعوا هل عقلتم هذه؟ ثلاث مرات « قلنا : نعم . قال : فكنا نرى أن رسول الله ﷺ يتكلم كلاماً طويلاً ثم نظرنا في كلامه فإذا هو قد جمع لنا الأمر كله . فبالسمع والطاعة وصى النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع فأخرج، الإمام أحمد والترمذي من رواية أم الحصين الأحمسية رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فسمعته يقول : « يا أيها الناس اتقوا الله وإن أمر عليكم عبد حبشي مجرد فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله » وأخرج الإمام أحمد والترمذي أيضاً من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول : « اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم » وفي رواية أخرى : « يا أيها الناس أنه لأنبيي بعدي ولأمة بعدكم » وذكر الحديث بمعناه وفي المسند للإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسباً وسمع وأطاع فله الجنة أو دخل الجنة » وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » متفق عليه .

الإمام الحق بعد الرسول أبو بكر ورد قول الرافضة :

(وأما قولكم والإمام الحق بعد الرسول ﷺ أبو بكر ثم عمر) .

فنقول : قد روى مسلم في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سئلت عمن كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه قالت : أبو بكر فقل لها : من بعد أبي بكر؟ قالت : عمر . ثم قيل لها : من بعد عمر؟ قالت : أبو عبيدة بن الجراح ثم انتهت إلى هذا يعني وقفت على أبي عبيدة، وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : « ادع لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » ففي الحديث الأول دليل لأهل السنة في تقديم أبي بكر ثم عمر للخلافة مع إجماع الصحابة، وفيه

دلالة لأهل السنة أن خلافة أبي بكر ليست بنص من النبي ﷺ على خلافته صريحاً بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له وتقديماً لفضيلته ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذكر حافظ النص مامعه ولرجعوا إليه لكن تنازعوا أولاً ولم يكن هناك نص. ثم اتفقوا على أبي بكر واستقر الأمر وماتدعيه الشيعة من النص على علي والوصية إليه فباطل لا أصل له باتفاق المسلمين، والاتفاق على بطلان دعواهم في زمن علي، وأول من كذبهم في شأن علي رضي الله عنه قوله ما عندنا إلا ما في هذه الصحيفة الحديث، ولو كان عنده نص لذكره، ولم ينقل أنه ذكره في يوم من الأيام ولا أن أحداً ذكره له. وفي الحديث الثاني دلالة ظاهرة لأهل السنة بفضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأخبار منه ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد وفاته وبأن المسلمين يأبون عقد الخلافة لغيره وفيه إشارة إلى أنه سيقع نزاع ووقع كل ذلك وقد عجز النبي ﷺ عن حضور الجماعة فاستخلف الصديق غير مرة بل مرات متعددة، وتقديمه في الإمامة الصغرى دليل على تقديمه في الكبرى. وقد قيل لعلي كرم الله وجهه عن ذلك فقال: قد كنت ادخل على النبي ﷺ وأخرج وشعري قد ملأ وجهي فلا مرة من المرات إذا تخلف قال لي صل بالناس بل يقول: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فرجل رضيه رسول الله ﷺ لدينا أفلا نرضاه لدنيانا. وخلافة عمر رضي الله عنه ثبتت بنص من أبي بكر (ثم عثمان بن عفان) رضي الله عنه وكان نصبه باجتهاد من الصحابة واتفاق من ذوي الشورى الذين عهد إليهم عمر رضي الله عنه في المشاورة في أمر الإمامة، وقد رضي علي بها له واطمأنت نفسه فلم يخالف ولم ينازع (ثم علي) بن أبي طالب رضي الله عنه بعد خلافة عثمان.

الأفضلية على ترتيب الخلافة:

قال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله تعالى: اختلف الناس في تفضيل بعض الصحابة على بعض فقالت فرقة لا يفاضل بل يمسك عن ذلك. وقال الجمهور بالتفضيل. ثم اختلفوا فقال أهل السنة والجماعة أفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقالت الخطابية أفضلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقالت المراءونية أفضلهم

العباس رضي الله عنه . وقالت الشيعة على رضي الله عنه ، واتفق أهل السنة على أن أفضلهم أبوبكر ثم عمر رضي الله عنهما . وقال بعض أهل السنة من أهل الكوفة بتقديم علي على عثمان والصحيح المشهور تقديم عثمان رضي الله عنه . قال أبو منصور البغدادي أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الراشدون الأربعة على الترتيب المذكور ، ثم تمام العشرة ، ثم أهل بدر ، ثم أحد ، ثم بيعة الرضوان ، ومن له مزية أهل العقبتين من الأنصار ، وكذلك السابقون الأولون وهم من صلى إلى القبلتين في قول ابن المسيب وطائفة ، وفي قول الشعبي أهل بيعة الرضوان وفي قول عطاء ومحمد بن كعب أهل بدر . وذهبت طائفة منهم ابن عبد البر إلى أن من توفي من الصحابة في حياة رسول الله ﷺ أفضل ممن بقي بعده . وهذا القول غير مرضي ولا مقبول .

واختلف العلماء في أن تفضيل المذكور قطعي أم لا . وهل هو في الظاهر والباطن ، أم في الظاهر خاصة ، بعد الاتفاق على أن جميعهم في الحجة بالنص القطعي من النبي ﷺ . ومن قال أنه قطعي أبو الحسن الأشعري قال وهم في الفضل على ترتيبهم في حديث العشرة والإمامة . ومن قال أنه اجتهادي ظني أبو بكر بن الباقلاني . وذكر ابن الباقلاني اختلاف العلماء في أن الفضل هل هو في الظاهر ، أم في الظاهر والباطن جميعاً .

وكذلك اختلفوا في عائشة وخديجة رضي الله عنهما أيهما أفضل . وفي عائشة وفاطمة رضي عنهن أجمعين . وحقيقة القول فيه أن عائشة أفضل من جهة العلم ، وفاطمة أفضل من جهة الذات فإنها بضعة من أفضل الخلق .

فأما عثمان رضي الله عنه فخلافته صحيحة بالإجماع وقتل مظلوماً وقتله الفسقة لأن موجبات القتل مضبوطة ولم يجر منه ما يقتضيه ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة وإنما قتله هجم من الناس ورعاع في غوغاء القبائل وسفلة الأطراف والأراذل تحزبوا وقصدوه من مصر ، فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم فحصره حتى قتلوه رضي الله عنه .

وأما علي رضي الله عنه فخلافته صحيحة بالإجماع . وكان هو الخليفة في وقته لاختلافه لغيره . وأما معاوية رضي الله عنه فهو من العدول الفضلاء والصحابة النجباء رضي الله عنهم . وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة فاعتقدت تصويب نفسها بشبهها القائمة في ذهنها وكلهم عدول رضي الله عنهم . ومتأولون في حروبهم

وغيرها ولا يخرج بشيء من ذلك أحد منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم وليعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة فلشدة اشتباهها اختلف اجتهداهم وصاروا بثلاثة أقسام :

(قسم) ظهر لهم الاجتهاد ان الحق في هذا الطرف . وان مخالفهم باغ فوجب عليهم نصرته ، وقاتل الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقادهم .

(وقسم) عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر فوجب عليهم مساعدته وقاتل الباغي عليه .

(وقسم ثالث) اشتبهت عليهم القضية وتحيروا فيها فلم يظهر لهم ترجيح أي الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حق هؤلاء لأنه لا رجحان ولا يحل الاقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك ولو ظهر هؤلاء رجحان أحد الطرفين وأنه الحق لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه ، فكلهم عدول رضي الله عنهم ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الاجماع على قبول شهادتهم ورواياتهم وكال عدالتهم رضي الله عنهم أجمعين .

عدم تكفير أحد من أهل القبلة :

(وأما قولكم ولا تكفر أحداً من أهل القبلة إلا بما فيه نفي للصانع القادر العليم أو شرك العليم أو انكار ما علم بحجبه ﷺ به ضرورة أو انكار لجمع عليه كاستحلال المحرمات التي أجمع على حرمتها) .

فنقول : أهل القبلة هم الموحدون الله تعالى في عبادته ومعاملته كما أمرهم بجعلهم الدين الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه كله الله وحده لا شريك له ، فهم فيه لله مستسلمون ومنقادون ، ولما أحل الله ورسوله محللون ، ولما حرم الله على لسان رسوله محرمون ، وعما ينافي الإسلام تاركون ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وصلوا

صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها »
وروى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه
قال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله
ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق
الإسلام وحسابهم على الله » فقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بمجاهدة الخلق وقتالهم
حتى يقولوا هذه الكلمة الطيبة ويتركوا المنافي لها من الإشراك بالله فلا تتأله قلوبهم غيره
تعالى وحتى يؤديوا حقها ومنه أن يصلوا الصلاة المفروضة على النبي ﷺ وعلى أمته
المضافة إلى الموصوفين منهم باتباعه، وهي لا تضاف إليهم إلا أن تكون طيبة أي صالحة
بصلاح شروطها وأركانها وواجباتها إذ الطيب لا يقبل إلا طيباً، وأن يؤدوا الحق الواجب
في أموالهم، وأن يستقبلوا قبلتهم، وأن يأكلوا ذبيحتهم، وهذه الإضافة في الصلاة والقبلة
والذبيحة للتشريف شرف الله نبيه محمداً ﷺ وشرف ملته الحنيفة ودينه الإسلام،
فجعل منه تلك الصلاة التي فيها كمال العبودية والتواضع لله تبارك وتعالى، وجعل منه
هذه القبلة المشرفة فهي قبلتهم في الصلاة وغيرها أحياء وأمواتاً، وأحل ذبيحتهم وجعل
أكلها علامة الإيمان، وذلك لشرفهم وشرف ملتهم ودينهم وهديهم، والمستوجبون لذلك
معصومة دماؤهم وأموالهم لاتباعهم النبي ﷺ في دينه وملتته، فليس أهل القبلة إلا من
عمل بمعنى الشهادتين اللذين هما رأس دين الإسلام وملتته وقوامه، وصفته شهادة أن
لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قولاً وعملاً واعتقاداً، فإن الشهادة لله بأنه لا إله
إلا هو تتضمن إخلاص الألوهية له سبحانه وتعالى فلا يتأله القلب ولا اللسان غيره
تعالى لا يحب ولا يخشى ولا إناة ولا توكل ولا رجاء ولا اجلال ولا رغبة ولا رهبة بل لا بد أن
يكون الدين كله لله كما قال عز من قائل: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
كله لله ﴾ فإذا جعل بعض الدين قولاً وعملاً واعتقاداً لله، وبعضه كذلك لغيره لم
يكن الدين كله لله بل قد تأله معه غيره، فأهل القبلة يحبون الله، والمشركون يحبون مع
الله، كما قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله
والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وأهل القبلة يخلصون الدعوة لله، والمشركون يجعلونها لغير
الله، كما قال تعالى: ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا
كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

والشهادة بأن محمداً رسول الله تتضمن تصديقه ﷺ في جميع ما أخبر به

وطاعته واتباعه في كل مأتى وأمر به، فما أثبتته واجب اثباته، وما نفاه وجب نفيه، فروى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أتى» قالوا: ومن يأتي؟! قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أتى» وروى أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثله رجل بني داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها له يتيقنها قال بعضهم انه نائم وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان قالوا فالدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد مفرق بين الناس أي مميز بين مؤمنهم وكافرهم. فأهل القبلة هم أهل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد لله وحده وترك جميع الآلهة سواء، وهذا هو تحقيق معنى لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإخلاصها له فمن استسلم وانقاد لله ولغيره في معناها فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به، فلفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الاخلاص أخذاً من قوله: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فأهل القبلة هم العابدون لله بدين الحق المتبع لا بهوى النفوس والبدع.

التوحيد وما يتعلق به :

(فمن الأول) قوله تعالى: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا الله الدين الخالص﴾ يعني من الشرك وما سواه من الأديان فليس بدين الله المأمور به، بل هو عين ما نهى الله عنه قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بمعناها وبحقوقها (ومن الثاني) اتخذوا من دونه شفعاء يعتقدون بهم ويتقربون بشفاعتهم كما قال عز من قائل: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله

زلفى ﴿ يعني ليشفعوا لنا إلى الله، وذلك التقريب هو الشفاعة في قول
 المفسرين، والزلفى القرى اسم أقيم مقام المصدر كأنه قال إلا لتقربنا إلى الله تقريباً
 (ومعنى العبادة) في اللغة: الذل والانقياد كما قال أهل المعاني (وأما معناها)
 حقيقة: فهي ما كان مختصاً لله لأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال
 والأعمال الباطنة والظاهرة ولذلك توعد سبحانه هؤلاء الذين جعلوا حقه لغيره بقوله
 تعالى: ﴿ إن الله يحكم بينهم يوم القيامة ﴾ يعني بين المتفرقين من أهل الأديان فيما
 هم فيه يختلفون من أمر الدين، كل يقول الحق ديني فهم يختلفون وحكم الله بينهم أن
 يخلد في النار من لم يتبع كتاب الله بل نبذه ورغب عنه باتباع هواه ولا يتدين بدين
 رسوله محمد ﷺ ثم أخبر تعالى أنه لا يهديهم إلى طريق النجاة فقال: ﴿ إن الله
 لا يهدي من هو كاذب ﴾ في زعمه أن معتقده يشفع له، كفار في اتخاذه أولياء من
 دون الله أو معه ليشفعوا له ويقربوه، فالدين المأمور بالاقامة عليه واحد وهو دين
 الاسلام الذي بعث الله محمداً ﷺ وجملة من الأنبياء لم يختلفوا في أصله كما قال
 النبي ﷺ فيما صح عنه: « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد الأنبياء أخوة العلات »
 وإنما تنوعت شرائعهم فيه كتنوع القبلة في وقتين فإنه قد كان في وقت يجب استقبال
 الصخرة التي في بيت المقدس في الصلاة وذلك بعد هجرته ﷺ فصلى إليها بضعة
 عشر شهراً ثم بعد ذلك وجب استقبال الكعبة، فهذا التنوع الذي كان بين الأنبياء
 لا يوجب اختلاف الملة، وإنما يوجبه من لم يفرق بين عبادة الرحمن وعبادة الشيطان قال
 سبحانه وتعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك
 وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وقال
 تعالى: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾
 ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي هذه ملتكم دينكم الإسلام ملة واحدة فلا
 تتفرقوا عنها، وأنا ربكم أي معبودكم الذي خلقتكم وأمرتكم بعبادتي وإخلاصها لي
 وحدي، فاتقون لا تشركوا بي شيئاً بل احذروا عقابي، خطاب لهم وقصد لغيرهم وقال
 تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق
 الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة
 ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم

فرحون ﴿ فأهل القبلة لله مخلصون وفي الدين متفقون، وأهل الاشرار عن الحق معرضون وهم متفرون قال تعالى: ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ولذلك خلقهم فأهل الرحمة هم أهل القبلة لأنهم فيما شرع الله متفقون، وفيه مجتمعون وعليه واقفون وبه آخذون، فهم فيما أمرهم الله ورسوله به عاملون، وعلى ما يرضى الله ورسوله مقتصرون، وعمالم يشرعه الله متحادون .

وأما من نبذ القرآن وراءه فلم يعمل بما أنزل لأجله فليس من أهل القبلة بل من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون وإن تلاه بلسانه تلاوه وهو يتدين بشرك كما يتدين به الأولون وتنسك به المتحدون، ومجرد تلاوة القرآن بلا عمل فيما هو الموجب لأنزله من التوحيد لإله كل العبيد وانحاز عن منافيه من الشرك الذي لا يغفره إلا بالتوبة منه والتجريد لا تخرجه تلك التلاوة عن ملة الأولين قال سبحانه وتعالى: ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ ولهذا يوجد ما أحدث من الشرك والبدع قد تفرق فيه أهله فكان لكل قوم منهم معتقد يعتقدون فيه دفع الضر وجلب الخير يهتفون باسمه عند نزول الشدة نائياً كان المعتقد أو ميتاً، فكل منهم يدعو معتقده ليكشف عنه شدته ويفرج كربته ويجلي غمه، فالموحدون لله وحده لا شريك له العاكفون على توحيده من اخلاص الدعوة له هم أهل القبلة قال تعالى: ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وضدهم هؤلاء المشركون العاكفون على ما يرجونه ويخافونه من دون الله ويتخذونه من تلك المعتقدات في الأحياء الغائبين والأموات يشركون به في عبادة الله ومعاملته فيرجونه ويفرج كربتهم ويكشف شدتهم راغبين راهبين منيين إليه متوكلين عليه أو ليكن شافعاً لهم عند الله في قضاء مطالبهم، فقد عطلوا توحيد الله تبارك وتعالى في ألوهيته وصمديته بأشراكهم معه في عبادته ومعاملته وجعلهم الدين لغيره، ونفي الصانع القادر لم يقل به أحد من المشركين الذين كفرهم رسول الله ﷺ وقتلهم، فإن المشركين الأولين لم يكن أحد منهم يقول إن العالم له خالق بل ولا يقولون إن الله له إله يساويه في صفاته هذا لم يقله أحد من المشركين بل كانوا مقرين بأن خالق السموات والأرض واحد كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقوله: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن

كنتم تعلمون سيقولون لله ﴿ وقوله: ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ﴿ وقوله: ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله ﴿ وكانوا يقولون في تلييتهم: لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، كما يقول هؤلاء المشركون الذين لمشاكلهم مقتفون ان هؤلاء الذين اعتقدناهم ودعوناهم ورجوناهم هم وسائلنا ووسائلنا إلى الله فإنه فوض إليهم وأعطاهم فلهم ما يشاؤون ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومنهم من يصرح بقوله وهم في الكون يتصرفون فويخهم الله تعالى وذمهم ولامهم وضرب لهم الأمثال في ذلك فقال عز من قائل: ﴿ ضرب الله لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيما نكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴿ الآية ولكن تتأله قلوبهم وألستهم إما نبياً أو ولياً أو ملكاً أو غيرهم مما يصورونه على صورة أحد هؤلاء يتخذونه واسطة تقرهم إلى الله زلفى وتشفع لهم كما قال تعالى: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴿ وقال تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل الله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴿ وقال تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿ الآية وقال تعالى: ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴿ فقد قطع الله تعالى بهذه الآيات جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعاً قطعاً يعلم من تأمله ويحقق من تدبره ان من اتخذ من دون الله ولياً أو شافعاً فهو كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت قال تعالى: ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴿ فمن استمسك بغير الله في حال شدته وكرهه وغمه فدعاه ورجاه بما لا يقدر عليه إلا الله فليس في يده ممن استمسك به سواه تعالى إلا كمن يستمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئاً فلو علم المستمسك هذا الحال لما اتخذ من دون الله ولياً ولا شفيعاً، وهذا بخلاف أهل القبلة فإنهم لله مخلصون وله في العمل مستسلمون ومحسنون وفي اتباع ماجاء من الله على لسان رسوله منقادون وباللّه معتمدون وبالعروة الوثقى مستمسكون وهي العقد الوثيق المحكم في الدين التي لا انفصام لها لقوتها وثباتها

وهي الكلمة الطيبة لا إله إلا الله قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ والطاغوت كل باطل ليس من الدين وكل ما طغى من شيطان جني أو أنسي وكل عبادة ليست لله فهي باطلة، فالمشرك إنما يتخذ أحداً غير الله لما يحصل له في زعمه من النفع وهو لا يكون إلا فيمن كانت فيه خصلة من أربع: إما أن يكون مالكاً لما يريد متخذة، فإن لم يكن مالكاً كان معيناً، فإن لم يكن كان ظهيراً، فإن لم يكن كان شفيعاً، فنفي سبحانه وتعالى هذه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفي الملك عن غيره والشركة والمظاهرة والشفاعة التي لأجلها وقعت المخالفة والعداوة والمخاصمة، وأثبت سبحانه شفاعة لانصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه لمن رضي عنه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي شَرِّهِمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴿الآية﴾ وإنما ذكر ذلك تعالى لأنهم دعوا الملائكة دعاء عبادة لشفاعتهم لهم، قاله المفسرون فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك، وكافية لمن عقلها على أن القرآن مملوء بأمثالها ونظائرها، ولكن الغفلة والجهل هما المؤديان إلى فهم قصور العام على السبب، فالأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية والشرك، ولم يميز بين ماعابه القرآن وذمه، وبين ما أنزل لأجله ودعا إليه، فصوّب المستقبل وحسنه، وهو لا يعرف حقيقة وصفه. وإنه الذي كان عليه الجاهلية أو نظيره أو أسوأ منه أو دونه فتنقض عرى الإسلام بذلك ويعود المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، وهذا بعينه مشاهد، فإنه قد آل الأمر إلى الشك بالشرك والتدين به في اتخاذ الوسائل والوسائط من الأولياء والأنبياء بل والشياطين من الجن والإنس المعاندين والأشجار والنيران والقبور يدعونهم ويرجونهم ويتوكلون عليهم وينسكون النسك لهم راغبين إليهم راهبين منهم ويستدلون على جواز ما اعتقدوه وفعلوه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ وإلى فعل الولايات لقبض النذور على الأموات لدفع ماحل من البلايا والمصيبات، ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات، وتنحر في باب قبته النحائر من الأنعام للتقرب إليه ورجاء ماله فيه، فهذا بعينه هو الذي كان عليه

عباد الأصنام. وقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « لا عقر في الإسلام » قال عبد الرزاق كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .

فكل ماتقدم مما ذكرنا داخل في معنى لا إله إلا الله التي أمرنا النبي ﷺ بمجاهدة الخلق وقتالهم حتى يقولوها ويتركوا المنافي لها من الإشراف بالله قولاً وعملاً واعتقاداً. وأما حقها فقد جعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه فعل الصلاة وإيتاء الزكاة منه، ومن العلماء من أدخل فيه فعل الصيام والحج. واستدلوا بحديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام فعد منه هذين الركنين فمن لم يقومهما مع القدرة عليهما لم يأت بالإسلام، إذ أركانه لا يقوم بعضها ولا يتوب عن بعض. واستدلوا أيضاً بحديث أبي بكر حين بعث خالد بن الوليد وأمره أن يقاتل الناس على خمس ويقول عمر لو ترك الناس الحج لقاتلناهم عليه، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا علياً يوم حنين فأعطاه الراية وقال: « أشرك ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك » فسار على ما شاء الله ثم وقف فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس فقال: « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » وفي رواية « إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل » فجعل من حقها الامتناع من الصلاة والزكاة مع الدخول في الإسلام كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم. وما يدل على قتال الجماعة الممتنعين من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُو إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا غزا لم يفر حتى يصبح فإن سمع مؤذناً وإلا أغار عليهم. وكان يوصي سراياه إذا سمعتم مؤذناً أو رأيتم مسجداً فلا تقتلوا أحداً. قال العلماء: معنى ذلك والمقصود فيه إذا أظهر قوم توحيد الله والقيام بشرائعه وجب الكف عنهم، لأن فعلهم ذلك دليل على إسلامهم. ثم إن أظهرهم منكراً ينكره الشرع ولم ينتهوا عنه إلا بقتال فللإمام قتالهم كما لو تركوا فرض كفاية فيقاتلهم على تركه. ولذلك أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد قتل الرجل

الذي أظهر الإسلام ظاناً أسامة أنه إنما قال الشهادتين والسلام خوفاً، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ الآية فإنه لم يدع الإسلام قبل ذلك، ثم انه قد قاله وصدر منه بلا وجود مناف له لافي معناه ولا فيما هو حق له، ولهذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتثبت لذلك. وقد بعث النبي ﷺ كتاباً فيه: «من محمد النبي إلى أهل عمان — وكان بعضهم يدعي الإسلام — سلام عليكم أما بعد فأقرأوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأدوا الزكاة وخطوا المساجد وإلا غزوتكم» أخرجه البزار والطبراني وغيرهما فهذا يدل على أنه كان يغير على الداخلين في الإسلام إذا لم يمتثلوا أمر الله ولم يقوموا بشرائعه فإن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقوموا الشرائع كف عنهم وإلا لم يمتنع عن قتالهم. وفي هذا وقع تناظر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه كفر من كفر من العرب فقاتلهم على الإسلام وقاتل أناساً يدعون الإسلام قد امتنعوا من أداء الزكاة قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» فقال أبو بكر رضي الله عنه: لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال فوالله لو منعوني عقلاً كان يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه، فقال له عمر رضي الله عنه: فوالله ما رأيت إلا أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. فأبو بكر رضي الله عنه أخذ قاتلهم بقوله ﷺ: «إلا بحقه» فدل على أن قتال من أتى بالشهادتين ومنع حقهما جائز، ومن حقهما أداء حق المال الواجب، وعمر رضي الله عنه ظن أن مجرد الاتيان بالشهادتين يعصم الدم في الدنيا تمسكاً بعموم ألفاظ وردت وليست حال الأمر على ذلك، ثم ان عمر رضي الله عنه رجع إلى موافقة أبي بكر رضي الله عنهما. وقد خرج النسائي قصة توافق مناظرة أبي بكر وعمر بزيادة وهي أن أبا بكر قال لعمر رضي الله عنهما: إنما قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ليأتوا بذلك كله». وخرجه ابن خزيمة في صحيحه وإنما قال أبو بكر لأقاتلن من فرق بين

الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، أخذاً والله أعلم من قوله إلا بحقها وفي رواية إلا بحق الإسلام، فجعل من حق الإسلام فعل الصلاة وإيتاء الزكاة كما أن من حقه أن لا يرتكب الحدود، وجعل كل ذلك مما استثنى من قوله إلا بحقها وقوله: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال يدل على أن من ترك الصلاة فإنه يقاتل لأنها حق البدن، وكذلك من ترك الزكاة فإنها حق المال، وهذا فيه إشارة إلى أن تارك الصلاة قتاله أمر مجمع عليه لأنه جعله أصلاً لقتال مانعي الزكاة مقيداً عليه وليس هو مذكوراً في الحديث الذي احتج به عمر، وإنما أخذه من قوله إلا بحقها فكذا الزكاة فإنها من حقها وكل ذلك من حقوق الإسلام، ويستدل أيضاً على قتال تاركي الصلاة بما في صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتُنكرون فمن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع» فقالوا: يارسول الله ألا نقاتلهم قال: «لا ماصلوا» وحكم ترك سائر أركان الإسلام أو واحد منها أن يقاتلوا عليها كما يقاتلوا على ترك الصلاة والزكاة. فروى ابن شهاب عن حنظلة عن علي ابن الأشجع أن أبا بكر رضي الله عنه بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه وأمره أن يقاتل الناس على خمس فمن ترك واحدة منهم فقاتله عليها كما تقاتل على الخمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام. قال سعيد بن جبیر قال عمر بن الخطاب: لو أن الناس تركوا الحج لقاتلناهم على تركه كما نقاتل على الصلاة والزكاة. فهذا الكلام في قتال الطائفة الممتنعة عن شيء من هذه الواجبات. وأما قتل الواحد الممتنع فأكثر العلماء على أنه يقتل الممتنع من الصلاة وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرهم ويدل على ذلك ما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري: (أن خالد بن الوليد استأذن رسول الله ﷺ في قتل رجل فقال: «لعله يكون مصلياً» فقال خالد: فكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال: «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق قلوبهم») وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عدي بن الخيار: (أن رجلاً من الأنصار حدثه أنه أتى النبي ﷺ فاستأذنه في قتل رجل من المنافقين فقال النبي ﷺ: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله» قال: بلى ولا شهادة له قال: «أليس يصلي» قال: بلى ولا صلاة له قال: «أولئك الذين نهانا الله عز وجل

عن قتلهم»)، فجعل النبي ﷺ المانع من قتله كونه يصلي فدل على أن من لم يصل يقتل، ولهذا قال في الحديث الآخر نهيت عن قتل المصلين فدل على أن غير المصلين لم ينه الله عن قتلهم. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: تارك الصلاة إذا كان واحداً يجبس حتى يموت وتقاتل الجماعة. وأما قتل الرجل الواحد الممتنع عن أداء الزكاة والصوم والحج مع القدرة فعن أحمد والشافعي ومالك أنه يقتل تارك الزكاة وهي الرواية المشهورة عنهم ويستدلون بحديث ابن عمر «أمرت أن أقاتل الناس» الحديث وأما الصوم فقال أحمد ومالك في رواية عنه: يقتل بتركه واستدلاً بما روى ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «أن من ترك الشهادتين أو الصلاة أو الصوم فهو كافر حلال الدم» قال الشافعي في رواية عنه وأحمد في الرواية الأخرى لا يقتل الواحد بل يؤذبه الإمام بالحبس والضرب على ما يرى حتى يصوم واستدلاً بحديث ابن عمر رضي الله عنهما وغيره مما في معناه فإنه ليس فيه ذكر الصوم ولهذا قال أحمد في رواية أي طالب الصوم لم يجيء فيه شيء بهذا والله أعلم قبل أن يثبت عنده حديث ابن عباس فقد رواه ابن الجوزي جاني عن ابن عباس قال: ولا أحسبه إلا رفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهنّ أسس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والصلاة وصوم شهر رمضان من ترك منهن واحدة فهو كافر حلال الدم» ورواه قتيبة بن سعيد عن حماد بن زيد موقوفاً مختصراً ورواه سعيد بن زيد أخو حماد عن ابن مالك بهذا الإسناد مرفوعاً وقال من ترك منهن واحدة فهو بالله كافر ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً وقد حل دمه وماله ولم يذكر ما بعده. وأما الحج إذا تركه رجل واحد مع القدرة عليه فعن أحمد في القتل بتركه روايتان، وحمل بعض أصحابه رواية قتله على من أخره عازماً على تركه بالكلية، أو أخره مع غلبة ظنه على موته في ذلك العام، فأما من أخره معتقداً أنه على التراخي كما يقوله بعض العلماء فلا قتل في ذلك وقد روي عن عمر رضي الله عنه ضرب الجزية على من لم يحج، وقال ابن عيينة المرجئة يسمون ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم وإن ترك الصلاة والزكاة خاصة كفر دون الصيام والحج وقال: قد روي عن عمر ضرب الجزية على من لم يحج وقال ليسوا بمسلمين ولا إله إلا الله مفتاح الجنة وحققها أسنانه ولا مفتاح إلا بأسنان رواه البخاري عن وهب بن منبه ولفظه: (قال البخاري: قيل لو هب بن منبه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله

قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح .

(وأما استحلال) المحرمات المجمع على حرمتها أو بالعكس فهو كفر اعتقادي لأنه لا يحدد تحليل مألحل الله ورسوله أو تحريم ما حرم الله ورسوله إلا معاند للإسلام ممنوع من التزام الأحكام غير قابل للكتاب والسنة واجماع الأمة ، وذلك كما لو جحد حل بهيمة الأنعام أو غيرها مما أحله الله في كتابه ورسوله أو في سنته مما لم يجر فيه اختلاف بين الأمة ، بخلاف حل النبيذ ونحوه من المسائل الإجتهدية المختلف فيها بين العلماء فلا تكفير بذلك ، أو جحد أمراً مجمعاً عليه قال بعضهم : اجماعاً قطعياً لاشبهة فيه ولا تأويل ولذلك لم يحكم كثير من الفقهاء بكفر ابن ملجم قاتل أفضل الخلق في وقته ولا بكفر مادحة عمران بن حطان حيث قال :

ياضرية من تقى ماأراد بها إلا ليلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

وقد رد عليه في ذلك فقيـل :

ياضرية من شقى لم يزل أبدا بها عليه إله الخلق غضبانا
إني لأعلم أن الله جاعله أوفى البرية عند الله خسـرانا

وكذا قد اختلف العلماء في كفر الخوارج الذين قتلوا الموحدين وأخذوا أموالهم بالتأويل مثل قوم ذي الخويصرة التميمي فإن من الفقهاء من لم يحكم بكفرهم لادعائهم وتأويلهم في نصرة دين الله والاجتهاد فيه وفي اظهاره طالبين المصلحة في ذلك .

الاعتقاد المكفر أقسام :

(وأما قولكم ثم الكفر كفران كفر اعتقاد وكفر عمل فكفر الاعتقاد حكمه قتل مرتكبه وسبي ذراريهم ونهب أموالهم وهؤلاء الذين بعث رسول الله ﷺ يدعوهم

إلى التوحيد ولا يدفع عنهم هذا الحكم ويعصمهم إلا الاقرار والاعتراف منهم
 بالشهادتين وبكل ما علم بالضرورة بحجته ﷺ به) فنقول الاعتقاد المكفر أقسام
 (منها) قدم العالم وبقاؤه والشك في ذلك (ومنها) تناسخ الأرواح وانتقالها من
 شخص في شخص أبد الأبد (ومنها) اثبات شريعة غير الشريعة المحمدية وإن
 للشريعة باطناً لا يعلمه العلماء ولها ظاهر وهي خيالات يقولون بها ويعملون (ومنها)
 أن ظواهر الشريعة وأكثرها ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان ويكون في
 الآخرة والحشر والقيامة واللجنة والنار ليس منها شيء على مقتضى لفظها مفهوم خطابها
 وإنما خوطب بها الخلق على جهة المصلحة لهم إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم
 (ومنها) خلق القرآن (ومنها) التكذيب بالشفاعة التي أثبتها الله في كتابه والصرط
 والميزان (ومنها) خيانة الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام وأن المبعوث أولاً علي بن
 أبي طالب أو أن عائشة لم يرثها الله (ومنها) مجالسة الله تعالى لبعض خلقه في
 الدنيا وحلوله في الأشخاص (ومنها) تجويز الكذب على الأنبياء أو تكذيبهم فيما أتوا
 به أو أنهم كتموا منه شيئاً (ومنها) القدح في كلام الله من كونه سحراً أو شعراً أو
 منسوخاً جملة (ومنها) نسبة الصاحبة والولد إليه سبحانه وتعالى (ومنها) اعتقاد
 الذين اتخذوا من دون الله أولياء لينصروهم ويشفعوا لهم ويقربوهم كالذين قالوا
 ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى والذين قال الله فيهم: ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون
 الله أولياء كمثل العنكبوت بيثاً ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم
 من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ الآية وقال
 تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ﴾ الآيتين وقال
 تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند
 الله ﴾ الآية وكل هذه الفرق من أصحاب الاعتقادات المتقدمة كفار بإجماع المسلمين
 والذين بعث رسول الله ﷺ فيهم يدعوهم إلى التوحيد فأبوا وامتنعوا فجاهدهم
 لكفرهم وعنادهم، وأنزل القرآن بسبب اعتقادهم لم يكونوا يعتقدوا^(*) في معتقاداتهم
 كشف ضرر أو جلب نفع بل إنما قصدهم رضا رب العالمين والقرب إليه والتحصيل

• في الأصل « يعتقدوا » والصواب « يعتقدون » .

لما لديه . لكن ضرهم جهل الكيفية الموجبة لحسن الماهية التي يكون بها التعبد أجل مطلوب ومقرباً إلى المحبوب قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ وهم قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وكانوا إذا جاءتهم الشدة أخلصوا الدين لله وحده قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَتَتَسَوْنَ مَا تَشْكُرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الآية والمتخذون ولياً ونصيراً من دون الله أو معه من أهل هذا الزمان اعتقادهم أسوأ وأشد جنائية ممن نزل القرآن بسبب اعتقادهم وأمر الله نبيه ﷺ بجهادهم فان من تأمل أحوال هؤلاء المشركين الذين يرجون من معتقداتهم كشف الشدائد وتفرج الكربات ودفع المضار وقضاء المطالب والدعوات وتيسير الحاجات التي لا يقدر على كشفها وتفرجها ودفعها وجلبها إلا الله رب العالمين من سلامة غائب وعافية مريض ورزق وتحميل عقيم مع أحوال مشركي الأولين علم يقيناً ان بينهم مباينة كلية في اعتقاد الضر والنفع، ومجانسة حسية في اتخاذ تلك المعتقدات للشفاعة وقضاء الحاجات، والأولون وان تفرق اعتقادهم وتنوع بما ينسبونه لله، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً أجناسهم فليس وجود هذه الأجناس من الحباث المتقدمة واجتماعها شرطاً في اثبات حكم الله ورسوله من القتل والسبي وخلود النار، هذا لم يقل به عالم من العلماء بل وجود واحد منها كاف، فانه لم يقل أحد بأن الكفر الاعتقادي لا يحكم به على المعتقد إلا إن اعتقد اجتماع الصاحبة والولد مع وجود معين يعاونه وظهير يظاهاه وشريك يستحق معه وشفيع عنده بلا اذنه . بل اتفق العلماء قاطبة على أنه لو وجدت من ذلك خصلة لكفت في الحكم عليه إلا أن الأولين اشد حذقهم ومعرفتهم معنى الإله وموضوعه فإنه عندهم ، كل مألوه ومتأله أبت قلوبهم أن تنفر ماتألهته لتتقرب إلى الله وتنال بهم رضاه، ونفي الإله غير الله باللسان مع العكوف عليه في الاعتقاد والجنان يدعوه ويرجوه ويتوكل عليه ويقصده ليتقرب بشفاعته إليه لا يوجب نفيه حقيقة، والإيمان بالقرآن قول باللسان واليوم الآخر بالجنان، وفعل الصلاة والصوم وسائر الأعمال يشترط لصحتها وجود التوحيد والإسلام . والشرك الأكبر في القول والعقيدة منافياً

لشهادة برسالة المبعوث بالحجة البيضاء والفرقان، وشهادة أن محمداً رسول الله لاتغني عن شهادة أن لا إله إلا الله، وهذه الشهادة لاتصح ولا تعصم مع التأله مع الله. فهذا الاعتقاد حصلت المخاصمة والعداوة ولأجله حصل التمييز بين الفرقة الناجية والمالكة، وشرع الجهاد لدحضه مع سائر الفساد فيعبد الله وحده وحتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله. ونحن لم نجاهد ونعاد ونوال إلا في ذلك، ولم يجر بيننا وبين الخلق اختلاف في سائر المحرمات ووجوب آزالتها في أصل الدين الذي هو منهاج المرسلين وصراط رب العالمين الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله فلا يكون لسواه ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، مع ازالة سائر الفساد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها استحلال ما حرم الله كالفواحش مظهر منها وما يطن، وأكل مال اليتيم، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو اثبات مانفى الله، أو نفى ما أثبت، أو تحريم ما أحل الله كالزينة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وكعمل أهل الجاهلية من البحائر والسوائب معتقداً لحلها، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش مظهر منها وما يطن ولا أحد أحب إليه المدح منه فلذلك مدح نفسه ».

وكما يكون الكفر بالاعتقاد يكون أيضاً بالقول كسب الله أو رسوله أو دينه أو الاستهزاء به قال تعالى: ﴿ قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لاتعتدوا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ وبالفعل أيضاً كاللقاء المصحف في القاذورات والسجود لغير الله ونحوهما. وهذان وإن وجدت فيهما العقيدة فالقول والفعل مغلبان عليها لظهورهما وإسلام أهل العقائد المكفرة والرجوع عنها والبراءة منها مع تجديد الشهادتين وإخلاص الألوهية لله وحده قولاً وعملاً واعتقاداً فلا يدين الله إلا بذلك ولا يرضى إلا به من نفسه وغيره مع الإيمان بجميع الرسل ومعجزاتهم وانهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة وأن محمداً ﷺ خاتمهم وأفضلهم مع الإيمان بما تضمنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ﴾ الآية وكذا أولياء الله والترضي عنهم والاقرار بكراماتهم لاعبادتهم واتخاذهم في جلب النفع ودفع الضر اللذين لا يقدر على جلبهما ودفعهما إلا الله تبارك وتعالى ولا اثبات الشفاعة التي

نفاها الله في كتابه أو نفي ما أثبتنا فيه، بل لا بد من اثبات ما أثبتته الله منها ونفي ما نفاه. وكذا المستحل لما حرم الله، والمحرم لما أحل، يحتاج مع الاتيان بالشهادتين إلى تحليل الحلال وتحريم الحرام، فثبت ما أثبت الله ونفي ما نفاه، ومن حكم عليه باسلام فسب الله أو رسوله أو دينه فهل تقبل توبته ظاهراً على قولين للعلماء. فمنهم من قال تقبل توبته وهو أصح قولي الشافعي ومن وافقه، ومنهم من لا يقبلها وهي الرواية المشهورة عن أحمد، وكذا الخلاف فيمن تكررت رده والزندق وهو المنافق الذي يظهر الإسلام ويطن الكفر، والكافر الأصلي تقبل توبته قولاً واحداً، وإذا لم يتب حكمه القتل وسبي الأهل والأولاد، والمرتد يستتاب على الأصح فإن تاب وإلا قتل، وماله فيء إلا في حالة الحرب، وإذا نفي عن الإسلام فليس عليه الجزية، وإذا علمت الدعوة فلا يلزم الامام تجديدها قبل الغارة بجيشه لفعل النبي ﷺ وأصحابه من بعده.

تارك الصلاة كافر، واقامة الدليل عليه :

(وأما قولكم وكفر العمل هو الكفر باتيان الكبائر وارتكابها كما ورد في تارك الصلاة انه يكفر بتركه إياها أخرجه مسلم في صحيحه وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه أهل السنن وصححه الترمذي، ومن حديث بريدة بن الحصين الأسلمي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » أخرجه الطبراني وقال الاسناد صحيح على شرط مسلم، ومن حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك » وفي هذا الباب أحاديث كثيرة يسمي فيها رسول الله ﷺ تارك الصلاة عمداً كافراً .

فنقول : أما الكبائر من الذنوب فقد تقدم كلامنا فيها ويأتي له إن شاء الله تمة .

وأما الصلاة فهي لغة : الدعاء بخير قال تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم

وعدي لتضمنه معنى الانزال أي انزل رحمتك عليهم، وقال النبي ﷺ: «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل» وشرعاً: أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختمة بالتسليم، ولا يرد عليه صلاة الأخرس ونحوه لأن الأقوال فيها مقدرة، والمقدر كالموجود، وهذا التعريف باعتبار الغالب فلا يرد صلاة الجنابة وسميت صلاة لاشتغالها على الدعاء، وقيل لأنها ثانية الشهادتين، كالمصلي من خيل الحلبة، واشتقاقها من الصلوتين وأحدهما صلى كعصى وهما عرقان من جانبي الذنب، وقيل عظمان ينحنيان في الركوع والسجود، وفرضت ليلة الاسراء. أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث أنس كانت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بسنة والأول هو المشهور عند الأكثر، وكان في رجب وقيل في رمضان والأول هو الصحيح، وترك الصلاة كفر عملي يشترك فيه عمل القلب والجوارح كالاستهانة بالمصحف وقتل الأنبياء لا ككفر سائر أعمال المعاصي التي لا تخرج عن الملة كما توهمه صاحب المقدمة لأن عمل القلب هو ومحبه وانقياده للأوامر باق على حاله وإنما غلب عليه افراط الشهوة وران الغفلة ولعله أن يكون مستدلاً بحديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان منه من العمل» أخرجه في الصحيحين وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال لمعاذ وهو رديفه على الرحل: «يامعاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرمه الله على النار» قال: يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشرون قال: «إذا يتلکوا» فأخبر بها معاذ عند موته. متفق على صحته. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» رواه البخاري وعن أبي ذر أن النبي ﷺ قام بآية في القرآن يرددها حتى صلاة الغداة. وقال: «دعوت لأمتي وأجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم تركوا الصلاة» فقال أبو ذر: أفلا أبشر الناس قال: «بلى» فانطلق فقال عمر: إنك ان تبعث إلى الناس يتكلموا عن العبادة فناده أن ارجع فرجع وبآية: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَان تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رواه

الإمام أحمد في مسنده، وفي المسند أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة : ديوان لايعبأ الله به شيئاً وديوان لايترك منه شيئاً وديوان لايعفوه الله، فأما الديوان الذي لايعبأ به فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم تركه أو صلاة تركها فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء، وأما الديوان الذي لايترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة، وأما الديوان الذي لايعفوه الله فالشرك قال الله عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ وفي المسند أيضاً عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد من أتى بهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » وفي المسند أيضاً من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة فإن أتمها وإلا قيل انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت به الفريضة من تطوعه ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك » رواه أهل السنن وقال الترمذي : حديث حسن وبما ثبت عنه ﷺ أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وفي لفظ آخر : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » وفي الصحيح قصة عتبان بن مالك وفيها أن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يتغني بذلك وجه الله وفي حديث الشفاعة يقول الله عز وجل : « وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله، وفيه فيخرج من النار من لم يعمل خيراً قط » وفي السنن والمسانيد قصة صاحب البطاقة الذي ينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مدّ البصر ثم يخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فترجح سيئاته ولم يذكر في بطاقته غير الشهادة ولو كان فيها غيرها لقال ثم يخرج له صحائف حسناته فتوزن بسيئاته فيكفي في هذا قوله فيخرج من النار من لم يعمل خيراً قط إذ لو كان كافراً لكان مخلداً في النار غير خارج منها، فظاهر هذه الأحاديث المنع من تكفير تاركها وتخليده في النار والوجوب له من الرجاء ما يرجي لسائر أهل الكبائر، ولأن الكفر جحود التوحيد والاستهزاء به ومعاداته ومشاقة أهله ليجعوا عنه وانكار الرسالة والمعاد

وجحد ما جاء به الرسول عناداً وهذا مقر بالوحدانية عامل بها شاهد أن محمداً رسول الله مؤمن بالله وبما جاء عن الله ومن أنه تعالى يبعث من في القبور، فكيف يحكم بكفره. والإيمان هو التصديق وضده التكذيب لا ترك العمل أم كيف يحكم للمصدق بحكم المكذب.

(الجواب عن ذلك كله) ان رواية هذه الأحاديث التي قد يستدل بظاهرها على عدم تكفير تارك الصلاة هم الذين حفظ عنهم تكفير تاركها بأعيانهم وهم أعلم بمعناها من غيرهم قال أبو محمد ابن حزم وغيره من الأئمة الأعلام أن كبار الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من التابعين يكفرون تارك الصلاة مطلقاً، ويحكمون عليه بالردة. منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابنه عبد الله وابن مسعود وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب وعبادة بن الصامت وغيرهم من سائر الصحابة: (أن من ترك صلاة فرض واحد متعمداً حتى خرج وقتها فهو كافر مرتد قالوا ولا يعلم هؤلاء مخالف من الصحابة ومن ذهب إلى تكفيره التكفير المذكور من غير الصحابة أحمد بن حنبل والشافعي في أحد روايتيه وهي المشهورة عند بعض أصحابه واسحاق بن راهوية وعبد الله بن المبارك والنخعي والحكم بن عيينة وأبو أيوب السجستاني وأبو داود الطيالسي وغيرهم من كبار الأئمة والتابعين كلهم قد قال بكفر تاركها وأنه ليس من أهل الإسلام بل يقتل كفراً وماله فيء ما لم يتب. وتلك الأحاديث المتقدمة أعني قوله عليه السلام: «من لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة» ونحوها جميعها محمولة عند من تقدم ذكرهم على عدم المحافظة عليهن في وقتهن مع الاتيان بهن بعده، بدليل الأحاديث الواردة وفي تركها بالكلية فإنها مقيدة وتلك مطلقة والمطلق يحمل على المقيد إذا أمكن الحمل ولم يوجد نسخ، ولذلك لم يأخذ رواية تلك الأحاديث المطلقة ولا غيرهم من الأئمة الأعلام بظاهرها في عدم تكفير تاركها بل حملوها على الآيات والأحاديث المقيدة الآتي بيانها. وأما اخراج الله من النار من لم يعمل خيراً قط بل كفى عن العمل وجود أدنى إيمان في قلبه وقرار بالشهادتين في لسانه فهو إما لعدم تمكنه من أداء ما افترض الله عليه من أركان الإسلام بل بمجرد أدنى إيمان في قلبه وشهادة بلسانه خرمته النية لكنه قد عمل عملاً مفسقاً به لوجود

ماصدر منه عالماً به فاستحق دخول النار عليه وإما لكونه نشأ في مكان قريب من
 أهل الدين والإيمان فلم يعلم ماأوجب الله على خلقه من تفاصيل الدين والإيمان
 والإسلام وأركانه، بل جهل ذلك ولم يسأل أهل الذكر عنه، وبأن الله أوجب على خلقه
 المكلفين التفقه في الدين وإن لم يحصل إلا بقطع مسافة كثيرة غير معذور بهذا الجهل
 إذ مثله لايجهل ذلك لقربه من المسلمين فيعاقبه الله على ترك تعلم ماأوجب الله عليه،
 ولهذا لايجل في النار إن لم يوجد منه مناف للإسلام من إنكار أمر علم من الدين
 ضرورة ولم يمتنع من اجابة إمام المسلمين إذا دعاه للتقويم أركان الدين بل هو مؤمن بالله
 وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر لاينكر منه شيئاً وأركان الإسلام كلها،
 لكنه جهل تفاصيل ذلك وأحكامه ومايجب عليه منه، والإيمان يتفاوت ويختلف
 بحسب أحوال الخلق فمنهم من إيمانه كالجبال الراسيات بحيث لايرزحه مزحج
 فيزيد إلى ماالنهاية له، ومنهم من ينقص إيمانه حتى ينتهي إلى مثقال الذرة. فالأول
 سببه الطاعة والعلم والتفكر في مصنوعات الله، والثاني سببه المعاصي والجهل والغفلة
 والنسيان. وهذا السبب الثاني لايجب الخلود في النار حيث وجد الإيمان ومااستطاع
 عليه من أركان الإسلام لكن لجهله أو غفلته أو نسيانه أو معاصيه وهن إيمانه، ولايلزم
 من وهنه عدم فعل الصلاة وسائر أركان الإسلام بمايقدر عليه، بل قد يفعلها وإيمانه
 ضعيف حتى ينتهي إلى مثقال الذرة وإطلاق عدم العمل عليه لكونه عمل جاهل،
 ولذلك أكثر العلماء منهم الإمام مالك يقول بعدم صحة عبادة الجاهل بتفاصيل
 أعمال الصلاة فلا يميز بين أركانها وواجباتها وسننها وكذا غير الصلاة فكانه في هذه
 الحالة لم يعمل وإخراجه من النار ودخوله الجنة سببه الإيمان الذي صدر منه لايجرد
 فعل الصلاة من غير إيمان، ولذلك لم يقبل الله صلاة المنافق ولاسائر عمله بل جعله
 الله في الدرك الأسفل من النار مخلداً مع أنه يفعل الصلاة وسائر الطاعات حتى
 الجهاد في وقت النبي ﷺ وغيره، لكن لما كان صلاته وعمله من غير إيمان بطل من
 أصله ولايخرج بعمله ذلك عن الكفر إلا أنه ظاهراً يعصم ماله ودمه فأما مجرد الإيمان
 بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر وسائر ماكلف الله به العبيد مع
 العمل فهو الكلي والصلاة قوام الدين وعماد اليقين فمن تركها فقد أضاعه .

الأدلة على كفر تارك الصلاة :

أولاً : الاستدلال بالكتاب :

(وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة واجماع الصحابة) أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب فيه تدرسون ان لكم فيه لما تخيرون أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ إلى قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ فوجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين وإن هذا الأمر لا يُلِيق بحكمته ولا حكمه ، ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين بقوله يوم يكشف عن ساق وأنهم يدعون إلى السجود لربهم تبارك وتعالى فيحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم على ترك السجود مع المصلين في دار الدنيا وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون كصيافي البقر ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين ولو كانوا ممن جحد وجوبها رأساً ولم يدع الإيمان بها لذهب مع الذاهبين الذين قبل لهم ألا تردوا أو تتبع كل أمة ما كانت تعبد إذ لا يخلو أن يكون من أحد الطائفتين ولم يبق مع من يدعي الإسلام العاملين به وغير العاملين .

الدليل الثاني :

قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ فلا يخلو هؤلاء إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر وجعلهم من المجرمين أو مجموعها فإن كل واحد منها مستقل بذلك فالدلالة ظاهرة وإن كان مجموع الأربعة فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم وإلا فكل واحد منها مقتضى للعقوبة إلى ما هو مستقبل بمجموعهم ومن المعلوم أن ترك الصلاة وما ذكر

معه ليس شرطاً في العقوبة على التكذيب بيوم الدين بل هو وحده كاف في العقوبة فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك إذ لا يمكن قائلًا أن يقول لا يعذب الكافر ولا يحكم عليه بالكفر إلا من جمع هذه الأوصاف فإذا كان كل واحد منها موجباً للإجرام، وقد جعل الله سبحانه وتعالى المجرمين ضد المسلمين، كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسَعَرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ فجعل ضد المؤمنين.

الدليل الثالث :

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرِّسَالَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فوجه الدلالة أنه تعالى علق حصول الرحمة لهم بفعل هذه الأمور فلو كان ترك الصلاة لا يوجب تكفيرهم وخلودهم في النار لكانوا مرحومين بدون فعل الصلاة والرب تعالى إنما جعلهم على رجاء الرحمة إذا فعلوها.

الدليل الرابع :

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال أهل المعاني السهو في الشيء تركه من غير علم به، والسهو عنه تركه مع العلم به، والفرق بين الساهي والناسي أن الساهي متى ذكر تذكر، والناسي لا يتذكر مع التذكير. وقد اختلف السلف الصالح في معنى السهو عنها فقال سعد بن أبي وقاص ومسروق بن الأجدع وغيرها هو تركها حتى يخرج وقتها، وقد روى ذلك في حديث مرفوع قال محمد بن نصر المروزي قال: حدثنا شيبان بن أبي شيبة قال: حدثنا عكرمة بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد رضي الله عنهما أنه سأل رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: «الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها» وقال حماد بن زيد حدثنا عاصم عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: يا أبتاه أرايت قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ﴾

صلاتهم ساهون ﴿﴾ أينا لا يحدث نفسه قال : انه ليس ذلك ولكنه اضاءة الوقت . وقال حيوة بن شريح أخبرني أبو صخر أنه سأل محمد بن كعب القرظي عن قوله تعالى : ﴿﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴿﴾ قال : هو تاركها ، ثم سألته عن الماعون قال : منع المال من حقه وأكثر المفسرين على أنه اسم شامل لكل ما يحتاج إليه كإبرة وفاس وقدر وقصعة وآنية البيت إذا طلبت للعارية كما صححه الحاكم عن ابن عباس فهو اسم شامل لجميع أنواع المعروف ، وحصول الويل شرط في اجتماع الثلاثة غالباً كما جاء عن عكرمة حيث سألته بسام قال : الماعون القدر والفاس والدلو قال بسام : قلت لعكرمة : من منع هذا فله الويل قلت : لا ولكن من جمعهم من رأى في صلاته وسها عنها ومنع هذا فله الويل وإلا فمجرد السهو عنها كاف في حصول الويل وإن لم يوجد المنع لكن وصف الساهين بالمانعين للحكم الأغلبى ومجرد المنع بلا سهو ولا مراآة لا يوجب الويل إلا على من يقول بوجوب العارية ، ولعله مع الاضطراب إليها ولم يلحق ربا ضرر بإعارته إياها ولم يكن وقت الاستعارة محتاجاً إليها وإلا فربها إذن أحق بها فلا تجب عليه الإعارة ، إذا علم هذا فالوعيد بالويل مطرد في القرآن للكفار كقوله تعالى : ﴿﴾ فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴿﴾ وقوله : ﴿﴾ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها ﴿﴾ إلى قوله : ﴿﴾ ولهم عذاب مهين ﴿﴾ وقوله : ﴿﴾ ويل للكافرين من عذاب شديد ﴿﴾ إلا في موضعين منه وهما في ﴿﴾ ويل للمطففين ﴿﴾ وويل لكل همة ﴿﴾ فعلق الويل بالتطفيف وهو نقص المكيال والميزان والمطفف الذي يخس في الكيل والوزن ومثله العد والذرع قال الزجاج : وإنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان ونحوهما مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف . والههاز كثير الطعن في الناس ويكون باليد والعين أيضاً واللماز آكل لحوم الناس باغتيابه لهم واللمز هو العيب ومنه قوله تعالى : ﴿﴾ ولا تلمزوا أنفسكم ﴿﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً فيجعل فيه من العيب ماليس فيه ، إذا فهم ذلك فقد علق سبحانه الويل بالتطفيف والهمز واللمز وهذا لا يكتفي به بمجرد فويل تارك الصلاة إما أن يكون ملحقاً بويل الكفار أو بويل الفساق والحاقه بويل الكفار هو الحق لوجهين :

أحدهما : أنه قد صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال لو تركوها

لكانوا كفاراً ولكن ضيعوها عن وقتها فجعل تركها كفراً.

الثاني : ماسنذكره من الأدلة الدالة على كفره يوضحه الدليل الخامس هو قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هو واد في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه . قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إن أودية جهنم لتستعيز منه ومن حره يسيل قيحاً ودماً . قال كعب : هو أبعد قعرأ وأشدّها حرأ فيه بئر تسمى البهم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البهم فتستعر منه لشدة حرارته وعذابه وما أعد الله فيه لأعدائه فوجه الدلالة من الآية أن الله تعالى جعل هذا المكان لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات ولو كانوا مع عصاة المسلمين لكانوا في الطبقة العليا من جهنم ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو من أسفلها فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام بل من أمكنة الكفار ، وفي الآية دليل آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴿ فلو كان مضيع الصلاة مؤمناً لم يشترط في توبته الإيمان فإنه يكون تحصيلاً للحاصل (فإن قيل) قد قال عبد الله بن مسعود وإبراهيم النخعي في تفسير أضاعوا الصلاة بأن أخروها عن وقتها لغير عذر ، وقال سعيد بن المسيب : هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ، ولا يصلي العصر حتى يأتي المغرب ، ومفهوم قولهم أن المضيعين عن وقتها يصلونها قضاء ومن أخرها عن وقتها حتى خرج ثم قضاها بعد ذلك فهو فاسق لا كافر مرتد ، وأيضاً قد ورد في السنة أن ذلك الوادي الذي فيه تلك البئر البهم أعده الله لمن لم يتب من الزناة ومدمني الخمر وأكلة الرى وعاق والديه وشاهد الزور وهؤلاء فسقة ليسوا بكفار إذا لم يستحلوا ذلك ، والطبقة العليا من النار إنما هي للعصاة من الموحدين وهذا الغي فيها (الجواب) ان الاضاعة ليست خاصة في تأخيرها عن الوقت مع القضاء بعد ذلك بل هي في من تركها بالكلية أولى ولذلك ذهب عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة والتابعين إلى تكفير تاركها مطلقاً وأولوا الآية على ذلك فالتارك أخص والاضافة أعم ، وقد قال مجاهد وقادة : هم في هذه الأمة أضاعوا الصلاة أي تركوا الصلاة المفروضة فلم يأتوا بها والله سبحانه أوعد المضيعين للصلاة بهذا الغي ولأمانع من اشتراك الكافرين والفساقين في نوع المعذب فيه ويختلفون في ألمه إذ العذاب على الكافر أشد منه على العاصي والله

على كل شيء قدير. وظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما كغيره من الصحابة أن الغي في جهنم خاصة لافي غيرها من طبقات النار إذ هي سبع طبقات بعضها فوق بعض، قال علي كرم الله وجهه: تدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض. قال ابن جريج: النار سبع دركات أولها جهنم وفيها يعذب الله العاصين من الموحدين، وفي قعرها هذا الوادي الذي سمي الغي تستعبد منه جميع أوديتها يعذب الله فيه من أضاع الصلاة واتبع الشهوات، وإنما عذب فيه تارك الصلاة بالكلية مع الحكم عليه بعدم الإسلام والكفر المخلد في العذاب، لأن كفره عناد بعدم فعله لها لا جحود ولا انكار ولا نفاق فليس فيه من مجانسة أفعال من يستحق الدرجات الباقية لاشرك ولا غيره ولما كان المضيع للصلاة عن وقتها مع قضائها يعد فيه مجانسة في نوع فعل التارك لها بالكلية عذب معه في نوع المعذب فيه وفارقه في ألم العذاب لإيمانه الذي قد مات عليه ثم الثانية لظلي للنصارى، ثم الثالثة الحطمة لليهود، ثم الرابعة السعير للصابئين، ثم الخامسة سقر للمجوس، ثم السادسة الجحيم لأهل الشرك، ثم السابعة الهاوية للمنافقين، وهذا الترتيب يعلم أن عذاب أهل الشرك أشد عذاباً من الكافرين بترك الصلاة ولأرب في ذلك أن توحيد الله لا أفضل منه فهو أساس الصلاة وكل عبادة فلا تصح إلا به ولا تثبت إلا عليه ولذلك قدمت الشهاداتان رتبة على سائر الأركان.

الدليل الخامس:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فعلق أخوتهم في الدين بفعل الصلاة فإذا لم يفعلوها لم يكونوا اخوة للمؤمنين فلا يكونون مؤمنين لقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

الدليل السادس:

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صُلَىٰ وَلَكِنَّ كَذِبًا وَمَتْلً﴾ فلما كان الإسلام تصديق الخبر والانقياد للأمر جعل الله سبحانه له ضدين عدم التصديق وعدم

الصلاة وقابل التصديق بالتكذيب والصلاة بالتولي فقال: ﴿ولكن كذب وتولى﴾ فكما أن المكذب كافر فالتولي عن الصلاة كافر وكما يزول الإسلام بالتكذيب يزول بالتولي عن الصلاة. قال سعيد عن قتادة: ﴿لا صدق ولا صلى﴾ لا صدق بكتاب الله ولا صلى ولكن كذب وتولى كذب بآيات الله وتولى عن طاعته أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى وعيد على أثر وعيد أي الذم والعذاب أولى لك من غيره فأولى أي لك أيضاً وهذا وإن كان السبب خاصاً فالحكم عام إذ الآية محكمة إلى يوم القيامة.

الدليل السابع:

قوله تعالى: ﴿يأياها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ قال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول: هي الصلاة المكتوبة ووجه الاستدلال بالآية الكريمة أنه سبحانه حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن الصلاة والخسران المطلق لا يحصل إلا للكافرين/ فإن المسلم لو خسر بذنوبه ومعاصيه فأخّر أمره إلى الريح يوضحه أنه سبحانه أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد.

أحدها: أنه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المشعر بحصول كمال المسمى لهم فإنه إذا قيل زيد انعام والصالح أفاد ذلك اثبات كل العلم والصلاح له بخلاف ما إذا قيل عالم وصالح.

الثالث: اتيانه سبحانه بالمبتدأ والخبر معرفين وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ في قوله تعالى: ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ كما في وأولئك هم المفلحون والكاغرون هم الظالمون وأولئك هم المؤمنون حقاً ونظائره.

الرابع: ادخاله ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريتين قوة الاسناد واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿وإن الله هو الغني

الحميد ﴿ وقوله: ﴿ والله هو السميع العليم ﴿ وقوله: ﴿ وإن الله هو الغفور
الرحيم ﴿ ونظائر ذلك .

الدليل الثامن :

قوله تعالى : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد
ربهم وهم لا يستكبرون ﴿ ووجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه نفى الإيمان عن إذا
ذكر بآيات الله لم يخر ساجداً مسبحاً بحمد ربه ومن أعظم التذكير بآيات الله التذكير
بآيات الصلاة فمن ذكر بها فلم يتذكر ولم يصل ولم يؤمن بها لأنه سبحانه خص
المؤمنين بها بأنهم أهل السجود وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه فلم يؤمن بقوله
تعالى وأقيموا الصلاة إلا من التزم اقامتها .

الدليل التاسع :

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين ﴿ ذكر هذا
بعد قوله: ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴿ ثم توعدهم تعالى على ترك الركوع
وهو الصلاة إذا دعوا إليها ولا يقال إنما توعدهم على التكذيب ، فإنه سبحانه إنما
أخبرهم عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد، على أنا نقول لا يصر على ترك الصلاة اصراراً
مستمراً من يصدق بأن الله أمر بها أصلاً فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون
الرجل مصداقاً تصديقاً جازماً بأن الله سبحانه فرض عليه في كل يوم وليلة خمس
صلوات وأنه تعالى يعاقبه على تركها أشد العقاب وهو مع ذلك مصر على تركها
مصدق بفرضها أبدأ، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها
فليس في قلبه شيء من الإيمان ولا يصغي إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام
القلوب وأعمالها وليتأمل هل في الطبيعة أن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعد
والجنة والنار وإن الله تعالى فرض عليه الصلاة وأنه يعاقبه على تركها وهو محافظ على
الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي
على ذي الجهل المركب حيث أثبت الإيمان لمذميه مع تركه من الاسلام أعظم الأركان

وجعله الإيمان مجرد التصديق وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك وهذا من أن محل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم وليس من لازمه ولا يقتضيه القيام بالأركان ولا فعل طاعته وترك معصيته، ونحن نقول الإيمان هو التصديق ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق الخبر دون الانقياد لإيمان، وإلا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود والذين عرفوا أن محمداً ﷺ رسول الله كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ أي يعتقدون أنك صادق ﴿ولكن الظالمين آيات الله يجحدون﴾، والجحد لا يكون إلا بعد معرفة الحق، وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ وقال تعالى عن اليهود: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ وأبلغ من هذا قول النفر من اليهود لما جاؤا إلى النبي ﷺ وسألوه عما دلهم على نبوته فقالوا: نشهد إنك نبي، فقال: «ما يمنعكما عن اتباعي؟»، قالوا: إن داود دعا أن لا يزال في ذريته نبي وأنا نخاف أن اتبعناك تقتلنا يهود فهؤلاء قد أقرؤا بألسنتهم اقراراً مطابقاً لمعتقدهم أنه نبي ولم يدخلوا بهذا التصديق والاقرار في الإيمان لأنهم لم يلتزموا طاعته والانقياد لأمره. ومن هذا كفر أي طالب فإنه عرف حقيقة المعرفة أنه صادق وأقر بذلك بلسانه وصرح به في شعره ولم يدخل بذلك في الإسلام فالتصديق إنما يتم بأمرين:

والثاني: محبة القلب والانقياد.

ولهذا قال تعالى لإبراهيم: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾ وإبراهيم كان معتقداً لصدق رؤياه حين رآها فإن رؤيا الأنبياء وحي وإنما جعله مصداقاً لها بعد أن فعل ما أمر به وكذلك قوله ﷺ: «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» فجعل التصديق عمل الفرج ماعناه القلب والتكذيب تركه لذلك، وهذا صريح في أن التصديق لا يصح إلا بالعمل وقال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. وقد روي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ من غير وجه والمقصود أنه يمتنع من التصديق الجازم بوجوب الصلاة والوعد على فعلها والوعيد على تركها المحافظة على تركها واجتماعهما محال.

الإستدلال بالسنة :

(وأما الاستدلال بالسنة على ذلك فمن وجوه . الدليل الأول) ماروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » ورواه أهل السنن وصححه الترمذي .

الدليل الثاني : مارواه بريدة بن الحصين الأسلمي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » رواه الامام أحمد وأهل السنن وقال الترمذي : حسن صحيح اسناده على شرط مسلم .

الدليل الثالث : مارواه ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة فإذا تركها فقد أشرك » رواه هبة الله الطبري وقال اسناده صحيح على شرط مسلم .

الدليل الرابع : مارواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو حاتم بن حبان في صحيحه وإنما خص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم من رؤوس الكفرة وفيه نكتة بديهة وهي أن تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله عنها ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته فمن يشغله عنها ماله فهو مع قارون ومن يشغله عنها ملكه فهو مع فرعون ومن يشغله عنها رياسته من وزارة وغيرها فهو مع هامان وزير فرعون ومن يشغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف .

الدليل الخامس : مارواه عبادة بن الصامت قال : أوصانا رسول الله ﷺ فقال : « لاتشركوا بالله شيئاً ولاتركوا الصلاة عمداً فمن تركها عمداً خرج عن الملة » رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في سننه .

الدليل السادس: مارواه معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: « من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله » رواه الامام أحمد ولو كان باقياً على إسلامه لكانت له ذمة الإسلام.

الدليل السابع: مارواه أبو الدرداء قال: (أوصاني أبو القاسم ﷺ أن لا أترك الصلاة متعمداً فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة) رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في سننه .

الدليل الثامن: مارواه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة » وهو حديث صحيح مختصر ووجه الاستدلال به أنه أخبر أن الصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الحيمة يسقط عمودها فهكذا يذهب الإسلام بذهاب الصلاة وقد احتج الإمام أحمد بهذا الحديث بعينه .

الدليل التاسع: مافي الصحيحين والسنن والمسانيد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإتياء الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت » رواه مسلم ورواه الإمام أحمد في بعض ألفاظه « الإسلام خمس » فذكره ووجه الاستدلال به من وجوه :

أحدها أنه جعل الإسلام كالقبة المبنية على خمسة أركان فإذا وقع ركنها الأعظم وقعت قبة الإسلام .

الثاني: أنه جعل هذه الأركان في كونها أركاناً لقبة الإسلام قرينة الشهادتين فهما ركن والصلاة ركن والزكاة ركن فما بال قبة الإسلام تبقى بعد سقوط أحد أركانها دون بقية أركانها .

الثالث: أنه جعل هذه الأركان نفس الإسلام وداخله في مسمى اسمه وما كان اسماً لمجموع أمور إذا ذهب بعضها ذهب ذلك المسمى ولاسيما إذا كان من أركانه لا من أجزائه التي ليست ركناً له كالحائط للبيت فإنه إذا سقط سقط البيت بخلاف

العمود والحشبة واللبنة ونحوها .

الدليل العاشر: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا » ووجه الدلالة فيه من وجهين :

أحدهما: أنه انما جعله مسلماً بهذه الأربعة فلا يكون مسلماً بدونها .

الثاني: أنه إذا صلى إلى المشرق والقبلة في غير ناحية بالنسبة إليه لم يكن مسلماً حتى يصلي إلى جهة قبله المسلمين فكيف إذا ترك الصلاة بالكلية .

الدليل الحادي عشر: مارواه الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « مفتاح الجنة الصلاة » وهذا يدل على أن من لم يكن من أهل الصلاة لم تفتح له الجنة وهي تفتح لكل مسلم فليس تارك الصلاة بمسلم ولاتناقض بين هذا وبين الحديث الآخر وهو قوله: « مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله » فإن الشهادة أصل لمفتاح الصلاة وبقيّة الأركان أسنانه التي لا يحصل الفتح إلا بها إذ دخول الجنة موقوف على المفتاح وأسنانه وقال البخاري: وقيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك .

الدليل الثاني عشر: مارواه محجز بن الأزرق الأسلمي أنه كان في مجلس مع النبي ﷺ فأذن بالصلاة فقام النبي ﷺ فصلى ثم رجع ومحجز في مجلسه فقال له: « ما يمنعك أن تصلي أأنت برجل مسلم؟ » قال: بلى ولكنني صليت في أهلي فقال له: « إذا جئت فصل مع الناس وإن كنت قد صليت » رواه الإمام أحمد والنسائي فجعل الفارق بين المسلم والكافر الصلاة ويوجد تحت ألفاظ الحديث أنك لو كنت مسلماً لصليت ولم تصل في بيتك وهذا كما يقال لرجل حي ناطق: مالك لا تتكلم أأنت بناطق ومالك لا تتحرك أأنت بحمي ولو كان الإسلام يثبت مع عدم الصلاة لما قال لمن رآه لا يصلي « أأنت برجل مسلم » .

الإستدلال بالإجماع :

(وأما الاستدلال بإجماع الصحابة) فقد تقدم ذلك عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله وأبي الدرداء وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وغيرهم ولا يعلم عن صحابي خلافهم . وعلى هذا نهج الأئمة الأسلاف كسفيان بن سعيد الثوري وأبي عمر الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وحماد بن زيد ووكيع بن الجراح والإمام مالك بن أنس ومحمد بن ادريس الشافعي في أشهر قوليهما وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأصحابهم كلهم قالوا : بكفر تاركها وقتله ، ثم جمهورهم قالوا : يقتل بالسيف ضرباً في عنقه ، وقال بعض الشافعية يضرب بالحشب إلى أن يصلي أو يموت ، وقال ابن شريح ينخس بالسيف نخساً حتى يموت لأنه أبلغ ، والجمهور على ضرب عنقه بالسيف لأنه أحسن القتلات وأحسنها ازهاقاً . وقد سن الله سبحانه في قتل الكفار المرتدين ضرب الأعناق دون النخس بالسيف ، والجمهور عند هؤلاء كلهم أنه يستتاب فإن تاب ترك وإلا قتل ، هذا قول الشافعي وأحمد وأحد القولين في مذهب مالك وقال أبو بكر الطرطوشي في تعليقه مذهب مالك أنه يقال له مادام الوقت باقياً صل فإن فعل ترك ، وإن امتنع حتى خرج الوقت هل يستتاب أم لا ، قال بعض أصحابنا يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وقال بعضهم لا يستتاب لأن هذا تحتم فلا يسقط كالحد ، وهذا الذي حكاه الطرطوشي عن بعض أصحابهم أنه يقتل من غير استتابة هو رواية عن مالك ، وفي استتابة المرتد روايتان عن أحمد ، وقولان للشافعي ومن أوجب الاستتابة قال الرعاية إليها شرط في قتله لأنه قد يتركها لعذر أو ماظنه عذراً أو لكسل لا يستمر ولذلك أذن النبي ﷺ في الصلاة نافلة خلف الأمراء الذين يؤخرون الصلاة حتى يخرج الوقت ولم يأمر بقتلهم ولم يأذن في قتلهم لأنهم لا يصرون^(٥) على تركها فإذا دعي فامتنع لا من عذر حتى خرج الوقت تحقق تركه وإصراره . وهل يقتل بترك صلاة أو صلاتين أو ثلاث صلوات هذا فيه خلاف بين الناس . فقال سفيان الثوري ومالك وأحمد في

(٥) — في الأصل « يصرون » والصواب « يصرون » .

أحدى الروايات عنه: يقتل بترك صلاة واحدة وهو ظاهر مذهب الشافعي وأحمد، وحجة هذا القول ما تقدم من الأحاديث الدالة على قتل تارك الصلاة. فقد روى معاذ ابن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله» رواه الإمام أحمد في مسنده وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (أوصاني أبو القاسم ﷺ أن لا أترك صلاة متعمداً فمن ترك صلاة متعمداً فقد برئت منه الذمة) رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في سننه ولأنه إذا دعي إلى فعلها في وقتها فقال: لا أصلي ولا عذر له فقد ظهر اصراره فتعين إيجاب قتله وهدار دمه، واعتبار التكرار ثلاثاً ليس عليه دليل من نص ولا إجماع ولا قول صحابي، وقال أبو اسحق من أصحاب أحمد ان كانت الصلاة المتروكة تجمع إلى مابعدا كالظهر والمغرب لم يقتل حتى يخرج وقت الثانية لأن وقتها وقت الأولى في حال الجمع فأورث شبهة ههنا وان كانت لا تجمع إلى مابعدا كالصبح والعصر وعشاء الآخرة قتل بتركها وحدها إذ لا شبهة في التأخير، وهذا القول حكاه اسحق عن عبد الله بن المبارك أو عن وكيع بن الجراح الشك من اسحق في تعيينه، فعلى هذا متى دعي إلى الصلاة في وقتها فقال لا أصلي وامتنع حتى فاتت وجب قتله وان لم يضق وقت الثانية نص عليه الامام أحمد قال القاضي وأصحابه كابن عقيل وأبي الخطاب لا يقتل حتى يتضايق وقت التي بعدها وقال شيخ الإسلام أبو البركات تقي الدين متى دعي إلى الصلاة في وقتها فقال لا أصلي وامتنع حتى فاتت وجب قتله وان لم يضق وقت الثانية، وفي المثال الذي ذكر يعني أبا الخطاب أولى لأن القتل بتركها دون الأولى لأنه لما دعي إليها كانت فائتة والفوات لا يقتل لا يتركها. وكذا حكم ترك الوضوء والغسل من الجنابة واستقبال القبلة وستر العورة والقيام في الفرض لقادر أو الركوع أو السجود لقادر عليهما كترك الصلاة، وكذا حكم ترك الجمعة لما روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود: (أن النبي ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم» وصرح القرآن مشعر بفرضيتها وأمر بإقامتها الزاماً، وأخطأ على الشافعي من نسب إليه القول بأن صلاة الجمعة فرض كفاية إذا قام بها قوم سقطت عن الباقيين ولم يقل الشافعي هذا قط وإنما غلط عليه من نسب ذلك إليه بسبب قوله في صلاة العيد أنها تجب

على من تجب عليه صلاة الجمعة بل هذا نص من الشافعي رضي الله عنه على أن صلاة العيد واجبة على الأعيان، وهذا هو الصحيح في الدليل فإن صلاة العيدين من أعظم شعائر الإسلام الظاهرة ولم يكن يتخلف عنها أحد من الصحابة ولا تركها رسول الله ﷺ مرة واحدة ولو كانت سنة لتركها ولو مرة واحدة كما ترك قيام رمضان وعلى انا نقول بفرضية صلاة العيدين لانكفر من تركها لجريان الخلاف في فرضيتها بخلاف ماتقدم من الصلوات. ولذلك لم يختلف أحد ممن تقدم في قتل تارك الصلاة إلا أبو حنيفة رحمه الله ومحمد بن شهاب الزهري وداد بن علي المزني فإنهم قالوا: يحبس تارك الصلاة المفروضة حتى يموت أو يتوب وحجتهم قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» رواه البخاري ومسلم وحجة من قال بالقتل وهم من تقدم من الصحابة والتابعين والأئمة من كبار المجتهدين تعليقه في الحديث بحقها قالوا: وهذه الصلاة من أعظم حقها وقد قال تعالى: ﴿أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ فأمر بقتلهم حتى يتوبوا من شركهم وقيموا الصلاة ويتوبوا الزكاة والقول بأنه متى تاب من شركه سقط عنه القتل وإن لم يقم بالصلاة ولا آتى الزكاة خلاف ظاهر القرآن والسنة واجماع صدر الأمة، فلا يعتد به بعد انعقاد الاجماع والله تعالى أعلم.

الأحاديث الواردة في نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة:

(وأما قولكم وأخرج الطبراني والبخاري عن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشرب الخمر شارها وهو مؤمن ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» رواه أبو هريرة في الصحيح وابن عمر وعائشة وجماعة آخرون، فنفي رسول الله ﷺ عن هؤلاء الإيمان ومن لازمه اثبات الكفر لهم وأخرج أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأة حائضاً أو في دبرها فقد برىء مما أنزل على محمد» وأمثال هذا كثير

في كلام الصادق المصدوق فهذا النوع الذي هو الكفر العملي وان أطلقه الشارع على مرتكب هذه الكبائر فإنه لا يخرج به العبد من الإيمان، ولا يفارق به الملة المحمدية ولا يباح ماله ودمه وأهله كما ظنه من لم يفرق بين الكافرين ولم يميز بين الأمرين .

فنقول يحتاج كل قائل ومعتز إلى تحقيق معاني قوله وما يعارض به، ومن أعظم الحاجة في ذلك تحقيق معاني كلام الله ورسوله ﷺ إذا عارض به أمر، لابد من التأمل والتحقيق حتى يسوغ التكلم وتسوغ المعارضة، والعاقل اللبيب إذا تأمل ووعى ما نحن فيه مما اعتقدناه وقلناه علم يقيناً الفرق بين ما عنيناه وقصدناه من عقيدتنا ودليلنا ومدلولنا وبين معارضتنا بهذه الأحاديث والاعتراض بها علينا، وعلم أيضاً أن بين معارضه صاحب المقدمة من عقائدنا ودلائلنا وبين معارضنا به من نقل هذه الأحاديث واعتقاده فينا مباينة ومخالفة من وجوه :

أحدها انه لم يفهم قصدنا ولما اعتقدنا وقلنا فإن أعظم قصدنا وأمرنا الحث والأمر بتوحيد الله وحده لاشريك له في عبادته ومعاملته حتى تثبت وتم الألوهية كلها له وحده لاشريك له، فكما أنه تعالى منفرد بالربوبية فكذلك هو منفرد بالألوهية قولاً وعملاً واعتقاداً، فلا يرجى في جلب نفع أو كشف ضرر إلا الله وحده ولا يتوكل إلا عليه وان الخلق ليس لهم ولي من دونه ولا شفيع إلا من بعد اذنه، وصاحب المقدمة قد فهم فينا ما لم نقله، واعتقد متقولاً علينا ما لا نعتقد فانه يزعم انا نكفر بالذنوب بدليل السياق .

والاعتراض الثاني: أنه لم يميز بين ما حرم الله به دخول الجنة وأوجب الخلود في النار وبين ما هو تحت مشيئته تعالى ان شاء غفره فلم يعذب عليه وان شاء طهر فاعله في النار ثم ماله إلى الجنة حيث مات موحداً بل عارض الأول بالثاني كما دل عليه صنيعه .

الثالث: أنه لم يميز بين الإيمان الذي يستحق المتصف به ان لا يخلد في النار بل ترجى له الشفاعة بإذن الله والمغفرة منه له فضلاً وكرماً ويثبت له مناكة المسلمين وموارثهم وبين الإيمان الذي يستحق به النجاة من العذاب وتكفير السيئات وقبوله الطاعة وكرامة الله ومثوبته وبه يستحق أن يكون محموداً مرضياً موصوفاً بصفات الثناء لا بصفات الذم بل جعل القسمين قسماً واحداً .

(وأما الكلام) على معنى هذه الأحاديث التي قد أدلى بها وأوردها صاحب

المقدمة علينا فنقول لا يحقق ذلك إلا من حقق معنى الإيمان وعرفه ومازه حتى تحصل له المعرفة وإكمال الإدراك بمعنى هذه الأحاديث وأمثالها والمبدلي بها يحتاج إلى فهم معاني ماتضمنته من نفي الإيمان ومعرفة حقيقته، وما هو، وكيف هو، ثم ينفي بها نفيًا لا اثبات معه أو معه اثبات، أو يثبت اثباتاً لانفي معه، أو معه نفي، ثم يفصل ويبين ذلك المثبت والمنفي وعكسهما، إذا علم هذا فالإيمان قد اشتهر وشاع عن السلف وأهل الحديث أنه قول وعمل ونية وإن الأعمال كلها داخلية في مسمى الإيمان. وحكى الأمام الشافعي رحمه الله تعالى على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان انكاراً شديداً ومن انكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثاً سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السجستاني والنخعي والزهري ويحيى بن أبي كثير وغيرهم، وقال الثوري: (هو رأي محدث أدركنا الناس على غيره) وقال الأوزاعي: (كان من مضى من السلف لا يعرفون الإيمان إلا العمل) وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى أهل الأمصار: (أما بعد فإن للإيمان فرائض وشرائع وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان) ذكره البخاري في صحيحه وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رُبِّهِمْ يُتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حَقًّا﴾ وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لو فد عبد القيس: «أمركم بأربع الإيمان بالله وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وإن تعطوا من المغنم الخمس» وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فإن أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» ولفظه لمسلم قال الخطابي في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم بمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى، فالاسم يتعلق ببعضها، كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبه وتستوفي جملة أجزائه كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء والاسم يتعلق ببعضها والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها ويدل عليه قوله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان» وفي اثبات التفاضل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاته، هذا آخر كلام الخطابي.

وقال الامام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي في حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الايمان والاسلام وجوابه قال: جعل النبي ﷺ الاسلام اسماً لما ظهر من الاعمال وجعل الايمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك، لأن الأعمال ليست من الايمان أو ان التصديق بالقلب ليس من الاسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين، ولذلك قال ﷺ: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» والتصديق والعمل يتناولهما اسم الايمان والاسلام جميعاً يدل عليه قوله تعالى: ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾ ﴿ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ ﴿ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ فأخبر سبحانه وتعالى ان الدين الذي رضي به ويقبله من عباده هو الاسلام ولا يكون الدين في محل الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل هذا كلام البغوي، وقال الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني الشافعي في كتابه التحرير في شرح صحيح مسلم: الايمان في اللغة هو التصديق فان عني به ذلك فلا يزيد ولا ينقص لأن التصديق ليس شيئاً يتجزأ حتى يتصور كماله تارة ونقصه أخرى والايمان في لسان الشرع هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان، وإذا فسر بهذا تطرق إليه الزيادة والنقصان، وهو مذهب أهل السنة، وقال الامام أبو الحسن علي بن خلف بن بطل المالاسي المغربي في شرح صحيح البخاري مذهب جماعة أهل السنة ممن سلف من الأئمة وخلفها ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص والحجة على زيادته ونقصانه ما أورده البخاري رحمه الله تعالى من الآيات يعني قوله تعالى: ﴿ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم﴾ وقوله تعالى: ﴿وزدناهم هدى﴾ وقوله تعالى: ﴿وزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ وقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ وقوله تعالى: ﴿وزداد الذين آمنوا ايماناً﴾ وقوله تعالى: ﴿أيكتم زادته هذه ايماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً﴾ وقوله تعالى: ﴿فاخشوهم فزادهم ايماناً﴾ وقوله: ﴿وما زادهم إلا ايماناً وتسليماً﴾ وبجرد التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ لا ينقص إلا شكاً ولذلك توقف مالك رحمه الله تعالى في بعض الروايات مع القول بالزيادة عن القول بالنقصان إذ لا يجوز نقصان التصديق لأنه إذا نقص صار شكاً فخرج عن اسم الايمان، وقال بعضهم انما توقف مالك عن القول بنقصان الايمان خشية أن يتناول موافقة الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي بالذنوب وإلا فقد قال مالك بنقصان الايمان مثل قول جماعة أهل السنة، قال عبد الرزاق سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحاب سفيان الثوري ومالك بن أنس

وعبد الله بن عمر والأوزاعي ومعمّر بن راشد وابن جريج وسفيان بن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وهذا قول ابن مسعود وحذيفة والنخعي والحسن البصري وعطاء وطاوس ومجاهد وعبد الله بن المبارك، فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين وهو اتيانه بهذه الأمور التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح، وذلك أنه لاختلاف بين الجميع انه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه فلا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه بقلبه وجحدته بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم المؤمن، فكذلك إذا أقر بالله وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمناً بالاطلاق وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمناً بالتصديق فذلك غير مستحق في كلام الله لقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فأخبر سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته، وقال ابن بطال في باب من قال الإيمان هو العمل فإن قيل قد تقدم أن الإيمان هو التصديق قيل له التصديق هو أول منازل الإيمان ويوجب للمصدق دخول الأعمال فيه ولا يوجب له استكمال منازلها، ولا يسمى مؤمناً مطلقاً إلا باستكمال شعب أعماله، هذا مذهب جماعة أهل السنة وأن الإيمان قول وعمل، قال أبو عبيد: هو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين وأهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم قال ابن بطال وهذا المعنى أراد البخاري رحمه الله إثباته في كتاب الإيمان وعليه باب أبوابه كلها فقال باب أمور الإيمان وباب الصلاة من الإيمان وباب الزكاة من الإيمان وباب الجهاد من الإيمان وسائر أبوابه وإنما أراد الرد على المرجئة في قولهم أن الإيمان قول بلا عمل وتبين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذهب الأئمة.

(وأما الفرق) بين الإيمان والاسلام فالتحقيق في الفرق بينهما ما قاله المحققون أن الإيمان هو تصديق القلب واقراءه ومعرفة مع الأعمال بجميع ما فرض الله. والاسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده، وذلك يكون بالعمل وهو الدين كما سمي الله الاسلام ديناً في كتابه تعالى وهو حديث جبريل حين سمي ﷺ الاسلام والإيمان والاحسان ديناً، وهذا أيضاً مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر لجامعية الأعمال كلا منهما وإن انفرد التصديق في دخول مسمى الإيمان، وإنما يفرق بينهما حيث قرن أحد الاسمين بالآخر فيكون حينئذ المراد بالإيمان جنس تصديق القلب وبالاسلام جنس العمل، فاما ماورد من إثبات أحدهما ونفي الآخر من نحو قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فانما هو بالنظر إلى معنيهما اللغويين، ولذلك ذكر الصدقة والصوم وغيرها بعدهما بطريق العطف مع الاجتماع على عدم خروج الاعمال عن الايمان والاسلام، لكن الايمان أصله تصديق القلب بكل ما جاء عن الله ورسوله، وهو لا يظهر إلا بالعمل الظاهر علانية فهو الاسلام والاستسلام الانقياد لأوامر الله عز وجل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الاسلام علانية والايمان في القلب» أخرجه الامام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ بلفظه وكان النبي ﷺ يقول في دعائه إذا صلى على الميت: «اللهم من أحبيته منا فأحبه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الايمان» لأن العمل بالجوارح انما يتمكن منه في حال الحياة فاما عند الموت فلا يبقى إلا التصديق بالقلب ومن ههنا قال المحققون من العلماء كل مؤمن مسلم لأن من حقق الايمان ورسخ في قلبه قام باعمال الاسلام، كما قال النبي ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» فلا يتحقق العبد الايمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الاسلام، وليس كل مسلم مؤمناً، فانه قد يكون الايمان ضعيفاً فلا يتحقق القلب تحقيقاً تاماً مع عمل الجوارح في أعمال الاسلام فيكون مسلماً وليس مؤمناً الايمان التام كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين وهو قول عبد الله بن عباس وغيو بل كان ايمانهم ضعيفاً ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ يعني لا ينقصكم من أجورها فدل على ان معهم من الايمان ما يقبل به أفعالهم وكذلك ما روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وأنا جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إلي فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً فقال رسول الله: «أو مسلماً؟» فسكت قليلاً ثم غلبني ما علمت منه فعدت لمقاتلي فقلت: مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً فقال: «أو مسلماً؟» ثم غلبني ما أعلم منه فأعدت وأعاد رسول الله ﷺ مقالته ثم قال: «يا سعد اني لاعطي الرجل وغيو أحب إلي منه خشية من أن يكبه الله في النار على وجهه» قال الزهري فيرى يعني رسول الله ﷺ أن الاسلام هو الكلمة مع التزام الاعمال، والايمان هو العمل الصالح، قلنا فعلی هذا قد يخرج الرجل من الايمان إلى الاسلام ولا يخرج من الاسلام إلا إلى الكفر بالله عز وجل،

فالإيمان هو الاسلام وزيادة، وحقيقة ماروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون وفي رواية بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان» ولمسلم وأبي داود «فأفضلها قول: لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» وقد أخبر الله عن ملكة سبأ أنها دخلت في الاسلام بهذه الكلمة ﴿رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ وأخبر عن يوسف عليه السلام أنه دعا بالموت على الاسلام، وهذا كله يدل على ان الاسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق، وفي سنن ابن ماجه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عدي أسلم تسلم» قلت: وما الاسلام؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وتشهد أني رسول الله وتؤمن بالاقدار كلها حلوها ومرها» فهذا نص في أن الإيمان بالقدر من الاسلام، ثم ان الشهادتين من خصال الاسلام بغير نزاع وليس المراد الاثنيان بلفظها من غير تصديق بهما ولا عمل بمعناها بل ذلك كله داخل في الاسلام، وقد فسر الاسلام المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ بالتوحيد قولاً وعملاً واعتقاداً صادقاً قاله طائفة من السلف منهم محمد بن جعفر بن الزبير، وأما إذا نفى الإيمان عن أحد وأثبت له الاسلام كالأعراب الذين أخبر عنهم فإنه ينفي عنهم رسوخ الإيمان في القلب وأثبت لهم المشاركة في أعمال الاسلام الظاهرة مع نوع إيمان يصحح لهم العمل إذ لولا هذا القدر لم يكونوا مسلمين وإنما نفى عنهم الإيمان لانتفاء ذوق حقائقه ونقص بعض واجباته وهذا مبني على ان التصديق القائم بالقلوب يتفاضل وهذا هو الصحيح من مذاهب جماهير السلف وهو أصح الروايتين عن أحمد، فإن إيمان الصديقين الذين تتجلى أنوار المعرفة لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك ولا الارتياب ليس كإيمان غيرهم ممن لم يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شكك لدخله الشك ولهذا جعل رسول الله ﷺ مرتبة الاحسان أن يعبد ربه كأنه يراه وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين، ومن هنا قال بعضهم ماسبقهم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره وسئل ابن عمر رضي الله عنهما هل كان الصحابة رضي الله عنهم يضحكون قال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال، فأين هذا من الإيمان في قلبه يزن ذرة أو شعيرة كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار، فهو لا يصح أن يقال لم يدخل الإيمان في قلوبهم لضعفه عندهم.

مسائل الايمان والاسلام والفرق الضالة :

(وهذه المسائل) أعني مسائل الايمان والاسلام والكفر والنفاق مسائل عظيمة جداً فإن الله عز وجل علق بهذه الاشياء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار والاختلاف في مسمياتها وقع في هذه الأمة وهو كخلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الاسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعد خلاف المعتزلة، خلاف المرجئة القائلين أن الفاسق مؤمن كامل الايمان . وقد صنف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسائل تصانيف متعددة ومن صنف في الايمان من أئمة السلف الامام أحمد، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن أسلم الطوسي، وغيرهم من الأئمة الأعلام، فمن حقق هذا المعنى في الايمان وعرفه ومازه حصلت له المعرفة وكال الادراك بمعنى قوله عليه السلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » الحديث، ثم صار وسطاً بين طرفين فينفي بها نفياً معه اثباتاً، ويثبت اثباتاً معه نفي، فلا يقول مؤمن كامل الايمان كما قالته المرجئة، ولا كافر خارج عن الملة مخلص في النار كما قالته الخوارج، بل ليس ايمانه تاماً، فهو مؤمن واهن الايمان جارية عليه أحكام الاسلام. قال النووي في شرحه هذا الحديث : وأمثاله مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون ان معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الايمان وهذا من الالفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره، كما يقال لا علم إلا بمانع ولا مال إلا بالإبل ولا عيش إلا بعيش الآخرة وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق » وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور أنهم بايعوه عليه السلام على أن لا يسرقوا ولا يزنا ولا يعصوا قال لهم عليه السلام : « فمن وفى منكم فأجره على الله ومن فعل شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه » فهذان الحديثان مع نظائرها في الصحيح مع قول الله عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ مع اجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق

والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك بل هم مؤمنون ناقصوا الايمان، ان تابوا سقطت عقوبتهم، وان ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عفا عنهم وأدخلهم الجنة، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة، فكل هذه الدلائل تضطرنا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه، ثم ان هذا التأويل ظاهر سائغ في اللغة مستعمل فيها كثيراً، وإذا ورد حديثان مختلفان ظاهراً وجب الجمع بينهما، وقد وردا ههنا فيجب الجمع وقد جمعنا، وتأول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاً مع علمه بوزود الشرع بتحريمه، وقال الحسن وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري: معناه ينزع اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم الذم فيقال سارق وزان وفاجر وفاسق. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ان معناه ينزع منه نور الايمان وقال المذهب تنزع منه بصيرته في طاعة الله وفيه حديث مرفوع إلى النبي ﷺ انه قال: « إذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الايمان » رواه الترمذي وأبو داود.

حكم الفاسق:

(وقد انقسم الناس) في الفاسق من أهل الملة كالسارق والزاني والشارب ونحوهم على ثلاثة أقسام طرفين ووسط .

(أحد الطرفين) أنه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه ولا يدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الايمان، ثم من هؤلاء من يقول هو كافر كاليهودي والنصراني، وهو قول الحوارج ومنهم من يقول ننزله منزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق، وليس هو بمؤمن ولا كافر وهم المعتزلة، وهؤلاء يقولون أن أهل الكبائر يخلدون في النار وإن أحداً منهم لا يخرج منها وهذا من مقالات أهل البدع التي دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم باحسان على خلافه، قال الله تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ﴾ إلى قوله: ﴿ إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ فسامهم الله مؤمنين وجعلهم أخوة مع

الاقتتال وبغى بعضهم على بعض وقال تعالى في بيان الكفارة: ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ولو أعتق مذنباً أجزأه عتقه بإجماع العلماء ولهذا يقول العلماء السلف في المقدمات الاعتقادية لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب ولا يخرج من الإسلام بعمل، وقد ثبت الزنا والسرقه وشرب الخمر على أناس في عهد النبي ﷺ ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين بل جلد هذا وقطع هذا ورجم هذا وهو في ذلك يستغفر لهم ويقول: « لا تكونوا أعوان الشياطين على أخيك » وأحكام الإسلام كلها مرتبة على هذا الأصل.

(الطرف الثاني) قول من يقول إيمانهم باق كما كان لم ينقص، بناء على أن الإيمان هو مجرد التصديق والاعتقاد الجازم وهو لم يتغير وإنما نقصت شرائع الإسلام، وهذا قول المرجئة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وهو أيضاً قول مخالف للكتاب والسنة واجماع السابقين والتابعين لهم بإحسان قال الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ والآيات في ذلك والأحاديث كثيرة جداً كما تقدمت وقد تقدم أيضاً اجماع السلف على أن (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص) ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمله، وثم قول اللسان وعمل الجوارح، فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر، ويدخل في ذلك الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ لأنه في معنى الإيمان برسالاته (ثم الناس) في هذا على أقسام:

منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل .

ومنهم من صدق به اجمالاً وتفصيلاً .

ثم منهم من يدوم استحضاره فيه بما قذف الله في قلبه من النور والآيات .

ومنهم من جزم به للدليل قد تعترضه منه شبهة أو لتقليد جازم، وهذا التصديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسله وتعظيم الله ورسله وتعزير الرسول وتوقيه وخشية الله والانابة إليه والاحلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال .

فهذه الأعمال القلبية كلها من الآيات، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب كعلة المعلول ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك، وعند هذا فالقول الوسط الذي هو قول

السنة والجماعة أنهم لا يسلبون اسم الايمان على الاطلاق ولا يثبتونه على الاطلاق ، بل يقولون هو مؤمن ناقص الايمان ، أو هو مؤمن عاص ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، ويقال ليس بمؤمن حقاً ، أو ليس بصادق الايمان ، وكل كلام أطلق في الكتاب والسنة فلا بد أن يبين المراد منه ، والأحكام منها ما يترتب على أصله وفرعه كاستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك . إذا علمت هذه القاعدة فالذي في الصحيح قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا تنتهب نهبه ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها وهو حين ينتهبها مؤمن » والزيادة التي رواها أبو داود والترمذي صحيحة وهي مفسرة للرواية المشهورة ، وفي قوله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود : « إذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الايمان » دليل على أن الايمان لا يفارقه بالكلية ، فإن الظلة تظل صاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط ، وأحسن ما قيل في معنى هذا الحديث أما نفس التصديق الفرق بينه وبين الكافر لم يعدمه لكن هذا التصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصداقاً بأن الله حرم هذه الكبيرة وأنه تعالى توعد عليها بالعقوبة العظيمة ، وأنه تعالى يرى الفاعل ويشاهده ، وهو تعالى مع عظمته وجلاله وكبريائه يمت هذا الفاعل فلو تصور هذا التصور لامتنع صدور الفعل منه متى فعل هذه الخطيئة فلا بد من أحد ثلاثة أمور :

إما اضطراب العقيدة بأن يعتقدان ان الوعيد ظاهره ليس كباطنه ، وإنما المقصود منه الزجر كما قالته المرجئة وإنما يحرم هذا على العامة دون الخاصة كما قالته الإباحية وغير ذلك من العقائد المكفرة التي تخرج عن الملة .

وأما الغفلة والذهول عن التحريم وعظمة الرب تعالى وتقدس وشدة بأسه فيغتر بسعة رحمته وغفرانه ويقترح هذا الذنب الكبير ولا يبالى .

وأما فرط الشهوة بحيث تقهر مقتضى الايمان وتمنع موجهه فيصير الاعتقاد مغموراً مقهوراً كالعقل في المنام والسكران وكالروح في المنام ومعلوم أن الايمان الذي يسمى إيماناً ليس باقياً كما كان إذ ليس مستقراً في القلب ظاهراً ، واسم الايمان عند الاطلاق إنما ينصرف إلى من يكون إيمانه باقياً على حاله عاملاً عمله وهو يشبه من بعض الوجوه روح النائم فان الله سبحانه يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها

والنائم ميت من وجه حي من وجه وكذلك السكران والمغمى عليه، عاقل من وجه وليس بعاقل من وجه، فإذا قال القائل السكران ليس بعاقل فإذا صحا عاد عقله إليه كان صادقاً مع العلم ليس بمنزلة البهيمة إذ عقله مستور وعقل البهيمة معدوم بل الغضبان ينتهي به الغضب إلى حالة يعزب فيها عقله ورأيه، وفي الأثر: (إذا أراد الله انفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم ليعتبروا) فالعقل الذي به يكون التكليف لم يسلب، وإنما سلب العقل الذي به يكون صلاح الأمور في الدنيا والآخرة، كذلك الزاني والسارق والشارب والمنتهب لم يعدم الايمان الذي يستحق أن لا يخلد في النار وبه ترجى له الشفاعة والمغفرة وبه يستحق المناكحة والمواربة، لكن عدم الايمان الذي يستحق به النجاة من العذاب ويستحق به تكفير السيئات وقبول الطاعات وكرامة الله ومثوبته وبه يستحق أن يكون محموداً مرضياً، وهذا يبين ان الحديث على ظاهره الذي يليق به، فلا يؤول بتأويلات تخرجه ونظائره عن مقصود رسول الله ﷺ، وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد عن علماء السلف كسفيان ابن عيينة وأحمد بن حنبل والزهري وانهم يقرؤون هذه الأحاديث ويمرونها كما جاءت ويكرهون تأويلها بما يخالف اللائق بها على مراد الرسول فيها، ونص الامام أحمد رحمه الله تعالى على ان مثل هذا الحديث لا يتأول تأويلاً يخرج عن ظاهره المقصود به، وقد تأوله الخطابي وغيره تأويلات مستنكرة مثل قولهم لفظه لفظ الخبر ومعناه النهي أي ينبغي للمؤمن أن لا يفعل ذلك وقولهم المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي وإنما شاع ذلك لما بين حاله وحال من عدم الايمان من المشابهة والمقاربة، وقولهم إنما عدم كمال الايمان وتماهه أو شرائعه أو ثمرته ونحو ذلك، فكل هذه التأويلات لا يخفى حالها على من أمعن النظر فيها فالحق ماتقدم من معنى القول فيها والله أعلم.

كفر دون كفر :

(وأما قولكم وقد عقد البخاري في صحيحه باباً الكفر دون كفر) فنقول: من أطلق الشارع كفره بالمعاصي التي لا تخرجه عن الملة كدعواه لغير أبيه، ومن أتى عرفاً فصدقه بما يقول، أو أتى امرأة حائضاً أو في دبرها ونحو ذلك، فإنما هو تشديد لا يخرج به عن ملة الاسلام بل كفر نعمة، قاله طوائف من

العلماء من أئمة الفقه والحديث، وذكره ابن رجب في شرح البخاري كغيره من الشراح عن أكثر الشيوخ من العلماء، وقد قال القاضي عياض وجماعة من العلماء في قوله: «من أتى عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد» أي جحد تصديقه بكذبهم فقد يكون معناه ان اعتقد تصديقهم بعد معرفتهم بتكذيب النبي ﷺ لهم فهو كافر ككفر حقيقة، وما قاله القاضي عياض رحمه الله تعالى لا مخالفة فيه إذا وجد شرطه إذ فيه تكذيب الرسول ﷺ فيما جاء به، وتكذيب الكتاب، وهذا النوع ليس نعني هنا، مع أنه داخل في عموم دعوانا على أهل الباطل من انهم يصدقونهم فيما يقولون لهم ويعملون به بعد سماعهم من النبي عنهم وتكذيبه لهم، بل أكثرهم يعلمونه ويسمعونه عناداً للدين واتباعاً للشياطين والمعاندين وربما ادعوا ولايتهم وهم مردة الشياطين، وإنما نعني ما هو كفر دون كفر لا يخرج عن الاسلام ككفران العشير وهو ما عني البخاري رحمه الله تعالى، وقوله باب كفران العشير وكفر دون كفر فيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء بكفرن قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الاحسان لو أحسنت إلى احداهن الدهر ثم رأيت منك شيعاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»، فقد أعرض النبي ﷺ عن السائل القائل أيكفرن بالله فأجاب به بما هو ليس من المخرج عن الملة بل من الذنوب التي يستقر معها حكم الاسلام فقال: «يكفرن العشير» وكفران العشير كفران نعمة لا يخرج عن الملة، وقد نص عليه أئمة الحديث من العلماء في شرح البخاري وغيره، ولهم في هذه الأحاديث التي يطلق الكفر فيها مسالك، منهم من يحملها على من يفعل ذلك مستحلاً، ومنهم من حملها على التغليب لا على الكفر الذي ينقل، منهم ابن عباس وعطاء، قال النخعي: هو كفر بالنعم، ونقل عن الامام أحمد وقاله طاووس، وحكى ابن حامد عن الامام أحمد جواز اطلاق الكفر والشرك على بعض الذنوب التي لا تخرج عن الملة، وروي عن أحمد أنه كان يتوقى الكلام في تفسيره هذه النصوص تورعاً ويمرها كما جاءت من غير تفسير لها كغيره من أئمة السلف كما تقدم مع اعتقادهم ان المعاصي لا تخرج عن الملة وقد قال البخاري: باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقول

النبي ﷺ: « انك امرؤ فيك جاهلية » وقول الله تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فسماهم مؤمنين .

(وأما قولكم وقال العلامة ابن القيم في كتابه في الصلاة الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة كفر عملي وتحقيقه ان الكفر كفر عملي وكفر جحود، فكفر الجحود ان يكفر بما علم ان الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً فهذا الكفر يضاد الايمان من كل وجه اذ حقيقة الايمان التصديق وأما الكفر العملي فهو نوعان نوع يضاد الايمان ويصير فاعله في حكم الكفر الاعتقادي كالسجود للصنم وسب الرسول وقتله والاستهزاء والاستهانة بالمصحف والذي يقوي عندي أن يكون هذا من الكفر الاعتقادي والعملي معاً، فإنه لا يسجد للصنم وهو مؤمن بالله ولا يهين المصحف أو يسب نبياً أو يقتله وهو مصدق أنه نبي، ألا ترى إلى قريش في صلح الحديبية لم يرضوا أن يكتب « هذا ماصالح عليه رسول الله وقالوا: اكتب محمد بن عبد الله لو نعلم أنك رسول الله لما صددناك عن البيت » الحديث، ونوع لا يضاده كالحكم بغير ما أنزل الله فان الله سمى فاعله كافراً ومثله تارك الصلاة سماه رسول الله كافراً كما سمعته آنفاً ولكن هذا كفر عملي لا كفر اعتقاد) .

فنقول: أنتم انما فهمتم من كلام ابن القيم ان الكفر الصريح لا يكون عملياً بل هو خاص بالاعتقادي أو مع اقترانه بالعملي فأما مجرد العملي فلا يكون كافراً موجباً للردة حقيقة وفهمتم منه أيضاً ان مراده بالكفر العملي عمل الجوارح الخاص بها وهذا فهم باطل وتعليل عاطل من وجوه :

(أحدها) : أن ابن القيم رحمه الله تعالى قد شنع في كلامه التشنيع الكلي على من شك في كفر تارك الصلاة كافراً موجباً للردة والخلود في النار والحالة هذه وعبارته مانصه : (ومن العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها ودُعي إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارقة السيف على رأسه وشد للقتل وعصبت عيناه وقيل له تصلي وإلا قتلناك فيقول اقتلونني ولا أصلي أبداً، ومن لا يكفر تارك الصلاة يقول هذا مؤمن مسلم يغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين وبعضهم يقول هو مؤمن

كامل الايمان ايمانه كإيمان جبريل وميكائيل أفلا يستحي من هذا قوله، من انكاره تكفير من شهد بتكفيره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة .

(الثاني) : أنه جعل في كتابه في الصلاة شعب الايمان قسمين قولية وفعلية وكذلك شعب الكفر نوعين قولية وفعلية فكما ان من شعب الايمان القولية شعبة يوجب زوالها زوال الايمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الايمان كالصلاة، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية فكما يكفر بكلمة الكفر اختياراً وهي شعبة من شعب الكفر، كذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف والصلاة وقتل الأنبياء فإنه كفر عملي .

(الثالث) : أنه جعل حقيقة الايمان مركبة (من قول) وقسمه إلى قسمين: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الاسلام (ومن عمل) وقسمه إلى قسمين أيضاً، عمل القلب وهو نيته وإخلاصه ومحبه وانقياده، وعمل الجوارح، ورتب زوال الايمان بكماله على زوال هذه الأربعة، فإن زال بعضها، فإن كان التصديق، لم ينفع باقي ما أتى به، وإن كان غيره، فإن كان عمل القلب فقط أو مع الجوارح فأهل السنة مجمعون على زوال الايمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبه وانقياده للأوامر وإن عملت الجوارح ظاهراً ومع انتفاء عملها اللازم منه انتفاء عمل القلب وعبارته مانصها : وههنا أصل آخر وهو ان حقيقة الايمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان : قول القلب وهو اعتقاده وتصديقه، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام والعمل قسمان : عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الايمان بكماله وإذا زال تصديق القلب لم تنفعه بقية الأشياء فإن تصديق القلب شرط في اعتبارها لكونها نافعة صحيحة، وإذا زال عمل القلب فقط مع وجود اعتقاد الصدق أو زال عمل الجوارح أيضاً فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة فأهل السنة مجمعون على زوال الايمان وأنه لا ينفع مجرد التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبه وانقياده للأوامر سواء عملت الجوارح ظاهراً أو لم تعمل ووجد التصديق، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول بل ويقرون به سرّاً وجهراً ويقولون ليس بكاذب ولكن لا تتبعه ولا تؤمن به وإذا

كان الايمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم عمل الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعته الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الايمان فإنه ليس مجرد التصديق كما تقدم كلامنا فيه ودلائلنا عليه، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، وهكذا الهدى ليس مجرد معرفة الحق وتبتيته، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتمام، كما أن التصديق وإن سمي تصديقاً فليس هو التصديق المستلزم للإيمان .

(الرابع قوله) : وههنا أصل آخر وهو ان الكفر نوعان : كفر عمل، وكفر جحود وعناد، فكفر الجحود أن يكفر بما علم ان الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكام دينه وما جاءت به رسله، وهذا الكفر يضاد الايمان من كل وجه، وأما كفر العمل، فينقسم إلى ما يضاد الايمان وإلى ما لا يضاده، فالأول : كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه والاستهزاء بما جاء به والحكم بغير ما أنزل الله حيث كان فيه رد لنص حكم الله عياناً راضياً بذلك وترك الصلاة عناداً وغيماً .

الثاني : من أتى بمعصية لا تخرجه عن الايمان بالكلية كالزاني والسارق وشارب الخمر ومن لا يأمن جاره بوائقه، لكن السجود لصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه والاستهزاء بما جاء به عمل قلبي لظهوره مضاد للإيمان، وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة فهو من الكفر العملي المحض قطعاً ولا يمكن ان ينفي عنه اسم الكفر بعد ان أطلقه الله ورسوله عليه بلا قرينة تقتضي انتفاءه عنه كما انتفت حقيقته عن مرتكب الكبيرة مع تسميته كافراً فالحكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ ولكن هو كفر عملي لا كفر اعتقادي ومن الممتنع أن الله سبحانه سمي الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً وسمى رسوله تارك الصلاة كافراً ولا يطلق

عليهما اسم الكفر حقيقة مع انتفاء نص على بقائهما مؤمنين فان مراد ابن القيم رحمه الله بالكفر العملي هنا زوال شعبة فعلية موجب زوال الايمان وثبوت شعبة فعلية من شعب الكفر موجب ثبوتها ثبوت الكفر، فالعملي هنا أعم من عمل القلب والجوارح في الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة وغيرها وان بقي قول القلب وهو اعتقاده وتصديقه لانتفاء عمله وهو محبته وانقياده لفعل الأوامر وفائدة قوله العملي المحض أي مع بقاء تصديق القلب من غير انقياده وهو لا يستلزم الايمان الموجب للإسلام.

(الخامس) : تصريحه بأن ترك الصلاة عمداً والحكم بغير ما أنزل الله حيث كان فيه رد لنص حكم الله عياناً عمداً كفر حقيقة مضاد للإيمان .

(السادس) : تفصيله وتفرقه بين كفر تارك الصلاة والحكم بغير ما أنزل الله بشرطه، وبين كفر السارق والزاني وشارب الخمر ومن لم يأمن جاره بوائقه، فجعل كفر هؤلاء من جهة أفعالهم الظاهرة في قوله، وقد نفى النبي ﷺ اسم الايمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر وعمن لم يأمن جاره بوائقه، وإذا نفى عنه اسم الايمان فهو كافر من جهة العمل الظاهر منه متنفذ عنه كفر عمل القلب لبقاء محبته وانقياده حكماً، فحكم الاسلام جار عليه كما تقدم، ولكن ليس بمؤمن حقاً، وإلى ذلك أشار بقوله وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد إذ عمل القلب هنا باق لم يفقد زيادة على قوله الذي هو التصديق وكذا قوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » فهذا كفر عملي ظاهر في الجوارح فقط، وعمل القلب على حاله كما تقدم في الذي قبله، وكذا يقال في قوله ﷺ : « من أتى كاهناً فصدقه أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد » وقوله : « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » وأمثاله هذا كما تقدم الكلام فيه موضعاً .

(السابع) : جعله الايمان العملي يضاده الكفر العملي فيما إذا اتصف شخص بذاك تارة وبهذا أخرى كالذين ثبت ايمانهم بما عملوا به من الميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب ﴿ لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ ثم ثبت

كفرهم بما تركوه منه ومخالفتهم له، وكن يؤمن عاملاً ببعض ويعرض تارة عن بعض، فالإيمان الاعتقادي والحالة هذه يضاد الكفر الاعتقادي، وقد أعلن النبي ﷺ بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ففرق بين سبابه وقتاله، وجعل أحدهما فسقاً لا يكفر به، والآخر كفر، ومعلوم أنه انما أراد الكفر العملي الظاهر لا الاعتقادي، وهو عمل القلب، فمادام محباً منقاداً لفعل الأوامر لزم منه فعل المأمورات من صلاة وغيرها، ومتى فقد عمله فقدت المأمورات وان وجد قوله وهو مجرد التصديق بلا انقياد، وإذا حصلت هفوة للقلب بوجود الران عليه من نحو شدة فرط الشهوة فحصل شيء من المعاصي المتقدمة الظاهرة في الجوارح وعمل القلب باق على ما كان عليه أولاً، فحكم الاسلام باق ولكن انتفى عنه كمال الايمان بظاهر اعماله السيئة، ومتى أطلق عليه اسم الكفر بذلك فإنه لا يخرج من الدائرة الاسلامية والملة بالكلية كما تقدمت دلائله من الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة، وان زال عنه اسم الايمان، وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالاسلام والكفر ولوازمهما، فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فان المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين: فريقاً أخرجوا من الملة أهل الكبائر ونصوا على أصحابها بالخلود في النار، وفريقاً جعلوهم مؤمنين، وهؤلاء الذين جعلوهم مؤمنين لا يرون ترك الصلاة كفراً بل عندهم الايمان مجرد التصديق وهو قول باطل بالكتاب والسنة واجماع صالح سلف الأمة.

(الثامن) : انه قد قال والمقصود ان سلب الايمان عن تارك الصلاة أولى من سلبه عن مرتكب الكبائر، وسلب اسم الاسلام عنه أولى من سلبه عن من لم يسلم المسلمون من لسانه ويده، فلا يسمى تارك الصلاة مسلماً ولا مؤمناً، إلى أن قال هل هي شرط لصحة الايمان، هذا سر المسئلة، والأدلة التي ذكرناها تدل على أنه لا يقبل من العبد شيء من أعماله إلا بفعل الصلاة فهي مفتاح ديوانه ورأس مال ربحه، ومحال بقاء الربح بلا رأس مال، فإذا خسرها خسر أعماله كلها وان أتى بها صورة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في قوله: « وإن ضيعها فهو لما سواها أضيع » وفي قوله: « أول ما ينظر في أعماله الصلاة فإن جازت له نظر في سائر أعماله، وان لم تجز له لم ينظر في شيء من أعماله » فصريح كلام ابن القيم المتقدم موافق لكلام الله وسنة رسوله ان

تارك الصلاة عمداً كافر مستوجب لخلوده في النار، وقد زعم صاحب المقدمة ان الكفر الحقيقي خاص بالاعتقاد وهو عدم تصديق القلب أو مع عمل الجوارح أيضاً كالسجود للصنم واهانة المصحف وقتل النبي فأما فقدان عمل القلب فقط فلا يكون كفراً حقيقياً واستدل على ذلك بقوله: ولا يهين المصحف أو يسب نبياً أو يقتله وهو مصدق انه نبي، ويقول قريش لو نعلم انك رسول الله لما صددناك عن البيت وزعمه ذلك وهم باطل وفهم عاطل من وجوه:

(أحدها): انه قد فهم ان العمل انما منشؤه ومورده الجوارح خاصة، فأما القلب فليس فيه إلا الاعتقاد وهو التصديق خاصة وهذا مناف لمعرفة حقيقة الايمان الذي تترتب على معرفته دعوى العلم والقول به، فان حقيقته مركبة من عمل القلب وهو محبته وانقياده واخلاصه لفعل الأوامر واتباع الرسل في كل ما جاؤا به من عند الله، وعمل الجوارح فيما يوجد من قبلها عند طاعة القلب وانقياده قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رُبِّهِمْ يُتَكَلَّمُونَ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ومن قوله وهو تصديقه في كل ما جاءت به الرسل وقول اللسان وهو المتكلم بكلمة الاسلام والاقرار بما يجب الايمان به، ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال: «الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فإن أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان» ولفظه لمسلم.

(الثاني): انه فهم ان الايمان يكفي فيه مجرد التصديق القلبي وان لم يوجد عمله ولا عمل الجوارح وهذا بعينه قول المرجئة ومعتقدهم، فإنهم يقولون الايمان قول بلا عمل، وقد رد البخاري وغيره من الأئمة الأعلام على هؤلاء القوم اللثام وبينوا غلطهم وسوء اعتقادهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة كمالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين وأهل العراق والحجاز

والشام وغيرهم قال البخاري في رده عليهم باب أمور الايمان وباب الصلاة من الايمان وباب الزكاة من الايمان وباب الجهاد من الايمان، فأهل السنة مجمعون على أنه متى زال عمل القلب فقط أو هو مع عمل الجوارح زال الايمان بكليته وان وجد مجرد التصديق فلا ينفع مجرداً عن عمل القلب والجوارح معاً أو أحدهما، كالم ينفع ايليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ﷺ سراً وجهراً .

(الثالث) : قوله والذي يقوى عندي أن يكون هذا من الكفر الاعتقادي والعملي معاً فإنه عني بالاعتقاد عدم التصديق من الذين سبوا الرسول واستهزؤا به وهذا يرده صريح قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ ﴾ قال المفسرون معنى ذلك أنهم لا يكذبونك يا محمد ولكنهم يحجّدون آيات الله، فالجحدان والتكذيب راجع للآيات نفسها لا للرسول، فإن القوم لم يكونوا يكذبونه في السر بل وأكثرهم يصدقه علانية فإن الحرب ابن عامر من قريش قال : يا محمد والله ما كذبت قط ولكن ان اتبعناك نتخطف من أرضنا فنحن لانؤمن بك لهذا السبب وقال الأخنس بن شريق لأبي جهل : يا أبا الحكم اخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له : والله ان محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش، فهم لا يكذبونه بقلوبهم بل ولا بألسنتهم فيما بينهم ولكن لا يعترفون به ظاهراً عنده، فهم وان قالوا ظاهراً لولا أنزل عليه ملك، يعرفونه في قلوبهم كما يعرفون أبناءهم لكن منهم من يتعنت فيقوله بلسانه يجب أن يكون رسول الله من جنس الملائكة، وذكر الله ذلك عنهم في سورة الأنعام شبهة لهم وأجاب تعالى عنهم، ومنهم من يقول ان محمداً يخبرنا بالحشر والنشر بعد الموت وذلك محال، وكانوا يستدلون بامتناع الحشر والنشر على الطعن في رسالته ظاهراً فذكر الله ذلك وأجاب عنهم بأجوبة كثيرة هي موجودة في القرآن فشافهتهم له بالسفاهة والاستهزاء أو القتل كما قتلوا الأنبياء من قبل وقلوبهم معترفة ولكن جحدوا بآيات ربهم كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

الحكم بغير ما أنزل الله نفي عملي :

(الرابع) : نفيه الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة، أن يكونا عملي قلب بل جعلهما عمل جوارح خاصة، باستدل به على عدم كفر من لم يحكم بما أنزل الله عياناً عمداً، وتارك الصلاة عمداً، لوجود التصديق والاكتفاء به، فاما كفر من لم يحكم بما أنزل الله فقد قال العلماء هذا إذا رد نص حكم الله عياناً عمداً لعدم انقياده له والعمل به محبة واتباعاً فإنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعته الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده للنص عدم التصديق المستلزم للطاعة التي هي حقيقة الايمان، فاما مجرد التصديق من غير استلزام ولا انقياد فليس بايمان ألبتة، وإذا كان كذلك فترك الحكم بما أنزل الله والحكم بغيره من أعمال القلب، لاسيما وقد قال قتادة والضحاك في سبب نزول هذه الآيات انه في اليهود الذين كانوا يعلمون صدق ما حكم عليهم في الكتاب فخالقوهم، وقد قال العلماء ان من خالف نص كتاب الله وحكم بضد ما فيه وماتضمنه عياناً عمداً تناوله حكم هذه الآية لا إن أخطأ معنى التأويل، وقال عكرمة : من عرف بقلبه أنه حكم الله ولم يقر بلسانه وينقد إليه بقلبه بل جحده فقد كفر كفراً لا إيمان معه، أما من اعترف بقلبه ولسانه انه حكم الله ولكنه أخطأ الصواب، أو حكم بضده مع علمه والاقرار به فلا كفر وقد قال ابن عباس وطاووس : ليس بكفر ينقل عن الملة بل متى وجد منه ذلك كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر .

وسئل عبد العزيز بن يحيى الكتاني عن قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فقال : انها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل فهو كافر ظالم فاسق . فأما من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك الشرك ثم لم يحكم ببعض ما أنزل الله من الشرائع التي منشؤها الفروع لم يستوجب الكفر حقيقة، وعلى هذا يحمل كلام ابن عباس وطاووس . وأما ترك الصلاة عمداً فهو مناف لحقيقة الايمان المستلزم للاسلام المترتب على وجوده تخلية السبيل، فانها وإن اقترن فعلها بالجوارح ظاهراً فهي مستلزمة لعمل القلب ظاهراً وباطناً، فان وجد علمه وجدت، وإن عدم عدمت، وقد تقدم الكلام عليها مستوفى مفصلاً . بأدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة وكلام صالح سلف الأمة .

(وأما قولكم أخرج الفريائي وسعيد بن منصور وابن المنذر وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ أنه ليس كفراً ينقل عن الملة انه كفر دون كفر وقال عطاء كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق) .

فنقول : كلام ابن عباس رضي الله عنهما فيمن لم يحكم بما أنزل الله من الشرائع التي منشأها الفروع خاصة مع الاعتراف بالقلب والافرار باللسان انما عدل عنه هو حكم الله كما قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ان من عرف بقلبه انه حكم الله ولم يقر بلسانه ولم يتقد إليه بقلبه بل جحدته فقد كفر كفراً لإيمان معه أن من اعترف بقلبه وأقر بلسانه أنه حكم الله ولكنه أخطأ الصواب وأتى بما يضاده من مسائل الفروع التي ليس لها تعلق بالأصل من غير استحلال فلا يدخل في الكفر الحقيقي .

وقد سئل علقمة ومسروق وابن مسعود عن الرشوة في الحكم أهى من السحت فقال : ذاك الكفر ثم تلا ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ومن لم يحكم بما أنزل الله الآية قال من لم يتقد إليه بقلبه ولم يقر بلسانه كفر كفراً حقيقياً ، ومن أقر به وانقاد إليه ولكنه لم يحكم به ظاهراً فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير ، وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ، قال : هذا في المسلمين ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ قال : في اليهود ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال : في النصارى . وكذا رواه هشام والثوري عن زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي ، وقال البراء وحذيفة وابن عباس وغيرهم نزل قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ في أهل الكتاب . قال الحسن وهي علينا واجبة وقال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن ابراهيم الحربي نزلت في بني اسرائيل ورضي الله لهذه الأمة نبيها فعفى عنها الكفر .

وسبب النزول وان كان خاصاً فعموم اللفظ إذا لم يكن منسوخاً معتبر ولأن قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله كلام داخل فيه كلمة من في معرض الشرط فتكون للعموم ، لكن تحقيق معنى الآية ان الحكم بغير ما أنزل الله ان كان في الأصل من

التوحيد وترك الشرك، أو كان في الفروع ولم يقر اللسان وينقد القلب فهو كفر حقيقي لا إيمان معه كما تقدم عن عكرمة، فأما من اعترف بقلبه وأقر بلسانه بحكم الله ولكنه عمل بضده ظاهراً في الفروع خاصة فليس بكفر ينقله عن الملة قال طاووس: ليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال هذا كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق. رواه ابن جرير وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاووس قال: ليس الحكم في الفروع بغير ما أنزل الله مع الاقرار بحكمه والحجة له ينقل عن الملة وعن طاووس عن ابن عباس قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. رواه الحاكم وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقد جنح الخوارج إلى العموم لظاهر الآية وقالوا انها نص في ان كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافراً، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافراً. وقد انعقد اجماع أهل السنة والجماعة على خلافهم، ونحن لم نكفر إلا من لم يحكم بما أنزل الله من التوحيد بل حكم بضده وفعل الشرك وإلى أهله وظاهرهم على الموحدين أو من لم يقيم أركان الدين عناداً وبغياً بعد ان دعوانه فامتنع وأصر أو من جحد ماجاء به الرسول ﷺ من سائر الأمور الدينية والمغيبات الايمانية.

الجمع بين حديثي « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وبين حديث « لايزال الزاني ... » :

(وأما قولكم قال ابن القيم ان الصحابة والتابعين لما رأوا تعارض الأحاديث مثل حديث حتى يقولوا لا إله إلا الله وحديث من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وان زنى وان سرق، مع ان الجنة محرمة على الكافرين كما دلت عليه النصوص القرآنية مع هذه الأحاديث التي تقدم ذكرها من وصف من أتى بهذه المعاصي من عدم الحكم بما أنزل الله وترك الصلاة عامداً وإتيان الكاهن وغيرها بالكفر مع ان مرتكب هذه الحصال مقر بالشهادتين معتقد لهما ذهبوا إلى تقسيم الكفر إلى القسمين المذكورين اللذين هما كفر اعتقاد وكفر عمل).

فنقول: أما كلام ابن القيم الذي قاله بفمه وكتبه بقلمه فهو ان الاعتقاد ما كان من وظائف القلب الشامل لعمله كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

وبالقدر وتصديق الرسول فيما جاء به وأخبر عنه، والعمل بمقتضى ذلك شرط في صحة الايمان، أو ما يضافه من التكذيب أو الشرك أو عدم العمل به بعدم الحكم بما أنزل الله ان كان فيه رد لنص حكم الله عياناً عمداً، وترك الصلاة بالكلية عامداً عناداً. فالأول هو الدين الذي لا يقبل الله غيوه. والثاني هو الكفر الذي ليس معه ايمان. فأما أعمال الجوارح الظاهرة كالزنا وشرب الخمر وإتيان الكاهن بلا تقديم لكلامه على كلام الرسول ومن لم يأمن جاره بوائقه وضرب أعناق بعض المسلمين بعضاً وعدم الحكم بما أنزل الله في الفروع التي ليست من أصل الدين مع الاعتراف بحكم الله في قلبه وقوله ومحبه واختياره وانقياده إليه فيهما وعدم المحافظة على الصلاة في أوقاتها فهذا وإن أطلق الشارع على مرتكبه الكفر فلا يخرج عن الملة لحديث أبي ذر وغيره وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وعلى هذا مضى سلف الأمة وخيارها وهم أعلم بمعنى كلام الله ونص رسوله ﷺ. فإن الصحابة والتابعين لما رأوا تعارض الأحاديث مثل حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» وحديث «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق» مع هذه الأحاديث التي تقدم ذكرها من وصف من أتى بهذه المعاصي كعدم الحكم بما أنزل الله وترك الصلاة عن وقتها عامداً وإتيان الكاهن وغيرها بالكفر ونفي الايمان عن الزاني والسارق والشارب مع ان الجنة محرمة على الكافرين كما دلت عليه النصوص القرآنية ومرتكب هذه الخصال مقر بالشهادتين معتقد لهما ذهبوا إلى تقسيم الكفر إلى القسمين المذكورين اللذين هما كفر اعتقاد وكفر عمل، فمنه يعلم معنى جعله ترك الصلاة بالكلية وعدم الحكم بما أنزل الله حيث كان فيه رد لنص حكم الله عياناً عمداً كفر عملي انه عني عمل القلب وهو عدم انقياده ومحبه لأوامر الله والعمل بها ظاهراً وباطناً، فأما ان كان قد جحد وأنكر شيئاً من أركان الدين فهو اعتقاد محض وإن كان الترك مع الاقرار والاعتراف فهو من عمل القلب المحض، وعمله ملحق باعتقاده في عدم انقياده كما قدمه آنفاً فبذلك فارق أعمال الجوارح الظاهرة من سائر المعاصي التي لا تخرج عن الملة وتقسيم اسم الكفر إلى قسمين باعتبار أعمال الجوارح الظاهرة واعتقاد القلب الشامل لعمله، ولأن قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» دليل على انه لا بد من إقامة حقها ومن

أعظمه اقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما تقدم عن الصحابة والتابعين، ولحديث ابن عمر بنى الاسلام على خمس فعّد منه هذين الركبتين اللذين هما أعظم دعائمه بعد الشهادتين، وكذا الحكم بما أنزل الله فيما نص على حكمه عياناً وتصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به وأخبر عنه والعمل بمقتضى ذلك شرط في صحة الايمان المقتضى للاسلام وحديث من قال لا إله إلا الله دخل الجنة مطلقاً، والاحاديث التي وردت في الصلاة ونفي الشرك مقيدة وكذا الآيات، والمطلق يحمل على المقيد. وقد انعقد الاجماع على ان كلام الله وكلام رسوله لا يخالف بعضه بعضاً، وأنه لا يخرج أحد من المسلمين بعمل ذنب من غير استحلال له، فيا سبحان الله كيف يدلي علينا بكلام ابن القيم من لم يعلم حقيقة أمرنا وما أدلى به علينا فإنه يزعم انا نكفر بالذنوب وهذا توهم منه وجراءة وبهتان بلا خشية علام الغيوب فهو من القول بلا حلم والحكم بلا علم ومن تصدر لدعوى القول والقليل فإنما يطلب منه الدليل.

وإذا أقررتم بالكفر الاعتقادي وبالحكم به على المشركين فلما لا تحكمون به على هؤلاء الذين يعتقدون النفع والضرر في المخلوقين من الأولياء أو من الشياطين وان الله أعطاهم وفوض إليهم فهم يفعلون ويضرون ويقبضون ويسطون وانهم للخلق أولياء مع الله، ويشفعون فيما سئل منهم وفي الكون يتصرفون بل تعترضون علينا في رسائلكم ومقدماتكم وتقولون ان ذوي العقائد الذين اعتقدوا أن هؤلاء عباد الله الصالحين يفعلون ويشفعون في جلب ما طلب منهم ويضرون كما اعتقد أهل الجاهلية ذلك في الأصنام لكن هؤلاء جاهلون يقررون بالسنتهم أن لا إله إلا الله ونحن نقول أفلا ميزتم الفرق بين الفريقين إذ الأولون لم يعتقدوا ما اعتقده هؤلاء الآخرون من هذا الاعتقاد المنافي للدين والمثبت للفساد هذا لم يعتقدوه أحد ممن سلف من العباد، وانما حدث من عمى القلوب والجهل في حقيقة ما هو من العبيد مطلوب، والأولون لم يعتقدوا إلا مجرد الشفاعة والتقريب في نبي أو ملك أو ما هو مصوّر على صورته ليشفع له ويقرب له من الرب المجيب ولم يشركوا في كل حين بل يشركون تارة في مجرد الشفاعة والتقريب، ويخلصون الدين تارة لله رب العالمين، واحراها وقت حاجتهم في كل شدة وغمة يخلصون له الدعوة التي سماها الله ديناً وقولهم لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك دليل على أنهم لم يعتقدوا فيه الضر والنفع والعطاء والمنع والتفويض وانما

اعتقدوا ما حكى الله عنهم في قوله: ﴿ مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ أفلا نهيم عن هذا الاعتقاد. وأنكرتموه على معتقديه حتى لا تكون فتنة ولا في الدين فساد. بل من نهى عنه أو عن منكر أقل منه نسب ذلك الناهي إلينا. وحصرت عقيدته علينا. فقيل له أو عنه وهابي أو عارضي أو شرقي. وإن كان نائياً عنا ولم يعرفنا. أفلا أجبت الداعي حين دعاكم إلى سبيل الرشاد. فإن القرآن ينادي وبآياته للسبيل المطلوب يهدي ويهدي وعلى المختلفين يحكم ويقضي. والسنة الغراء بما حكم به القرآن تحكم. ولمعانيه المرادة منه تعطي مبتغيها وتم. ومن استمسك بالكتاب والسنة فقد غنم وسلم قال سبحانه وتعالى لحبيبه أفضل الخلق ﷺ معلماً له أن يقول ما يدل على أن الخير والشر من عند الله، وأنه لا يقدر على جلبهما أو دفعهما إلا الله وحده: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً * قل إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً * إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ وقال تعالى: ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ وقال تعالى: ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ وقال تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ وقال تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وقال تعالى لصفوة خلقه: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشراً لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ وفي البخاري « أنه ﷺ قنت على حي من العرب المشركين يدعو عليهم شهراً » فأنزل الله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ وأما الرسول ﷺ فإنه مبلغ عن الله تجب محبته في القلوب على الأهل والنفس والمال والولد، وعلامتها اتباع شرعه وما جاء به، لآعبادته وجعله بمنزلة

رب العالمين، فإنه لم يقاتل هو وصحابه ويعادي ويوالي ويهاجر من بلد مولده ويأرز
 عشيرته ويمثل بعمه ويرسله الله هو وسائر الرسل وتنزل الكتب إلا بسبب عبادة الله
 وحده لا شريك له ليكون الدين كله له، وغيره عليه السلام من الأولياء من باب الولي فإن
 الأولى لا ينال الولاية ولا يؤق الكرامة إلا بالتوحيد قولاً وعملاً واعتقاداً، والاحلاص في
 اتباع ما جاء به عن الله في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وحاشاهم أن يرضوا بزعم
 من زعم أن لهم من الأمر شيئاً، بل هم أطاعوا الله واتبعوا رسله وأحبوه فأحبهم ورضي
 عنهم وأكرمهم كما قال جل ذكره: ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾
 وأما الأمر فإنه كله لله فليس للخلق من دونه ولي ولا شفيع إلا من بعد إذنه كما
 قال تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على
 العرش يدير الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا
 تذكرون ﴾ وقال تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ والنبى صلى الله عليه وسلم وغيره
 من سائر الشفعاء لا يشفعون إلا من إذن الله لهم فيها لمن رضي عنهم. ولهذا إذا جاء
 سيد الشفعاء يوم القيامة يخر ساجداً ما شاء الله فيقال له ارفع رأسك وقل يسمع
 واشفع تشفع وسل تعط. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف
 النبى صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: « يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله
 تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو
 اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت
 على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت
 الصحف » رواه الترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وفي رواية
 للترمذي: « احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في
 الشدة. واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك. واعلم أن
 النصر مع الصبر وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً » وكان من دعائه
صلى الله عليه وسلم: « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك
 الجد ». فهذا كله نص في أن الضر والنفع والاستعانة والدعاء بما لا يقدر عليه إلا الله
 لا يلتبس شيء من ذلك إلا من الله وحده، وإن الخلق ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع
 إلا من بعد إذنه فلا يدعي بما لا يقدر عليه أحد من المخلوقين إلا الله وحده، ولا يتوكل فيه
 إلا عليه ولا يرجى فيه إلا هو ولا يلتجأ إلا إليه إذ هو المعطي والشافع في الحقيقة فإنها

إذا وقفت على اذنه كان الأمر كله له فحينئذ نقول اللهم إنا نسألك شفاعة نبيك ﷺ اللهم شفعه فينا، فالعبادة بأنواعها لله وحده ليس له شريك. ولذلك قدم المعمولین ليفيد تقديمهما ما حصر العبادة والاستعانة لمستحقها وهو الله تبارك وتعالى وحده في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾ الآية وقوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ وقوله: ﴿له دعوة الحق﴾. أفلا تدبرتم معاني هذه الآيات وماورد في سياقها من الأحاديث. فانقدم لعمل مادعت إليه وأعلنت به ودلت عليه من ان الدين كله لله والأمر كله له. فحينئذ وقفتم على صحة عقيدة من نسب العامل بها وبمعانيها والناهي عن ضدها ومخالفها إليه، إذا قيل له أو عنه وهابي أو عارضي أو شرقي كما قيل في الصدر الأول لمن تبع ماجاء عن الله وخالف من خالف أوامر الله أنه صلياً ومن وافق الحق تبع وإن كان واحداً ويسمى وحده أمة. كما قال الله عن ابراهيم حين خالف قومه فيما نهي الله عنه واتبع رضوانه وعمل بتوحيده: ﴿إن ابراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ وقد سمي الله تبارك وتعالى كلمة الاخلاص كلمة التقوى لأنها السبب لكل خير دنيوي وأخروي عكس كلمة الفجور، فإنها السبب في كل شر دنيوي وأخروي، ومن اكفى بمجرد لفظها عن معناها فجانبه وعمل بضدها وهو الكلمة الخبيثة المنافية لاسمها ومسامها من كل فعل أو قول أو اعتقاد خبيث معناه يطلها ويأبأها فإنه قد عكس اسمها في اعتقادها ومنشئها إذ في زعمه أنه متى قالها مع قرينتها وهي الشهادة لمحمد بالرسالة فلا ينافيها من القول أو الفعل أو الاعتقاد مهما قال أو فعل أو اعتقد وهذا مناف لحقيقة الاسلام فزاع عن الايمان لعدم استسلامه وانقياده للعمل في الدين الذي قال الله عنه: ﴿ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ وإذا فقد العمل بمعنى هذه الكلمة الطيبة ووجد العمل بضدها الشامل للقول أو الاعتقاد عدمت بالكلية وإن تلفظ بها وقالها باللسان إذ لا يجتمع متضادان في شيء واحد والمثبت له الاسلام في هذه الحالة جامع بين النقيضين وهو غير ممكن فلا أحد كائناً من كان يجعل عبادة الله التي هي خاصة بجلاله لغيره تعالى من الخلق إلا كانت للشيطان وأعوانه كما قال جل ذكره: ﴿لم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ ولقد أضل منكم

جبلًا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿٢﴾ يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس ﴿٣﴾ يعني من اغوائهم في دار الدنيا .

(وأما حديث) أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب (فالجواب عنه من وجوه) .

(أحدها) : أن لفظ الحديث بيأس لا يئس وإذا كان اليأس جاء من قبل نفسه لأمر رآه من أمور النبوة وانتشار الدعوة وانزال التنزيل مع كثرة الاجابة في تلك المواطن فلا مانع من عبادته ولو بعد حين، وإنما يئس لما قام في ذهنه مما رأى مع حرصه على اغواء بني آدم .

(الثاني) : ان اللعين كان يداخل الصور التي صورها المشركون ويكلمهم فيها كما قال جل ذكره: ﴿١﴾ إن يدعون من دونه إلا إناثًا وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله ﴿٢﴾ فلما نزل قوله تعالى: ﴿٣﴾ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴿٤﴾ وكسرت تلك الصور التي يكلمهم فيها يئس في نفسه ان يعبد كذلك، ولانفاة ان من عبد الله فعبادته واقعة للشيطان لأن إياسه انما هو بالنسبة إلى اعادة تلك الصور إلى ما كانت على صفتها الأولى .

(الثالث) : انه يئس ان يعبد ظاهراً بلا واسطة قبر أو تمثال كما عبد في غير الجزيرة كذلك فإنه قد وجد من عبد صورته استقلالاً .

(وأما بيان) الجزيرة فقال سعيد بن عبد العزيز والأصمعي وأبو عبيدة هي من ريف العراق إلى فذك طولاً ومن تهامة وماوراءها إلى طرف الشام عرضاً وقيل هي من أقصى عدن أبين اسم رجل إلى ريف العراق في الطول، وأما في العرض فمن جدة وماوالاها من ساحل البحر إلى طرف الشام وقال الخليل انما قيل لها جزيرة لأن بحر الحبش وبحر فارس والفرات قد أحاط بها ونسبت إلى العرب لأنها أرضهم ومسكنهم ومعدنهم، وقال الامام أحمد جزيرة العرب المدينة وماوالاها وهو مكة وخيبر والينبع وفذك ومخاليقها وماوالاها، وهذا قول الشافعي لأنهم لامن تيمنا ولامن اليمن، والآيات والأحاديث فيما ذكرنا كثيرة جداً ولكن اتباع الهوى من أكبر البلوى ولا أشد ضرراً

على الانسان من ميل الهوى واتباعه فيما يسخط الله تبارك وتعالى فانه قال عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ماتحت ظل السماء إله يعبد من دون الله أبغض إلى الله من هوى » .

(وأما قولكم وقد قسمه العلامة ابن الجوزي في النهاية إلى أربعة أقسام . كفر انكار بأن لايعرف الله تبارك وتعالى أصلاً ولايعترف به . وكفر جحود ككفر ابليس لعنه الله إذ كان يعرف الله بقلبه ولايقرب بلسانه . وكفر عناد وهو أن يعرف بقلبه ويعترف بلسانه ولايدين به حسداً وبغياً واستكباراً واستحياءً من قومه ككفر أبي جهل وأبي طالب واضرابهما . وكفر نفاق وهو أن يعترف بلسانه ولايعتقد بقلبه) .

فنقول : قد شاع وذاع وتقطعت به الاسماع وتواترت الاخبار وامتألت الدواوين أن الكفر من حيث هو ينقسم في تعريفه إلى أربعة أقسام وكل قسم مغاير لقسيمه في المعنى الذي يسمى به وهذه الأقسام متفقة في حقيقة معنى الكفر وأصله من الستر ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته وسمي الزراع كافراً لأنه يستر الحب بالتراب والكافر يستر الحق بجحوده إياه .

(الأول كفر الجحود) : وهو أن يكفر بما يعلمه في قلبه من أسماء الرب أو صفاته أو أفعاله أو دينه وأحكامه أو رسله أو ما جاء به من الحق فلا يقر به في لسانه ولايعمل به في جوارحه وهذا كفر ابليس عليه اللعينة ومشابهه الكاتمين الحق بعد علمهم إياه كاليهود ومشاكلهم من علماء السوء العاملين بالباطل والبهتان والقائلين الزور فيما جاء به القرآن وهم المجوزون المنكر والعاكعون عليه والناهون عن المعروف ومايوصل إليه والصادون عن سبيل الله ومايقرب لديه . قال سبحانه وتعالى في حق أولئك: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ بئس مثل

القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿٢﴾ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴿٣﴾ فكل من عرف الحق من الدين ولم ينقد إليه ولم يعمل به فهو كافر ككفرهم، وهو ملعون كما لعنوا، وقال تعالى في حق هؤلاء : ﴿٤﴾ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴿٥﴾ وهذه شاملة الفريقين .

(الثاني كفر انكار) : وهو أن ينكر الله أو دينه أو رسله أو كتبه أو شيئاً مما جاؤا به في القلب واللسان .

(الثالث) كفر العناد وهو أن يعرف الحق بقلبه ويعترف به في لسانه ولكن لا يعمل به ككفر أبي طالب وأمثاله حين دعاه النبي ﷺ إلى الدين والعمل به من إيمان وغيره فقال : لولا تعيرني قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ماحيت وقال في النبي ﷺ ودينه أبياتاً يثني عليه بها وهي هذه :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ومقاتل نزل قول الله سبحانه وتعالى وهم يبهون عنه ويتأون عنه في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى محمد ﷺ ويمنعهم منه ويتأني بنفسه عن الإيمان بدينه أي يبعد نفسه عن العمل به حتى أنه اجتمع إليه رؤساء المشركين وقالوا : خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع محمداً لنستريح منه فقال أبو طالب : ما أنصفتُموني أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأربي ولدكم . ولما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شق ذلك على قريش وفرح به المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة

للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سنّاً
 الوليد بن المغيرة، قال لهم: امشوا إلى أبي طالب فأتوا أبا طالب ومعه أبو جهل
 وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا قد جئناك لتقضي
 بيننا وبين ابن أخيك وأنصفنا منه. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فدعا به
 فقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فلا تمل كل الميل على قومك. فقال النبي
 ﷺ: «ماذا يسألوني» قالوا: ارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك. فقال
 ﷺ: «أدعوكم إلى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» أي
 تطيع، فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيكمها وعشرة أمثالها، فقال رسول الله
 ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً لظنهم
 أن الإله الواحد لا يسع الخلق ولا يصلون إلى قربهِ إلا بوسائط ورسائل يقربونهم إليه
 يتوكلون عليهم ويتقربون لديهم بشفاعتهم عنده، فهم يتألهونهم بقلوبهم بمحبتهم
 وتعظيمهم واجلالهم واکرامهم زاعمين أن ذلك فيه رضاء الله وأنه تعالى أمر به كما
 قالوا في الآية الأخرى لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا، لأن ماتألهوه إما نبياً أو ملكاً
 أو صورة أحدهم فلذلك تعجبوا مما دعاهم إليه النبي ﷺ فقالوا إن هذا لشيء
 عجاب، أي عجيب والعجب والعجاب واحد كقول العرب: رجل كريم وكرام وكبير
 وكبار وطويل وطوال وعريض وعراض. وانطلق الملأ منهم من مجلس اجتماعهم عند أبي
 طالب الذي كانوا فيه وسماعهم من النبي ﷺ تلك الكلمة الطيبة يقول بعضهم
 لبعض: أن امشوا واصبروا على آلهتكم أي اثبتوا على عبادة آلهتكم يوصي بعضهم
 بعضاً في الصبر على ما هم عليه من الباطل وعداوة الحق أي اثبتوا على معتقداتكم
 لتقربكم إلى خالقكم لأنه قد أمركم بذلك ولهذا قال إن هذا لشيء يراد أي هذا
 الاعتقاد بالآلهة يراد منا لا محالة عن ذلك فإن الخلق لا يسعهم الإله الواحد بل هم
 مأمورون بالأسباب الموصلة إليه وقيل معناه أنه لأمر يراد بنا وذلك أن عمر لما أسلم
 وحصل للمسلمين قوة بمكانه عندهم قالوا: إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب
 محمد لأمر يراد بنا وقيل يراد بمحمد يملك علينا فيتولى أمرنا وما نحن فيه، ولما كان الدين
 الذي لا يقبل الله غيره مخالفاً لعاداتهم وعادة آباؤهم قالوا: مسمعنا بهذا الذي يقوله
 محمد من التوحيد في الملة الآخرة هي ملة قريش وهي دينهم الذي كانوا عليه بلا

أصل وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي : يعنون النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون ثالث ثلاثة ان بمعنى ما هذا إلا اختلاف كذب وافتعال ثم لما حسدوا بغياً واستكباراً عن الحق واتباعه، قالوا: أنزل عليه الذكر من بيننا وليس بأكبرنا ولا أشرفنا قال الله تعالى: ﴿ بل هم في شك من ذكرى ﴾ أي وحىي وما أنزلت على عبدي. والمراد به القرآن، وما أنزل لأجله، وهو التوحيد، بل لما يذوقوا عذاب، تهديد لهم أي سيدوقونه ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول ولصدقوا حيث لا ينفعهم التصديق، لأن لما تدل على عدم وقوع المنفي بها في الحال لافي الاستقبال.

(وإذا كان) معنى كفر العناد هو ان يعرف بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين بما عرفه واعترف به فالعجب ممن يدلي علينا باعتراضاته ويزعم في مصنفاته ويقول في معتقداته ان الايمان يكفي فيه مجرد التصديق فمتى وجد أغنى عن العمل ويسمى المصدق مؤمناً وحيث ترك العمل فهو كافر كفراً عملياً لا يخرج عن الملة بل هو مسلم حكماً وحقيقة، وهل هذا إلا تناقض فيما قاله أو ادعاه، ونقض لما أبرمه فيما حكاه فله الحمد والمنة.

(الرابع) : كفر النفاق وهو ان يعترف باللسان ويعمل بشرائع الاسلام ظاهراً ولا يعتقد في القلب بل إما يكذب أو يستخف ولكن يعمل خوفاً وتلجته فهو النفاق الذي صاحبه في الدرك الأسفل من النار وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله بواحد منها لا يغفر له بل هو مغلد في النار بنص التنزيل وأحاديث البشير النذير .

(وأما قولكم قال ابن القيم : وهذا الجمع والتوفيق بهذا التفصيل هو قول الصحابة وعليه الاعتماد لأن أمثال هذه المسائل لا تتلقى إلا منهم ولا تؤخذ إلا عنهم إذ هم الواقفون على اسرار الكتاب والأحاديث، والمتأخرون لما لم يفقهوا مرامهم افترقوا فرقتين فرقة أخرجت مرتكب الكبيرة عن الملة المحمدية وقضوا عليهم بالخلود بالنار وفرقة جعلوهم مؤمنين كاملي الايمان فهؤلاء غلوا وهؤلاء جفوا وهدى الله أهل السنة والجماعة للطريقة المثلى والقول الاوسط حيث لم يخرجوهم عن الايمان ولم يقضوا عليهم بالخلود ولم يجعلوهم بحيث لاتضرهم المعاصي وهذا هو الموافق للمنقول عن علماء الصحابة والتابعين من تقسيم الكفر إلى القسمين المذكورين) فنقول :

هذا مما قدمناه وقلناه والحق ما قاله ابن القيم، ولكن لا يخص بفهمه والعمل به إلا من سبقت له من الله الحسنى والمقام الأسنى والعناية الربانية والسعادة الأبدية، فإنه عنى بذلك ما عناه الأئمة الأعلام الذين هم مصابيح الهدى والدين من سائر الأنام، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وغيرهم من أئمة الدين حتى البخاري ومسلم، كلهم على أن المسلم لا يكفر بذنوبه يفعلها ولا يخرج به من الملة كالقتل والزنا وشرب الخمر وقوله لأخيه المسلم يا كافر من غير اعتقاد بطلان دين الاسلام وسائر أفعال المعاصي إلا الشرك بالله الأكبر، الذي لا يغفره تعالى كما حكاه بنص التنزيل، أو استحلال ما حرمه الله أو تحريم ما حلل، كما قدمنا الكلام فيه وعلى هذا دل الكتاب والسنة وبه نطق أولو العلم والحكمة قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ... إِلَىٰ قَوْلِهِ.. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأُصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ فسماهم مؤمنين وجعلهم أخوة مع الاقتتال وبغى بعضهم على بعض، وقال تعالى في بيان الكفارة: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ولو أعتق مذنباً أجراً عتقه باجماع أهل العلم. وقد ثبت الزنا والسرقه وشرب الخمر على أناس في عهد النبي ﷺ ولم يحكم عليهم بالكفر الموجب للردة ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين بل جلد هذا ورجم هذا وقطع يد هذا وهو في ذلك يستغفر لهم ويقول: « لا تكونوا أعوان الشياطين على أخيكم ». وفي البخاري: (عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً يشرب الخمر يقال له عبد الله فأتى به شارباً فلغنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله ﷺ: « لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله ») ولما أتى ذو الخويصرة وهو رجل ناثيء الجبين غائر العينين كثر اللحية وقال: يا محمد اعدل فإنك لم تعدل فأراد بعض الصحابة قتله فقال النبي ﷺ: « دعه إنه يخرج من ضئضىء هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم، القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية » وهذا الحديث في الصحيحين وغيرهما فهذا العابد الظاهر للعبادة هو ومن اتبعه لما جانبوا سنة رسول الله ﷺ واستغفوا بما معهم عنها وخالفوه وخالفوا الصحابة ودعوا إلى بدعتهم واستحلوا دماء من لا يوافقهم عليها أمر النبي ﷺ بقتالهم، وقال: « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » وذلك الشارب الخمر لما كان محباً للرسول ولستته نهي ﷺ عن لعنه وقال: « لا تلغنه فإنه

يحب الله ورسوله». فهذا يرد ماذهب إليه المعتزلة والخوارج من التكفير بالذنوب ووجوب النار والتخليد لمن مات عاصياً لمقلب القلوب. وكذلك المرجفة القائلون بأن الإيمان لا تنضر معه المعصية، كما أن الكفر لا تنفع معه الطاعة، وترك الأعمال التي من الدين معصية لا تنضر مع وجود التصديق القلبي إذ هو الإيمان عندهم ووجوده كاف عن غيره ولكل شبهة مستند إليها قد ذكرناها فيما تقدم، فهدى الله أهل السنة والجماعة للطريقة المثلى والقول الأوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل حيث لم يخرجوهم عن الإيمان ولم يحكموا عليهم بالخلود في النيران ولم يجعلوهم بحيث لا تنضرهم المعاصي والاستغراق في الطغيان، لأنهم بقول الله ورسوله متمسكون وعلى قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان معتمدون ولمن خالفهم مجانبون إذ هم على أسرار الكتاب واقفون وبسنة نبيهم آخذون فلا تتلقى تلك المسائل وتؤخذ إلا عنهم ولا يهتدي المهتدي ويفوز المسترشد إلا بهديهم واتباع سنتهم ومن جانبهم فقد أبعد وضل وأضل فإن انضاف إلى المجانبية الاعراض عن منهاج الرسول وما كان عليه وهو وأصحابه ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً.

(وأما قولكم قال وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء: كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق) .

فنقول: هذا بعينه ما قاله ابن القيم وغيره نقلاً عن الصحابة والتابعين من أن أعمال الجوارح الظاهرة كالزنا وشرب الخمر واتباع الكاهن مع عدم تقديم كلامه على كلام الرسول، ومن لم يأمن جاره بواقعه، ومن لم يحكم بما أنزل الله من الشرائع التي منشؤها الفروع مع الانقياد لحكم الله في الأصول بالقلب والقول باللسان، وسائر المعاصي الظاهرة لا يخرج بها مرتكبها عن خطية الإسلام وإن لم يسم مؤمناً حقاً، فلا يقال عنه كافر حقاً فهنا كفر دون كفر ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك وظلم دون ظلم وفسق دون فسق، قال سفيان بن عيينة عن هشام بن حجر عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ليس هو الكفر الذين تذهبون إليه وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه طاووس قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال: هو بهم كفر ولكن ليس كمن كفر بالله وملائكته

وكتبه ورسله، وقال في رواية أخرى : كفر لا ينقل عن الملة، وقد تقدم الكلام فيه مستوفى عند قوله وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وغيرهم عن ابن عباس في تفسير هذه الآية وأنه رضي الله عنه فصل تفصيلاً حسناً قد ذكرناه عنه فيما سلف وقال وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وهذا كله رد على المعتزلة والخوارج الضالين عن طريق الحق والصواب والجائحين عن طريقة أفضل الأجيال .

(ونحن والله الحمد) على ما كان عليه النبي ﷺ معتمدون وبكلام الله آخذون ولمن خالفه مجانبون ومعادون والدليل على صحة ما قلناه واعتقدناه انا لانكفر إلا من كفره الله بنص التنزيل كالثألين غير الله من المخلوقين بدعائهم ورجائهم والتوكل عليهم وتقويض جميع أمورهم إليهم قولاً واعتقاداً والراضين بذلك المكفريناً بأمرنا بما أمر الله به ونهينا عما نهى الله عنه يجاهدوننا ويجعلون اليهود والنصارى أخف شراً منا ومن اتباعنا وكذا الجاحدين من الدين ما علم بالضرورة انه منه عملياً كان أو اعتقادياً، ونجاهد على ذلك كله وعلى تقويم أركان الاسلام كما جاهد النبي ﷺ وأصحابه عليه بأمر الله له في آيات التنزيل كما قال جل ذكره : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصوهم واقعدوا له كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ الآية فقدم تعالى التوبة من الشرك اشارة إلى أن الصلاة والزكاة وسائر أعمال البر لا تعتبر ولا يعتد بها إلا بعد وجود الأصل وهو التوحيد إذ هو كأصل الحائط أو أصل الشجرة وسائر الأعمال كفرعه وهو لا يثبت إلا على أصل فلا يستقيم بدونه ولا يتم إلا به قال سبحانه وتعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فإن حكمتكم على ان من جعل بعض الدين لله وبعضه لغيره بأنه عاص لا كافر حقيقة، وقد جنحتم ورجعتم عن اجماع سلف الأمة في أن المشركين الأولين الجاعلين بعض الدين لله وبعضه لغيره ومن شاكلهم ممن اعتقد اعتقادهم وعمل عملهم مستوجبون للكفر حقيقة وان من اعتقد انهم على صواب أو هدى أو شك في كفرهم فهو مكذب لقول الله طاعن في رسالة محمد ﷺ وان حكمتكم بكفره فلما لا تحكمون به على من اتخذ من دون الله ولياً ونصيراً وشفيعاً يدعوه ويرجوه ويتوكل عليه قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾

التقصيرات بمناداته في تلك الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين، وهذه رتبة الخواص الفرع عند الشدائد إلى مالك الناس بالاخلاص ولهذا كان نبينا ﷺ يفرع عند كل شدة إلى الصلاة. والظلم تارة يأتي بمعنى الإثم الذي هو أعم من المعاصي والكفر كما تقدم، وتارة يأتي بمعنى خلاف الأولى كقول يونس صلوات الله وسلامه عليه سبحانه إني كنت من الظالمين، وقول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا، وكما جاء في الحديث الذي رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء اعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثاً ثلاثاً وقال: « هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » رواه أحمد والنسائي وابن ماجة فسمى خلاف الأولى ظلماً. وقد صح في السنة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: « دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجيب له » وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى » قلت: يارسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال: « هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله تعالى ننجي المؤمنين » فالإيمان شرط من الله لمن دعاه بهذه الدعوة إذ قد يقولها وهو يوجد المنافي لها قولاً أو عملاً أو اعتقاداً فليس عنده منها إلا مجرد لفظها وكانت هذه الدعوة مفرع الأنبياء، أخرجه ابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة وقول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا فيه الاعتراف بمخالفة النهي وفعل خلاف الأولى وأنه فعل المنهي عنه لا عن عمد وإنما هو ظان أن النهي لا يقتضي التلزم باجتناب المنهي عنه لأن الغار له أقسم بالله على ذلك فظن أن لا أحد يقسم بالله كاذباً فنسب التقصير والظلم إلى نفسه وما أحسن الاعتراف بالذنب والتقصير من العبد لسيده وإن أبعد اللوم عنه ظاهراً والعبد إذا ازداد قرب من سيده ازداد خوفه وخشيته ورغبته ورهبته منه وعد ماجرى من غير اللائق به ذنباً وإن لاق بغيره ممن هو ليس في درجته ولذلك كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقال موسى عليه السلام: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فسأله المغفرة واعترافه بظلم النفس على جهة طلب الكمال، وإن اللائق به كان خلاف ما فعل من الاستعجال بقتل القبطي وإلا فمجرد قتله جائز فإنه عدو للدين حرني للإسرائيليين لكن كان الأولى في حق موسى تأخير قتله لينصحه ويعظه بما قاله

رب العالمين، فتسميته من عمل الشيطان للاستعجال بقتله، وتسميته ظملاً من حيث حرمان ثواب المندوب، وقال اعترافاً وانقطاعاً إلى الله فيما هو إليه محبوب وأن لم يكن ثم ذنب البتة. والاستغفار منه بمعنى طلب المغفرة بترك هذا المندوب لعمله عدم الأولى المطلوب، ومن المعلوم يقيناً عند كل عاقل أن ظلم الكفر ليس كظلم المعاصي، وظلم العبد المتيب ليس كظلم العبد الجاني، فالظلم مختلف، كما أن الكفر أنواعه مختلفة، وهذا لم يقع فيه نزاع بين علماء أهل السنة، وإنما القصد الكلي والفائدة العظمى طلب ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراد بذلك الانزال والارسال وما طلبه من عبيده فما خلقهم لأجله وأمرهم به ونهاهم عن ضده ورتب على وجوده رضاه ورحمته والخلود في جنته وعلى عدمه والعمل بضده وغضبه وسخطه وحرمان رحمته والخلود في ناره وغضبه وتضعيف عذابه وكل ما يحتاج إليه الناس في دينهم فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً ثم إذا عرف ما بينه الكتاب وقاله الرسول، نظر في أقوال الخلق فعرضت على الكتاب والسنة فما وافق قبل، وما خالف نبذ، فهذا هو سبيل الهدى والسنة والعلم والحكمة، وهو الذي كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن سلك سبيلهم من الأئمة الأعلام إلى آخر الزمان، وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فنعكس ذلك تجد المبتدع بدعة إما مخرجة عن الدين بالكلية، وإما ليست أصلية منه ولا فرعية بل من رأى رجال وتاويلاتهم، أو من دسائس الشيطان وتحسيناتهم أنها من الدين ومما يقرب إلى رب العالمين، لم يجعل مجاء به الرسول أصلاً وفرعاً فيعرض عليه سائر ما هو عامل بل يحرف الألفاظ ويتأولها على وفق ما هو له أصل وفي نفس الأمر لا يعتمد على مجاء به الرسول ولا يتلقاه منه بالهدى ولكن يتأول منه ما يوافق بدعته لي يجعله له حجة كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه وقد قال تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة﴾ التي من أعظمها الشرك وابتغاء تأويله وقال ﷺ فيما خرجاه في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

(والأعمال قسمان) عبادات ومعاملات. فأما العبادات فكل ما كان خارجاً عن كلام الله ورسوله بالكلية من قول أو اعتقاد أو فعل فهو مردود على عامله

ويدخل تحت قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فمن تقرب إلى الله بما لم يجعله الله ورسوله قرينة فعمله باطل مردود عليه وشبيهه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصديعة، وإن تلك القرينة المعتقدة كقرينة الأولين فهي أعظم بعداً عن الدين، وأبغض معصية إلى رب العالمين، وهذا مناف له من أصله فلا يوجد معه أبداً كالذين يشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً ويقولون على الله مالا يعلمون، وهم الجاعلون بينهم وبين خالقهم وسائط ووسائل من خلقه يدعونهم ويرجونهم ويلوذون بهم ويتوكلون عليهم ليشفعوا لهم عند مليكهم في قضاء حوائجهم ومع ذلك يقولون: الله أمرنا بهذا فهو يرضى به، ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ولم يتأملوا أحوالهم وما هم فيه من العقائد الفاسدة والحجج العاطلة فتستنير قلوبهم لمعناها وإنها الأعمال الصالحة لا سواها بل واسطتهم تلك هي معنى الإله المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ذكره المفسرون في كتبهم نقلاً عن البشير النذير، وإن كانت غير ذلك كمن تقرب إلى الله بسماع الملاهي أو بالرقص أو بكشف الرأس في غير الأحرام وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ولا رسوله التقرب بها إليه بالكلية فهي من دسائس الشياطين لتنال الحظ الوافر من العاملين وليس كل ما كان قرينة في عبادة يكون قرينة في غيرها مطلقاً فقد رأى النبي ﷺ رجلاً قائماً في الشمس فسأل عنه فقيل إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وإن يصوم فأمره النبي ﷺ أن يقعد ويستظل وإن يتم صومه فلم يجعل قيامه وبروزه للشمس قرينة يوفي بنذرهما، وقد روى أن ذلك كان في يوم الجمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ بخطب أعظاماً لخطبته ﷺ ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قرينة يوفي بنذره مع أن القيام عبادة في موضع آخر كالصلاة والأذان والقيام بعرفة والبروز في الشمس قرينة للمحرم فدل على أنه ليس كل ما كان قرينة في موطن يكون قرينة في كل موطن إنما يتبع ذلك ماوردت به الشريعة في مواضعها وكذلك من تقرب بعبادة نهي عنها بخصوصها كمن صام يوم العيد أو صلى وقت النهي .

(وأما المعاملات) كالعقود والفسوخ ونحوها فما كان منها تغيير للأوضاع الشرعية كمجعل حد الزنا عقوبة مالية وما أشبه ذلك فإنه مردود من أصله لا يقبله الله

لأن هذا غير معهود في الاسلام ويدل على ذلك ما روى البخاري في صحيحه ان النبي ﷺ قال للذي سأله ان ابني كان عسيفاً على فلان فزني بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها قال: فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت () وتأمل ما ذكرناه يعلم اختلاف الظلم كما يعلم اختلاف الكفر وان كل كافر ظالم ولا عكس .

(وأما قولكم وسمى الله الكافر فاسقاً في قوله: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ الآية، وسمى المؤمن فاسقاً في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط على قول الأكثر في قوله تعالى فيمن رمى المحصنات ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ والآيات كثيرة في الأمرين) .

فنقول هذا من كلام ابن القيم أيضاً وأصل الفسق الخروج يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، قال الله تعالى في حق ابليس عليه اللعنة ففسق عن أمر ربه أي خرج، وكل كافر خارج من الطاعة فهو فاسق ولا عكس، وان سمي فاسقاً إذ الفسق أعم من الكفر وهو أخص وبينهما عموم وخصوص مطلق يجتمعان في مادة الكفر، وينفرد الفسق عنه، ولذلك سمي الله سبحانه وتعالى المؤمن العاصي فاسقاً في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيخوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله ﷺ جابياً للصدقات على بني المصطلق فلما قاربهم وسمعوا به اجتمعوا فهاجمهم وخاف على نفسه بسبب عداوة كانت بينهم في الجاهلية فلما خاف الوليد ورجع مخبراً لرسول الله ﷺ بمنعهم الزكاة وارتدادهم غضب النبي ﷺ وهم بهم فجاءوا معتذرين مكذبين للوليد فأرسل إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد آمراً له أن ينظر في أمرهم فان رأى خيراً أخذ الزكاة وان رأى أمارات غيره فعل بهم كفعله بالكفار، فرأى الخير بسماعه لأذاني صلاة المغرب والعشاء فأخذ الزكاة منهم وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيخوا قوماً بجهالة ﴾ الآية فاستفيد ان المخبر بشيء لا يعمل بخبره إلا بعد التثبت ومن هنا قيل ان التهمة تمنع قبول خبر ائمام لأنه

بمجردها يفسد بها لأنها كبيرة إلا أن تكون مصلحة للدين وقمعا لأعدائه المعاندين
 إذا سبوه واستهزؤا به أو تعدوا وظلموا فيه فقد يجب رفع خبرهم إلى الامام أو نائبه لأن
 النبي ﷺ رفع إليه خبر العرنيين، وقيل نزلت الآية في الحكم بن أبي العاص وهو مؤمن
 أيضاً، والأول عليه الجمهور، واففقوا على فسق قاذف المؤمن لأن الله سبحانه سماه فاسقاً
 ما لم يتب، ولا يلزم من تسمية فاعل المعصية فاسقاً كفره لما تقدم أن كل كافر فاسق
 ولا عكس، ولأن الله سبحانه سمى المؤمن العاصي فاسقاً ولم يحكم عليه النبي ﷺ
 بالكفر مع وجود فسقه، كما لا يلزم من وجود الظلم الكفر بخلاف العكس قال
 تعالى: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين
 ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات
 بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ والآيات في هذا الحد كثيرة فليس فسق العاصي
 كفسي الكافر، كما ليس ظلم الأول كظلم الثاني، فالكفر كفران والفسق فسقان، والظلم
 ظلمان، وكذلك الجهل جهلان، باعتبار الكفر والإيمان .

فالأول كما في قوله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ .
 والثاني كقوله تعالى: ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون
 من قريب ﴾ . وباعتبار حقيقته إلى مركب، وهو فهم المعنى بالعكس على غير المراد منه
 مع التصميم على ذلك وادعاء العلم به، وبسيط، وهو الغفلة عن المعنى مع عدم ادعاء
 علمه .

(وأما قولكم والشرك أيضاً شركان شرك ينقل عن الملة وشرك لا ينقل عنها وهو
 الأصغر وهو شرك العمل كالرياء قال الله في الأكبر ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من
 السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ وفي الأصغر ﴿ فمن
 كان يروج لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ومن الأصغر
 حديث من حلف بغير الله فقد أشرك لا يخرج عن الملة ولا يوجب له حكم الكفار) .

فنقول: أصل دين الله وقاعدته الذي بعث به رسله وأنزل به كنبه وشرع الجهاد
 لأجله وجعل الجنة والنار بسببه والذل والصغار على من خالفه إنما هو أمران .

(الأول) توحيد سبحانه بالقيام بعبادته له تعالى وحده لا شريك له وهو

اخلاصها بأنواعها لجلاله وعظمته المختصة بالوهيته قال سبحانه وتعالى: ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ وقال تعالى: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ وقال: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ وقال تعالى: ﴿ قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه .

(الثاني) الكف عن الشرك والنهي والانذار عنه والتغليظ فيه، والمعادة به، وتكفير من فعله، والبراءة منه، وعدم مودته وموالاته من دون الله، وإن كان قريباً من العشيوة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ وقال تعالى: ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ وقال تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال تعالى: ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ والمخالفة في هذين الأمرين (أنواع) أشدها المخالفة في كليهما، والخلق قد افرقوا فيهما فرقاً :

(فمنهم) من عبد الله وحده لكنه لم ينكر الشرك وهو يعرفه .

(ومنهم) من أشرك ولم ينكر التوحيد .

(ومنهم) من أنكر الشرك لكنه لم يعاد أهله، بل والاهم من دون المؤمنين أو جعل رتبتهم كرتبة أهل التوحيد محتجاً بأن الكل خلق الله .

(ومنهم) من عاداهم لدنيا أو عصبية لا لشركهم ولم يكفرهم ولم يعب عليهم فيه .

(ومنهم) من لم يحب التوحيد ولم يبغضه وإنما هو تابع فيه غيره سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

(ومنهم) من أنكره ولم يعاد أهله .

(ومنهم) من عاداهم لمخالفتهم أهل الأهواء المتبع لهم مع عدم شعوره ولم يكفرهم .

(ومنهم) من كفرهم وأنكر التوحيد بعد أن عرفه وسبه وأهله .

(ومنهم) من لم ينكره لكنه كفر أهله الأمرين به والناهين عن ضده .

(ومنهم) من لم يفيض الشرك ولم يحبه بعدم تمييزه عن ضده .

(ومنهم) من لم يعرف الشرك من أصله فلم ينكره وفعله .

(ومنهم) من لم يعرف التوحيد وأنواع العبادات فلم يقل به مؤدياً حقه .

(ومنهم) من قاله بلسانه ولم يعمل به ولم يعرف معناه في قلبه ولا قدره فلم

يعاد أهل الشرك ولم يكفرهم

فهذه ثلاثة عشر فرقة كلها قد خالفت ماجاءت به الرسل من دين الله وتوحيده وأشدهم مخالفة من عرف بتوحيد الله ودينه فأنكره وكفر أهله، ثم من عرفه ولم ينكر لكنه كفر أهله وعاداهم، ثم من قال التوحيد بلسانه ولم يعمل به في اعتقاده ولم يعرفه ولا قدره ولم يسأل عنه أهل معرفته بل تسافه عنه مستغن برأيه، ثم من جعل رتبة أهل الشرك كرتبة أهل التوحيد، فهذا من أعظم الجور والبهتان في حكمه حيث جعل المشركين في رتبة الموحدين ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ثم الباقي سواء في المخالفة .

(واعلم) ان أمر الله تبارك وتعالى شرع وقدر قدره ولايم الايمان بأحدهما إلا بالآخر ولا يدرك أمره تعالى ليتمثل ويعمل به إلا بتأمل معاني كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ (ثم الشرك من حيث هو) ينقسم إلى أكبر غير مغفور، وإلى أصغر لا يقبله الملك الغفور . فمن الأول ما يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه ما يتعلق بعباداته ومعاملاته مع اعتقاد انه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . والذي يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله نوعان :

(أحدهما) شرك التعطيل وهو أقبح أنواعه كشرك فرعون اذ قال ومارب العالمين، وقال لهامان ابن لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين،

والشرك والتعطيل متلازمان، فكيف مشرك معطل، وكمل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وسائر صفاته لكنه لما عطّل أصل التوحيد الواجب على العبيد الذي لا ينفي ولا يكون إلا الله وحده فشكل فيه غيره صار مشركاً بذلك، وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل (وهو ثلاثة أقسام) .

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه .

وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله .

وتعطيل معاملته تعالى عما يجب على العبيد من حقيقة التوحيد وهو اخلاص جميع أنواع العبادة والدين لله، فإذا أشرك غير الله في ذلك فقد أشرك شركاً غير مفقور إلا بالتوبة عنه وهذا المشرك مقر بالخالق وصفاته وأسمائه معطل لمعاملته المختصة بجلاله ولا يدخله في الاسلام أقراء ولا مانع من الآلهة لسانه لتعطيله ماوجب عليه من حقيقة التوحيد بجعله ماينخص بجلال الله لغيره من العبادات المتأله بها من جعلت له، لاحظ المعنى في ذلك الجاعل أو لم يلاحظه، فأما تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه فهو كشرك الملاحدة القائلين بقديم العالم وأبدية وأنه لم يكن معدوماً أصلاً بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب وسائط انقضت إيجادها يسمونها العقول والنفس، ومنه شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ماثم خالق وخلق ولا ههنا شيآن بل المنزه هو عين المشبه، ومنه شرك القدرية القائلين بأن الحيوان يخلق أفعال نفسه وانها تحدث بدون مشيئة الله، ولهذا سماهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة لأن شرك المجوس استناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة. وفي القرآن العزيز ماورد عليهم كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تعملون ﴾ قاله هو الخالق للأشياء كلها والعبد مكتسب لخالق وله اختيار في أفعال نفسه لا تقع إلا بهواه وميله إليها ولذلك يحاسب عليها مع كونها بتقدير الله وإرادته فلا يحتاج بالقدر لما فيها من الرد على منشيء البشر .

(وأما حجة آدم موسى) فإنما هي لتسليم الأمر، وله تعالى الحجة البالغة ولو شاء لهدى الناس أجمعين، وهو تعالى حكم عدل لا يؤخذ إلا بالذنب، ولا يعاقب إلا عليه، وله تعالى أن يجعل الخلق كلهم مذنبين فيعذبهم عدلاً منه، وله أن يجعلهم سعداء طائعين فيرحمهم فضلاً منه، وقد ركب سبحانه في الانسان عقلاً وجعل آلة الادراك

يبرز به الأشياء الضعاف من النافعة فضلاً عنه تعالى ورغبة فهو لا يشغل تعالى عما يفعل
وهم يستولون وهو المليم لتغير والشرة قال جل شأنه : ﴿ فَاَخَذْنَاهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾
والله اعلم ان شيء الا فتلك تحمل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴿ وكل ميسر لما
خلق له يوهي الانسان الاجتهاد في طاعة مخالفه ما استطاع وسؤال التزييق والارشاد إلى
الضرائع المستقيم .

(وأما تعظيم) الصالح سبحانه من آثاله المقدس بتعظيم أسمائه وصفاته وأفعاله
مما نزل بالهدية والفراسة لم يبق له تعالى اسماً ولا صفة بل جعلوا الخلق أكمل من
الله وشكس عما يقول الظالمون عند كفرهم إذ كان الذات بأسمائها ومقتضاها .

وأما تعظيمه تعالى عما أوسعه تعالى من نوره فهي تسميان

تسم تخرج من الملة وهو الذي نوره تعالى بملائكة الغنى والشفيع والمعلم والنجي
والاستغاث والقيوم ووجهاء العباد والمخلص الشخصي بخلافه المخلوق وسوءه الايمان
والرجاء والالتجاء والتوكل وبيع الثريان والإثابة والخصم والشفعة والاستعانة وهذا
المشارك المعظم قد ساقى الثواب ريب الثياب والسيد بالذات الرقاب والفقير بالذات
التي ريب بالذات الشاكر بالذات الصالح بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم
بالذات بالذات النادر بالذات الغنى وقدره وسلطه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته
وأنه المطلق التام من لزوم ذاته فلا ظلم أجمع من هذا ولا حكم أشد جوراً منه حيث
عذر من لا يحد له عقله كما قال جل ذكره : ﴿ هو العزيز الذي خلق السموات
والأرض ويحمل العرش العظيم والذين آمنوا يقرءوا كتابهم ويذكرون ﴿ ويحفظون ﴿ وحفظ حق الله تعالى
الشخص بجلاله فحينئذ لغره عند ذكره بين الله وبين عبده في محض حقه تعالى من
العباد لا يشكر عليه إلا من أمر يسأل ويتوعد على ترك طلب أغضاله والأجفال
والسليم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء والالتجاء والتوكل وبيع الثريان فقد
أشرك بينه تعالى وبين أنف من الخلق إليه وأعوانهم عليه وأقربهم عنده إذ هو عذوه على
الحقيقة فإن المشرك مطلقاً إلا نوره غير الله وما يمد من دون الله إلا شيطاناً مريداً كما
قال جل ذكره : ﴿ هو أكرم عندكم إليكم ولبي آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو
مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴿ ولا عبد أشرك الملائكة بوجههم وفتح
عبادهم في نفس الشر الشيطان يوسوس بينهم بأن الله كان غي
عنهم يوم يفرق بهم بينهم أن يفرق بين الله وبين الملائكة . كما قال عز

سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿ فلا أحد كائناً ما كان يعبد غير الله إلا وقعت عبادته للشيطان نفسه، واللعين يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم أنه ملك أو ولي وقد يتصور على صورة المستغاث به والمدعو فهو كثيراً ما يترآى لأوليائه إبليس للإيهام والتلبيس فيزداد المشرك في شركه بواسطة القبر أو التمثال رغبة ورهبة وكذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها شيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وهكذا عند غروبها، وكذلك من عبد المسيح وأمه وعزيراً والأنبياء والصالحين وتعلق عليهم يدعوهم ويرجوهم ويتوكل عليهم ويلتجئ إليهم ويقرب لهم وينذر لهم ليدفعوا عنه ضرراً أو يجلبوا له خيراً فإن ذلك كله واقع للشيطان نفسه لا لهم، بل هم بريئون منه ومن عبادته وسيبرأ منهم بمعنى أنه يبرأ من عبادته إياهم ويتمنى الكرة إلى الحياة الدنيا ليعمل غير الذي كان يعمل كما قال جل ذكره: ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ وهذا العابد يزعم أنه يعبد من أمره بعبادتهم ورضيها لهم وأمرهم بها فهم يقرّبونه إليه وهذا هو الشيطان الرجيم لا عبد الله أو رسوله أو نبيه أو وليه فتزل هذا كله على قوله تعالى: ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ فيستمتع هذا العابد بالمعبود كما يستمتع المعبود بالعابد قال عز من قائل: ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس ﴾ أي من اغوائهم واضلاهم: ﴿ وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدن فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ ومن أجل ذلك كان الشرك بالله أكبر الكبائر على الإطلاق، وانه تعالى لا يغفر أن يشرك به بغير توبة منه وكف عنه، وانه يوجب الخلود في النار وليس تحرّجه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل قبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح. يوضح هذا أن العابد معظم متأله خاضع ذليل له خائف منه، والرب تبارك وتعالى وحده هو الذي يستحق التأله بكمال التعظيم والاجلال والخضوع والذل والخوف والرجاء والاتسعاء والتوكل والدعاء بما لا يقدر على وجوده أو دفعه إلا هو تبارك وتعالى، وذبح القربان وحلق

الرأس عبودية وتواضعاً هذا خالص حقه سبحانه، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقه لغيره أو يشرك بينه وبين غيره فيه ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ الآية أي إذا كان أحدكم يأنف من أن يكون مملوكه شريكه في رزقه الذي جعلته له فيكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الألوهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لسواي، فمن زعم ذلك فلا قدرني حق قدري ولا عظمني حق تعظيمي، ولا أفردني فيما أنا منفرد به وحدي، وقال جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ أي العابد والمعبود، وهذا حال كل من جعل عبادة الله المختصة بجلاله وعظمته لغيره فهو ضعيف هو ومعبوده إذ الكل فقير إلى الله محتاج إليه كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فاعتماد العبد على المخلوق ودعاؤه إياه بما لا يقدر عليه إلا الله وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد فالخاصل له عكس ما أمله منه، فلا بد من الخذلان كما هو ثابت بالسنة ونص القرآن ومعلوم بالاستقراء والتجارب قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي يغضبون لهم ويحاربون كما تغضب الجند وتحارب عن أصحابهم وهم لا يستطيعون نصرهم بل هم كل عليهم، وكذلك كل بنية على قبر كل على عابديها وساديتها المعتقدين الضر والنفع والتقريب والتباعد بما فيها لوضعهم التوابيت وتغشيتها بالستور وإيقاد السرج وفتح الباب وغلقه عن لص القبور والهنف بذكره عند الشدائد وبذل النذور ليدفع ما حل بهم من البؤس والشروع قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَعْذِبِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾

وما زادوهم غير تنبيء ﴿١﴾ أي غير تحسير، ولما كان المشرك يرجو بشركه النصر تارة والتقرب أخرى، والحمد والثناء تارة، والشفاعة له أخرى، أخبر سبحانه وتعالى أن مقصوده ينعكس عليه فلم يحصل له إلا الخذلان والدم وحرمان ما أمله قبل لعدم الرضا عنه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون، وكما يستحيل على ذاته تعالى العدم، يستحيل عليه أن يشرع عبادة إلى غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظن فيما تفرد بالربوبية والالوهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فإن من خصائص الألوهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع والاستغاثة والقرب والكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا تنقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها بأنواعها له تعالى مخصصة بجلاله، لكن هذا إنما ينشأ من نتيجة العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما وهما غاية الحب مع غاية الذل وهو تمامها وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع بل قبحه مستقر في كل فطرة وعقل. لكن غيرت الشياطين فطراً كثير الخلق وعقوبهم وأفسدت عليهم وأحالتهم عنها، ومضى على القطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى فقد أرسل تعالى رسله وأنزل كتبه بما يوافق فطرتهم وعقوبهم فازدادوا بذلك نوراً على نور بهدي الله لنوره من يشاء، بخلاف من أعطى حبه وخضوعه لغير الله فهو في ظلمة الضلال ﴿٢﴾ تالله أن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويناكم برب العالمين ﴿٣﴾ وهم لم يسوؤهم به في الخلق والرزق والتدبير والضر والنفع إنما سوؤهم به في الحب والذل والخضوع ليقربوهم إلى المولى على خلاف ما هو مشروع. قال تعالى: ﴿٤﴾ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴿٥﴾ ومن كان في هذه الظلمات فلا ينظر إلى الآفات في جميع الأوقات ولا يعرف الطريق الموصل إلى الآيات البينات فليس له تأمل ولا تدبر ولا تذكر ولا تفكر فيما ينحبه ولا يخافه مما يردية قد غره الأمل وصار كما قال عز وجل: ﴿٦﴾ ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴿٧﴾.

(الفرع الثاني) من الشرك الذي يتعلق بذات المعبود شرك النصارى الجاعلين

معه إلهاً آخر لكنهم لم يعطوا أسماء الرب ولا صفاته ولا ربوبيته، بل جعلوه ثالث ثلاثة
 فجعلوا المسيح إلهاً وأمه إلهاً انما جعلوا ذلك لأن أول الأنجيل باسم الأب والأم والابن، كما
 أن أول القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، فظنوا أن الأب والأم والابن عبارة عن الزوج
 ومريم وعيسى، فحينئذ قالوا إن الله ثالث ثلاثة، ولم يعلموا أن المراد بالأب هو الاسم
 وبالأُم كنية الذات المعبر عنها بماهية الحقائق وبالابن الكتاب وهو الموجود المطلق لأنه
 فرع ونتيجة عن ماهية ما في اللوح المحفوظ، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَعنده أم
 الكتاب﴾ ومنه شرك عباد الشمس والنار وغيرهم فمن هؤلاء من يزعم أن معبوده
 هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة
 الآلهة وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده
 الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه حتى يقربه تلك الآلهة إلى الله عز وجل، فتارة
 تكثر تلك الآلهة إلى الله عز وجل، وتارة تكثر تلك الوسائط المتخذة وسيلة إلى المقرب،
 وتارة تقل، فهم قد جعلوا الشرك سبباً في تحصيل بعض مقاصدهم وكل سبب لم يأذن
 به الله باطل مضر لمتخذه فلا يتعاطى. وإذا حقق المؤمن أن الله سبحانه رب كل شيء
 وخلقه ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب كما جعل المطر سبباً للنبات
 قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 دَابَّةٍ﴾ والشمس والقمر سبباً لما يخلق بهما والدعاء سبباً لما يحصل للمدعو له أو
 عليه والدواء سبباً لذهاب الداء، قد نبه على ذلك النبي ﷺ بقوله: «لم ينزل الله
 داء إلا أنزل له شفاء» يعني دواء علمه من علمه وجهله من جهله، رواه الإمام أحمد
 في مسنده من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ وفي لفظ «إن الله لم يضع
 داء إلا وضع له دواء أو شفاء إلا داء واحداً» قالوا: يا رسول الله وما هو؟
 قال: «الهرم» وهذا يعم داء القلب والروح والبدن وأدويتها فقد أرشد ﷺ العرنيين
 لما شكوا له الوحمة ووجع البطن أن يلحقوا أبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها
 وجعل الجهل داء ودواؤه سؤال العلماء. (قال رسول الله ﷺ في قصة صاحب
 الشجرة: «قتلوه قتلهم الله إلا سألوا إذا لم يعلموا فإذا شفاء العي السؤال») كما أن
 وجود الداء سبب للألم، روى مسلم في صحيحه من حديث سهل بن حنيف عن
 النبي ﷺ أنه قال: «العين حق ولو أن شيئاً سبق القدر لسبقته العين وإذا

استغسلتم فاغسلوا» وكذا السحر قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ فهو سبب ألأم الفؤاد ويوجب البغضاء والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للاحراق، والسكين سبب للقطع، والحبل سبب لظهار الماء في الدلو، وأكل الطعام سبب لذهاب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهاب ألم العطش، والكدح بالاجتهاد في تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الريح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته، ومعصيته سبب لسخطه وانتقامه، فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر ولا يتكل عليها إذ في انكارها نقص في العقل وفي الاتكال عليها شرك في الدين وكل من الانكار والاتكال منتف شرعاً لكن قد يتخلف المسبب عنه مع قيام السبب إذ الضار والنافع والمعطي والمانع هو الله وحده قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وكتخلف احراق النار عن ابراهيم عليه السلام حين وضع فيها، وحادثة السكين حين أمرها الخليل على حلقوم ولده اسماعيل عليهما السلام، ولا يحصى عن الاخذ في الأسباب فليس المتوكل من فتح للسارق الباب، ولا من قال أنا متوكل أستغني عن الطعام والشراب. قال أفضل الأحباب لمن سأل أيعقل الناقة أم يتكل: «اعقلها وتوكل». وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرصاً على فعل الأسباب فقد أمر باطفاء السراج والتسمية واغلاق الأبواب ونفض الفرش وطوي الثياب وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين وهذا الباب لا يخصه العادون من سنن المرسلين فالأخذ فيها لا ينافي التوكل لأنه الانقطاع عن جميع الخلق وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده. وحينئذ فلا بد أن يعرف فيها ثلاثة أمور.

(أحدها): أنها لا تستقل بالمطلوب بل تتعاطى عن غير ركون إليها ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الخلق.

(الثاني): أنه غير جائز اعتقاد أن الشيء سبب إلا بعلم فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في اثباته آتماً في اعتقاداته.

(الثالث) : ان الأعمال الدينية لايجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً إما استحباباً أو مأذوناً، فان العبادات مبناهما على التوقيف، فلايجوز للانسان أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً وان يقول على الله بلا علم فيدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وان ظن أن ذلك سبب في حصول غرضه لاعتقاده ان ذلك المدعو يشفع له فيما دعاه فيه لأنه جنس ما اعتقده الأولون في آلهتهم، وكذلك لايجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشرعية وان ظن ان ذلك سبب في حصول ما يطلبه من اغراض دنیا أو ثواب آخرة على زعم اعتقاده، فان الشياطين قد تعين الانسان على بعض مقاصده إذا أشرك وقد يحصل له بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراضه فلا يحل له ذلك إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به والرسول ﷺ إنما بعث لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فما أمر الله به فمصلحته راجحة ومانهى عنه فمفسدته راجحة ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

(من ذلك) : قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شيء من أمتعة الدنيا أو القرب لدى ملك من ملوكها قال تعالى : ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ حنفاء لله غير مشركين به ﴿ وكل شرك زور ولاعكس وقال تعالى : ﴿ ولاتركوا الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ .

(ومنه) : التداوي بالمحرمات مطلقاً فلم يجعل الله الشفاء فيما حرمه بل نزع عنه وأوهنه، والبدع التي ليست من شريعة الاسلام في شيء بل هي من شعب الشرك الظاهرة كاتربة أضرحة القبور لايجل استعمالها أدوية ولا تعاطيها لما في استعمالها من الاعتقادات الباطلة والمفاسد في الدين الظاهرة فهي أشبه ما فعله المشركون الأولون بآلهتهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتمسح بها في كل مشهد خاص وعام .

(ومنه) : ما اعتنى به بعض الأغبياء الجهال وعوام الضلال دعوتهم بدعاء تمخيشاً وتمشيشاً ودعوتهم في الشدائد باسماء أصحاب الكهف وشمخ وغيرهم وبالذوات المجهولات يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات وأنه من الأنجيل والتوراة، فكل هذا من تلبس ابليس على هؤلاء الجند الذين اختاروه واختارهم فلسنا ملتزمين في شريعتنا ملة الاسلام بتلك الأدعية في الصباح والمساء ولم

يقول بها أحد من العلماء الأديب: على الأشياء السنيها من التخصيص اختاروها لتعريف
العوام وجميع الخطام فلم يعاملوا الله بالاختصاص وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ وأما الأسماء المنهي عنها فإن الشيطان يظهر تأثيرات وتوري تلبسه فيها
منافع ظاهراً في أكثر الأحيان وهي حسراته بل قد يكون التلطف بتلك الكلمات
كفرًا لا تعرف معناها بالعربية قال تعالى : ﴿ هُوَ مَافَرَسْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وكل
واسطة أو وسيلة بين المذارع عنها لا يجوز اتقادها في جلب نفع أو كشف ضرر قال
سبحانه تعالى : ﴿ هُوَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ... ﴾ الآية ﴿ وقال تعالى :
﴿ هُوَ وَإِنْ تَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ هُوَ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا ﴾ قال قتادة كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم ومعبداتهم أشركوا قائلين
الله المساجدون أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدنا وقال سميل بن حنبل
المساجد الأعضاء التي يقع عليها السحور مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره والأعضاء
التي يستعمل بها الإنسان ومن جعلها الإنسان الذي هو ترجمان الجنان في كل ما يريد
إبدائه من خير ينفعه أو ضرر يضره قال تعالى : ﴿ هُوَ لَهُ دَعْوَةُ الْحَيِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَثِيرٌ إِلَى اللَّهِ لِيُجِيبَ قَوْلَهُ وَمَا هُوَ بِبَالِهِ وَمَا عَمَلُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ هُوَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أي
لأحد فلا بد أنه سبحانه أحد ولا يستعمل سواء تعالى بما أودعه ولا يعطي لما سئله وهذه
الأسباب التي تتخذ وسائل ووسائل في الطلب والالتماس لا تقدر عليهما إلا الله
وحده منفية بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلا أسباباً وردت عن الله أو رسوله
كالترحم والصلوة بغيره قلب وعشروع وكل ركن كسار والدعاء والاستغفار بعد
الافلاج عن الذنوب والتمس على فعله والعموم على أن لا يعبد إليه والأعمال الصالحة من
صدقة وصلة وحج وطاعة الله وتقواه فهي الأسباب في جلب الخير ودفع الشر كما
صرح به القرآن والسنة.

(القسم الثاني) : من قسمي تعطيل معاملته تعالى وتقدس ما لا يخرج عن الله
ولا يوجب له حكم الكفار بل ينهي فاعله ويؤدب عليه وهو الشرك الأصغر منه الرياء
والسمعة يفتخ النظر عن صحة العبادة إذ اخلاص النية شرط لصحتها وهو يقدر
عن يعتقد ويقول لا إله إلا الله وأنه لا يضر ويضر ويعطي وينزع إلا الله وحده ولكن

الاعتناء في معاملته وعيونه بل يعمل لحظ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرزقة والمزلة والجاه عند الخلق تارة، فقل من عمله وسعيه نصيب وانفسه وسخطه وهواه انفسهم وللشيطان نصيب، وهذا حال أكثر الناس زيادة عن الأول وهو الشرك الذي قال عنه النبي ﷺ: «ما أرى أحداً من أمتي في عصبية» «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل» قال أبو بكر رضي الله عنه كيف يارسل الله سبحانه منه قال بل اللهم لا أعلم بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم وأستغفر لك لا أعلم بك قال عليك قال نعم لا شيء يقولون: «قل هذا أنا يا رب منكم يرسون في أممكم إلى واحد فمن كان يرجع لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» أي كما أنه إله واحد لا إله سواه كذلك ينبغي أن تكون العبادة كلها له وحده فكما نفرد بالالوهية يجب أن نفرد بالعبودية وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» وفيه أيضاً عن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال قالوا بلى يارسول الله قال الشرك أخفى من دجول الرجل فيصلي فبين صلواته لما يرى من نظار رجل إليه» فالعمل الصالح هو الخصال من الرياء المقيد بالسنة وتأن من دعاء عبد بن الخطيب رضي الله عنه اللهم اجعل عملي كله لك صالحاً واجعله لوجهك طاهراً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وهذا الشرك يطل الثواب من أصله أو العمل أيضاً لما تقدم، فمن أراد بعمله غير ربه الله أنوبى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وأرادته، والاحلاص هو أن يخص الله في أقواله وأفعاله وإرادته وتوسل هذه هي حقيقة إلهية التي أمر الله بالقيام بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام ﷻ وإن يتبع غير الاسلام ديناً فإن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﷻ وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء لأنه قد هان عليه أمر خالقه فعصاه، ونبيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فاهمله وغفل قلبه عنه، فكان هواه أثر عنده من رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة مولاه فيجعل لله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، وسواه المقدم في ذلك لأنها المهم عنده يستخف بنظر الله إليه وإطلاعه عليه، وهو في قبضته وناصيته في يده، ويعظم نظر المخلوق إليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه يستحي من الناس ولا يستحي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل

الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقه، وإن قام في خدمة الله من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد فرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه أن ساعده القدر قام قياماً لا يرضى مثله مخلوق وبذل من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوق مثله وإذا هو أجهل الجاهلين وأمقت الممقوتين وأظلم الظالمين وأهلك الهالكين ممن عصى ربه من العاصين .

(ومنه الحلف) بغير الله رواه الامام أحمد وأبو داود من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك » رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن، وقال وفسر أهل العلم هذا الحديث أن قوله كفر وأشرك على التغليظ فيكون الشرك الأصغر . قال ابن مسعود وغيره لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً . وإنما قال ذلك لأن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك .

(ومنه) قول القائل للمخلوق ماشاء الله وشئت كما ثبت عنه ﷺ « أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت فقال ﷺ أجعلتني لله نداً قل ماشاء الله وحده » هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة قال تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ فكيف بمن يقول أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، أو من بركات الله وبركاتك، والله ولي في السماء وأنت ولي في الأرض، أو يقول والله وجه فلان، أو أنا تائب إلى الله وإلى فلان، وأرجو الله وفلاناً، ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول ذلك القائل لرسول الله ﷺ ماشاء الله وشئت ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك أن قائلها أولى بجوابه ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعله الله نداً بها فقد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من تلك الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين، وفي مسند الامام أحمد « أن رجلاً أتى به قد أذنب ذنباً وهو أسير فلما وقف بين يدي النبي ﷺ قال اللهم أني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ عرف الحق لأهله . »

ونحن لم نكفر الناس ونجاهدهم بهذا القسم الثاني بل بالأول، وعليه فانه أمر مجمع عليه مع أنهم هم الذين بدؤوا بالجهاد ليرجعونا عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من الدين القويم الذي هو المراد إلى ما كنا عليه أولاً من أنواع الباطل والفساد

زاعمين أن اليهود والنصارى أخف شراً منا ومن مال إلينا، ونحن انما ندعو إلى العمل بالقرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه كفاية لمن اعتبر وتدبر، ويعين بصيرته نظر وفكر، فانه حجة الله وعهده ووعيده وأمانه ورفده ومن تبعه عاملاً بما فيه جد جده، وعلاً مجده، وبان رشده، وبان سعده، والتوحيد ليس هو محل الاجتهاد فلا تقليد فيه ولا عناد .

النفاق نفاقان

(وأما قولكم وكذلك النفاق نفاقان، نفاق اعتقاد، ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد هو الذي ذكر الله أن أهله في الدرك الأسفل من النار وهو كثير في القرآن، ونفاق العمل كما في الحديث الصحيح آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وفي بعضها أربع بزيادة وإذا خاصم فجر فهذا نفاق عملي مجتمع مع أصل الايمان) .

فنقول : هذا الحديث الذي خرج في الصحيح ليس فيه بحمد الله إشكال ولكن اختلف في معناه والذي قاله المحققون والاكثرون وهو الصحيح المختار عند أهل السنة والجماعة كما حكاه شراح الحديث ان هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال متخلق باخلاقهم، فان النفاق اظهار ما يطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حقه من حديثه ووعدته وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الاسلام ويظهره وهو يطن الكفر ولم يرد النبي ﷺ بهذا انه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار فقوله ﷺ في الحديث الآخر الذي رواه مسلم كان منافقاً خالصاً معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبية عليه فاما من ينذر ذلك منه فليس هو داخلياً فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث، وقد نقل الامام أبو عيسى الترمذي معناه عن العلماء مطلقاً فقال انما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ قد حدثوا بإيمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصروه فاخلفوا وفجروا في خصوماتهم ومن كانت حاله كذلك

فهو منافق حقاً، وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وقد رجع إليه الحسن البصري رحمه الله بعد أن كان على خلافه، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ورووه أيضاً عن النبي ﷺ بمعناه قال القاضي عياض واليه مال كثير من أئمتنا، وحكى الخطابي قولاً آخر معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الحصال التي يخاف عليه بها أن تفضي به إلى حقيقة النفاق، وحكى الخطابي أيضاً عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح القول فيقول فلان منافق وإنما يشير إشارة كقوله ﷺ مابال أقوام يفعلون كذا وقوله ﷺ في الرواية الأولى التي رواها مسلم في صحيحه أربع من كن فيه كان منافقاً وفي الرواية الثانية آية المنافق ثلاث لا منافاة بينهما فإن الشيء الواحد قد يكون له علامات كل واحدة منها يحصل بها صفة ثم قد تكون تلك العلامة شيئاً واحداً وقد تكون أشياء، ومعنى قوله وإذا عاهد غدر داخل في معنى وإذا ائتمن خان لأن العهد أمانة ومعنى قوله وإذا خاصم فجر أي مال عن الحق وقال الباطل والكذب، قال أهل اللغة وأصل الفجر الميل عن القصد، ومعنى آية المنافق أي علامته ودلالته فمنه يعلم أن كفر عمل الجوارح ونفاق عملها ليس مما نحن فيه إنما القصد الكلي والفائدة العظمى لمن عقلها عمل القلب وهو اعتقاده وقوله لما جاء عن الله وأرسل به محمداً عبده ورسوله من أن الدين كله لله . قال تعالى : ﴿ وَقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ وقد أجمع الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم أن المراد بالفتنة هنا الشرك ونحن لم نؤم إلا إليه ولم نجاهد إلا عليه .

حكم ما يفعله العوام من الدعاء والتهتف

(وأما قولكم فقد عرفت من هذا كله أن ما يفعله العوام من دعاء الأولياء والتهتف بهم عند الشدائد والطواف بقبورهم وتقبيل جدرانهم والنذر لهم بشيء من أموالهم هو من الكفر العملي لا الاعتقادي فإنهم مؤمنون بالله وبرسوله وباليوم الآخر لكن اعتقدوا أن هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفون ويضرون جهلاً منهم كما اعتقد أهل الجاهلية ذلك في الأصنام لكن فرق ما بين الفريقين فإن هؤلاء يشبّون

التوحيد لله لا يجعلون الأولياء شركاء له تعالى، وأولئك قد جعلوا الأصنام شركاء له فأولئك كفرهم كفر اعتقاد وهؤلاء أعني ضعفة العقول من العوام الموحدين لله معترفون بتوحيده ومصدقوا الرسول بجميع ما جاء به من عند ربه وحكم أولئك من القتل والسبي، وأما هؤلاء فالواجب على العلماء وعظهم وتعريفهم وتفهمهم جهلتهم، وزجرهم عن فعلهم ذلك لو أصروا عليه بعد ذلك ولو بالتعزير البليغ والضرب الشديد كما أمرناهم بحد الزاني والسارق وشارب الخمر، ولا يخرجون به عن الملة ويدل على ما قلناه دلالة صريحة قوله عليه السلام في الحديث الصحيح عنه (أربع في أمتي من عوراء الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري فهم مع اتيانهم بهذه الخصال الجاهلية اضافهم إلى نفسه ولم يخرجهم عن أمته فقال في أمتي).

فنقول: هذا تفريع على ماتقدم من تقسيم الكفر إلى كفرين والنفاق إلى نفاقين، أي لما انقسم الكفر إلى عملي واعتقادي وميزانهما، علمنا أن ما يفعله العوام من دعاء الأولياء والهتف بهم عند الشدائد من الكفر العملي لا الاعتقادي وعلمنا بأنهم مؤمنون بالله وبرسوله وباليوم الآخر وبأنهم لم يجعلوا الأولياء شركاء لله ثم أثبت لهم الاعتقاد الذي نتيجته عين مانفاه أولاً عنهم فهو سببه ولا ينشأ إلا منه وهو قوله لكن اعتقدوا أن هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون ويضرون جهلاً منهم كما اعتقد أهل الجاهلية ذلك في الأصنام وهل هذا إلا تناقض فيما قاله ونفاه وتناقض فيما اعترض به وادعاه وتعاكس فيما فرعه وعناه وتشاكس في تعليقه وفحواه. وذلك من وجوه.

(أحدها): إثباته عين مانفاه أولاً فقال انهم اعتقدوا اعتقاد أهل الأصنام فيها.

(الثاني): أنه جعل هذا الاعتقاد كفراً عملياً يعني به عمل الجوارح الظاهرة لأن كلامه فيما تقدم ينكر عمل القلب.

(الثالث): جعله الدعاء والهتف ليسا نتيجة الاعتقاد بل يصدران ممن اعتقاده منحصر في الله وهو يدعو غيره ويلتجئ إليه فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده

ويهدف بذكره عند الشدائد وغيرها ليجلب له أو يدفع عنه وهو لا يعتقد فيه القدرة على شيء مما طلبه منه وهذا محال أن يطلب أحد غيره شيئاً أو يدعو منه وهو يعلم ويعتقد أنه لا يقدر عليه ولا يوصل مطلوبه ومقصوده إليه وصرح كلامه متناقض في ذلك فانه قال لكن اعتقدوا أن هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون ويضرون بعد قوله هو من الكفر العملي لا الاعتقادي .

(الرابع) : زعمه إسقاط التكليف والعذر بالجهل بعد بلاغ الدعوة وانتشارها كما لو لم تكن .

(الخامس) : نفية الشرك عن معتقد النفع والضرر والعطاء والمنع في غير الله حيث لم يصرح بان هذا الضار والنافع والمعطي والمانع شريك لله كتصریح الأولين بالشريك معه تعالى ولم يعلم ان قصد الأولين بالشريك من حيث أنه يشفع لهم عند الله بما أرادوا منه ويعطي ويمنع بأمره تعالى ما طلبوه ولذلك قالوا في تلييتهم إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، فهم يزعمون أنه شريكه في عبادته ومعاملته لافي تدبيره وإرادته ونفي هذا الشريك باللسان ، واعتقاد معناه في الجنان لا يوجب نفية حقيقة ولا أنه شريك له تعالى في ملكه أو خلقه أو رزقه العباد ، أو تدبيره الأمور ، هذا لم يقولوا به ، بل صرحوا بأن ذلك كله لله وحده كما قرر هم به وعرفهم بنعمته قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون الله ﴾ ولا انه شريك له يملك الضر والنفع قال تعالى : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل إياه تدعون ﴾ وهم كانوا يدعون الله وحده عند نزول الشدة ويخلصون له فيها الدعوة قال تعالى مخبراً عنهم بذلك : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ فالدعوة التي أشركوا فيها غيره ليتوصلوا به في قضائها إليه هي الشرك الموجب لسخطه وغضبه والخلود في عذابه والدعوة المختصة بجلاله المسؤولة من نيل فضاله المخاطب بها عين كمال ذاته هي الدين الخالص الذي

أمر به ووعد عليه الاجابة والانابة لكن من قدر عليه الشقاء فالأول حاله حتى ان تصيبه الشدة فيخلص لله الدعوة، فاذا استجاب الله دعاءه وأنعم عليه مولاه جاءت الاستحالة ﴿ وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ ومن وفق الإنصاف بالاخلاص رأى وشاهد بحديقة عين رأسه وبصيرة عين جنانه، وتأمل بقلبه أحوال هؤلاء المدعين الايمان، مع أحوال الأولين وجدهم في أصل دين واحد ومعناه متفقين، وفي تركه جملة مختلفين، إذ الأولون يشركون تارة ويخلصون أخرى التي هي للدعاء أولى، وأما هؤلاء فانهم أكثر شركاً في هذه التي هي محل الاخلاص للملك الناس زيادة على التي قبلها من عدم حصول الشدة والبأس .

(السادس) : أنه قد زعم أن مجرد التصديق بالله وبرسوله وباليوم الآخر هو معنى التوحيد المقصود من لا إله إلا الله، وإن ليس لها من المعنى إلا ذلك، فظن ان معناها خاص بتوحيد الربوبية، وأن الله خالق كل شيء ومرسل الرسل ومنزل الكتب وحى وميت ومجاز بالأعمال، وهذا هو الذي يسمونه أهل الكلام توحيد الأفعال حتى قد غلط في مسمى التوحيد طوائف من أهل النظر والكلام وأهل الارادة والعبادة فقلبوا حقيقته عن موضوعه، فطائفة ظنت أن التوحيد هو مجرد اقرار لسان العبيد بربوبيته تعالى، وأنه خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل، وطائفة ظنت أن توحيد الربوبية هو الغاية، والفناء فيه هو النهاية، وإن من شهد ذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح، قال بهم الأمر إلى تعطيل الأمر والنهي والوعد والوعيد، ولم يفرقوا بين مشيئة الله الشاملة لجميع المخلوقات، وبين محبته ورضاه المخصصة بالطاعات، وبين كلماته الكونيات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وما حجتهم في ذلك إلا لشمول القدر كل مخلوق وكلماته الدينيات التي اختص بموافقتها أنبياءه وأوليائه، وطائفة ظنت أن التوحيد هو نفي الصفات بل نفي الأسماء الحسنى أيضاً. يسمون أنفسهم أهل التوحيد وأثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات وزعموا أن اثبات الصفات يستلزم التركيب والعقل ينفيه فقد علم بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول أن ذلك لا يكون إلا في الأذهان لافي كل الأعيان والله سبحانه وتعالى ذاته لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ لم يزل موصوفاً بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ .

(السابع اثباته) معنى الألوهية أنها القدرة على اختراع الخلق والتدبير لاعلى الضر والنفع والعطاء والمنع، فمن قال لا إله إلا الله واعتقد أنه لا يقدر على اختراع الخلق والتدبير إلا الله فلا شريك له في ذلك، كان ذلك هو معنى قوله لا إله إلا الله، وأن اعتقد الضر والنفع والشفاعة المنفية التي هي بغير اذنه والتقريب والتباعد للذين لا يكونان إلا بطاعته واتباع رسله فيما جاؤا به من عنده في غيره من العبيد فلا يضره هذا الاعتقاد ولا تكون فتنة ولا في الدين فساد، حيث قال بلسانه لا إله إلا الله وصرف معنى الألوهية في معنى الربوبية، ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقرين بهذا المعنى معترفين به فلم يقولوا أن العالم له خالقان أو مديران بل الخالق والمدير واحد ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ فهذا التوحيد من الواجب على العبيد، ولكن لا يحصل به التوحيد لإله كل العبيد، ولا يخلص بمجردة عن الشرك الذي هو أكبر الكبائر ولا يغفره الله يوم تبلى السرائر. بل لابد أن يخلص الدين كله لله فلا يتأله بقلبه غير الله ولا يعبد إلا إياه مخلصاً له الدين ولو كره الكافرون .

(الثامن) : زعمه أن المشركين الأولين كانوا يعتقدون النفع والضر والعطاء والمنع من غير رب العالمين، ويرد هذا صريح قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه ان شاء وتنسون ما تشركون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله وهم مشركون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ وهذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ فقطع مادة من ادعى أنهم كانوا يعتقدون النفع والضر في غيره سبحانه وتعالى، وفي المسند والترمذي من حديث حصين بن المنذر « أن رسول الله ﷺ قال له يا حصين كم الها تعبد قال سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء، قال فمن الذي

تعد لرغبتك ورهبتك قال الذي في السماء قال له أسلم حتى أعلمك كلمات
ينفعك الله بهن فأسلم فقال له قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي » وكثير ممن
يتكلم في هذه الحقيقة الكونية ويشاهدها التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها
المؤمن والكافر والبر والفاجر حتى ابليس معترف بها في قوله ﴿ رب أنظرني إلى يوم
يبعثون ﴾ وقوله ﴿ بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾

وقوله ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ وقوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي لن
أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته ﴾ . وأمثال هذا من الخطاب الذي يعترف فيه
بأن الله ربه وخالقه ومليكه، وأن ملكوت كل شيء بيده، فالمشركون الأولون انما عبدوا
غير الله بالحجة التي كحب الله راجين بها القرب والتقريب إليه طالبين منهم الشفاعة
لديه في قضاء الحوائج وما يحتاجون إليه ، ومعبودهم ذلك هو عندهم واسطة الشفاعة
ووسيلة التقريب ويعبرون عنه بالاله لأن قلوبهم قد تألته برجائها منه مأملته مما ليس
للعبيد مدخل فيه، وتارة تكبر تلك الآلهة، وتارة تقل بحسب اعتقاد من هي له، قال
سبحانه : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقال
تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند
الله ﴾ فسمى محبتهم المساوية لحب الله التي يرجونهم ويلتجئون إليهم بها فيدعونهم سببا
في قضاء حوائجهم عند خالقهم عبادة، وأنكر تعالى ذلك عليهم وعابهم به ورده في
قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في
الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن
له ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر
عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته
ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في
البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾
وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون
قل لله الشفاعة جميعا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم
ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ وهم قد أقروا بأن الله سبحانه مالك
الأشياء كلها وأنه الضار النافع المعطي المانع الذي لا رازق سواه ولا مدبر ولا قابض

ولابسط ولا يخرج الحي من الميت ولا يخرج الميت من الحي إلا هو وحده لا شريك له في ذلك، لكنهم قد جعلوا بين الله سبحانه وبينهم وسائط من خلقه ليقربوهم ويحببهم إليه ويشفعوا لهم في قضاء حاجاتهم عنده، وذلك بطرق مختلفة، ففرقة قالت ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة لتقربنا إليه لعظمته، وفرقة قالت الملائكة ذوو وجهة عند الله فاتخذنا صورهم من أجل حبنا لهم ليقربونا إلى الله، وفرقة جعلتهم قبلة في عبادة الله والتبتل إليه كما أن الكعبة قبلة في عبادته، وفرقة اعتقدت أن على كل صورة مصورة على صورة الملائكة والأنبياء وكيعلا موكلًا بأمر الله فمن أقبل عليه وتبتل إليه قضى ذلك الوكيل ما طلب منه بأمر الله وإلا أصابه بنكبة بأمره .

(التاسع) : جعله هذا الشرك الأكبر ذنباً ليس فيه إلا التعزير مع الاصرار مع قوله فيما تقدم هو من الكفر العملي وهو لا يكون إلا في الكبائر والتعزير إنما هو في الصغائر .

(العاشر) : زعمه وادعاؤه أنه من العلماء الآمرين بحد الزاني والسارق والشارب، والآمر بذلك الله في كتابه وعلى لسان رسوله والعلماء الأعلام ويظهرون أمر الله ولا يكتُمونه، ففي زعمه ذلك ادعاء أنه من العلماء وأنه من الآمرين ولا يخفى ما فيه من التزكية لنفسه، قال ابن مسعود وعمر من قال أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال هو في الجنة فهو في النار، ومن قال هو عالم فهو جاهل، والله يقول : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى ﴾ .

(الحادي عشر) : استدلاله على ما ادعاه بقوله ﷺ أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الاحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت . أما الفخر في الاحساب فمعناه الافتخار بشجاعة الأجداد وكرمهم أو صفة من الصفات الممدوحة فيهم وهذا شأن الأولين، وأما الطعن في الأنساب فهو نسبة الرجل لغير أبيه ينفونه عنه وهذا الرجل مطعون في نسبه مقدوفة أمه . وأما الاستسقاء بالنجوم فقد روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني [قال صلى لنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال

أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب [ولهما من حديث ابن عباس معناه وفيه قال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل هذه الآية ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم .. إلى قوله .. وتعملون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ وقد اختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على قولين .

(أحدهما) : هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصل الايمان مخرج عن ملة الاسلام ، قالوا وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب له سبب ومدخل في انشاء المطر كما كان أهل الجاهلية يزعمون ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره . وهذا القول هو الذي إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر الحديث . قالوا وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله ورحمته وإن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً بالعادة فكأنه قال مطرنا في وقت كذا فهذا لا يكفر واختلفوا في كراهته والأظهر كراهة تنزيه لا اثم فيها وسبب الكراهة انها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم .

(والقول الثاني) في أصل تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة الله لاقتصاره على اضافة الغيث إلى الكوكب ، قالوا وهذا فيمن لا يعتقد تسبب الكوكب وانشاء المطر وإلا فلا شك في كفره .

وأما النياحة فهي رفع الصوت برنة ومنها لطم الخد وشق الجيب . وفيه قال النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وهذه الأمور منها ما هو معصية لا تخرج عن الملة بمؤمنها ما هو مخرج عنها بشرطه واطافة فاعليها إلى نفسه وجعله من أمته لامنافة فإن العاصي لا يخرج بعصيانه عن أمة الاجابة . ومراد النبي ﷺ في المستسقي إذا لم يعتقد الكوكب له مدخل في المطر فهو من أمته عامل عمل الجاهلية في قوله مطرنا بالنوء وإلا فهو من أمة الدعوة لامن أمة الاجابة . وفرق بين خصال الذنوب التي تحت مشيئة علام الغيوب وإن شاكت أهل الجاهلية في مجرد الاسم لافي الحقيقة والاعتقاد ، وبين الشرك الذي هو أظلم الظلم

وأقبح القبائح وأنكر المنكرات وأبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له وأشدّها مقتاً لديه، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يترتب على ذنب سواه. وأخبر أنه لا يغفر وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبايحهم ومناكحهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين وجعلهم أعداء له سبحانه وللائكتة ورسله والمؤمنين. وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبنائهم وإن يتخذوهم عبيداً لما تركوا القيام بحقه وعطلوا معاملته المتضمنة لألوهيته وما ذاك إلا أنه هضم الحق الربوبية ونقص لعظمة الألوهية وسوء الظن برب العالمين. كما قال تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الاشتراك فانهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ولو أحسنوا به الظن لحدوده حق توحيده. ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ماقدروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه. وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونذاً يحبه ويخافه ويرجوه ويذل ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته والمؤثر لا يرضى بإيثاره. قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ فالؤمن يحب في الله لأمع الله، والكافر يحب مع الله كحب الله، قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا يبرههم يعدلون﴾ أي يجعلون له عدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه هي التسوية التي أثبتتها المشركون بين الله وبين آلهتهم كما تقدم آنفاً وعرفوا وهم في النار أنها كانت ضلالاً وباطلاً فيقولون لآلهتهم وهي في النار معهم: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾ ومعلوم أنهم ماساؤوهم به في الذات ولا في الصفات والأفعال ولا قالوا أن آلهتهم خلقت الأرض والسموات أو أنها تحمي وتميت أو تدبر الكلام في ذلك ونقل الآيات، وإنما ساووههم به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها بدعائها والدعاء حولها لتكون سبباً وواسطة في حصول المطلوب، والتقريب إلى المحبوب، كما عليه أهل الأشراك ممن ينتسب إلى الإسلام في قولهم لا إله إلا الله، فانهم أثبتوا لغيره تعالى قولاً وفعلاً واعتقاداً معنى ما أثبتوه له في مجرد القول وحصول ذلك إنما هو بسبب اتباع الهوى، وعموم البلوى، والجهل بكيفية التوحيد الواجب على

العبيد. وما اتبعوا أهواءهم وزين لهم الشيطان أعمالهم صدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ويزعمون أنهم هم المهتدون، وما سبب ذلك إلا الاعراض عن كتاب الله وعدم تدبر معانيه والعمل بما فيه، قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ونرى كثيراً منهم مع ارتكابهم أكبر الكبائر على الإطلاق يرتكبون الكبائر ويجترحون المآثم والمظالم، ولا يبالون بالله بل يخافون المخلوق ما لا يخافون الله، فيجعلون تلك المظالم قربات يتقربون بها إلى نبي أو ولي، ويجعلون على قلوبهم الأبنية والتوايت وأكسية الدياج والحرير، وعلى قلوبهم أبواب الورق ليحلب لهم نفعاً، ويدفع عنهم ضرراً، ولو لم يفعلوا عادتهم تلك بل اتفق أنهم تركوها وقت فعلها فحصل لهم أو عليهم أمر مزعج ومكدر لم يسندوه إلا إليه لتقصيرهم بعدم صنعهم. ومنهم من يأت القبر ويقف عليه ويظهر له كيس النفقة خالياً فيومي بها إليه ويكلمه بما هو فيه من الشدة والفاقة وأنه محسوب عليه، وليس فعله ذلك جهلاً بل عناداً وبغياً زاعماً أنه من الدين، وما يرضي رب العالمين. وهذا بعينه ما يفعله جميع عباد الأوثان بأوثانهم زيادة على بذل النذور للأموات وسادنيها ليحلبوا لهم الخير ويدفعوا عنهم الشرور. لكن طال الأمد ووجدت الغفلة، وحصل الران، حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فتغشى قبور الأنبياء والصالحين وهو سترها بغاشية ليس مشروعاً في دين الرسل، ولا يصح وقف ذلك على الأضرحة لأنه بدعة خبيثة من فعل عباد الأصنام فإن فعل فهو باق في ملك ربه فإن جهل أو لم يكن موجوداً ولأوارث له فمال ضائع مرجعه لبيت المال إلا الكعبة فقط زادها الله تشريفاً، ونخصت به كالطواف.

ومن العجب أن أهل الأشرار ينسبوننا إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين وما ذنبنا إلا أنا قلنا لهم أنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبداً، بل حرم الله شفاعتهم لهم ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله له سبحانه، والولاية له، فليس لخلق من دونه ولي ولا شفيع، فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن. ولهذا قال امام الحنفاء عليه السلام

لخصمائه من المشركين أنفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين . وإن كان المعنى ماظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له نداً فأنت تجد تحت هذا التهديد ماظنكم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره . فإن المشرك إما أن يظن الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو عوين ، وهذا أعظم النقص لمن هو غني عن كل ماسواه بذاته وكل ماسواه فقير إليه بذاته . وأما أن يظن أنه سبحانه إنما تتم قدرته بقدرته الشريك . وأما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة ، أو لا يرحم عبده حتى يجعله الواسطة يرحمهم ، أولاً يكفي وحده أن يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة ، كما يشفع المخلوق عند المخلوق ، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثيره به من القلة وتعزيزه به من الذلة ، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجة إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا . وهذا أصل شرك الخلق أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم ، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك ، أو يظن أن للمخلوق عليه حقاً ، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، ويتوسل إليه بذلك المخلوق ، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ، ولا تمكهم مخالفتهم . وكل هذا نقص للرؤية ، وهضم في الألوهية ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ، ورجائه والتوكل عليه ، والانابة إليه من قلب المشرك ، بسبب قسمة ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به ، فينقص أو يضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه ، فالشرك ملزوم لنقص الرّب سبحانه ، والتنقيص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى . ولهذا اقتضى حمده تعالى وربوبيته أن لا يغفره وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم ، ويجعله أشقى البرية ، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه ، وإن زعم أنه يعظمه بذلك كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول ، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة فانه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب ، ويزعم أنها هي السنة إن كان جاهلاً مقلداً وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاق لله ورسوله ، فالمتنقصون هم المتنقصون عند الله ورسوله . وأولياؤهم أهل الشرك والبدعة ولا سيما من بنى دينه على أن كلام الله ورسوله دلالة لفظية لا تفيد اليقين ولا تغني عن العلم واليقين شيئاً ، فيالله العجب أي شيء أسعد هذا من إيجاده التنقيص ، فأهل الشرك والبدعة من أعظم الناس تنقيصاً ونقصاً لبس عليهم إبليس حتى ظنوا أن تنقصهم هو عين الكمال ، وإن لم يلاحظوه ، ولهذا

كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَالْأَثَمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالأثم والبغي قرينان، والشرك والبدعة قرينان، وإن افترقا في المعنى والحكم، فليس الموحد إلا من شاهد المخلوقات بأسرها قائمة بأمر الله مدبرة بأمره، وشهد كثرتها بوحداية الله سبحانه وتعالى وأنه رب المصنوعات، وإلهها، ومالكها، ومدبرها مع اجتماع قلبه على الله إخلاصاً له سبحانه وتعالى في معنى ألوهيته من محبته وخوفه، ورجائه والاستعانة به والتوكل عليه وحصر الدعاء بالذي لا يقدر على وجوده أو دفعه إلا الله عليه وحده، والموالات والمعاداة فيه، وأمثال هذا ناظر إلى الفرق بين حق الخالق والمخلوق. وذلك واجب في علم القلب، وشهادته، وذكره، ومعرفته، وفي حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته، فهذا هو تحقيق شهادته لا إله إلا الله، فإن قائل هذه الشهادة ينفي عن قلبه ألوهية كل ماسوى الله مما ليس ألوهيته بحق، ويشيت ألوهية الله الملك المعبود بالحق، فيكون نافياً لألوهية جميع المخلوقات، مثبتاً لألوهية رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله، ومفارقة ماسواه، فيكون مفرقاً في علمه وقصده في شهادته وإرادته في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالماً بالله ذاكراً له، عارفاً به وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه، وانفراده عنهم وحده بعبادته وأفعاله، وصفاته عنهم فيكون محباً له لأمعه، معظماً له لأمعه، عابداً له لأمعه، راجياً له لأمعه، خائفاً منه لأمعه، محباً فيه، موالياً فيه، معادياً فيه، مستعيناً به لابغيه، متوكلاً عليه لاعلى غيوه، ممتنعاً عن عبادة غيوه، فلا يجعل حقه تعالى لغيره. وهذا المقام هو المعنى في إياك نعبد وإياك نستعين، وهو من خصائص الألوهية المشهود بها، كما أن رحمته تعالى لعبيده وهدايتهم من خصائص الربوبية وشهادته بهذه الألوهية مع العمل بها يتضمن الشهادة بالربوبية، وهو أنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره، فحينئذ يكون موحداً داعياً الله وحده بما لا يقدر عليه إلا هو عابده به مثاله فيه فلا يدعو غيره بما لا يقدر عليه إلا الله، لأنه عبادته مخصص بجلاله. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فسماء عبادة وأضافها إلى نفسه. وروى النعمان بن بشير قال قال رسول

الله ﷺ: « ان الدعاء هو العبادة » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ رواه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن صحيح. فوجود العمل والعلم بالشهادة شرط لصحة قولها. فاذا صحت كانت أفضل العبادات لوجود ماتضمنته من معناها المراد منها. يبين ذلك أن أفضل الذكر لا إله إلا الله كما رواه الترمذي، وابن حبان وغيرهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » وفي الموطأ وغيره عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أفضل ما قلت أنا والنبليون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله تعالى قال تعالى: ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ فمن جعل ما ياله هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه، فهم يتخذون أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله. ولهذا قال الخليل لأحب الآفلين، فان قومه لم يكونوا منكرين للصانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعاً كالشمس والقمر والكواكب. والخليل بين أن الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده، ولا يسمع كلامه، ولا يعلم حاله، ولا ينفعه، ولا يضره بتسبب، ولا غيره. فأبي وجه لعبادة من يأفل، وكلما حقق العبد الاخلاص في قوله لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه، ويصرف عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ﴾ فعلى صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين. وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾. وقال الشيطان فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه حرمة الله على النار » فان الاخلاص ينفي أسباب دخوله النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من ديبب العمل. ولهذا كان العبد مأموراً في كل

صلاة أن يقول إياك نعبد وإياك نستعين، والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله إما خوفاً منه، وإما رجاء له. فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك. وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله، والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه فصار فيه شرك يمنعه من الاستغفار، وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر. فلهذا قال ذو النون لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. ولهذا يقرن بين التوحيد والاستغفار في غير موضع. كقوله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ وقوله: ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله انني لكم نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ وقوله: ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ إلى قوله: ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ وقوله: ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ وخاتمة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ان كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه وان كان مجلس لغو كانت كفارة له. وقد روى أيضاً فقال في آخر الوضوء بعد أن يقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار فان صدره الشهادتان اللتان هما أصلا الدين وجماعه، فان جميع الدين داخل في الشهادتين إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله، وأن نطيع رسوله، والدين كله داخل في هذا في عبادة الله بطاعة الله ورسوله، وكل ما يجب ويستحب داخل في عبادة الله وطاعة رسوله. وقد عقد البخاري باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله عز وجل. فاعلم أنه لا إله إلا الله، فالموحدون هم المخلصون وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق وعلموه فاتبعوه ولم يكونوا من المفضوب عليهم ولا الضالين بل أخلصوا دينهم لله وأسلموا وجوههم وأنابوا إلى ربهم فأحبوه ورجوه وخافوه، ورغبوا إليه، وفوضوا أمورهم إليه، وتوكلوا عليه، وأطاعوا رسله وعززوهم ووقروهم وأحبوهم

ووالوهم واتبعوا النور الذي أنزل معهم واقتفوا أثرهم واهتدوا بهديهم واستنوا بسنتهم . وذلك هو دين الاسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، وهو الذي لا يقبل الله من أحد ديناً إلا إياه وهو وظيفة العبادة لرب العالمين ، وهو الفاصل بين عباد الرحمن وعباد الشيطان والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

حمل نصوص القرآن وغيرها على ظواهرها

(وأما قولكم ويجب حمل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على معانيها الظاهرة منها ان لم تخالف المحكم وإلا فيجب صرفها عن ظاهرها وردها إلى المحكم) .
فنقول القرآن كله محكم في بيان التوحيد المكلف به العبيد وبيان ضده والحلال والحرام والأمر والنهي والوعد والوعيد فليس فيه اختلاف ولاتناقض في ذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير أن لا تعبدوا إلا الله انني لكم نذير وبشير ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولاتكونن من المشركين ولاندع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فانك إذا لمن الظالمين وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ وأمثال هذا .

تعريف العبادة

و (العبادة) هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . كالتوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وإداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمساكين، والمملوك من الآدميين، والبهائم، وكذلك الدعاء والذكر، والقراءة، وحب الله ورسوله، وخشية الله والانابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وغير ذلك من العبادة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بفعلها خالصة لوجهه، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة لله، والمرضية له . التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وبها أرسل جميع الرسل . كما قال نوح لقومه: ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الظاهرة المحكمة إلى يوم القيامة .

وأما الآيات المحكمات الالتي هن أم الكتاب، فهي المبينات المفصلات سميت بذلك لظهورها ووضوح معناها المراد منها .

وأما الآيات المتشابهات فقال محمد بن اسحاق بن يسار هن ما تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل أشياء أخر من حيث اللفظ والتركيب، لامن حيث المراد . فالمتشابهات في الصدق هن تصريح وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم

في الحلال والحرام لا يصرفون إلى الباطل ولا يخرجون عن الحق ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي الذين في قلوبهم ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة لاحتمال لفظه إلى ما يصرفونه إليه .

فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، ولا سبيل لهم إليه، لأنه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال ابتغاء الفتنة التي هي الشرك والاضلال بالبدع وسائر المحظورات .

ومنها أيضاً ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلى علمه، نحو الخبر عن اشرط الساعة من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، ونزول المطر، والرحمة، والعذاب، والشدة، والراسخ في العلم يقول في متشابه التنزيل آمنة به كل من عند ربنا، فإن وجد ما ظاهره يخالف الحكم رد الفرع إلى أصله وعرف حقيقة قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، وإن التشابهات لا يخالفن المحكمات في التوحيد ولا في الأمر والنهي والوعد والوعيد، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » فيفسر المتشابه بأم الكتاب فإن بعض الآيات تظهر للجاهل معنى غير مراد فيعجزه عن فهم معناها المراد ويحملها على ما تميل إليه نفسه من الهوى والعناد فرده الراسخ إلى أم الكتاب، فمن ذلك قوله تعالى أمرنا مترفياً ففسقوا فيها فهذه الآية يشعر ظاهرها الأمر بالفسق، ويفسرهما قوله تعالى (إن الله لا يأمر بالفحشاء) وقوله (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)، فمثل هذه الآيات المحكمات هن أم الكتاب ومنه قوله تعالى: ﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا و النصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ربما فهم منه تقرير هذه الملل ما لم يرد إلى محكمه . وهو قوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ وقوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ والله سبحانه ذكر أهل الكتاب وما ارتكبوا من قبائح الذنوب الملوقة ثم قال: ﴿لكن الراسخون في العمل منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ من قوم أي رسول لم يؤمن برسوله قال تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ ومن آمن برسوله آمن بكل رسول كما أمر

الله أمة محمد ﷺ في قوله: ﴿قولوا آمنا بالله... الآية﴾ وقد رد الصديق الأكبر رضي الله عنه فهم من قال في معنى قوله تعالى: ﴿يأأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ انه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر وهذا من المتشابه يرجع فيه إلى محكمه وهو قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ ويكون معنى لا يضركم من ضل إذا اهتديتم أمرتم ونهيتم فلم يسمع لأن من الاهتداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا أدى الذي عليه فلا ضرر عليه من ضلال من لا ياتمر أو ينتهي، وكذا قوله: ﴿لا تزغقلوبنا﴾ يفهم منه أنه تعالى يزيع القلب بلا سبب فيفسر بمحكمه وهو قوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ويقول: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وقوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ فقيد المحكم الذي هو أم الكتاب قيد للمطلق وهو واسع النطاق من تأمل وحقق تحقق، ومن زاغ قلبه بعدم القبول أمحق واسحق، والله قد اتبع قوله: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ ويقول: ﴿ربنا لا تزغقلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ وفيه نوع من الاشتباه يرجع فيه إلى قوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وإذا وقف العبد التنبه عن اتباع ما فيه نوع تشابه كما في هذه الآية وفتح له باب في الفصل والوصل نفعه خصوصاً في الجمل المعترضة. وحاصله كل ما في الكتاب من آية يستشكلها العقل لاحتمالها معنيين فصاعداً أو بعض تلك المعاني المفهومة بها أو فيها أو عنها مناقض لآيات من الكتاب أو آيات فتلک من المتشابهات تفسرها الآيات المحكمات لأن القرآن كله لا يتناقض بل هو نور وحجج واضحات. قال ابن كيسان المحكمات حججها واضحة ودلائلها لائحة لاحاجة لمن سمعها إلى طلب معانيها، والمتشابه هو الذي يدرك علمه بالنظر ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل انتهى، ومنه قوله سبحانه: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ فان من في قلبه زيغ يتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة على قصده الفاسد وميل هواه الذي له قائد ويزعم أنه مهتد فيضل بهذا والله يقول: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين... الآية﴾ وقوله: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ وقوله: ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾ فمن زاغ قلبه جعل الأمر آنفاً ونفى تقدم علم الله بما هو

كائن، ومن كان على نور من ربه فسر القرآن بالقرآن، وأعاد هذا إلى قوله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ وقوله: ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ وقوله: ﴿عالم الغيب﴾ .

وأول من تكلم بالقدر وان الأمر أنف، معبد الجهني، الذي في البصرة، قاله يحيى بن يعمر قال فخرجت أنا وحيد بن عبد الرحمن نريد مكة فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقوله معبد فلقينا عبد الله بن عمر رضي الله عنه فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل الكلام إليّ فقلت أبا عبد الرحمن أنه قد ظهر قبلنا ناس يتفقرون هذا العلم ويطلبونه يزعمون أن لا قدر انما الأمر أنف، قال فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني برىء منهم وأنهم مني برآء، والذي نفسي بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبل الله منه شيئاً حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ثم ساق حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومما يتخيل ويشبه أن يكون من المتشابه قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ ليسوا من عباده تعالى وقد قال: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا أتي الرحمن عبداً﴾ ومحكم هذا وأمه قوله إلا عبادك منهم المخلصين فهم المقيّد بهم هذا الإطلاق، وهذا واسع في كلام الخلاق، ويشبه في الآية ان المخلص لاسبيل للشيطان إليه البتة وليس كذلك إنما ليس له سلطان ان يتمكن من المخلص فيتركب ذنباً لا يغفر، محكمه قوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ وقوله: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ وقوله: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي﴾ وهؤلاء هم عباد الله المخلصون وهذا واسع في كلام رب العالمين، ومنه قوله تعالى: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ يفهم منه عموم الاستغفار فيرد إلى محكمه وهو قوله: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا... الآية﴾ فإنه لم يأذن الله للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين والله لا يغفر أن يشرك به، وهذا تفسير القرآن بالقرآن فانه التبيان، ومنه قوله: ﴿وتمت كلمة ربك﴾ من قصر فهمه خيل أن التمام الانقضاء والانتها فإرد إلى محكمه: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ فهذه الآية تدل من لازيغ في قلبه ان قوله وتمت كلمة ربك معناه قوله الحق الكامل بكل مقصد

محكم، وقد أتبعه بقوله لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، فالقرآن مصون عن النسخ جملة والتبديل محفوظ عما وقع في التوراة والإنجيل لقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ والآيات في المعنى كثيرة جداً ومن قرع باب التحصيل وفق للحصول والحصول، فالقرآن العزيز كله محكم باعتبار تفسير ما تشابه منه مما ذكر بالمحكم، ومن رسخ ولم يزغ قلبه قال رب زدني علماً كما أمر الله نبيه ﷺ بطلب زيادة العلم، وكما أن القرآن كله محكم باخبار من أنزل كذلك كله متشابه يشبه بعضه بعضاً قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ وهذه الآية الشريفة عرفت الناظر المراد بالمتشابه فيها بقوله مثاني تكرر الآيات والقصص والحسن والوقع في عدة مواضع فيشبه بعضه بعضاً في قصصه ومعانيه وألفاظه ومبانيه وحسنه ووقعه والصدق، بعضه يصدق بعضاً وهذا بحر زاخر ليس له ساحل وإن تخيل من تخيل أنه بلغ ما يروم فخياله باطل قاصر وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً فالقرآن تبيان كل شيء منزل بتوحيد الله، وإفراده سبحانه بعبادته ومعاملته لا شريك له، هذا ورسول الله ﷺ أعرف الخلق به لا يخفى عليه شاذة ولا فاذة مما أشكل على الأمة ونشأ عنه الخلاف بينهم من اشتراك الألفاظ والمعاني، فانه نشأ عن الاشتراك مما يعرفه أرباب الادراك، وكذا الحقيقة والمجاز فانه نشأ عنهما في فنون شتى ما يحتاج أقله إلى أطناب ولا يجدي فيه إلا الاجتياز، ولا يختلف عليه ﷺ ما يختلف على الراسخين في العلم من الفرد والتركيب التي يعرف فيها المخطيء من المصيب، ولا يعزب عنه معرفة العموم والخصوص، إذ هو السند المنصوص ولا يتخلج عليه الرواية والنقل، فلا ينطق عن الهوى ولا بما يحسنه العقل ولا يتوقف فكره في الاجتهاد فيما لانص فيه كما يقع لكل تحرير فيما يظهره ويخفيه ولا يقر على الخطأ مجتهداً فيما قاله بفيه، وهو ﷺ أعرف الخلق بالناسخ والمنسوخ على الاطلاق، وعنه عرفت الاباحة والتوسيع في كل الآفاق، وهذه الثمانية الأمور المذكورة نشأ عنها الخلاف والاختلاف بين الرفاق، إلا في العبادة بأنواعها فانها لله وحده لا شريك له لم يجز فيها اختلاف بين المسلمين انما جعلها لغيره من خلقه غيرهم من المشركين، والله تعالى يقول: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ فكلام الله سبحانه لا يناقض بعضه بعضاً لا يحكمه ولا متشابهه، وكذلك كلام النبي ﷺ وأحاديثه لا تخالف فيها ولا تناقض، ولا يخالف كلام الله ولا يناقضه بل يحمل مطلقه على مقيده ومتشابهه على محكمه، وكما أن في القرآن آيات متشابهات استأثر

الله بعلمها، كذلك في السنة أحاديث متشابهات يجب الايمان بها وتلقيها بالقبول والتسليم وترك التعرض لمعناها كيفاً ومثلاً، فالخلاف في التوحيد ممنوع ومردود كالاختلاف فيه، لأنه إنما ينشأ عن الزيف والله سبحانه يقول: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ .

حمل المؤمن على الصلاح

(وأما قولكم ويجب حمل المؤمن على الصلاح مهما أمكن حتى لو كان له تسعمائة وتسعة وتسعون احتمالاً مؤدياً إلى الكفر واحتمالاً واحداً إلى النجاة يجب حمله عليه والسر في ذلك ان الايمان لا يزول إل ييقين مثله) .

فنقول : لاشك أنه متى وجد الايمان يقيناً فلا يزيله إلا ما ينافيه يقيناً ، فلا يزول بالشك ولا بالظن استصحاباً للأصل السابق لما قارنه من اليقين وتقديماً له على الوصف اللاحق به لنزوله عن درجته ، وهذا مع وجود وصف محتمل متردد فيه بين الحالتين ، ولذلك لما كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين يخبرهم بتجهيز رسول الله ﷺ عليهم بجنود لاقبل لكم بها ولو جاءكم النبي ﷺ وحده لكفى ، وأراد عمر ابن الخطاب ضرب عنقه ، وقال انه منافق ، فاعتذر حاطب لرسول الله ﷺ بما معناها أنه ليس له من هذا مقصد إلا وضع اليد ، فقال رسول الله ﷺ لعمر دعه فانه شهد بداراً وانك لا تدري لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم أو فإني غافر لكم ، ففاضت عينا عمر ، ورسول الله ﷺ إنما اعتذر عنه بمشاهدته هذه المنقبة العظيمة استصحاباً لفضلها وعظمها وإشارة إلى أن أهلها لا يمكن أن يتصفوا أو بعضهم بردة ، لأن الله قال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وهو تعالى لا يغفر إلا ذنوب المؤمنين بخلاف غيرهم فقد يتصف بردة بعد إيمان ولا يكون ذلك بمجرد الحبس فانه كبيرة لا يكفر بها ان لم يكن فيه موالة الكفار على المسلمين ويحتد الامام فيه قاله مالك وأحمد ولذلك قلنا لكن لا تثبت إلا بيقين

ومنه جحد ما جاءت به الرسل أو عناده أو انكاره أو معاداته أو الاستهزاء به ظاهراً أو باطناً أو موالاة المشركين ومظاهرتهم على الموحدين، قال سبحانه وتعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً﴾ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم... إلى قوله: يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴿ وتسميتهم مؤمنين باعتبار عدم وجود الموالاة، والمعنى أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً على كونكم منافقين، وقوله انكم إذا مثلهم ان قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون بآيات الله ودينه راضين باستهزائهم فأنتم كفار مثلهم، قال أهل العلم: هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله راضياً به كان في الاثم بمنزلة المباشر، وان لم يباشر هو بدليل أنه تعالى ذكر لفظ المثلية، وإذا خاضوا في حديث غيره فهل للمؤمن القعود عندهم أم لا؟ قال الحسن لايجوز القعود معهم وان خاضوا في حديث غيره لقوله تعالى: ﴿ وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال غيره يجوز والحالة هذه لمفهوم هذه الآية، وآيات الانعام مكية وهذه الآية مدنية، والمتأخر من الآيتين نزولاً أولى بالعمل، وأجاب بان تلك صريحة في النهي، وهذه مفهومة في عدمه، والصريح مقدم على المفهوم إذا تعارض الاستدلال بهما، ثم إذا قعد المؤمن باختيار منه عند من هو عدو للدين عداوة متيقنة، وهو في حال قعوده يسب الدين ويستهزئ بالآيات، فذلك علامة صريحة على أنه مثله في المسابة شريك له فيها، فإن لم يسب ولم يستهزئ وقعد عنده فقد عرض نفسه لسوء الظن به والظعن والقدح في دينه، كما قال بعض السلف، من عرض نفسه للثم فلا يلومن من أساء الظن به، وقد قال عليه السلام: « من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » وفي رواية للترمذي من تركها استبرأ لدينه وعرضه، وفي الصحيحين مايناسب لهذا الحديث، ومن اجتراً على مايشك فيه من الاثم أو شك أن يوقع مااستبان، ومع ذلك فينبى عن مواضع التهم والشبهات ولايظن فيه الردى في دينه وعرضه بمجرد ذلك إلا مع الاصرار على فعل المنهي عنه لقوله تعالى: ﴿ اجتنبوا كثيراً

من الظن ان بعض الظن اثم ﴿١﴾ ولما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً: «إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث» قال الخطابي هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجنس في النفس، فإن ذلك لا يملك قال الزجاج نبي الله أن نظن بأهل الخير سوءاً، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظن بهم مثل الذي ظهر منهم، وهذا كله مع الاحتمال وعدم ظهور أمره، فأما مع اليقين ظاهراً فلا يمكن أن يقال فيه ظن بل متيقن ظاهراً، فان كان مؤمناً فلا يظن فيه إلا الخير والصالح لا يمانه، وأما لخلقته وجبلته فالأصل فيه الظلم والجهل، قال تعالى: ﴿٢﴾ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴿٣﴾ وان كان كافراً فيتيقن كفره ظاهراً، وإن كان عاصياً فيتيقن فيه الفسق ظاهراً، وإنما قلنا ظاهراً لأننا مأمورون بمعاملة الخلق ظاهراً، ونكل علم الباطن إلى الله، وما الظن والاحتمال فيمن شبه المخلوق بالخالق في خصائص ألوهيته من دعائه بما لا يقدر على دفعه أو جلبه إلا الله وحده والتوكل عليه ورجاؤه والالتجاء إليه وذبح القربان والنذر له ليدفع عنه ما حل به أو ينال ما آمله منه، أما معتقداً في الضرر والنفع والعطاء والمنع، وإما راجياً شفاعته متقرباً بعبادته، فهل له احتمال واحد مؤد إلى الإيمان مع هذا الكفر الحقيقي والبهتان، فان هذا الاعتقاد مناف لقوله الكلمة الطيبة واقاره بها في مجرد اللسان، وإذا فلا يصح منه سائر ما عمله ظاهراً من بقية الأركان، وقد كان الجعد بن درهم من أشهر أهل وقته بالعلم والعبادة، فلما جحد شيئاً من صفات الله مع كونها مقالة خفية عند أكثر الناس ضحى به خالد القسري يوم عيد الأضحى، فقال وهو على المنبر أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم لأنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل من على منبره فذبحه والخلق ينظرون إليه فيهم التابعون وغيرهم بعد أن شهدوا على انكار الجعد الخلة والتكليم، فلم ينكر أحد منهم ذبحه ولا التضحية به، ولأنكر ذلك أحد من العلماء الاعلام، بل نقل ابن القيم رحمه الله تعالى اجماعهم على استحسان هذا وهو مقر بالكلمة الطيبة ومعناها لكنه جحد أمراً هو من الإيمان متضمن لحقها، فكيف بالذي يجعل معناها لغير الله ويجعل المخلوق بمنزلة الخالق ولا يرضى أن يكون عدلاً له بل ربما اعتقد تأثير القدرة منه أسرع من الله لكونه يتصرف في الكون، أين العقل والتمييز أين الانصاف والتهيز في القلب والقالب إلى الملك العزيز، وكذا التشبه به سبحانه وتعالى في التعظيم والتكبر ودعاية الناس إلى اطرائه في

الثناء والمدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً منه ورجاء والتجاء واستغاثة ينذر له ويتقرب به ويستعان ويدعى عند الشدائد، كالمدين لله من الضلال فهم كذبة قد تشبهوا بالله ونازعوه ربوبيته وألوهيته، وما الظن والاحتمال فيمن شبه نفسه بالخلق في خصائص ألوهيته ومعاملته المؤديين إلى الإيمان وهم حقيقون بأن يهانوا غاية الهوان، ويدلوا غاية الذل ويجعلوا تحت أقدام خلقه تعالى وهم الشياطين ومن المغضوب عليهم والضالين، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: « يقول الله عز وجل العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبتة » .

وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله في ربوبيته وألوهيته، وإذا كان المنازع لشرعه الحاكم بغير حكمه طاغوتاً أمرنا الله أن نكفر به، فكيف بمن نازعه ربوبيته وألوهيته وحكمه في عبادته ومعاملته، وهم مع ذلك يحتجون بالمشيئة ويدعون الولاية والحفظ والقرب من الله ومن رسوله ويفعلون الكفريات ويتركون الواجبات ويغترون بشبه استدراجات من نحو أشياء خارقة للعادات من تعظيم ملك، أو جني، أو شيطان لهم، أولئك أهل الخزي في الدنيا والآخرة ماداموا كذلك، ويجب ذمهم والتحذير منهم على كل من عرف حالهم، ولا ينظر في صورة زهد أبدوها في ظاهريهم، وقد انعقد اجماع المسلمين على المعاملة بالظواهر، فما وافق شرع نبينا قبلناه وما خالفه نبذناه، فإن أهل الاستقامة سلكوا على إيجاده ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والالهامات حتى يقوم عليها شاهدان، شاهد من الكتاب، وشاهد من السنة، قال سهل بن حنيف رضي الله عنه: أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني يوم أي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته، واتهام السادات الأولياء من الصحابة رضي الله عنهم لآرائهم كثير مشهور وهم أبر الأمة للدين قلوباً وأعماقها فيه علماً وأبعدها عن الشيطان، وكانوا اتبع الأمة للسنة وأشهدهم اتهاماً لآرائهم، وهؤلاء المدعون ضد ذلك كله، ومن شروطها عدم ادعائها عن نفسه أو عن الله، قال الجنيد قال أبو سليمان الداراني ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة، وقال أبو يزيد

البسطامي رضي الله عنه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود، وقال أيضاً من ترك قراءة القرآن ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع، وقال السري السقطي من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غلط، وقال الجنيد مذهبنا مقيد بالأصول، الكتاب والسنة فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه ويعمل لا يقتدى به، وقال أبو بكر الدقاق من ضيع حدود الله في الأمر والنهي حرم مشاهد القلب في الباطن، وقال أبو الحسن من رأته يدعي مع الله حالاً يخرج عنه حد العلم الشرعي فلا تقر به فإنما هو شيطان ضال ومن رأته يدعي حالاً يشهد حفظ ظاهر فاتهمه على دينه، وقال جرير أمرنا هذا كله مجموع على فصل واحد إن لم يلزم قلبك المراقبة ويكون العلم على ظاهره قائماً، وقال عبد القادر الجيلاني رحم الله روحه ونور ضريحه جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله ورسوله ولا يأخذون ويعملون إلا بظاهرها، وقال أبو حفص من لم يزن أفعاله وأحواله وأقواله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدوه . وهؤلاء الكذابون على الله المدعون يتهددون ويتزهزون بالرقص حول الطار والمزمار عند سماعه والبكاء والنحيب ويومنون بأذنانهم ورؤوسهم شوقاً لذلك من الوجدان والهلعات زاعمين أنه ذكر الله، وأنه من الدين المقرب عنده والمحجوب إليه، وهو والله من الجور والبهتان والطغيان، لا من السنة ولا من القرآن، ولا فعله أولياء الرحمن، بل نهوا عنه، وإنما هو من فعل أولياء الشيطان وعباد اليليس والجان، فانهم إذا سمعوا القرآن أعرضوا عن سماعه، وعن العمل به، ولم يأخذهم مأخذهم عند سماع ذلك المنكر، بل تشاغلوا عنه بالضحك واللعب وشرب الدخان، فهم أقبح حالاً من الذين قال الله فيهم: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ ﴾ فهم مع ادعائهم علم الباطن شبیهون بالذين عبدوا العجل في غيبة موسى فلما رجع سمع لهم صياحاً وأصواتاً وإذا هم يرقصون حوله، ومجرد الرقص بلا ادعاء أنه من الدين لا يوجب الكفر الحقيقي، بل الفسق فقط، مالم ينازعوا الله في ألوهيته لعموم ماتقدم، ومتى ظهرت المنازعة ووجد الادعاء فيما قدمناه فأين الاحتمال المؤدي إلى وجود الايمان مع وجود نقيض الكلمة الطيبة فيه ومنازعة معناها المختص بجلال الله وعظمته ومعاملته بادعائه وتعظيمه، فأصل الدين وقوامه إنما هو اخلاص العبادة والدين بأنواعه لله سبحانه

وأتباع ما أمر به وأرسل به رسله وأنزل به كتبه، والانتهاه عما نهى عنه قال تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ .

وجوب الاستغفار والترضي لمن سلف

(وأما قولكم يجب الترضي والاستغفار لمن سلف من المؤمنين والكف عن مساوئهم قال عز من قائل ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ﴾ ومرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا يخلد في النار لقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ ، وقوله ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾) .

فنقول : أما محبة جميع المؤمنين بعضهم بعضاً ومودتهم بينهم وسؤال الله المغفرة لهم فأمر مستحسن مطلوب لا يشك فيه شك ، ولا ينفيه إلا هالك ، قال سبحانه وتعالى آمراً نبيه أن يستغفر للمؤمنين : ﴿ فاستغفر لذنوبك وللمؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ﴾ وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً ينال من بعض أصحاب رسول الله ﷺ فقال أمن المهاجرين الأولين أنت ، قال لا . قال أمن الأنصار أنت ، قال لا . قال فاشهد أنك لست من التابعين بإحسان . فكل من لم يرض عن أصحاب محمد والتابعين لهم بإحسان وكان في قلبه غل لأحد منهم فانه ليس ممن عناه الله بهذه الآية . والله تعالى رب المؤمنين على ثلاث منازل المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين الموصفين بالإحسان ، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً عن المؤمنين . وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وفي رواية لمسلم : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه

تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهرة « وفي رواية له أيضاً: « المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله « وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً « وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث « متفق عليه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا « رواه مسلم وفي رواية: « له تعرض الأعمال في كل يوم خميس أو اثنين وذكر نحوه « فالمؤمنون تجب موالاتهم ومحبتهم، والكف عن اعراضهم، ويحسن الدعاء والاستغفار لهم، وتحرم معاداتهم وتتبع عوراتهم، والبحث عن عثراتهم، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يظلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة « رواه البخاري عن يحيى بن بكير، ورواه مسلم عن قتيبة كلاهما عن الليث قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ قال الزجاج علم الله سبحانه أن الدين يجمعهم وأنهم أخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب لأبيهم من آدم وحواء، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه « وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « قال رجل والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان اني قد غفرت له وأحبطت عملك « رواه مسلم وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب « وأخرج الامام أحمد من حديث أبي أسامة بن سهل عن أبيه سهل بن حنيف مرفوعاً: « من أذل عنده مسلم فلم ينصره وهو يقدر أن ينصره أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة « ولأبي داود مرفوعاً: « مامن امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تهتك فيه حرمة ويتقص فيه عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته ومامن امرئ

ينصر امرأ مسلماً في موضع ينقص فيه من عرضه وتهتك فيه حرمة إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته » وروى مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: « مامن عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال ملك ولك بمثل » وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول: « دعوة المرىء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل » رواه مسلم وفي حديث آخر: « أسرع الدعاء اجابة دعوة غائب لغائب » وقد أثنى الله على الذين يثنون على المؤمنين خيراً ويدعون لهم به قال سبحانه وتعالى: ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ﴾ فالدعاء للغير ينتفع به الداعي والمدعو له وإن كان الداعي دون المدعو له رتبة، فقد قال ﷺ لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما أراد أن يعتمر وودعه لاتنسنا يا أخي من دعائك، فالتبى ﷺ قد طلب من أمته الدعاء، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم، بل هو كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها مع أنه عليه الصلاة والسلام له مثل أجورهم في كل ما يعملون لأنه صح عنه ﷺ أنه قال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كل عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً وهو عليه الصلاة والسلام داعي الأمة إلى هدى فله مثل أجورهم في كل ما تبعوه فيه، وكذلك إذا صلوا عليه فإن الله يصلي على أحدهم عشراً وله ﷺ مثل أجورهم مع ما يستجيبه الله تعالى من دعائهم له فكذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجراً عليه وصار ما يحصل له به من النفع نعمة من الله عليه، ومن قال لآخر ادع لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى، فالسائل نبه المسؤول وأشار عليه بما ينفعهما، والمسؤول قد فعل ما هو نفع لهما، فهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى فيثاب المأمور على فعله، والآمر يثاب لكونه دعا إليه، لاسيما إذا فعل من الأدعية ما أمر الله به العبد كما قال: ﴿ واستغفر لذنبيك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فأمره بالاستغفار ثم قال: ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ فذكر الله استغفار الرسول ﷺ لهم في ذلك

الوقت حيث أمره الله تعالى أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً، لم يأمر الله المخلوق المسؤول به، فما أمر الله العبد به أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عبادة لله وطاعة وقرية لله وصلاح لفاعله وحسنة منه، وإذا وفق لفعل ذلك كان من أعظم احسان الله إليه وانعامه عليه، بل أجل نعمة أنعمها الله على عبده ان هداه للإيمان وأرشده التوفيق إليه ومحبة المؤمنين وموالاتهم والدعاء والاستغفار لهم، ومجانبة أهل الشرك والطغيان والجور والبهتان العاملين بالجهل والابتداع والتاركين للأمر المنزل المطاع فعملوا بضده على يقين منهم في ذلك واختراع زاعمين أنه هو المطلوب وأنه هو الوسيلة إلى المحب المحبوب ومعاداتهم وجهادهم عليه وتذكير الله وادعائه إليه، هذا هو الانعام الحقيقي المذكور في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وهي الطاعة لله التي من عمل بها يكون مع أوليائه. قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ ذلك الفضل من الله، بل نعم الدنيا بدون الدين هل تسمى نعمة أم لا؟ فيه قولان للعلماء مشهوران، والتحقيق انها نعمة من وجه، وإن لم تكن نعمة تامة من وجه، وأما الانعام بالدين ومنه حب أهله وموالاتهم، ومعاداة ضدهم فلا يتم بدون ذلك، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة، قال سبحانه وتعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فضل الله الاسلام والقرآن ورحمته ان جعلنا من أهله، وكما أن المؤمنين تجب محبتهم وموالاتهم، والكف عن أعراضهم، وبحسن الدعاء والاستغفار لهم، كذلك أعداء الله من المشركين الكافرين تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم وتذكر مساوئهم ليرتدعوا عما هم عليه، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم أن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ وعدم الرضا بدينه ﷺ وما جاء به والعمل به أكبر من اخراج ذات الرسول فانه لم يخرج إلا بسبب ذلك، وقال تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين

آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴿ وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص أنه عليه السلام قال جهاراً أن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ومعناه إنما وليي من كان صالحاً وإن بعد نسبه مني، وليس وليي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريباً، قال القاضي عياض قيل ان المكنى عنه هنا هو الحكم ابن أبي العاص، وذلك لأن بعض الرواة كانوا فقالوا في أوله ألا أن آل أبي يعني فلانا ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، وإنما كنى خشية أن يسميه فيرتب عليه مفسدة، إما في حق نفسه وإما في حقه وحق غيره، فكنى عنه فقد أخبر عليه السلام عن بطن قريب النسب منه أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياء له إنما وليه الله وصالح المؤمنين من جميع الأصناف، ومثل ذلك كثير بين في الكتاب والسنة أن العبرة بالأسماء التي حمدها الله وذمها، كالمؤمن والكافر والبر والفاجر والعالم والجاهل لا بالنسب، ومن هذا قول بعضهم :

لعمرك ما الانساب إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الاسلام سلمان فارس ووضع الشرك الشقي أبا هب

وكذلك تجب مقاطعتهم والبراء منهم وعدم الاستغفار لهم، قال تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه... الآية ﴾ وقال: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ وتحقيق وجود الشرك يقوم مقام من علم أنه من أصحاب الجحيم في عدم جواز الاستغفار والحالة هذه قال الله لنبيه: ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى نهى نبيه عليه السلام عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر سبحانه أنه لا يغفر لهم قال تعالى: ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال: ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ وهو تعالى لا يحب المعتدين في الدعاء، ومنه سؤال

المغفرة للمشركين أو مافيه معصية الله كإعانتة على الكفر والفسوق والعصيان، فالشفيع الذي أذن الله له في الشفاعة شفاعته من الدعاء الذي ليس فيه عدوان، وهو لا يكون إلا للموحدين لا للمشركين الذين حرم الله عليهم الجنة ومآواهم النار، وإن لم نقطع لمعين بجنة ولا نار إلا لمن نص عليه النبي ﷺ، لأننا مأمورون ان نعامل بالظاهر والأمور مرجعها إليه سبحانه وتعالى، ولو سأل واحد من الأنبياء عليهم السلام فدعاً لا يصلح له لم يقر عليه فانهم معصومون ان يقرؤا على ذنب لو صدر منهم جهلاً بحكمة أولاً، ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿رب ان ابني من أهلي وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ قال الله: ﴿يأنوح إنه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ وأما استغفار إبراهيم لوالديه في قوله ربنا اغفر لي ولوالدي، فلولوع الذي وعد به أباه، وعده أن يستغفر له إن آمن، وهو قوله سأستغفر لك ربي فاستغفر له لمكان الوعد راجياً أن يسلم، فلما تبين له أنه عدو لله لموته على الكفر تبرأ منه/ وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لاتعصني فيقول له أبوه اليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتني انك لاتخزني يوم القيامة يوم يعثون، فأني خزي أخزى من أي الأبعد فيقول الله تبارك وتعالى إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال لإبراهيم انظر ماتحت رجلحك فينظر فإذا هو بضع ملطخ بالدم فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار فيتبرأ منه يومئذ» فقد بين الله عذر خليله عليه السلام في استغفاره لأبيه، وأما أمه فقد أسلمت، وقيل المراد بالوالدين في قوله لوالدي آدم وحوى عليهما السلام، والأول عليه الأكثر.

وأما قوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره... الآية﴾ فالذرة هي التلة الصغيرة وعمم فيها مع أن حسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن الصغائر مغفورة باجتنب الكبائر، لأن معنى فمن يعمل مثقال ذرة من فريق السعداء خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة من فريق الأشقياء شراً يره، وقد ذكر الله سبحانه ذلك بعد قوله: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ يعني يرجع الناس عن موقف الحساب بعد

العرض متفرقين أهل التوحيد والإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة، كقوله يومئذ يتفرقون ويومئذ يصدعون ليروا أعمالهم، قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم، والمعنى أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار. قال مقاتل فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره يوم القيامة في كتابه فيفرح بذلك، وكذلك من الشر يراه في كتابه فيسوءه ذلك، قال وكان أحدهم يستقل أن يعطى اليسير ويقول إنما نؤجر على مانعطي ونحن نجبه واليسير ليس مما نحب وتنهون بالذنب اليسير، ونقول إنما وعد الله النار على الكبائر فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير ويحذرهم اليسير من الشر، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: « قلت يا رسول الله ما ينهي الناس يوم القيامة قال إلى أعمالهم من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » واستدلال صاحب المقدمة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر لا يصلح له دليلاً إذ للمكفر بها من الخوارج والمبتدعة أن يقولوا فمن يعمل مثقال ذرة من فريق المسلمين، وأما الكافرون فيرجع فيه إلى قوله وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً، ولكن الدليل لأهل السنة والجماعة، ونحن ان شاء الله منهم ما قدمناه وقلناه وبيناه في بحث أهل الإيمان. وما أجمع عليه صالح سلف الأمة من دلائل الكتاب والسنة وعند قوله نقلاً عن ابن القيم، وهذا الجمع والتوقيف بهذا التفصيل هو قول الصحابة وعليه الاعتماد لأن أمثال هذه المسائل لا تتلقى إلا منهم ولا تؤخذ إلا عنهم فلله الحمد والمنة، وهو مما قاله من الاستدلال يزعم أنا نكفر بالذنوب، وقد تكرر ذلك منه وهو بهتان علينا وجور وادعاء بلا تثبت وقول زور، ومن وفق الانصاف حقق أمرنا ونهينا، ومن الذي كفرنا وجاهدنا، وكلامنا ودلائلنا، فلا يقول علينا إلا حقاً ولا يعمل إلا به .

وأما قولكم (إذا تمهد هذا فنقول أما ما ذكرت من تعظيم القبور وتشديد المنكر على من يفعله فهذا أمر مجمع عليه وعلى تحريمه ولا يفعله إلا جهلة الرعاع من العوام والأعراب وأشباههم بل نقول ان الصلاة تكره كراهة تحريم بحضرة أي قبر كان بل عند الامام أحمد لا تتعد أصلاً لكن لا يلزم من ذلك تكفير مرتكبه كفراً يخرج به عن الملة ويباح دمه وماله وعرضه نعم هو كفر عملي حيث يكون بفعله مرتكباً للمنهي عنه وحكمه كما قدمناه النصيحة والوعظ والزجر لا غير ذلك) .

فنقول معنى تمهد أي انتشر مبسوطاً لسامعه من تمهدت الأرض تمهداً إذا

اتسعت فراشاً مبسوطة، وتمهد الصبي تمهداً إذا سكن اضطرابه في المهادة، ومهد إذا وضع فيه، قاله أهل المعاني، وأما تعظيم القبور بمعنى احترامها، فإن كانت للمسلمين فواجب لا يجوز بول ولا غوط ولا جلوس ووطء عليها لما في صحيح مسلم عن أبي مرشد الغنوي أن النبي ﷺ قال: « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » وفيه أيضاً أن النبي ﷺ رأى رجلاً قد اتكأ على قبر فقال: « لا تؤذوا صاحب القبر » وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر مسلم » وأما تعظيمها بمعنى عبادتها فهو أكبر الكبائر عند الخاص والعام، وأصل فتنة عباد الأصنام كما قاله السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين الذين في قلوبهم وقار لله فيغضبون لأجله ويغارون على توحيده ويقبحون الشرك وأهله ويجاهدون أعداء الله من أجله، ولكن من خالفهم فما الحيلة. ما لجرح بميت إيلام. ولا لمن خالف هؤلاء احترام. وإن منشأ هذه الفتنة في الاسلام الفتنة في القبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً وبنيت عليها الهياكل فصارت تدعى وترجى وتخشى، وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح. كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿ قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرنا آلهتنا ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾ ذكر هذا البخاري في صحيحه وأهل التفسير كابن جرير وغيره منهم ابن كثير وأبو الحسين البغوي وعلي بن أحمد الواحدي والرازي قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ قال على الاسلام وكان أول ما كادهم به الشيطان من تعظيم الصالحين، كما ذكر الله ذلك في كتابه في قوله: ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتنا ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ قال الكلبي كان هؤلاء قوماً صالحين فماتوا في شهر فجزع عليهم أقاربهم وصوروا صورهم، وفي غير حديثه قال أصحابهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فكان الرجل يأتي أخاه وابن عمه فيعظمه حتى ذهب ذلك القرن، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من الأول، ثم جاء القرن الثالث فقالوا ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم، فلما بعث الله نوحاً وغرق من غرق أهبط الماء هذه الأصنام

من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة، فلما نضب الماء بقيت على الشط فسفت الريح عليها حتى وارتها، ثم عمر نوح عليه السلام وذريته الأرض ويقوا على الاسلام ماشاء الله ثم حدث فيهم الشرك، ومامن أمة تخرج إلا ويعيث الله فيهم رسولاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن الشرك، فمنهم عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد بعث الله لهم هوداً وكانوا في ناحية الجنوب بين اليمن وعمان فكذبوه فأرسل الله عليهم الريح فأهلكتهم ونجى الله هوداً ومن آمن معه، ثم بعث الله صالحاً إلى ثمود وكانوا بالشمال بين الشام والحجاز فاستحبوا العمى على الهدى فأرسل الله عليهم صيحة فأهلكتهم ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ثم بعد ذلك أخرج الله إبراهيم عليه السلام وأهل الأرض إذ ذاك كلهم كفار فكذبوه إلا ابنة عمه سارة زوجته وآمن له لوط فأكرمه الله تعالى ورفع قدره وجعله إماماً للناس وجعل في ذريته الكتاب والنبوة ومنذ ظهر إبراهيم لم يعدم التوحيد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ وكان له ابنان اسحق عليه السلام وهو أبو بني اسرائيل، واسرائيل يعقوب بن اسحق، والثاني اسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب وقصته وأمه مشهورة لما وضعها عليه السلام في مكة فنشأ اسماعيل في أرض العرب وصار له ولأولاده ولاية البيت ومكة فلم يزالوا على دين أبيهم اسماعيل حتى نشأ فيهم عمرو بن لحي فملك مكة وكان معظماً فيهم بسبب الدين والدنيا فسافر إلى الشام ورآهم يعبدون الأوثان فاستحسن ذلك منهم وزينه لأهل مكة، ثم اقتدى بهم أهل الحجاز فلم تزل تعبد حتى بعث رسول الله ﷺ فكسرها وقال: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، وكانت الجاهلية فيهم بقايا من دين ابراهيم مثل تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة واهداء البدن وكانت تزار تقول في اهلاها لييك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وروى محمد بن جرير باسناده إلى الثوري عن موسى ابن محمد بن قيس قال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً قوموا صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام، وكان لهم اتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى عبادة ربنا إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم ابليس فقال انما كانوا يعبدونهم بدعائهم فيهم يستشفعون وبهم يستسقون المطر فعبدوهم بذلك، قال سفيان عن أبيه عن

عكرمة قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام، وقال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فنشأ قوم بعدهم يأخذون بأخذهم في العبادة فقال لهم ابليس لو صورتهم كان أنشط لكم وأشوق إلى عبادة ربكم ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم ابليس: ان الذين من قبلكم كانوا يستسقون ويتشفعون بهم ويدعونهم ليشفعوا لهم فعبدهم بذلك. وابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم المسلمين بهذه الأسماء. وقال قتادة في هذه الآية يعني قوله ولا تذرن آلهتكم قال: كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل، وكان يغوث لبني غطف، وكان يعوق لهمدان، وكان نسر لذي الكلاع من حمير، وقال ابن عباس هذه أصنام كانت تعبد زمان نوح، وقال البخاري عن عطاء عن ابن عباس صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدهم ليشفعوا لهم فهؤلاء قد جمعوا بين الفتنين فتنة القبور وفتنة التماثيل وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسناتها وتصاوير فيها فرفع النبي ﷺ رأسه وقال « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله » وهذه الفتنة هي السبب في عبادة اللات. فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله أفرأيتم اللات والعزى، قال كان يلت السوق فمات فعكفوا على قبره، وكذلك قال أبو الجوزجاني عن ابن عباس، كان يلت السوق للحجاج، فسبب عبادة يغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبور الأموات وهذه العلة التي نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور لأجلها هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في

الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاس الكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا أهل الشرك كثيراً ما يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت الأسحار، ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة والدعاء عندها ما لا يرجونه في المساجد، فهم يعبدون أصحابها بدعائهم ورجائهم والاستغاثة بهم وسؤالهم النصرة والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات واغاثة اللهفات وبذل النذر لجلب ما أملوه ودفع الشرور مع اتخاذ قبورهم أعياداً، والصلاة إليها والطواف بها وتقيلها واستلامها وتعفير الحدود على ترباتها، وغير ذلك من أنواع العبادات، والطلبات التي كانوا عليها عباد الأوثان يسألون أوثانهم ليشفعوا لهم عند مليكهم، فهؤلاء المشركون الغلاة قد جعلوا لأهل القبور أصناف العبادات، وإذا قدموا إلى القبر عقروا له العقائر وتقربوا إليه بأنواع القربات، وقد أخرج أحمد وأبو داود من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله: «لا عقر في الإسلام» وقال عبد الرزاق كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة فنهوا عن ذلك، وأخبر أنه فعل عباد الأصنام وإذا رأوا قبته من مكان بعيد نزلوا عن الدواب واشتغلوا بدعائه والنحيب ووضعوا لها الجباه وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس وارتفعت أصواتهم بالضجيج ورأوا أنهم قد زادوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يدي ولا يعيد، ونادوه ولكن من مكان بعيد، حتى إذا وصلوا إليه صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد حازوا من الأجر كمن صلى إلى القبلتين، فهم حول القبر ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملؤا أكفهم خيبة وخسرانا فللشيطان ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع بالدعاء من الأصوات ويطلب من الميت أنواع الحاجات ويسأل من تفريج الكربات واغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات والبليات، ثم انبثوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقليل والاستلام، كأنه الحجر الأسود وما يفعل به وفد بيت الله الحرام، ثم عفروا عنده تلك الجباه والحدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، واستمتعوا بخلاقتهم من ذلك القبر فلم يكن لهم عند الله من

خلاق، وقربوا لذلك القرايين فكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير رب العالمين، وقد آل الأمر إلى فعل أنواع المنكرات من بذل الفروج ثلاثة أيام من كل سنة في مولد أحمد البدوي ومشهده الذي في القاهرة يخرجون إليه الغواني جاعلين ذلك في صحائفه، ولينالوا من بركته وأنهم محسوبون إليه، زيادة على فعلهم عند قبر الست نفيسة، ومشهد الحسين، هذا والعلماء حاضرون والعباد شاهدون والمردان مع الفجار المدعين الولاية والمتزين بها، مجتمعون وفي فراش واحد بلا حائل ليلاً ينامون وفي النهار معهم مختلون، ويدعون أنهم لهم يربون، والعلماء والحالة هذه لا ينكرون، والعباد لله لا يغارون، ولا الحق يقولون، بل كلا الفريقين يصنفون الكتب في ذلك ويعتدرون عنه بأجوبة ليست صواباً ولا سديدة بل عن الحق بعيدة.

(ومنها قولهم تنبيه) اعلم أنه قد يعترض بعض الناس على أحمد البدوي، وعلى هؤلاء المجتمعين عنده في حضرة ضريحه ويقولون إذا كان له هذا المولد العظيم والتصرف التام النافذ بعد الممات فكيف لا يتصرف في دفع أصحاب المعاصي عن حضور مولده فالجواب عن ذلك من أوجه.

أحدها أنه في عناية من ربه فكل من حضر مولده من أهل العصيان وافق نزول الرحمة والغفران فغفر له بسببه وتيب عليه ولو بعد حين من الزمان.

الثاني أن الغالب على حاله البسط وجاهه عريض يسع الخلق ولو وافقه جميع فساق أهل الأرض كذلك كان مغفوراً لهم بسببه.

الثالث أنه قد خرج إلى مقام لا تكليف فيه، وهؤلاء العاملون عملهم لهم وعليهم ومنهم من صنف في ذلك طبقات كبرى وقال فيها أن سبب حضوري مولد أحمد البدوي عند ضريحه ان شيعي العارف بالله الشناوي أحد أعيان بيته وكان قد أخذ على العهد في قبته تجاه القبر أن لا يخرج عن طريقته ثم أخذ بيدي وسلمني إلى أحمد البدوي وقال يكون خاطرك على عبد الوهاب فاحفظه واجعله تحت نظرك فسمعتة يقول من داخل القبر نعم من آوى إلينا وجب حقه علينا، ثم أنه تراءى لي فرأيت أنه وأنا بمصر هو وعبد العال وهما يقولان لي زرنا في مكاننا ونحن نطبخ لك ملوخية ضيافتك فجئت إلى قبرهما وأضافني غالب أهل الضيعة وجماعة المقام ملوخية، ثم رأيته وقد وافقني على جسر قحافة تجاه طنده فوجدته كالسور محيطاً بها فقال لي قف ههنا

وادخل من شئت وامنع من شئت ، قال ولما دخلت بزوجتي أم عبد الرحمن وهي بكر
 مكثت خمسة أشهر لم أقدر عليها ولم أقرب منها فأتاني من قبره ليلة من الليالي فأخذ
 بيدي وهي معي في فراشي وفرش لنا فراشاً بيده فوق ركن القبة الذي على يسار
 الداخل وأتى لنا بملوى ودعا الأحياء والأموات من الأولياء ، وقال لي أزل بكارتها ههنا
 وهم مشغولون بالأكل فكان من أمرنا ما كان في تلك الليلة ، قال وقد تخلفت سنة من
 السنين عن الحضور للمولد وقد كان هناك الأولياء ، فأخبرت أن أحمد البدوي كان
 يكشف الستر ذلك اليوم عن ضريح قبره ويقول أبطأ علينا عبد الوهاب ماجاءنا
 يحضر ، قال وأردت التخلف سنة من السنين فرأيت أحمد وفي يده جريدة خضراء قد
 خرج بها من قبره وهو يدعو الناس من سائر الأقطار والناس خلفه وأمامه ويمينه
 وشماله وهم خلائق لا يحصون فمر علي وأنا بمصر ، وقال لي أما تذهب فتحضرنا فقلت
 اني وجيع فقال الوجع لا يمنع الحب . ومنهم من يحكي عن القبور ويقول فلان استغاث
 بالقبير الفلاني في شدته فحلصه منها ، وفلان دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت
 له ، وفلان نزل به ضر فاشتكى إلى صاحب ذلك القبر فكشف ضره ، وعند هؤلاء
 العلماء في دين الشيطان وجنوده الجهلة بالله وما أنزل على رسوله وسدنة الأضرحة
 والمقابر الذين هم من أشر البرية شيء كثير من هذه الحكايات والإيرادات
 والاعتقادات مالمو ذكرناه لاحتمل مجلدات ، وهم من أكذب خلق الله على الأحياء
 والأموات ، والنفوس مولعة في قضاء حوائجها وإزالة ضررها ، وإذا سمعوا من هؤلاء
 الجهلة الضلال أن قبر فلان الترياق المحرب في اجابة الدعوة وكشف الشدة سمعوا لهم
 وأجابوا وخضعوا للقبور ودعواهم ، وأنا بواو والشيطان له تلتطف فيما يجلب إليه الدعوة
 فيدعوا أولاً هذا الداعي إلى أن يدعو صاحب القبر أو عنده فيقع دعاء هذا الداعي
 للملعون لا له ، وهذا نتيجة الجهل بحقيقة ما بعث الله به الرسل من تحقيق التوحيد
 وقطع أسباب الشرك ، فلم يكن له نصيب فيما جهلوه وادعوه وقد دعاهم إبليس إلى
 الفتنة ولم يكن عندهم من العلم ما يطل دعوته ، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من
 الجهل ، وادعوا بقدر مامعهم من العلم الذي ظاهره قول معرب وحقيقة لاجهل
 مركب ، حيث أوردوا فيما اعتقدوه وقالوه أحاديث مكذوبة مختلفة موضوعة اختلقها
 عباد الأصنام من السدنة والمقابرية على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به
 كحديث « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور » وحديث « لو حسن

أحدكم ظنه بحجر نفعه « وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الاسلام وضعها المشركون وراجت على المدعين من الجهال والضلال الذي هم عن الحق معرضون والله بعث رسوله يقتل من حسن ظنه بالأحجار، وجنب أمته الفتنة بالقبور، كما جاءت به الآثار واستفاضت عنه في ذلك الأخبار بنقل أهل الصحيح ونقد أهل التصحيح، فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفي رواية لمسلم: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: « إني أبرأ إلى الله أن يكون إلى منكم خليل فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » وعن عائشة وعبد الله بن عباس قالوا لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة كانت على وجهه فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك: « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر أمته ما صنعوا » متفق عليه قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ولولا ذلك لابرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً » متفق عليه، وروى الامام أحمد في مسنده باسناد جيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه الامام أحمد وأهل السنن. وهذا حال من سجد لله عند قبر، فكيف بمن يسجد للقبر نفسه، أو دعاه وعدل عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع الجهال والطغام وضعوها لأنفسهم بتليس ابليس عليهم فسهلت لهم وطابت بها قلوبهم من تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع ومن عبادتها بدعائها ورجائها والاتجاء إليها والتوكل عليها والنذر لها وكتب الرقاع فيها وخطاب الموق بالحوائج ياسيدي يامولاي إفعل بي كذا وكذا، وأخذ تربتها والحرق التي عليها تبركاً وإيقاد السرج عليها وتقيلها وتخليقها، وشد الرجال إليها، وينضاف إلى ذلك القاء الحرق على الشجرة ودعاؤها والذبح والنذر لها

اقتداء بمن عبد اللات والعزى، والويل كل الويل عندهم لمن أعاب وأنكر عليهم، ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور ومأمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء ينون عليها القباب والمساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقادها بالقناديل والسرج فيها، ونهى عن اتخاذها أعياداً، وهؤلاء يتخذونها مناسك وأعياداً يجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، ونهى عن العقر والذبح لها، وهؤلاء يعقرون عليها وينذرون لها ويدعونها، وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي واسمه حيان بن حصين قال: «قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعتك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا أدع تمثلاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» وفي صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شفي الهمداني قال كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبو فسوي، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، فيرفعونها من الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب ويضعون عليها التوابيت ويكسونها كما يكسى بيت الله الحرام، ويفعلون عندها الموالد العظام ويجعلون لها السوائب من بهيمة الأنعام، ويكثر لديها رفع الأصوات والضجيج واختلاط الرجال بالنساء كالضحجج، ومن ذلك ما يفعله عباد الشيطان عند قبر أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث خارج مكة وخديجة في المعلي كل سنة ثلاثة أيام مولد يحصل فيه من الضجيج وارتفاع الأصوات والدعاء بالاستغاثات واختلاط النساء مع الرجال في تلك الساحات، وكذلك عند قبر عبد الرحمن المحجوب بالدقوف ذوات الصنوج والطبول والبيارق والنحائر داعين مستغيثين به راجينه بذلك ليكون عليهم ناظراً ولهم حافظاً لأنه المحب المحبوب، وهكذا عند قبر أبي طالب، وهم يعلمون ظاهر حاله وما هو عليه قبل الممات فالحكم لعلام الغيوب، ولو تعلق مظلوم بأستار الكعبة جذبوه من تحتها وفعلوا به ما أرادوا ولو دخل ظالم بسرقة أو قتل أو نهب مال على قبر أحد هذين الرجلين اللذين الله أعلم بهما من خلقه وهم فقراء إليه لم يقدموا ليأخذوه منه، ولم يقدموا حدود الله عليه، بل عندهم من فعل ذلك فقد تعدى وظلم ومآله إلى

الندم، ومن نهي عن فعل ماتقدم وأمر بما أرسل الله به الرسل إلى سائر الأمم والعمل
 بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية التي هي نص على توحيد خروجه وبدعوه وكفروه
 ونسبوه إلينا وإن كان لا يعرفنا، وما ذنبنا إلا أن أمرنا بما أمر الله به رسله ونهينا عما نهى
 الله ورسوله، فبسبب ذلك عادونا وجلبوا بخيلهم ورجالهم ومدافعهم علينا وعن حج
 بيت الله الحرام الذي قال الله فيه: ﴿ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله
 والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم
 نذقه من عذاب أليم﴾ صدونا ومنعونا، وهدى النبي ﷺ صار شعارنا واتباع سنته
 علماً علينا، فهم بذلك يعابوننا ويؤخوننا ويسبوننا ويجهلوننا وما ذاك منهم علينا إلا
 اتباع الأهواء وعموم البلوى والطمع في الدين والعتاد في اليقين. ﴿أفرأيت من اتخذ
 إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه
 من بعد الله﴾ وهم يفعلون المنكرات ويجعلونها قربات وتنتجتها صدقات زيادة على
 الشرك الأكبر في تلك المعتقدات، وذلك كله موجود في حرم الله وغيره من
 الساحات، وهل هذا كله إلا لفقد الاسلام وجهله والاستهانة به عند هؤلاء الخاص
 منهم والعام، حيث جعلوا المنكر ديناً ونتيجة حسنة يقيناً، لكن مصيبة فقد الدين
 تهون ما هو فعل الظالمين المعاندين ونهى عن الكتابة عليها كما روى مسلم في صحيحه
 عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر
 وإن يقعد عليه وأن يبنى عليه، وروى أبو داود في سننه عن جابر رضي الله عنه أن
 رسول الله ﷺ «نهى أن تجصص القبور وأن يكتب عليها» قال الترمذي حديث
 حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن والأشعار ويعلقون
 عليها بيض النعام وقناديل الفضة والرخام، فهؤلاء المعظمون للقبور المتخذونها أعياداً
 الموقدون عليها السرج الذين ينون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول
 الله ﷺ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها، وهو
 من الكبائر، ومن يزعم أنا نكفر بمجرد هذا فهو كاذب جائر، إنما نكفر بالشرك الذي
 لا يغفر، وهو دعاؤها ورجاؤها والاستغاث بها وذبح القربان والتذر لها لتدفع سوءاً أو
 تجلب خيراً، أو تكون واسطة في ذلك، نعم نحن نهدم القباب التي على القبور، ونأمر
 بهدمها كما هدم النبي ﷺ قبة اللات في الطائف، وأمر علي رضي الله عنه بهدمها
 وخفض القبور المشرفة مطلقاً وتسويتها، وقد أمر به وفعله الصحابة والتابعون والأئمة

المجتهدون، قال الشافعي في الأم ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما ينشأ على القبور
 ويؤيد الهدم قوله ولاقبراً مشرفاً إلا سويته، وحديث جابر المتقدم ذكره الذي في
 صحيح مسلم. ولأنها أسست على معصية الرسول لنبيه فبناء أسس على معصيته
 ومخالفته بناء غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً، وأولى من هدم
 مسجد الضرار المأمور بهدمه شرعاً، إذ المفسدة هنا أعظم حماية للتوحيد، وأما هذه
 الكبائر فقد صرح الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم
 من الصحابة والتابعين على تحريمها وإنها بدعة نهي رسول الله ﷺ عنها، قال أبو
 محمد المقدسي لو أبيع اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في
 غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام، هذا وبيوت الله ظلّات
 لا يوقد فيها نور، بل يرون أن الفضل عليها في ذلك القبور، وقد آل الأمر بهؤلاء
 المعتقدين تعظيم القبور تعظيم عبادة للاحترام في الصدور إلى أن شرعوا لها حجاً
 ووضعوا له وقتاً وجعلوه أضعاف حج بيت الله الحرام سبعاً هذا قبر ابن علي الذي في
 مرباط من بلاد اليمن قد شاع عند الخاص منهم والعام أن زيارته والتبتل إليه في رجب
 تعدل سبع حجّات وكذا الزيلعي الذي في اللحية قد شاع عندهم وذاع أن من مات
 فيها ودفن حوله في تلك البلاد أنه في لحيته ليس عليه حساب ولاعذاب، وكذا قبر
 العيدروس الذي في عدن، وكذا قبر الشاذلي في الحافان أهل البر والبحر ليس لهم
 لهجة في الشد والرخاء إلا بذكره زاعمين أنهم في أمانه وتحت نظره، وأنه يغيث من
 دعاه في الشدة نائياً كان، أو قريباً في البر أو في البحر، حتى صنف بعض غلاتهم في
 ذلك كتاباً سماه مناسك حج مشاهد الأبرار لمن عني إليهم من المقيمين
 والزوّار، وصنف بعضهم كتاباً سماه روضة الأبرار في دعوة الألياء الأخيار عند
 الشدائد المدلهمة الغزار، ولا يخفى أن هذا بعينه مفارق دين الاسلام والدخول في
 عبادة الأصنام، ومن نظر منصفاً بإخلاص إلى هذا التباين العظيم في هؤلاء المعتقدين
 من الناس عن الدين القويم والصراط المستقيم ماز وفرق بين ما شرعه رسول الله ﷺ
 وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور والاعتقاد وجاهد عليه وبين ما شرعه هؤلاء
 وقصدوه واعتقدوا فيه ودعوه ودعوا إليه، وحينئذ يحق أن ندعوا إلى صراط
 مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير

الأمر، ويحقق تلك المفسد الناشئة من خبث العقائد التي يعجز العادون عن حصرها، وتشمئز قلوب العارفين لذكرها .

(فمنها) : تعظيمها الموقع في الافتتان بها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور والألواح وبيض النعام وقناديل الفضة والرخام عليها وسدنتها وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند البيت والمسجد الحرام، ويرون أن سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفأ القنديل المعلق عليها .

(ومنها) : بذل النذور لها ولسدنتها لجلب الخير ودفع الشرور .

(ومنها) : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، وينزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضي الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الحائف، ويأمن الحوادث، إلى غير ذلك من الشرك الأكبر الذي يفعل عندها .

(ومنها) : الدخول في اللعنة، لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج والقناديل فيها ووقفه عليها .

(ومنها) : اجتماع الرجال مع النساء واختلاطهم وضجيجهم ودعائهم إياهم .

(ومنها) : جعل المنكرات قربات .

(ومنها) : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهـم مايفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح يكره مايفعله النصارى عند قبره إذا وجد في الأرض ومايعتقدونه في قلوبهم من الأفراط والتفريط في الحب، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهـم مايفعله المعتقدون أشباه النصارى وأشكالهم عند قبورهم ويوم القيامة يتبرؤن منهم كما قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم عبادي أضللتم هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴾ قال الله للمشركين فقد كذبوكم بما تقولون وقال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾

ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿٤﴾ .

(ومنها) : مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها .

(ومنها) : محادة الله ورسوله ومناقضة ماشرعه فيها .

(ومنها) : التعب والنصب بالبناء والتشييد ووضع الأبواب ونقشها والجدران والاعتقاد، والتعظيم مع الوزر الكثير والأثم العظيم .

(ومنها) : ان هذا الاعتقاد يؤول إلى حبط العمل والخسران .

(ومنها) : اماتة السنن وإحياء البدع .

(ومنها) : جعل البدعة واجباً وسنة، والواجب والمسنون بدعة وإثمًا، وهم في ذلك لايعون ولايتذكرون بل لمن خالفهم فيه ونهاهم عنه يبدعون ويخرجون ويكفرون .

(ومنها) : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فان عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة والعزم على الموتى بما لايفعلون في المساجد ربع عشره ويحصل لهم فيها نظيره ولاقريب من مثليه .

(ومنها) : أن ذلك تضمن عمارة القبر والمشاهد وتنويرها وتعطيل المساجد من بيوت الله وعدم توقيرها، ودين الله الذي بعث به رسله وأنزل كتبه بضد ذلك كله .

(ومنها) : ان الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكار الآخرة والاحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه والاستغفار له وسؤاله العافية للزائر وله فيكون الزائر محسناً إلى الميت وإلى نفسه حتى لو كان نبياً أو ولياً فالدعاء له مطلوب وهو إليه محبوب، وقد أمرنا ﷺ أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده وذلك له محقق ولكن تنوياً بذكره ورفعاً لقدره وليعود ثواب الدعاء إلى الداعي، والكامل يقبل الكمال، فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وكانوا من الفريقين المغضوب عليهم والضالين بقصدهم زيارة الشرك الأموات

يدعونهم، ويدعون بهم، ويسألونهم حوائجهم، واستنزال الرحمة والبركات بهم ونصرتهم لهم على أعدائهم وتفرج كرباتهم، وكشف شدائدهم، وأقاله عثراتهم، والعفو عن زلاتهم والعتف بذكرهم لحاجاتهم، فهم مسيقون إلى أنفسهم، محبطون لأعمالهم، مؤذون للأموال غالون في العقائد والمعتقدات معرضون عن شريعة الرسول، وما قاله الله في الآيات. وقد روى خالد بن دينار قال لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فدعا له كعباً فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه مثل ما قرأ القرآن، قال خالد فقلت لأبي العالية ما كان فيه قال سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد، قلت فما صنعتم بالرجل قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة فلما كان بالليل دفناه وواسينا القبور كلها مع الأرض لنعميه على الناس لا ينشئون فقلت وما يرجون منه، قال كانت السماء إذا حبست عنهم أبزروا السرير فيمطرون فقلت من كنتم تظنون الرجل قال رجل يقال له دانيال فقلت منذ كم وجدتموه مات قال: منذ ثلاثمائة سنة قلت ما كان تغير منه شيء قال لا إلا شعيرات من قفاه ان لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع. ففي هذه القصة مافعله المهاجرون والأنصار من تسمية قبره لكلا يفتتن به الناس ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به هؤلاء المشركون وعلموا حقيقته وما يكون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله، فأنهم قد اتخذوا من القبور أوثاناً من لا يداني هذا ولا يقاربه، بل لعله عدو الله وأقاموا لها سدة وجعلوها معابد أعظم من المساجد، وهم يقولون ويعتقدون أن الصلاة عندها والدعاء حولها والتبرك بها لها أفضلية مخصوصة ليست في المساجد، ولو كان الأمر كما زعموا بل لو كان مباحاً لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر علماً لذلك ولما أخفوا قبره خشية الفتنة به وعليه بل دعوا عنده وسنوا ذلك لمن بعدهم ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله من هؤلاء الخلوف التي خلفت بعدهم، ولو حضروهم لجالدوهم لأنهم قد اعتقدوا وقالوا ضد ما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان عليه، وما أحسن ما قال الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولكن، كلما ضعفت تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من

البدع والشرك، ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحملوا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا. وقال سلمة بن وردان رأيت أنس ابن مالك رضي الله عنه يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو، ونص على ذلك الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى ان المسلم إذا فرغ من السلام وأراد الدعاء استقبل القبلة حتى لا يدعو عند القبر، فان الدعاء عبادة، وفي الترمذي وغيره مرفوعاً: « الدعاء هو العبادة » فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما شرعه رسول الله ﷺ وأذن فيه من السلام على أصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم، فان الميت قد انقطع عمله، وهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له، ولهذا شرع في الصلاة عليه من الدعاء له وجوباً واستحباباً ما لم يشرع مثله في الدعاء للحَي، وعلى هذا مضى الصحابة والتابعون لهم بإحسان، فقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم بالأمصار عدد كثير وهم متوافرون فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولادعاه، ولادعا به، ولادعا عنده، ولا استسقى به، ولا انتصر به. ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه وحينئذ فلا يخلو إما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأصحابها أفضل منه في غير تلك البقعة أو لا يكون، فإن كان أفضل فكيف خفى علماً وعملاً على الصحابة والتابعين وتابعيهم فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة علماً وعملاً بهذا الفضل العظيم، وتظاهر به الخلوفاً علماً وعملاً، ولا يجوز أن يعلم السابقون الأولون علماً ويزهدون فيه عملاً وهو يحثهم على الطاعة ويرغبهم فيها ثم لا ينقلونه أيضاً إلى من بعدهم مع حرصهم على كل خير لاسيما الدعاء فان المضطر يتشبث بكل سبب يعلم أن له فيه نفعاً وإن كان فيه كراهة هذا، وهم قد عرضت عليهم شدائد واضطرابات وفتن وازعاجات وقحط وسنون مجربات أفلا جاؤا إلى قبر النبي ﷺ أو أحد من أصحابه شاكين وله بها مخاطبين وبكشفها عنهم وتفريج كرباتهم إياه داعين أم كيف يعلمون فضل الدعاء عند القبور ثم لا يقصدونها، هذا محال طبعاً وشرعاً، وقد أنكر الصحابة رضي الله عنهم ما هو دون هذا بكثير، فروى غير واحد عن المعمر بن سويد قال صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل

ولثيلاف قريش ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال أين يذهبون هؤلاء فقيل يأمر المؤمنين مسجداً صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبيائهم يتخذونها كنائس وبيعاً ويرغبون عن هديه ويعرضون عما جاء به فمن أدركه الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها، وكذلك أرسل عمر رضي الله عنه وأمر بقطع الشجرة السمرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، وذكرها الله في القرآن لما رأى الناس يتتابونها ويصلون عندها كأنها المسجد الحرام أو مسجد المدينة فقطعت بأمره، بل قد أنكر رسول الله ﷺ على أصحابه لما سأله أن يجعل لهم شجرة يعلقون عليها أسلحتهم وأمتعتهم بخصوصها يعظمونها بذلك ويتنوطون أي يجتمعون عندها ويعلقون أسلحتهم عليها لتعظيمها كما في حديث أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ هذا كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم» فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها لتعظيمها إلهاً مع الله وهم لا يدعونها مع ذلك ولا يسألونها فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعاؤه ورجاؤه والتوكل عليه والذبح والنذر له ليجلب خيراً أو يدفع سوءاً، وأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر، ولكن لو كان أهل الشرك يعون ويعلمون الحق ولا فيه يعاندون ولأبه يكذبون لما كانوا لنا يكفرون والفتنة يعتقدون والكفر يقولون ويفعلون، قال أهل العلم من أصحاب مالك وغيرهم انظروا أينما وجدت سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء منها والشفاء من قبلها أو يضربون بها المسامير ويعقدون بها الحرق فهي ذات أنواط فاقطعوها، وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة في كتابه الذي ألفه وبين فيه الحوادث والبدع وسماه كتاب الباعث على انكار البدع والحوادث، ومن هذا القسم أيضاً قد عم الابتلاء به من تزوين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وتعظيم مواضع مخصوصة من كل بلد يحكي لهم بها حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن اشتهر بالصلاح والولاية أو فلان الولي له فيها وطأة

فيعظمون تلك الأماكن في قلوبهم وألسنتهم ويأتونهم لشفاء أمراضهم وقضاء حوائجهم
 بدعائها والنذر لها وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر فهم يفعلون هذا الشرك
 ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله وسننه ويظنون أنهم يتقربون بذلك إليه إلى أن قال
 فيه كلاماً مجانباً لما ذكرنا فما أسرع هذا الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو
 كانت ماكانت، ويقولون إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه الوطأة وهذه العين يضر
 وينفع ويشفع ويقبل النذر أي يقبل العبادة من دون الله فإن النذر عبادة قرينة يتقرب
 بها الناذر إلى المنذور له، فهم يتمسحون بتلك الأنصاب ويستلمونها ولقد أنكر
 السلف التمسح بحجر مقام إبراهيم عليه السلام الذي أمرنا الله أن نتخذ منه مصلى كما
 ذكر ذلك الأزرقي في كتاب مكة عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ
 إِبْرَاهِيمَ مَصَلًّى﴾ قال إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه ولقد تكلفت هذه
 الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ولو ذكر أثر قدم أو أصبع عكفوا عليه ومسحوه حتى
 اخلوق الدين وغرب الاسلام، وعاد اعتقاد المشركين وعظمت الفتنة بهذه الأنصاب
 كفتنة أصحاب القبور التي هي أصل فتنة عباد الأصنام ذكره السلف من الصحابة
 والتابعين ولم يكفهم التمسح الآن بالمقام بل يدعونه ويرجونه وينذرون له ويسألونه
 شفاعته ويخاطبونه بقضاء حوائجهم وردهم إلى أوطانهم ومن عاب ذلك وأنكره عليهم
 فهو عندهم منسوب إلينا وقالوا له وهابي أو عارضي أو شرقي أو خارجي وما ذنب هذا
 المغيب المنكر إلا أنه شاركنا أو وافقنا بالأمر فيما أمر الله به ورسوله والنهي عما نهى
 الله عنه ورسوله، والعلماء بذلك يعلمون وقلوبهم مطمئنة غير كارهة فهم لا ينكرون ولا
 الحق يقولون. وفي مقابلة المسجد الحرام. والبيت والمقام جهة الشرق زقاق يقال له
 زقاق الحجر فيه حجر موضوع عرض الحائط يتمسحون به ويدعونه زاعمين أنه
 الذي سلم على النبي ﷺ وهو كذب وبهتان ليس هو، فإنه عليه السلام قال وهو في
 المدينة أني لأعلم حجراً بمكة يسلم علي ولم يعينه خشية الافتتان به، بل لو تحقق أنه
 هو ليس هو بأفضل من مقام إبراهيم وجدار الكعبة المشرفة، والسلف الصالح يهون
 عن التمسح بشيء من ذلك إلا الحجر الأسود سنة رسول الله ﷺ والسلام على النبي
 ﷺ من جملة حب الله وذكره وإن من شيء إلا يسبح بحمده وجميع المخلوقات حتى
 الجمادات تعرفه ﷺ لما جعل الله فيها من قوة الإدراكات وإذا فلا مزية في حجر أو

شجر إلا الحجر الأسود خاصة فانه يمين الله في الأرض، ومع سنية تقبيله ووضع اليمين عليه لا يدعى ولا يرجى ولا يتوكل عليه وان اعتقدنا شفاعته في الآخرة ليس هو بأفضل من الأنبياء والأولياء ومع ذلك لا يشفعون إلا من بعد إذن الله لمن يرضى عنه وإذا فسؤال الشفاعة إنما هو من الله فتسأل منه كما يسأل تعالى الثبات على الدين والوفاء على الايمان وهو أرحم الراحمين. ويقابله حجر منقور على قدر المرفق يزعمون أن النبي ﷺ تمرق عليه فآثر به وهو أيضاً كذب لم ينقل عن الصحابة ولا عن التابعين ولا تابعيهم ولا عمن يعتد به من أهل العلم ولم ينقل ولا في حديث ضعيف انه ﷺ وجد له أثر قدم أو أثر مرفق أو وضع في حجر، وإنما ذلك من تلبس ابليس على هؤلاء ليغويهم ويحسن لهم شركهم وهم يزعمون أنه حب لنبيهم، وما محبته إلا اتباع شرعه، وما جاء به والعمل به، ودحض ضده، ومعاداته، وزيادة على حب ذاته ﷺ ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده» وفيه أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» وفيه أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار» وفيه أيضاً عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر فانه الآن يارسول الله والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي ﷺ الآن ياعمر» وليس حقوق الأنبياء في تعزيرهم وتوقيرهم إلا محبتهم محبة مقدمة على النفس والأهل والمال وإيثار طاعتهم ومتابعتهم في سننهم وهديهم ونحو ذلك من الحقوق التي من قام بها لم يقم بعبادتهم والاشراك بهم، كما ان عامة من يشرك بهم شركاً أكبر أو أصغر يترك ما عليه من طاعتهم بقدر ما ابتدعه من الاشراك به، فليس على المؤمن ولا له إلا طلب طاعتهم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ وقال تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وكذلك حقوق الصديقين المحبة في

القلب وتوقيرهم واجلالهم فيه، ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة لاعبادتهم ولاعبادته قبورهم أو آثارهم وقد قال ﷺ: « اللهم لاتجعل قبري وثناً يعبد » وفي المعلى زاوية تنسب لعبد القادر رحم الله روحه ونور ضريحه فيه دوحة عظيمة يعلقون عليها الحرق ويجعلون فيها البيارق والاعلام يرجونها وبركتها ويدعونها وليست إلا ذات أنواط، وفي المدعى زاوية أخرى فيها مثلها غير الزوايا والبنايا التي على القبور تدعى وترجى، فقد وجد في حرم الله طهره الله وصانه وجعل المتقين أوليائه وسكانه جميع مانهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ إِنَّمَا يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون ﴿ فأمَّا الخمر والميسر والأزلام والزنا واللواط فهذا أمر مشهور دلائله قائمة عليه حتى في المسجد الحرام تجاه الكعبة المشرفة، وأمَّا الأنصاب فهي كل مانصب يعبد من دون الله أو معه من حجر أو شجر أو وثن أو قبر وأحدها نصب كطنب والجمع أنصاب كأطناب. قال ابن عباس كل معبود من دون الله أو معه فهو نصب قبراً كان أو حجراً أو شجراً. وقال الزجاج أصلها الحجارة التي تتخذ على صورة من يعبدونه ثم استعملت في كل الأوثان وقال مجاهد وقتادة وابن جريج كانت الأنصاب حول البيت أحجاراً كان أهل الجاهلية يذبحون عليها وكانوا يعظمونها ويدعونها لتشفع لهم ويعبدونها وكل ما اتخذ لذلك فهو نصب، والأصنام أخص من ذلك، وقال الفراء الأنصاب هي الآلهة التي كانت تعبد من أحجار أو أشجار أو قبور أو غيرها، وأصله من الشيء المنسوب الذي يقصده من أراده ورآه ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سُرْعَاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ ﴾ قال ابن عباس إلى غاية أو علم يسرعون وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن يعني إلى أنصابهم أيهم يستلمها أول. قال الزجاج وهذا على قراءة من قرأ نصب بضمين كقوله وماذبح على النصب. قال ومعناه أصنام لهم فالشيطان قد نصب للمشركين ماقصدهوه فدعوه واعتقدوه وعبدوه كائناً من كان في أي مكان كان ولا يخفى مااعتقدوا في عبد الرحمن المحجوب وأبي طالب ومحمود ولد إبراهيم بن أدهم وولد البدوي وسائر عباد الله من الأنبياء والأولياء وابن عباس أو غيرهم من الشياطين والأخشاب والأحجار

والأشجار والاعتقادات الغزار والمعتقدات حتى الطين والفخار فانهم يزعمون أن حماية مكة المشرفة بالقبرين المكتنفين لها اللذين في أطرافها من أسفلها وأعلاها أحدهما محمود والآخر أبو طالب وانها في حفظ البنايا التي بين ذلك وحماها ولم يحققوا معنى قوله تعالى: ﴿ وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً... الآية ﴾ فبعث عليهم نحت نصر فقتل منهم ألوفاً وسبى ذريتهم وخرب بيت المقدس، وهو أكثر أرض الله أنبياء فما حموه ولا أغنوا عنه من الله شيئاً، ولكن الله الحافظ لبيته ولحرمة كما حفظه من أبرهة وأمثاله. فهذا يتبين أن الشيطان اللعين نصب لأهل الشرك قبوراً يعظمونها ويعبدونها أوثاناً من دون الله، ثم يوحى إلى أوليائه ان من نهى عن عبادتها واتخاذها أعياداً وجعلها والحالة هذه أوثاناً فقد انتقصها وغمصها حقها وسبها، فيسعى الجاهلون المشركون في قتالهم وعقوباتهم وماذنبهم عند هؤلاء المشركين إلا أنهم أمروهم بإخلاص توحيدهم ونهوه عن الشرك بأنواعه قالوا وتعطيله فعند ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم فهم لا يؤمنون وقالوا قد انتقصوا أهل المقامات والرتب فاستحقوا الويل والعتب، وفي زعمهم أنهم لاحرمة لهم ولاقدر، ويسري ذلك في نفوس الجهال والطغام وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين وحب الأولياء واتباع المرسلين، ويسبب ذلك عادونا وبالعظائم الكبائر والجرائم الغزار رمونا ونسبوا كل فعل قبيح إلينا ونفروا الناس عنا وعماد ندعوا إليه، والوا أهل الشرك وظاهروهم علينا وزعموا أنهم هم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله وكتابه، ويأى الله ذلك، فما كانوا أولياءه ان أولياؤه إلا المتقون له الموافقون له العارفون به، وبما جاء به والعالمون به والداعون إليه لا المتشبهون بما لم يعطوا، اللابسون ثياب الزور الذين يصدون الناس عن دين نبيهم وهدية وسنته ويغفونها عوجاً يحسبون أنهم يحسنون صنعا باتباعه واحترامه والعمل به وتعظيم الأنبياء والأولياء واحترامهم ومتابعتهم لهم فيما يحبونه وتجنب مايكرهونه وهم أعصى الناس لهم وأبعدهم منهم ومن هديهم ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح، واليهود مع موسى، والرافضة مع علي، وأهل التوحيد أين كانوا أولى بهم ومحبتهم ونصرة طريقتهم وسنتهم وهديتهم ومنهاجهم، وأولى بالحق قولاً وعملاً من أهل الباطل، فالمتؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات

والمشركون والمشركات بعضهم من بعض، ومن أصغى إلى كلام الله بكليته قلبه وتدبره وتفهمه أغناه عن اتباع الشيطان وشركه الذي يصد عن ذكر الله وعن الصلاة وينبت النفاق في القلب، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول بكليته وحدث نفسه وعمل باقتباس الهدى والعلم منه لامن غيوه أغناه عن البدع والشرك والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس الشيطان والنفوس وتخييلات الهوى والبؤس، ومن بعد عن ذلك فلا بد أن يتعوض بما لا ينفعه بل مضرة عليه كما أن من عمر قلبه بحبة الله وذكره وخشيته والتوكل عليه والانابة إليه أغناه ذلك عن محبة غيوه وخشيته والتوكل عليه، وأغناه عن عشق الصور وإذا خلا من ذلك عبد هواه أي شيء استحسنته ملكه واستعبده، فالمعرض عن التوحيد عابداً الشيطان مشرك شاء أم أئى، والمعرض عن السنة مبتدع شاء أم أئى، والمعرض عن محبة الله وذكره عبد الصور شاء أم أئى، والله المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأما الصلاة في المقبرة فقد اختلف الفقهاء فيها هل هي محرمة أو مكروهة وإذا قيل هي محرمة فهل تصح مع التحريم أم لا والمشهور عن الامام أحمد وموافقيه أنها تحرم ولا تصح لما روى عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ: «أنه نهى عن الصلاة في سبعة مواطن وعد منها المقبرة» وفي صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام» رواه الامام أحمد وأهل السنن الأربعة وصححه أبو حاتم بن حبان وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أنس بن مالك يصلى عند قبر فقال القبر القبر. وهذا يدل بصرىحه على أنه كان من المستقر عند الصحابة رضي الله عنهم ما نهاهم عنه نبههم من الصلاة عند القبور، وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه فإنه فعله لم يره أو لم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه فلما نبه عمر تنبه ولم يصل، ومن تأمل النصوص المتقدمة تبين له أنها محرمة بلا شك وإن الصلاة فيها لا تصح، وفي هذا إبطال قول من زعم أن النبي ﷺ إنما نهى عن الصلاة فيها لأجل النجاسة فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول وهو باطل من عدة أوجه:

منها أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبوة الحديثة والمنبوشة كما يقوله المعلقون بالنجاسة .

ومنها أنه ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع ليس للنجاسة عليها طريق ألبتة، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم فهم في قبورهم طريون ومنها أنه نهي عن الصلاة إليها .

(ومنها) : أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبوة والحمام ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر أولى من ذكر القبور ولما ذكر الحمام .

(ومنها) : أن موضع مسجده ﷺ كان مقبوة للمشركين فنبشوا مكان قبورهم وسواها واتخذوه مسجداً، ولم ينقل ذلك التراب بل سوى الأرض ومهدوا وصلى، وذلك كما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة فنزل بأعلاها في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤا متقلدين السيوف وكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب وكان يجب أن يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرائب الغنم وأنه أمر ببناء المسجد فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين وفيه خرب وفيه نخل فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنبشت ثم بالحرب فسويت وبالنخيل فقطعت فصفوا النخيل قبله المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون وذكر الحديث .

(ومنها) : أن فتنه الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر فإذا نهي عن ذلك سداً للذريعة التشبه الذي لا يكاد يخطر ببال المصلي فكيف بهذه الذريعة القرية التي كثيراً ما تدعو صاحبها إلى

الشرك من دعاء الموتى واستجابتهم، وطلب الخواص منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد، وغير ذلك مما هو محادة ظاهرة لله ورسوله، فإن قصد الصلاة عندها عين المحادة لله ورسوله، فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة، وما يدل على أن النبي ﷺ قصد منع الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم.

(ومنها): أنه لعن المتخذين عليها المساجد ولو كان ذلك لأجل النجاسة لا يمكن أن يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر فتزول اللعنة وهو باطل قطعاً.

(ومنها): أنه قرن في اللعنة متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها فهما في اللعنة قرينان وفي ارتكاب الكبيرة من أصل واحد مجمعان، فإن كل مالعن عليه رسول الله ﷺ فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يقصده المشركون لينالوا منه ما طلبوه ويحصل لهم ما قصدوه، كما هو الواقع الآن من مشركي هذا الزمان، فهكذا اتخذ المساجد عليها، ولهذا قرن بينهما فإن اتخذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها، ألا ترى إلى ما حكى الله عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا لتتخذن عليهم مسجداً.

(ومنها): أنه ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فذكر ذلك عقيب قوله اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد تنبيه منه على سبب لحوق اللعن لهم وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد بدعائها ورجائها.

وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزماً لا احتمال معه للنقيض إن هذه المبالغة منه واللعن والنهي بصيغته صيغة لاتفعلوا أو صيغة إني أنهاكم عن ذلك ليس لأجل النجاسة بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكاب ما عنه نهاه واتباع هواه وعموم بلواه، ولم يخش الله ربه ومولاه وقل نصيبه أو عدم من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه

وتجريداً له وغضباً لربه أن يعدل به سواه . فأبى المشركون إلا معصية لأمره وإرتكاباً لنهيهم
وغرهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين وكلما كنتم فيهم أشد غلواً
كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد ، ووالله أن من هذا الباب بعينه دخل على عباد
يغوث ويعوق ونسر ، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة ، فجمع
المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقهم ، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم
والعمل بهديهم وانزالهم منازلهم التي أنزلهم الله لإياها من العبودية وسلب خصائص
الألوهية عنهم ، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم ، وأما المشركون فعصوا أمرهم وخالفوا
طريقهم فانتقصوهم بذلك وإن عظموا صورهم ، قال الشافعي رحمه الله : أكره شديداً
أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبوه مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من
الناس . وقال مالك : لا يزداد القبر عن السلام عليه والدعاء له ولا يتحرى الدعاء ولا
الصلاة عنده ، هذا شعار اليهود والنصارى المشركين . وقال أبو حنيفة : يسلم على
الميت ويدعو له ولا يدعو به ولا يصلي عنده لأنه من فعل المشركين ، وكذا قال أبو
يوسف ، ومن علل بالشرك أيضاً ومشابهة اليهود والنصارى الأثرم في كتاب ناسخ
الحديث ومنسوخه ، فقال بعد أن ذكر حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ
قال : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً إلا القبرة والحمام » وحديث سعيد بن
جبير عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ : « نهي عن الصلاة
في سبع مواطن » فذكر منها القبرة إنما كرهت الصلاة في القبرة للتشبه بأهل
الكتاب لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد . وهذه المسائل المشهورة عند أربابها
معروفة إنما الغرض التنبيه على ما يخفى من غيرها فما يدخل في هذا قصد القبور
للدعاء عندها أو بها فإن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين :

(أحدهما) : أن يحصل الدعاء في البقعة اتفاقاً لا قصد الدعاء فيها كمن
يدعو الله في طريقه ويتفق أن مروره بالقبور أو كمن يزورها فيسلم على أهلها فيسأل
الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة فهذا ونحوه لأبأس به بل الثاني مأمور به .

(الثاني) : أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يعتقد أن الدعاء هناك أحق
بالاجابة منه في غيره ، فهذا النوع منهي عنه نهي تحريم وما جاء عن الله أو رسوله

كالدعاء والذكر في أماكن نسك الحج التي هي من شعائر الله فالعمل به هو المندوب والقصور عليه هو المطلوب .

(وقول صاحب المقدمة) لكن لا يلزم من ذلك تكفير مرتكبه... الخ دليل على أمور :

(الأول منها) : أنه لم يعرف الشرك وحقيقته لأنه جعل تعظيم القبور وعبادتها بدعائها ورجائها والاستغاثة بها والنذر لها لتدفع سوءاً أو تجلب خيراً إنما فيه مجرد الحرمة فقط .

(الثاني) : أنه جاهل حقيقة ما عليه عباد الأوثان وكيف كان عبادتهم لها فإنه يعتقد أن عبادتها بمجرد السجود لها أو أنها شريكة مع الله في ملكه والله يقول : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ .

(الثالث) : أنه ناقض لحكم الله ورسوله في أهل الشرك الأكبر فإن حكم الله فيهم القتل والسبي ما لم يتوبوا قبل القدرة عليهم ، وهذا حكمه فيهم عدم القتل والسبي لأنه قال وحكمه كما قدمناه النصيحة والوعظ والزجر لا غير ذلك .

(الرابع) : حصّره هذا الشرك في العوام والأعراب ولم يعلم أنه في أكثر قلوب مدعي العلم والعبادة والزهاد ويتخذونه سبباً من جملة الأسباب .

(الخامس) : زعمه أنا نكفر بمجرد الصلاة في المقبرة وهذا أيضاً مما يدل على عدم تحقيقه أمرنا ونهينا وأنه من قول الزور والبهتان علينا لكن له فيمن قبله أسوة قبيحة حيث رمونا بأكبر من ذلك فقالوا عنا أنهم الكفرة الفجرة ونحن إنما نكفر من قصد أصحاب القبور ليفرجوا كربته ويكشفوا شدته أو هتف بذكرهم نائياً عنهم أو قرياً منهم يدعوهم ويرجوهم ويتوكل عليهم وينذر ويقرب لهم ليحلبوا له خيراً أو يدفعوا عنه سوءاً أو ليكونوا واسطة ووسيلة ليشفعوا له في ذلك أو من اعتقد ذلك في

الأشجار والأحجار أو من رضي فعلهم ذلك ممن ظاهرهم علينا وكفرنا بأمرنا ونهينا ودلائلنا في ذلك كتاب الله وسنة رسوله واجماع الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وقد تقدم بحسبها مبسوطه مستوفاة فلا حاجة إلى إعادتها فأما مجرد الصلاة بلا اعتقاد مما قدمناه وقلنا ففعلها في المقبرة حرام على الصحيح، ولا تعتقد في القول المشهور وحكمها الوعظ والنصيحة والزجر والتعزير مع الإصرار، وإعادة الصلاة والتوبة من هذا الذنب لاغير ذلك، مع انا نقول ان قصد الصلاة فيها من الشرك لنهي النبي ﷺ عن الصلاة فيها ولعن فاعله وهو يشبه عبادة الأصنام لكن هو من الأصغر حيث لم يعتقد شيئاً مما تقدم والله أعلم.

زيارة القبور الشرعية وماورد في ذلك

وأما قولكم (مايفعل من زيارتها فهو أمر مندوب كما ورد في الخبر الصحيح عنه ﷺ) كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها) فيكيف يذهب إلى تكفير من يزورها مع رعاية الأدب لاسيما زيارة قبره الشريف، فإنها من أعظم القرب وأرجى الطاعات وفي شرح المختار هي أفضل المندوبات والمستحبات، بل تقرب من درجة الواجبات، وفي مناسك الطرابلسي نقلاً عن مناسك الفارسي أنها قرية الواجب في حق من كان له سعة قال تعالى: ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ وروى الدارقطني وأبو بكر البزار عن النبي ﷺ « من زار قبري وجبت له شفاعتي » وقال ﷺ « من جاءني زائراً لا تهمه إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون شفيعاً له يوم القيامة » أخرجه الدارقطني وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال (لاعذر لمن كان له سعة من أمته ولم يزرن) أخرجه الحافظ محمد ابن عساكر وعنه ﷺ قال: « من حج وزار قبري بعد موتي كمن زارني في حياتي » أخرجه الدارقطني وعنه ﷺ أنه قال: « من زارني في المدينة متعمداً كان في جواربي إلى يوم القيامة » (.

فنقول : كان رسول الله ﷺ أولاً قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة

لأنهم قريبو عهد بشرك بأهلها وبصورهم، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ونهاهم أن يقولوا هجراً، كما رواه الامام أحمد والنسائي عن بريدة قال قال رسول الله ﷺ: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر ولا تقولوا هجراً » ومن أعظمه الشرك عندها قولاً وفعلاً فزيارة القبور على الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله هي من أفضل احترامها في الصدور حيث أمر الشارع بها ونهى عن إهانة أهلها ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « زوروا القبور فإنها تذكر الموت » وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال: « إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة » رواه الامام أحمد، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كانت ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ماتوعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الفرقد » وفي صحيحه أيضاً أنها أن جبريل أتاه فقال إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، وفي صحيحه أيضاً عن سليمان ابن بريدة عن أبيه أنه قال كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا « السلام على أهل الديار وفي لفظ السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » وعند الامام أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: « السلام عليكم أهل القبور يغفر الله لنا ولكم ونحن بالأثر » وعند ابن ماجه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهدي في الدنيا وتذكر الآخرة » وروى الامام أحمد عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبوة » وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: « استأذنت ربي في أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » فعلم من هذا أن زيارة الموحدين القبور مقصودها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكاري الآخرة والاعتبار والاعتاظ وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة.

الثاني : الاحسان إلى الميت وأن لا يطول عهده به فيهجره ويتناساه كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه فإذا زار الحي فرح بزيارته وسر بذلك فالميت أولى لأنه قد صار في دار قد هجر أهلها اخوانهم وأهلهم ومعارفهم فإذا زاروهم وأهدوا إليهم هدية من دعاء أو صدقة أو اهداء قراءة ازدادوا بذلك سروراً وفرحاً كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي له، ولهذا شرع النبي ﷺ للزائر أن يدعو لأهل القبور بالرحمة والمغفرة وسؤال العافية فقط ولم يشرع أن يدعوهم ولا يدعوا بهم ولا يصلي عند قبورهم .

(الثالث) : احسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ فيحسن إلى نفسه وإلى المزار .

وأما زيارة المشركين فأصلها مأخوذ عن عباد الأصنام قالوا ان الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا يزال تأتبه الالطاف من الله وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزار على روح الزائر من تلك الالطاف بواسطتها كما ينعكس شعاع المرآة الصافية والماء ونحوهما على الجسم المقابل له قالوا فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمة عليه، ويوجه قصده كله واقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره، وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها بدعائها ورجائها والتبتل إليها وتعظيمها بالتعلق عليها قالوا إذا تعلقت النفوس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور والاعانة والبهجة والسرور فهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل، وصنفت لها الدعوات، وبها الاستغاثات، وبهذا اتخذت الأصنام المجسدة وهذا بعينه هو الذي أوجب دعاء أصحاب القبور والتهف بذكرهم عند نزول الشدائد والشرور واتخاذها أعياداً وتعليق الستور عليها وإيقاد السرج وبناء المساجد عليها وهذا هو الذي قصد رسول الله ﷺ ابطاله ومحوه بالكلية وسد الذريعة المفضية إليه فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده وتفريقه وصار رسول الله ﷺ في شق وهؤلاء في شق .

الشفاعة الثابتة والمنفية والنهي عنها

ما ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها وتشفع لهم عند الله وتقرهم منه، قالوا فإن العبد إذا تعلق روحه بروح الوجه المقرب عند الله وتوجه بهتمته وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان فهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك من السلطان من الأنعام والأفضال والافاضة ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به، فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسوله وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على هؤلاء وإبطال مذاهبهم قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَایَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا یَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِیعاً لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهم وإن صوروا صوراً لاتعقل فإنها صور الأنبياء والملائكة والصالحين لیتقربوا بهم ولیشفعوا لهم ویدعوههم ینالوا منهم فأخبر سبحانه أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض وهو الله وحده فهو الذي یشفع بنفسه إلى نفسه لیرحم عبده فیأذن هو لمن شاء أن یشفع فیمن رضي عنه فیشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له والذي شفّع عنده إنما شفّع بإذنه له، وأمره بعد شفّاعته سبحانه إلى نفسه وهي إرادته من نفسه أن یرحم عبده، وهذا ضد الشفاعة الشریکیة التي أثبتتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم في عقیدتهم وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا یَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الذِّینَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لَایَبِیْعُ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الذِّینَ یَخَافُونَ أَنْ یَحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَیْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِی وَلِیٌّ وَلَا شَفِیعٌ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ﴾ وقال: ﴿إِنْ رِکَّمِ اللَّهُ الَّذِیْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِی سِتَّةِ آیَامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَلَا شَفِیعٍ﴾ فأخبر سبحانه أنه لیس للعباد شفیع من دونه، بل إذا أراد سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن یشفع فيه كما قال

تعالى: ﴿ مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وقال: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ فالشفاعة بإذنه ليست شفاعه من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بإذنه، والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المملوك المأمور، فالشفاعة التي أبطلها شفاعه الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعه العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكة حتى يأذن له ويقول اشفع في فلان ولهذا كان أسعد بشفاعة سيد الشفعاء وأفضلهم يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وأخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه قال تعالى: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال: ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعه إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً، فأخبر سبحانه أنه لا يحصل يومئذ شفاعه تنفع إلا بعد رضاه قول المشفوع له وإذنه للشافع. فأما الشرك فإنه لا يرضيه ولا يرضاه قولاً، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علقها بأمرين:

أحدهما: رضاه عن المشفوع له.

الثاني: إذنه للشافع، فمتى لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعه، وسر ذلك وقوامه أن الأمر لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمره إياهم، ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله، وإذن فهم مملوكون لا يتكلمون إلا من بعد إذنه، أفعالهم مقيدة بأمره فإذا أشرك بهم المشرك فدعاهم ورجاهم وتوكل عليهم واتخذهم له شفعاء من دون الله ظناً منه أنه إذا فعل ذلك واعتقد بهم ما هنالك تقدموا له وشفعوا عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وتعالى وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محال متمنع تشبيه قياس الرب تبارك وتعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم أولياء هم من يشفع له عندهم في قضاء الحوائج. وهذا القياس الفاسد عبادت الأصنام واتخذ المشركون الشفيع والولي من دون الله، والفرق بينهما هو الفرق بين الخالق، والمخلوق، والرب والمربوب، والسيد المالك والعبد المملوك، والغني بالذات الذي لا حاجة به إلى أحد قط والفقير بالذات المحتاج من كل

وجه إلى غيوه، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم وأعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والأكابر بهم ولولاهم سبب، لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس فلحاجتهم إليهم إحتاجوا إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها، ولم يعرضوا عن الشافع لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقص طاعتهم لهم ويذهبوا إلى غيرهم فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضا، فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ماسواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبد مقهور بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وألوهيته مثقال ذرة ولا أنقص ولا أكثر، قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما... الآية﴾ وقال سبحانه في أفضل آية في القرآن: ﴿له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وإن لأحد يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس له شريك بل مملوك محض. قال تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيراً﴾ بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض فإنهم لاخبارهم من أحوال الناس ما لا يعرفه الملوك، والله سبحانه يعلم السر وأخفى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى وهو السميع البصير، يسمع سبحانه ضجيج الأصوات باختلاف اللغات في تفننها وما تنطق به من الكلمات لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا يرومه إلحاح الملحين، بخلاف المخلوقين فإنهم قد لا يريدون نفع الرعية ولا الاحسان إليهم أول وهلة، ويتوقف ذلك على وجود محرك خارجي. فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه أو من يرجوه ويخافه تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته، أو ما لما يحصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير وأما لما يحصل له من الرغبة والرغبة من كلام المدل عليه، والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأسباب أن تكون بمشيئته تعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه الذي أجرى نفع العباد بعضهم على يد بعض فجعل هذا يحسن إلى هذا أو يدعو له أو يشفع فيه، وهو

الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن والداعي والشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده أو يعلمه مالم يكن يعلمه، أو من يرجوه الرب أو يخافه. ولهذا قال النبي ﷺ: « لا تقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا منكزه له » بخلاف المخلوق فإنه يقبل شفاعة مملوكه لحوفه أن لا يعطيه أو أن يسعى في ضرره، وكذلك يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك فإنه يحتاج إلى الزوجة وإلى الولد حتى لو أعرض عنه ولده أو زوجته أو مملوكه لتضرر بذلك وشفاعة العباد بعضهم لبعض عند بعض كلها من هذا الجنس فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة، وقبول الشفاعة من باب النفع للغير، والمخلوق لا ينفع غيره إلا لما يحصل له من النفع إما من الله بالثواب، وإما من غيره بالمعاوضة، والله لا يرجو أحداً ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني سبحانه فبين سبحانه أن الشفاعة التي نفاها في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس بينهم ويفعلها بعضهم مع بعض، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبيه ومرجوه وخوفه ومتوكله ومدعوه الذي يتقرب إليه وحده ويطلب رضاه باتباع رسله ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه قال تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء.. إلى قوله.. قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وقال تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ فهذا إنكار عليهم وتوبيخ لهم، أي اتخبرونه بأن لكم عنده شفعاء وهو لا يعلمها في السموات ولا في الأرض، ففيه تقرير وتهكم بهم لأن ما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له وجود ولا تحقيق وقال تعالى: ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون إلا الظن وانهم إلا يخرصون ﴾ فبين سبحانه أن من أتبع من دون الله شركاء بشفاعتهم له عنده من دونه فليس معه إلا ظن وخرص والظن المقرون بالخرص هو ظن باطل غير مطابق للحق، فإن الخرص هنا ضمن معنى الكذب لقوله تعالى قتل الخراصون ومن ظن أن

ما هنا نافية فقد أبعد وفسر الآية بما هو خطأ، بل معناها استفهام إنكاري أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله، فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم إياهم، وإنما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له. (فالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته وعلمهم إياها فنحن إن شاء الله تعالى نعملها ونأمر بها) هل يوجد فيها شيء مما يعتمده أهل الشرك والبدع أم هي مضادة لما هم عليه من كل وجه، لكن ما أحسن قول مالك بن أنس رحمه الله تعالى : (لن يصلح هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) وكلما ضعف تمسك الأئمة بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك وجعلوه من الدين، ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحمو جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ، ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم يدعو، ونص على ذلك الأئمة الأربعة أن الداعي يستقبل القبلة وقت الدعاء لأنه عبادة، كما جاء في الترمذي وغيره مرفوعاً إلى النبي ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة » بل هو مخها. فجرد السلف هذه العبادة لله ولم يفعلوها عند القبور إلا للأموات بعد السلام عليهم والاستغفار لهم لانقطاع عملهم، ولهذا شرع في الصلاة عليهم من الدعاء ما لم يشرع مثله للأحياء، قال عوف بن مالك صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجته وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار » حتى تمنيت أن أكون أنا الميت لدعاء رسول الله ﷺ لذلك الميت رواه مسلم في صحيحه عنه وقال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول في صلته على الجنازة : « اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للإسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلايتها جثنا شفعاء له فاغفر له وارحمه » رواه الامام أحمد وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا صليمت على الميت فأخلصوا له الدعاء » وقالت عائشة رضي الله عنها وأنس عن النبي ﷺ : « ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يلفون مائة كلهم يستغفرون له إلا شفعوا فيه » رواه مسلم في صحيحه عنه وعن ابن عباس رضي الله

عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه » رواه مسلم فهذا مقصود الصلاة على الميت، وهو الدعاء له والاستغفار له، ومعلوم أنه في قبره أشد حاجة منه وهو على نعشه، فإنه حينئذ معرض للسؤال وغيره، وقد كان ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: « اسئلوا له الثبث فإنه الآن يسأل » فعلم بهذا أن الميت أحوج إلى الدعاء بعد الدفن فإذا قام المسلمون على جنازته ودعوا له، لادعوا به وشفّعوا له لا استشفّعوا به، فعند الدفن أولى وأحرى، فبدل أهل الشرك والبدع قولاً غير الذي قيل لهم بدلوا الدعاء له بدعائه، والاستغفار له باستغفاره، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لإحساناً إلى الميت وإحساناً إلى الزائر وتذكيراً بالآخرة سؤال الميت نفسه، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في الصلاة والمساجد ووقت الأسحار.

الدعاء عند الموتى أو بهم ليس من الوسائل المشروعة

(ومن المحال) أن يكون دعاء الموتى والدعاء بهم والدعاء عندهم وسيلة مشروعة وعملاً صالحاً مأموراً به، وتصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ ثم يبرزه الخلف الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون، فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعاً وعشرين سنة حتى توفاه الله إليه واختار له ماله، وهذه سنة الخلفاء الراشدين المهديين وهذه طريقتهم وجميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، هل يمكن بشراً على وجه الأرض أن يأتي عن أحدهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها، وتمسحوا بها، فضلاً أن يصلوا عندها أو يسألوها حوائجهم، أو يسألوا الله بأصحابها، فليوقفنا على أثر واحد أو حرف واحد في ذلك، بل يمكنهم أن يأتوا عن الخلف التي خلفت بعدهم من المتبعين أهواءهم بكثير من المخترعات والحكايات المخترعات والكذبات والتهويلات، وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك

أكثر، حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات زور وهتان ليس فيها عن رسول الله ﷺ، ولا عن خلفائه الراشدين المهديين، ولا عن أصحابه، ولا عن التابعين لهم بإحسان حرف واحد من ذلك بلى فيها ضد الاسلام وخلافه شيء كثير كما تقدم من قولهم إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور وقولهم لو حسن أحدكم ظنه بمحجر نفعه وأمثال ما هو مناقض لما بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب .

(وأما زيارة قبر نبينا محمد ﷺ أو سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال العلماء لا يثبت قبر معروف لنبي إلا نبينا محمد ﷺ وغيره إنما هي ظنون لا يمكن تعيينه في مكان معلوم وإن علمت البقعة المدفون فيها كما صح عنه ﷺ أنه أخبر بقبر موسى عند الكتيب الأحمر عن القدس رمية حجر، قال فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكتيب الأحمر رواه البخاري، وإلا قبري صاحبيه رضي الله عنهما .

وزيارة قبره الشريف فيها تفصيل لائق ينبغي طلبه، قد فصلها الصحابة، والتابعون، والأئمة المجتهدون، وقسموها إلى قسمين مشروع وغير مشروع .

فأما المشروع منها فهو ما قاله الامام مالك، وأحمد بن حنبل والشافعي، وأبو حنيفة، وغيرهم من المجتهدين كلهم قالوا ان من كان حاضراً في المدينة فيشرع في حقه أن يأتي إلى القبر فيصلي ويسلم على النبي ﷺ، وعلى صاحبيه رضوان الله عليهما قالوا ولا يكثر من المجيء عليه ولا يكرهه في اليوم مرات احتراماً له، ولأنه لم يفعله الصحابة ولا التابعون، وإن من قدم من سفر أو خرج إليه فيقف على قبر النبي ﷺ فيصلي ويسلم عليه، وعلى صاحبيه بعد أن يصلي لله في المسجد ركعتين . وروى ابن بطّة في الابانة بإسناد صحيح عن معاذ بن معاذ قال حدثنا ابن عوف قال سأل رجل نافعاً فقال هل كان ابن عمر يسلم على القبر فقال نعم لقد رأيته مائة مرة أو أكثر منها كان يأتي إلى القبر فيقوم عنده فيقول السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي . وفي رواية أخرى ذكرها الامام أحمد محتجاً بها ثم ينصرف، وهذا الأثر رواه مالك في الموطأ وكره غيره من العلماء أن يقول زرنّا قبر النبي ﷺ . وذكر

بعضهم أنه علله بلعنه زوارات القبور . قال القاضي عياض والأولى أن يقال إنما كرهه مالك لإضافة الزيارة إلى قبر النبي وأنه لو قال زرنا النبي لم يكره لقوله اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلا تضاف الزيارة إلى القبر للتشبه بأولئك ، واففقوا على أنه إذا دعا بمسجد النبي ﷺ لا يستقبل القبر وإنما يستقبل القبلة ، وتنازعوا في الاستقبال عند السلام عليه فقال مالك وأحمد وغيرهما يستقبل قبره ويسلم عليه ، وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي ، وبعضهم يعزوه إليه . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى بل يستقبل القبلة ويسلم عليه هكذا في كتب أصحابه عنه ، وقال مالك فيما ذكره اسماعيل بن اسحق في المبسوط ، والقاضي عياض في الشفاء والمشارك وغيرهما من أصحاب مالك ، وعنه لأرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويدعو ولكن يسلم ويمضي ، وقال أيضاً في المبسوط عن مالك لأبأس لمن قدم من سفر أو خرج أن يقف على قبر النبي ﷺ ويسلم عليه ويدعو له ولأنبي بكر ، فقيل له ان أناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه إلا وهم يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر يأتون عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا لا من الصحابة ولا غيرهم ، ولا يصلح هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ويكررون الحجيء إلى القبر ، بل كانوا يكرهونه إلا لمن جاء من سفر أو أراد ، ولا يختلف مذهبه المعروف بنقل الثقات من أصحابه عنه أن المسلم لا يستقبل القبر عند الدعاء ، وقد نص أنه لا يقف عند الدعاء مطلقاً وذكر طائفة من أصحابه أنه يدنو من القبر ويسلم على النبي ﷺ ثم يدعو مستقبل القبلة ويولي القبر ظهره وقيل لايوليه ظهره فاتفقوا في استقبال القبلة وقت الدعاء ، وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت دعائه للنبي ﷺ . وسبب هذا التنازع والله أعلم أن مالكا رحمه الله سئل عن استقبال القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له فاختلفت الرواية عنه في ذلك هل هو وقت السلام عليه والدعاء له يستقبل القبر أو يوليه ظهره . وإنما اختلفت الرواية عنه لأن السلام على النبي ﷺ يسمى دعاء . ولهذا ذهب أبو حنيفة ، ومن وافقه من فقهاء العراق إلى أن المسلم يستقبل القبلة . والصحيح المشهور عن مالك استقبال القبر في هذه الحال كما تقدم ، وكما قال في رواية ابن وهب عنه إذا سلم على النبي ﷺ

يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ويدعو ولا يمس القبر بيده . وما ذكره
 القاضي عياض عن محمد بن حميد قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد
 رسول الله ﷺ فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله
 أدب قوماً فقال ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآية ، ومدح قوماً فقال
 ﴿ ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ وذم قوماً فقال ﴿ ان الذين ينادونك
 من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ الآية ، وان حرمة ميتاً كحرمة حياً فاستكان
 لها أبو جعفر وقال مالك يا أبا عبد الله استقبل القبلة وادعوا ثم لم يستقبل رسول الله
 بعد فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة
 بل استقبل واستشفع به فيشفعه الله قال تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا
 أنفسهم ... الآية ﴾ . فهذا ضعيف لا يصح عنه فإنه من أشد الناس انكاراً على من
 يأتي إلى القبر ليدعو عنده أو يستشفع به ، فان ثبت فلا بد أن يحمل على مذهبه وعدم
 المخالفة له فقد تقدم قوله ان المسلم يدنو من القبر ويصلي ويسلم ويدعو له ، ومعلوم أن
 الصلاة عليه ، والدعاء له يوجب شفاعته للعبد يوم القيامة كما قال في الحديث
 الصحيح عنه عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه
 من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنه درجة في الجنة
 لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة
 حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » فقول مالك ان ثبت معناه أنك إذا استقبلته
 وصليت وسلمت عليه وسألت الله له الوسيلة يشفع فيك يوم القيامة فان الأثم يوم
 القيامة يتوسلون بشفاعته ، واستشفاع العبد به في الدنيا انما هو فعل ما هو سبب
 لحصول شفاعته له يوم القيامة ، كاتباعه فيما جاء به وسؤال الله له الوسيلة والصلاة
 والسلام عليه ونحو ذلك مما أمر النبي ﷺ بفعله لافعل ما ليس من شرعه مما نهي هو
 وأصحابه عنه . وكذلك ما نقل عن مالك في رواية ابن وهب إذا سلم على النبي ﷺ
 ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدعو ويسلم يعني الدعاء للنبي ﷺ
 وصاحبيه كما تقدم موضعاً عنه . فهذا هو الدعاء المشروع هناك ، كالدعاء عند زيارة
 قبور سائر المؤمنين وهو الدعاء لهم ، فإنه أحق الناس بأن يصلي ويسلم عليه
 ويدعى له . وبهذا يتفق قول مالك ويفرق بين الدعاء الذي أحبه والدعاء الذي كرهه

وذكر أنه بدعة . ونقل تلاوة هذه الآية عن مالك باطل وإن ثبت أصل ما نقله عياض
تقديراً فإن كلام مالك المنصوص عنه وعن أمثاله ينافي هذا ولم يذكره أحد من الأئمة
الأربعة فيما فعله ولا ذكر أحد منهم أن النبي ﷺ يسأل بعد الموت لا استغفاراً ولا
غيره، وإنما يعرف مثل هذا فيما ذكره طائفة من متأخري الفقهاء عن اعرابي أنه أتى
قبر النبي ﷺ وتلا هذه الآية وأنشد بيتين :

آيات الأعرابي عند المرقد النبوي

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبن القاع والأمم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وقد ذكر ذلك صاحب المواهب اللدنية أيضاً . ولهذا استحب طائفة من
متأخري الفقهاء استغفار الله في حضرة القبر وتلاوة هذه الآية عنده محجج بهذه
الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي لاسيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعاً
مندوباً لكان أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون أعلم به وأولى بالعمل من
غيرهم، فإن العبادات مبناها التوقيف، ولاسيما إذا نسب أمر إلى هديه وشرعه
وسته، والعقل لا مدخل لاستحسانه واستقباحه في الدين، وليس كل من قضيت
حاجته بسبب يقتضي أن يكون السبب مشروعاً مأموراً به، فقد كان رسول الله ﷺ
يسأل في حياته المسألة فيعطى لاي رد سائلاً، وتكون المسألة محرمة في حق
السائل، حتى قال ﷺ: « إني لأعطي أحدهم العطية فيخرج بها يتأبطها ناراً »
قالوا: يا رسول الله فلم تعطهم قال: « يأبون إلا أن يسألوا ويأى الله لي البخل »
ومعلوم أن مالكاً من أعلم الناس بمثل هذه الأمور فإنه مقيم بالمدينة يرى ما يفعله
التابعون وتابعوهم ويسمع ما ينقلونه عن الصحابة، وأكابر التابعين، وهو ينهى عن
الوقوف على القبر للدعاء ويوبخ فاعله، ويذكر أنه لم يفعله السلف فكيف ينهى عن

ذلك ثم يأمر به ، وهذا أمر توقيف لا اجتهد فيه ، وقد أجدب الناس على عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فاستسقى بالعباس ، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك (أن عمر رضي الله عنهما استسقى بالعباس وقال اللهم انا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم بنينا فاسقنا فيسقون) فاستسقوا به كما كانوا يستسقون بالنبي ﷺ في حياته فهم يتوسلون بدعائه لهم فيدعو لهم ويدعون معه كالإمام والمأموم من غير أن يقسموا على الله بمخلوق ، ولا كانوا يأتون القبر فيدعون عنده بل كانوا يستسقون بأهل الصلاح الأحياء ، لأن المقصود دعاؤهم لا ذاتهم ، وإذا كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل . ولهذا حكى البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ فيستسقي على المنبر فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستقي الغمام بوجهه ثمال اليتامي عصمة للأرامل

إذا علم ذلك فإن السلام على النبي ﷺ يحتاج إلى حضور قلب وأدب ، ومنه وقوفه عن القبر مقدار أربعة أذرع والصحيح قبالة وجهه ﷺ مستدبر القبلة مطرفاً رأسه غاض البصر كأنه يرى النبي ﷺ فيسلم عليه . ويقول السلام عليك يا رسول الله ، كان ابن عمر لا يزيد على ذلك . وكان بعض الصحابة يزيد النطق بالشهادتين والصلاة عليه ويقول أشهد أنك بلغت رسالة ربك ، ونصحت لأمتك ، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك كثيراً كما يحب ربنا ويرضى ، وإن قال اللهم آتِه الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته فحسن ، ثم إذا فرغ يتقدم قليلاً من مقام سلامه نحو ذراع عن يمينه ويقول السلام عليك يا أبا بكر الصديق ، السلام عليك يا عمر الفاروق ، السلام عليكما يا صاحبي رسول الله ﷺ وخليفتيه وضجيعيه ، اللهم اجزهما عن نبيهما وعن الاسلام خيراً سلاماً عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . ثم ينصرف مستقبل القبلة .

(وإما غير المشروع) فهو قصده للدعاء واتخاذ عيلاً بالاجتماع عنده والسفر

إليه لما في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن أنه ﷺ نهي أن يتخذ قبره مسجداً وقال: « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » بعد قوله: « اللهم لاتجعل قبري وثناً يعبد » فإنه ﷺ لم ينه عن الصلاة عند القبور واتخاذها مساجد استهانة بأهلها بل لما يخاف على القاصدين لها من الفتنة بدعائها أو الدعاء عندها. فإن أصل عبادة الأوثان بذلك سببها اتخاذ المساجد على القبور وقصدها لدعائها والدعاء عندها كما تقدم بيان ذلك. فلولوا أنه قد يحصل عند القبور ما يخاف به الافتتان لما نهى الناس عن ذلك ولهذا لم يقصد القبر للدعاء عنده أحد من الصحابة مع شدة احتياجهم واضطرارهم بكثرة الأمور والنوائب المدلّمة التي قرعتهم ولا أيضاً التابعين، ولا أئمة المسلمين، ولو ذكره أحد من العلماء الصالحين المتقدمين بل كلهم كانوا يهونون عن ذلك، وقد قال الشافعي في الأم أكره تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة بها ومراده بتعظيمها الصلاة بحضرتها والدعاء عندها فضلاً عن السجود لها أو دعائها، وما يحكى عنه أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبي حنيفة فهو كذب ظاهر لأن الشافعي لما قدم بغداد لم يكن بها قبر ينتاب للدعاء عنده البتة ولم يكن هذا على عهده معروفاً، وقد رأى بالحجاز واليمن والشام من قبور الأنبياء والتابعين من كان عنده أفضل من أبي حنيفة فما باله لم يتوخ الدعاء إلا عنده. وقد قال في كتابه ما هو ثابت عنه من كراهة تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة بها وإنما يضع هذه الحكاية وأمثالها من قل علمه ودينه ممن لاخلق له .

مسئلة شد الرحال إلى زيارة القبور

(وأما النهي) عن اتخاذ عيداً بالاجتماع عنده والسفر إليه فلما روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم » وهذا لإسناده حسن ورواته كلهم ثقات مشاهير وقال أبو يعلى الموصلي في مسنده إلى أن ساق سند الحديث عن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه علي بن الحسين وقال ألا أحدثكم حديثاً سمعته

من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً فإن تسليمكم يلغني أينما كنتم » رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاراته وعند سعيد بن منصور في السنن عن أبي سعيد مولى المهدي قال قال رسول الله ﷺ: « لا تتخذوا بيتي عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » وقال سعيد عن أبي سهل قال لما رأي الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال هلم إلى العشاء فقلت لا أريده . فقال مالي رأيك عند القبر فقلت سلمت على النبي ﷺ فقال إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال ان رسول الله ﷺ قال: « لا تتخذوا بيتي عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء » فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لاسيما وقد احتج به من أرسله، ولو لم يكن روى من وجوه مسندة غير هذين لكفى فكيف وقد تقدم مسنداً. وقبر النبي ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذ عيداً فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان. ثم انه أعقب النهي بقوله وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم وفي الحديث الآخر فإن تسليمكم يلغني أينما كنتم يشير بذلك ﷺ إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه فلا حاجة بكم إلى اتخاذ عيداً. والأحاديث عنه بان صلاتنا وسلامنا يعرض عليه كثرة:

(منها) ماروى أبو داود في سننه من حديث أبي صخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام » وهذا الحديث على شرط مسلم.

(ومنها) ماروى أبو داود أيضاً عن أوس بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أكثروا من الصلاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي » قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال: « إن الله حرم

على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء » .

ثم إن أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنه نهي ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبو صلى الله عليه ، واستدل بالحديث الذي سمعه من أبيه الحسين عن جده علي وهو أعلم بمعناه من غيره، فتبين بهذا أن قصده للدعاء ونحوه هو اتخاذ عيداً وكذلك ابن عمه حسن بن حسن شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرجل القبر للسلام عليه ونحوه عنده غير دخول المسجد والصلاة فيه ورأى أن قصده ذلك من اتخاذ عيداً. فقلوه صلى الله عليه لاتجعلوا قبري عيداً مأخوذ من المعاودة والاعتباد. ومنه ما هو اسم للزمان كقلوه صلى الله عليه : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الاسلام » رواه أبو داود وغيره. ومنه ما هو اسم للمكان كما روى أبو داود في سننه : « إن رجلاً قال يارسول الله اني نذرت أن أنحر ببوانة فقال أبها وثن من أوثان المشركين أو عيد من أعيادهم قال لا قال أوف بنذرك » وإذا كان اسماً للمكان، فهو الذي يقصد للإجتتماع فيه وإتيانه للعبادة أو غيرها كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر كلها جعلها الله أعياداً للحنفاء مثابة للناس كما جعل أيام التعبد فيها عيداً وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالاسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر، فاتخاذ القبور عيداً هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الاسلام، فلذلك نهي رسول الله صلى الله عليه عن قصد قبو من بعيد أو للدعاء عنده أو للإجتتماع لديه، فإنه بذلك يكون عيداً، وحيث قد قصد القبر مجردة من الامصار في وقت معين أو في غير وقت معين هو الذي نهي عنه السلف الصالح لنهي النبي صلى الله عليه عنه في قوله لاتتخذوا قبري عيداً. ولما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وسعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه قال : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا » وقد روي هذا من وجوه أخر وهو حديث ثابت عن النبي صلى الله عليه باتفاق أهل العلم يتلقى بالقبول عنه، فالسفر إلى هذه المساجد الثلاثة للصلاة فيها والدعاء والذكر وقراءة القرآن والاعتكاف هو من الأعمال الصالحة، وماسوى هذه المساجد لا يشرع السفر إليه باتفاق أهل العلم، حتى مسجد قباء يستحب قصده

من المكان القريب كالمدينة، ولا يشرع شد الرحال إليه من بعيد. فإن في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً. وكان ابن عمر يفعلُه. وفي لفظ مسلم فيصلي فيه ركعتين وذكره البخاري بغير إسناد. وذلك أن الله سبحانه وتعالى نهى نبيه ﷺ عن القيام في مسجد الضرار، وأمره بالقيام في المسجد الذي أسس على التقوى، ومسجده أعظم في تأسيسه على التقوى من مسجد قباء، كما ثبت في الصحيحين عنه أنه سأل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال مسجدي هذا، فكلا المسجدين أسس على التقوى، ولكن اختص مسجده بأنه أكمل في هذا الوصف من غيره، فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة، ويأتي مسجد قباء يوم السبت. فإذا كان السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة ممتنع شرعاً مع أن قصده لأهل مصر يجب تارة ويستحب أخرى وقد جاء في قصد المساجد ما لا يحصى من الفضل، فالسفر إلى مجرد القبور أولى بالمنع ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة فإن هذا من التشبه بأهل الكتاب المتخذين قبور أنبيائهم مساجد وأعيادة، الذي أخبرنا النبي ﷺ أنه كائن في هذه الأمة لالمحالة. وأصل ذلك إنما هو اعتقاد فضل الدعاء عندها وإلا فلو لم يقم عندها هذا الاعتقاد بالقلوب لأمحى ذلك كله. وإذا كان قصدها للدعاء يجر هذه المفاصد كان حراماً كالصلاة عندها وأولى، وكان ذلك فتنه للخلق فتحاً لباب الشرك وإغلاقاً لباب الخير والإيمان. وقد آل الأمر إلى قصد مجرد القبر واتخاذ عيداً ومجمعاً للنساء مع الرجال حتى ترتفع الأصوات عنده ويكثر الضجيج أضعافاً مضاعفة على تلبية الحجيج كل يسأل حاجته وتفريج كربته وهم يعتقدون أن زيارته يحصل بها الغفران والنجاة من النيران وأنها تجب ما قبلها من الآثام، ألا ترى أن أكثر الفجرة الساكنين بمكة المشرفة وجدة طول أيام السنة لا يتركون ذنباً موبقاً إلا ارتكبهوه، ولا إثمًا كبيراً إلا اكتسبهوه فإذا جاء شهر رجب أخذ على ذمته المعسر منهم واستدان وذهب إلى القبر يسأل المغفرة من خاتم الرسل وأفضل ولد عدنان فأخذوا بالهتف بذكره وبكنيته قائلين جئنا إليك قاصدين تائبين لا تردنا أبا إبراهيم، منذ يفارقون بلادهم إلا أن يرجعوا يسألونه المغفرة وقضاء الديون وتفريج الكروب فإذا رجعوا خائبين اعتقدوا أنهم خرجوا من آثامهم كيوم ولدتهم أمهاتهم مسرورين، فعادوا على ما كانوا عليه من الباطل والطغيان، ويقولون هم متوكلون على سيد ولد عدنان، ولا نغني العوام بل هم ذو

العقائد من أهل العلم غير التام، فهذا السفر إليه وقصده لفعل العبادة عنده من الدعاء والصلاة لأرب في حرمة والاثم فيه عند أهل العلم لا يتخلف عنه متقدمهم ولا متأخرهم للعه ﷺ المتخذين قبور أنبيائهم مساجد، واللغة في كلام الله ورسوله لا تجتمع إلا الحرام والاثم لا مجرد الكراهة، ولقوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ولأن المسافرين إليه والقاصدينه بعضهم يسميه الحج إلى القبر لحصول المغفرة بذلك. وأما ما حكاه أبو حامد الغزالي ومن وافقه من متأخري الفقهاء فمرادهم السفر المجرد لزيارة القبر لا لقصد فعل العبادة من الصلاة والدعاء عنده، قالوا والحديث مبني على عدم تناوله النهي لزيارته إذا لم يتخذ عيداً ولم يحصل المحذور الذي نهى عنه كما لم يتناول النهي عن السفر إلى الأمكنة التي فيها الولدان والعلماء والمشايخ والاحوان أو بعض المقاصد من الأمور الدينية المباحة. وصدر صالح سلف الأمة وخيارها جعلوا قوله عليه السلام لا تتخذوا قبور عيدا وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني صريحاً في النهي مطلقاً عن قصده من بعد لأن الاجتماع عنده لازم له، وذلك هو المنهي عنه وأيضاً نهيه عليه السلام عن شد الرحال إلى مسجد من المساجد غير الثلاثة مع فضل العبادة الحاصلة في المساجد من صلاة وقراءة واعتكاف، وجوب قصده تارة على أهل عصره واستحبابه أخرى شامل للنهي عن شد الرحال إلى مجرد زيارة القبور بالأولى إذ ليست زيارتها أفضل عند الله من عبادته في خير بقاع الأرض، وقد نهى عن شد الرحال إليها، فهذه أولى بالنهي قالوا ومن اعتقد أن السفر إلى مجرد القبر أفضل من السفر إلى المسجد أو مثله فهو إما جاهل بشريعة الرسول وإما كافر به. وإذا وجد السفر المشروع إلى مسجد الرسول لفعل العبادة فيه دخلت الزيارة تبعاً فإنها غير مقصودة بشد الرحال إليها بل إلى المسجد نفسه وحيث قد فالزيارة شرعية مجمع على استحبابها بشرط عدم فعل المحذور عند القبر لأصلاة ولادعاء وهو مستقبل القبر ولا يقصده له وإن استقبل القبلة في حال الدعاء ومن لم يفرق بين السفر المشروع إلى مسجده ﷺ وزيارة قبره الداخلة تبعاً الشرعية المجمع على استحبابها، وبين السفر إلى غير قبره فهو إما جاهل بما جاء به الرسول ﷺ، وإما كافر به، وإدلاء صاحب المقدمة واحتجاجه على سنية السفر وشد الرحال إلى مجرد زيارة القبر تارة وقرب وجوبه أخرى باطل من وجوه:

(أحدهما) أن هذه الأحاديث كلها مكذوبة موضوعة باتفاق غالب أهل العلم ولم يجعلها في درجة الضعيف إلا القليل ولذلك تفرد بها الدارقطني عن بقية أهل السنن، والأئمة كلهم يرون بخلافه، ومروياته مقدوح فيها خصوصاً أحاديث زيارة القبر ومروياته فيها وهي أجل حديث روى في هذا الباب من حديث أبي بكر البزار ومحمد ابن عساكر.

(الثاني) أنه لم يثبت عن النبي ﷺ حديث واحد في زيارة قبر مخصوص، ولا روي في ذلك شيء لأهل الصحيح ولا السنن ولا الأئمة المصنفين في المسانيد كالامام أحمد وغيره، وإنما روى ذلك من جمع الموضوع وغيره المخالف لأهل الصحيح والتصحيح المميزين بين الحسن والضعيف والموضوع من أهل الترجيح، فالأحاديث المروية في زيارة قبره كقوله من زارني وزار إبراهيم الخليل في عام واحد ضمنت له على الله الجنة، ومن زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي، ومن حج ولم يزرني فقد جفاني، ونحو هذه الأحاديث، كلها مكذوبة موضوعة باتفاق أهل المعرفة وإنما رخص في زيارة القبور مطلقاً بعد أن نهى عنها بلا شد رحال وسفر إليها كما ثبت عنه في الصحيح.

(الثالث) نهى ﷺ عن اتخاذ قبره عيداً كما ثبت عنه من غير وجه رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، ورواه سعيد بن منصور في سننه من حديث أبي سعيد مولى المهري، ورواه أيضاً سعيد من حديث الحسن ابن الحسن بن علي كرم الله وجوههم، فكيف يقول لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم، ثم يقول من حج ولم يزرني فقد جفاني، أو يقول من زار قبري وجبت له شفاعتي، أو يقول لا عذر لمن كانت له سعة من أمتي ولم يزرني، أو يقول من زارني في المدينة متعمداً كان في جوارى يوم القيامة، أو نحواً من هذه المخلقات عليه، وليخش المدلي بهذه المخلقات صان الله نبيه ﷺ عنها أن يكون ممن قال ﷺ فيه «إن كذباً علي ليس ككذب علي أحد من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» الحديث. مخرج في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولو قال رسول الله ﷺ مانسبه إليه هؤلاء لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ويلعن فاعل

ذلك فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها فيكف بملازمتها والعكوف عندها وعليها وإن يعتاد قصدها واتباعها من بعيد وشد الرجال إليها، بل هذا أولى باللعنة وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ثم يأمر بشد الرجال إليه وأنه للدعاء عنده يقصد وكيف يقول اعلم الخلق من الصحابة بذلك ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشني أن يتخذ مسجداً، وكيف يقول لاتجعلوا قبوري عيداً وصلوا علي حيث ما كنتم، وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك مافهم هؤلاء المدعون ولم ينقلوا عنه ما نقله هؤلاء المخلقون .

(الرابع) أنه ندب أمراً قد نهى عنه رسول الله ﷺ فجعله من سنته ودينه وأنه يتقرب بفعله، وأصل الضلال في الأرض إنما نشأ من اتخاذ دين لم يشرعه الله أو تحريم مالم يحرمه الله، ولهذا كان الأصل الذي بنى الامام أحمد والشافعي وغيرهما من الأئمة عليه مذاهبهم أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها ديناً ينتفعون بها في الأخرى أو في الدنيا والآخرة، وإلى عادات ينتفعون بها في معاشهم، فالأصل في العبادات أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله ورسوله وإن استحسنة العقل، إذ لا مدخل له في الدين، والأصل في العادات أن لا يحضر منها إلا ما حضره الله ورسوله، فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله ويجعله من سنة رسول الله أو وحيه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين مالم يأذن به الله، ومن تبعه في ذلك فقد اتخذ شريكاً لله شرع له من الدين مالم يأذن به الله، ومن اعتقد أن أكثر هذه العادات المخالفة للسنة مجمع عليها بناء على أن الأمة قد أقرتها ولم تنكرها فهو مخطيء في هذا الاعتقاد، فإنه لم يزل ولا يزال في كل وقت من ينهى عن عامة العادات المحدثه المخالفة للسنة ولا يجوز دعوى اجماع بعمل بلد أو بلاد من بلاد المسلمين فكيف بعمل طوائف، فالعادات لاتصرف الأحاديث الواردة في النهي عن الحضرية فإن غالب العاملين بالعادات البدعية هم الملوك وأشباههم ممن سلفهم واتباعهم ولا حجة في فعلهم .

(الخامس) زعمه أنا نكفر من يزور القبور وهذا منه بهتان علينا، وقول زور، فإننا نقول أصل زيارة القبور مسنونة مندوبة أمر بها الشارع بعد أن نهى عنها

والترغيب في زيارتها لتذكّر الآخرة والاحسان إلى الميت بزيارته والدعاء والاستغفار له لكن بلا شد رحل إليه، ونحن إذا نهينا عن شد الرحال كما نهى رسول الله ﷺ وأصحابه والأئمة من بعدهم، لا يلزم من نهينا تكفير مرتكب المنهي عنه إذا لم يصدر منه ما يوجب كفره من الشرك الأكبر غير المغفور كدعاء الميت بما لا يقدر عليه إلا الله من سلامة وعافية وتفريج كربة، وكشف شدة وسؤال مغفرة، أو ليكون له واسطة ووسيلة في قضاء حوائجه وليشفع له في ذلك فهو متوكل عليه فيه كما تقدم بيانه موضحاً، وأما قصد الدعاء عند قبر النبي ﷺ أو غيره لنفس ذلك الداعي لا له وللميت فهو حرام ولا كفر حيث لم يدع الميت نفسه، وإنما حرم لقصد البقعة للدعاء فنحن نعمل ونأمر بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأئمة وعلمهم إياها ونجتنب وننهي عن الزيارة التي نهى عنها أمته وأخبر أنها فعل المشركين .

(السادس) ان متأخري الفقهاء القائلين بزيارة القبور من الشافعية وغيرهم حتى ابن حجر الهيثمي صرح في الامداد الذي شرح به الارشاد، كلهم قالوا ينوي الزائر مع زيارته التقرب بالسفر إلى مسجده ﷺ وشد الرحل إليه والصلاة فيه لتكون زيارة القبر تابعة، ويكثر في طريقه من الصلاة والتسليم عليه، ومضمون كلام صاحب المقدمة معاكس لهم لجعله زيارة القبر هي الأصل استحباباً أو قرأاً من الواجب رأساً وزيارة المسجد تابعة، وصرح الأحاديث المتقدمة وكلام الأئمة راد عليه في ذلك إذ هم القائلون من اعتقد أن السفر إلى مجرد القبر أفضل من السفر إلى المسجد أو مثله فهو إما جاهل بشريعة الرسول وإما كافر بها، ومن صرح بذلك أيضاً الامام الشافعي كفيه من السلف الصالح .

(السابع) أنه لم يفرق بين الزيارتين، ولم يميز بين الجنسين، وفي الحضرية والمشروعية، بل هما عنده شيء واحد، ولذلك نسبنا إلى تكفيه فاعل المحضور منهما مع أنا نفصل بين مافيه مجرد الاثم والحرمة، وبين ماهو نفسه كفر حقيقي لا يمتثل الأول وبين ماهو من الدين قد شرعه رسول رب العالمين والله أعلم .

حكم التهاون بصلاته

وأما اعتراضكم على الشيخ بقولكم: (وأما قوله وليعلم التهاون بصلاته المستخف المسابق الامام فيها أنه لاصلاة له وأنه إذا ذهب صلاته فقد ذهب دينه أخذاً لهذا القول من تشبيهه ﷺ الدين بالحيمة . والصلاة بعمود تلك الحيمة . وقوله أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد ، وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد ، فكذلك الصلاة من الاسلام .

فنقول لانسلم ان سبق الامام يطل صلاته ، نعم يكره ذلك الفعل منه بل ان ترك الموحد الصلاة رأساً مع اعتقاد فرضيتها لا ي كفر كفراً اعتقادياً . نعم عند الشافعي يقتل حداً لا كفراً فكيف يحكم بسبب المسابقة بخروجه من الدين ، ولا يلزم من التشبيه الذي بالحديث المذكور ذلك إذ لا يلزم من تشبيه شيء بشيء مشاركته له من جميع الوجوه . مثلاً لا يلزم من تشبيه زيد بالأسد في الشجاعة أن يقال الناس كالأسد ، نعم الصلاة أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين وفرضها أفضل الفرائض ونقلها أفضل النوافل كما هو مفصل في كتب التفسير والحديث والفقه .)

فنقول هذا الاعتراض شاهد على المعارض به أنه ليس له اطلاع على كلام الأئمة الاعلام ولا احاطة بمعاني الأحاديث النبوية الكرام ، وإنما يقول من عندياته ، ويستبدل بظاهر ماخلف من مصنفاته غير محررات تناقضها نصوص كلام امامه ومروياته وذلك من وجوه .

(أحدها) أن هذا كلام للامام أحمد بن حنبل الشيباني لا لمحمد بن عبد الوهاب ، بل قاله الامام أحمد في رسالة له عدة ورقات كتبها في أحكام الصلاة والتهاون بها وما بلغه عنها وكان سبب كتابتها على ما ذكره أنه صلى في جماعة ورآهم أو أكثرهم يسابقون الامام بالاركان الفعلية ، فكتبها نصيحة لهم ولغيرهم ان صلاة المأموم مرتبطة بصلاة إمامه وتابع له في أفعاله لا يتقدم بها عليه لقول النبي ﷺ : « إنما جعل

الإمام ليؤتم به » ولقوله أيضاً: « أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار أو يجعل صورته صورة حمار » وهذان الحديثان في البخاري ومسلم، ومعلوم أن المسابق لإمامه متهاون بصلاته مستخف بها، ووجود هذين الوصفين أو أحدهما لا يجامع الصحة وإذا بطلت فخطرها عظيم، ولهذا قال الإمام أحمد في رسالته وليعلم المتهاون بصلاته المستخف بها المسابق للإمام فيها أنه لا صلاة له، فإذا ذهبت صلاته فقد ذهب دينه، فعظموا الصلاة وتمسكوا بها واتقوا الله فيها خاصة وفي أموركم عامة، واعلموا أن الله عز وجل قد عظم حق الصلاة في القرآن وعظم أمرها وشرفها وشرف أهلها وخصها بالذكر من بين الطاعات كلها في مواضع كثيرة من القرآن وأوصى بها خاصة فمن ذلك أنه تعالى ذكر أعمال البر التي أوجب لأهلها الخلود في الفردوس فافتتح تلك الأعمال بالصلاة وختمها بالصلاة وجعل تلك الأعمال التي جعل لأهلها الفردوس بين ذكر الصلاة مرتين قال الله عز وجل: ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فبدأ من صفتهم بالصلاة عند مدحه إياهم ثم وصفهم بالأعمال الظاهرة الزكية المرضية إلى قوله: ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فأوجب الله عز وجل لأهل هذه الأعمال الشريفة الزكية المرضية الخلود في الفردوس وجعل هذه الأعمال بين ذكر الصلاة مرتين ثم عاب الله عز وجل الناس كلهم وذمهم ونسبهم إلى اللوم والهلع والجزع والمنع للخير إلا أهل الصلاة فإنه استثناهم منهم فقال: ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ ثم استثنى المصلين فقال: ﴿ إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ ثم وصفهم بالأعمال الزكية الطاهرة المرضية الشريفة إلى قوله: ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ ثم ختم ثناءه عليهم ومدحه إياهم بأن ذكرهم بمحافظتهم على الصلاة فقال: ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون ﴾ فأوجب لأهل هذه الأعمال الكرامة في الجنة وافتتح ذكر هذه الأعمال المرتب على وجودها الكرامة بالصلاة وجعل ذكر هذه الأعمال بين ذكر الصلاة مرتين ثم ندب إلى الطاعات كلها، والصلاة هي أكبر الطاعات فقال عز من قائل: ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وفي تلاوة الكتاب

جميع الطاعات كلها واجتناب جميع المنهيات فخص الصلاة بالذكر فقال: ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ أي والصلاة خاصة وقد ندب سبحانه وتعالى أنبياءه عليها فقال: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى ﴾ فأمر الله نبيه أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها ثم أمر الله المؤمنين بالاستعانة على طاعته بالصبر، ثم خص الصلاة بالذكر من بين الطاعات فقرنها مع الصبر بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ وكذلك أمر الله بني إسرائيل بالاستعانة في الصبر على جميع الطاعات ثم أفرد الصلاة من بين سائر الطاعات فقال: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ ومثل ذلك ما أخبر الله عز وجل من حكمه ووصيته خليله إبراهيم ولوطاً وإسحق ويعقوب فقال: ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات وأقام الصلاة ﴾ فأفردا بالذكر وأوصاهم بفعل الخيرات عامة وفعل الصلاة خاصة ومثل ذلك ما أخبر عن إسماعيل في قوله: ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾ فبدأ بالصلاة، ومثله عن موسى عليه السلام في قوله: ﴿ هل أتاك حديث موسى... إلى قوله... انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ فأجمل الطاعات واجتناب المعاصي وأفرد الصلاة وأمر بها خاصة، ثم قال عز من قائل: ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ والتمسك بالكتاب لازمه فعل جميع الطاعات واجتناب جميع المنهيات. ثم خص الصلاة بالذكر فقال: ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وأما تضييع الصلاة فهو تركها والتهاون بها واستخفافها وتعاطي ما يظلمها من فعل ما هو محظور فيها ككلام الناس بينهم وكثرة الحركات فيها عرفاً لغير حاجة قتال مباح أو نحوه، ومسابقة إمامه بأفعال الصلاة وعدم تعديل الأركان فيها بأن لم يطمئن طمأنينة وإن قلت أو لم يقرأ فيها بأمر القرآن فعن النبي ﷺ أنه قال: « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » هذا الحديث رواه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه بلفظه وذكر الحديث بتمامه وعن زيد بن أرقم قال: (كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدهنا صاحبه وهو إلى جانبه حتى نزلت وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام) وهذا نهي عام فيشمل الأحوال كلها وعن النبي ﷺ أنه قال: « ضلوا كما رأيتموني أصلي » وعن أبي هريرة قال: (دخل رسول الله ﷺ

المسجد ودخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: « ارجع فصل فإنك لم تصل » ثلاثاً فقال والذي بعثك بالحق لأحسن غيره فعلمني فقال: « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ماتيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها » وعنه ﷺ أنه قال: « إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا » وقال ﷺ: « لاتسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام » وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله ﷺ إذا قال سمع الله لمن حمده لم يحن أحد منا ظهره حتى يقع النبي ﷺ ساجداً ثم نقع سجوداً بعده وعنه ﷺ أنه قال: « إني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي يحذر مسابقته فيها » وعن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في الظهر في الأولتين بأُم الكتاب وسورتين ويطول الأولى ويقصر الثانية ويسمع الآية أحياناً وفي الركعتين الأخيرتين بأُم الكتاب وقال: « صلوا كما رأيتموني أصلي » وروى أبو سعيد أن النبي ﷺ قال: « لاصلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب » وعن عبادة بن الصامت قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأُم القرآن فهي خداج هي خداج هي خداج » وماروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: اقرأ في الأولتين وسبح في الأخيرتين فيرويه الأعمش. وقد قال الشعبي أنه كذاب وعمر وجابر يخالفانه إلى أن قال فالصلاة خطرهما عظيم، وأمرها جسيم، وبالصلاة أمر الله تبارك وتعالى رسوله أول ما أوحى إليه بالصلاة قبل كل عمل، وقبل كل فريضة، وبالصلاة أوصى النبي ﷺ عند خروجه من الدنيا فقال: « الله الله في الصلاة وفيما ملكت أيمانكم هذا في آخر وصيته إياهم » وجاء في الحديث أنها آخر وصية كل نبي لأُمته وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا. وجاء في حديث آخر أنه كان يجذب نفسه وهو يقول: « الصلاة الصلاة أول فريضة فرضت عليكم هي آخر ما يذهب من الإسلام وهي أول ما يسأل عنه العبد من عمله يوم القيامة وهي عمود الإسلام ليس بعد ذهابها دين ولا إسلام والله الله في أموركم عامة، وفي صلاتكم خاصة، فتمسكوا بها واحذروا تضييعها، والاستخفاف

بها، ومسابقة الإمام فيها، وخداع الشيطان لكم عنها، وإخراجه إياكم عن دينكم، فإنها آخر الدين، ومن ذهب آخر دينه فقد ذهب كله فتمسكوا بآخر دينكم» وقال فيها كلاماً طويلاً أعرضنا عنه طلباً للاختصار.

المسابقة مع الإمام تبطل الصلاة وكلام الإمام أحمد فيها

(الوجه الثاني) ان قوله لانسلم أن يسبق الإمام تبطل صلاته . وقد قال أبو حنيفة وأبو يوسف رحمهما الله تعالى أن المسابق لإمامه بركن أو ركنين تجب عليه إعادة الصلاة لفسادها حيث لم توجد المشاركة مع الإمام أصلاً فيما سبقه فيه فإن سابقه اليه المشاركة مع الإمام فمكروه فالأولى للمأموم تخلفه عن إمامه يسيراً بحيث يتميز الإمام عن المأموم بأفعاله، واختلفت الرواية عنهما في مقارنة المأموم لإمامه في تكبير الإحرام أو ذكر غيرهما عوضها فعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، الأولى المقارنة له حيث بدأ بها الإمام أولاً مسارعة إلى الدخول فيها معه، وعن أبي يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى لابد أن يتميز بها الإمام عن المأموم ليكون تابعاً له فيكبر بعد تكبير الإمام والأصح أن الاختلاف في الجواز لا في الأفضلية ولو كبر قبله ناوياً الاقتداء به بطل الاقتداء وشروعه على الأصح عند الإمام وأبي يوسف ومحمد وعند أحمد والشافعي رحمهما الله تعالى لابد أن يفرغ الإمام من راء أكبر حتى يبدأ الإمام ويشرع بالهمزة من الله، فلو وافقه فيها فصلاته باطله وحجتها قوله عليه السلام: « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد » أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس وظاهر كلامهم في المسابقة التفصيل بين المسابقة بالركن والمسابقة إليه لأن المؤتم تارة يسبق إمامه إلى الركن بأن يشرع في فعله قبل شروع الإمام فيه كأن يركع قبل ركوع إمامه، أو يرفع من ركوعه قبل رفع إمامه، أو يشرع في السجود قبل إمامه، أو يرفع منه قبله، وتارة يسبق إمامه بالركن، بأن يأتي به قبل إمامه كأن يركع ويرفع قبل إمامه، ولا يعد سابقاً بركن حتى يتخلص منه إلى غيره فلا يعد سابقاً بالركوع حتى يرفع ولا بالرفع حتى يهوي، وقيل حتى يعتدل، والأول هو الصحيح عند أحمد، وقد

يسبق إمامه بركنين فأكثر، وإذا سبقه بركن فتارة يكون ركوعاً، وتارة لا وإذا سبق بركنين، فتارة يكون أحدهما ركوعاً أو لا، إذا علم ذلك فحكم السبق إلى الركن عند الإمام أحمد والشافعي أنه يحرم ولا تبطل صلاته به ولو عالماً مسابقتها الإمام عامداً أو هو جاهل بالحكم وعليه أن يرجع ليأتي بذلك مع إمامه فإن لم يرجع حتى أدركه فيه الإمام فإن كان عالماً بالمسابقة عمداً بطلت صلاته عند أحمد في أصح الروايتين عنه، ولا تبطل عند الشافعي في القول المشهور عنه، ومشى عليه أصحابه، وإن كان جاهلاً أو ناسياً لم تبطل صلاته بل يعتد له بالذي سبقه إليه من ركوع وسجود ونحوهما من بقية الأركان، لأنه سبق يسير يعسر التحرز عنه، ولأنه اجتمع مع إمامه فيه فلم يخل ذلك بالاعتداء لعذر الجهل أو النسيان بالسبق اليسير، فإن كان عالماً بحكم البطلان فسبقه إليه عمداً ثم رفع منه وركع ثانياً بطلت صلاته لتعمد البطلان بزيادة الركوعين.

وأما السبق بالركن فإن كان ركوعاً بطلت الصلاة في القول المشهور عن أحمد ومشى عليه أصحابه، حيث كان عالماً عامداً، وكذا إن كان غييه على ما في المغني والكافي، والمحرم، وغاية المطلب، والانصاف، وشرح الوجيز، وغيرها. وما حكاها في الشرح وشرح الوجيز كالانصاف والمحرم من الوجه بعدم البطلان بالسبق بالركن حيث كان عمداً وقيد في المحرم ومن نحا نحوه بشرط كونه غير ركوع. فهذا قول مرجوح بل المذهب المعتمد بطلان الصلاة بتعمد السبق بأي ركن مطلقاً ولا سيما مع قولهم بالبطلان بالسبق إليه عمداً حتى أدركه إمامه فيه والسبق بالركن يستلزم السبق إليه وزيادة، وعدم العذر مفروض فما بقي لعدم البطلان مسوغ وأما السبق بالركن جاهلاً أو ناسياً فإن كان غير ركوع واستمر على ذلك لم تبطل صلاته ولم تلغ ركعته بل يعتد له بذلك. قال ابن نصر الله في حاشية الكافي الصحيح لا تبطل صلاته ويعتد له بها وأما إن سبقه بركنين أو بركن الركوع خاصة، فإن كان عالماً عامداً بطلت صلاته وإن كان جاهلاً أو ناسياً بطلت تلك الركعة إن لم يأت بما سبقه به مع الإمام، وكذا ما زاد على الركنين بالأولى، وعند الشافعي إن كان عامداً بطلت وسهواً فلا ولا يعتد له بهذه الركعة، وكذا القول في التخلف عن الإمام بركن فأكثر فمن تخلف بركن فإن كان لعذر من نوم يسير لم ينقض الوضوء أو زحام أو غفلة أو عجلة الإمام ونحو ذلك من الأعذار لم تبطل، ومنها تتميم قراءة الفاتحة إن لم

يكن المأموم مسبوقاً بها عند الشافعي في أحد القولين الموجب فيه القراءة على المأموم وذلك أن تخلف بطء قراءته لا لوسوسة صرح به في عمدة المسالك، ومتى وجد العذر المسوغ للتخلف فإنها لا تبطل صلاته، وعليه أن يأتي بما تخلف به عن إمامه فإن لم يمكنه الإتيان به أو تركه غير عالم عامد مع الإمكان لغت الركعة، وسواء في ذلك الركوع وغيره على الصحيح وإن كان التخلف بلا عذر بطلت صلاته بأي ركن من الأركان الفعلية التخلف بأكثر من ركن فإن كان بلا عذر بطلت الصلاة وإن كان لعذر فإن أتى بما تركه مع أمن فوت ركعة آتية ولحق إمامه صحت وإلا يأتي به أو خاف فوت آتية لغت الركعة المتروكة منها وتابع إمامه والتي تليها عوضها وعند الشافعي لو تخلف بركن بلا عذر كره أو بركنين بطلت .

(وأما) التخلف عن ركن إمامه فإنه مشروع عند أحمد والشافعي لقول البراء ابن عازب رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا قال سمع لمن حمده لم يحن منا أحد ظهره حتى يقع النبي ﷺ ساجداً، ثم نقع سجوداً بعده، وقول أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله تعالى أن المسابق لإمام بركن أو ركنين تجب عليه إعادة الصلاة، علله أصحابه بالإثم وكراهة التحريم قالوا وهذا الحكم في كل صلاة أدت مع كراهة التحريم كذا في ابن الهمام وإن أدت مع كراهة التنزيه فالإعادة مستحبة (فقول) صاحب المقدمة لانسلم لا يخفى مافيه لأنه وما حجته إلا أنه لا يسلم من غير دليل عرضه ولا استدلال قصده، وأما ما يبطل الصلاة من عدم تعديل الأركان في مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى فعنه في رواية الكرخي أن تعديل الأركان يعني طمأنينة الركوع والسجود والقيام بينهما والرفع بين السجدين واجب يأثم بتركه فإن أحل به فعليه الإعادة وهذه الرواية عنه أصح من رواية الجرجاني لوجهين .

الأول منهما: أنها هي الموافقة للأئمة الثلاثة ولظواهر الأحاديث عن النبي ﷺ وكذا فعل أصحابه وتابعيه .

والثاني: أن أكثر أصحابه على ذلك ما عدا محمداً رحمه الله في رواية عنه حتى أبا يوسف رحمه الله تعالى فإن عنده تعديل الأركان وهو الطمأنينة في الركوع

والسجود، وتتمام القيام بين الركوع والسجود، والجلوس بين السجدين فرض تبطل الصلاة بتركه عنده، وعند أكثر أصحاب أبي حنيفة، وهو مذهب الشافعي، وعند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى أن تركه سهواً يلزمه سجود السهو وإن تركه عمداً يأثم وتجب عليه الإعادة إذ هذا الحكم في كل صلاة أدت مع الإثم وكراهة التحريم، وتستحب الإعادة مع كراهة التنزيه. قال في الظهيرية: وعن أصحابنا أنه يأثم بترك قومته، ورفع ظهره من الركوع، وشذ قوله في التارخانية وشرح الطحاوي، ولو ترك القومة جازت صلاته ويكره أشد الكراهة. فقوله جازت قول مرجوح مخالف للأصل. ولذلك جمع بين القولين في الجواز والكراهة التي فيها الإثم وهي لا تجمع إلا أجزاء بل لابد معها من الإعادة كما تقدم. وفي الحديث: «إن العبد إذا صلى الصلاة لوقتها وأداها بأركانها وشروطها صعدت إلى السماء ولها نور حتى تصل إلى الله فتشفع في صاحبها تقول حفظك الله كما حفظتني وإن ضيعها ولم يتم ركوعها ولا سجودها صعدت ولها ظلمة حتى تنتهي إلى أبواب السماء فتغلق دونها ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فتضرب وجه صاحبها وتقول ضيعك الله كما ضيعتني» وفي السنن عن النبي ﷺ: «أن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى قال إلا عشرها» فالصلاة إذا أتى بها كما أمر نهته عن الفحشاء والمنكر وإذا لم تنه دل على تضييعه لحقوقها وإن كان مصلياً.

(الوجه الثالث) أن قوله بل أن ترك الموحّد الصلاة رأساً مع اعتقاد فرضيتها لا يكفر وهذا خرق لاجتماع أكابر الصحابة والتابعين، كما قال الحافظ عبد الحق الإشبيلي في كتابه في الصلاة: إن جملة الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم يكفرون تارك الصلاة متعمداً ويحكمون عليه بالإرتداد إذا خرج وقتها، منهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو الدرداء، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو هريرة، وعلي بن أبي طالب، ولا يعلم عن صحابي خلافتهم، قال ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل، ومحمد بن إدريس الشافعي في الرواية الصحيحة المشهورة عن بعض أصحابه في الرجل الممتنع على حديثه، واسحق بن راهويه، والإمام مالك في أحد الروايتين عنه، وعبد الله بن المبارك، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عيينة، وأيوب

السجستاني، وأبو داود الطيالسي، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو خيثمة زهير بن حرب، قال يحيى بن معين قيل لعبد الله بن المبارك أن أناساً يقولون من لم يصم ولم يصل بعد أن يقر بهما فهو مسلم مؤمن فقال عبد الله لا نقول نحن كما يقول هؤلاء بل من ترك الصلاة متعمداً من غير علة حتى دخل وقت في وقت فهو كافر يحل قتاله وقال ابن أبي شيبة: قال النبي ﷺ: « من ترك الصلاة فقد كفر فيقال له ارجع عن الكفر فإن فعل وإلا قتل بعد » وفي مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ». وعن أبي الدرداء قال أوصاني أبو القاسم ﷺ: (أن لا أترك صلاة متعمداً فمن ترك صلاة متعمداً فقد برئت منه الذمة). رواه ابن أبي حاتم في سننه قال أحمد ابن سمار سمعت صدقة بن الفضل يسئل عن تارك الصلاة فقال هو كافر، فقال له السائل أتبين منه امرأته فقال صدقة وأبين الكفر من الطلاق لو أن رجلاً كفر ولم يطلق خرجت امرأته من عصمته لأنه أعظم، لكن قال أكثر العلماء ينتظر بها انقضاء عدتها إن كانت مدخولاً بها لحديث صفوان بن أمية وامرأته بنت الوليد بن المغيرة ان صفوان أسلم بعدها بشهر فإنها أسلمت يوم الفتح وهو بقي على كفره حتى شهد حنيناً والطائف وهو كافر ثم أسلم بعد فلم يفرق النبي ﷺ بينهما بل استقرت عنده امرأته بذلك النكاح، وقال أبو عبد الله محمد بن نصر سمعت اسحق ابن يسار يقول صح عن النبي ﷺ أن تارك الصلاة كافر، وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا أن تارك الصلاة عمداً من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى ومحمد بن شهاب الزهري وداود بن علي المزني يجبس تارك الصلاة المفروضة حتى يموت أو يتوب، والرواية التي عن الشافعي في قتله تارك الصلاة حداً إنما هي في الرجل الممتنع منها على حدته، والصحيحة عنه كفره، كما نقلها عنه عبد الحق الإشبيلي، وتارك الصلاة رأساً وإن وجد منه التصديق والإقرار بها فإنه معدوم ما هو معتبر به ومتوقف صحته والعصمة به على وجوده وهو عمل القلب نيته وإخلاصه ومحبه وانقياده لفعل الأوامر إذا وجد فعله انقادت له الأعضاء وإلا بان لم يوجد منه إلا التصديق خاصة، فذلك قول القلب مجرداً من فعله وهو لا ينفع كما لم ينفع إبليس وفرعون والذين عرفوا النبي

عليه السلام وعلموا صدقه وما جاء به من الحق فاعتقدوا صدقه وإن ما جاء به هو الحق ثم لم يعملوا وهؤلاء وإن كذب به بعضهم ظاهراً. فالبعض الآخر يقر عنده وعند غيره ويعتذر عن العمل والاتباع والتكذيب ظاهراً سببه فقد عمل القلب مع أن قوله وهو التصديق موجود فلم ينفعه.

وتقدمت الأدلة على كفر تارك الصلاة مستوفاة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين وأنه لاخلاف في قتل تاركها إلا أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى ومن وافقه قالوا بحبسه حتى يموت في الرواية المشهورة عنهم، ومافهمه صاحب المقدمة من كلام الإمام أحمد في قوله. وليعلم المتهاون بصلاته المستخف بها السابق الإمام فيها أنه لا صلاة له صحيحة، وإنه إذا ذهب صلاته فقد ذهب دينه من أنه يحكم على المسابق الإمام بالخروج من الدين ولحقه بالكفار المرتدين إذا بطلت صلاته بالمسابقة فهو أحد الروايين عنه فيمن ترك من الصلاة ركناً أو شرطاً يعتقد التارك وجوبه، أو أتى بمبطل لصلاته عالماً عامداً. لأن ذلك كتركها، فيقال فيه ما يقال في ترك جميعها، وقد قال ابن هبيرة في قول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقد رأى رجلاً لا يتم ركوعه ولا سجوده ماصليت، ولو مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمداً عليه السلام، فيه إن إنكار المنكر في مثل هذا يغلظ له لفظ الإنكار، وفيه إشارة إلى تكفير تارك الصلاة، وإلى تغليظ الأمر في الصلاة حتى إن من أساء في صلاته ولا يتم ركوعها ولا سجودها فإن حكمه حكم تاركها، قال الإمام في رسالته الصلاة، أول فريضة فرضت على النبي صلى الله عليه وآله وهي آخر ما يذهب من الإسلام ليس بعد ذهابها إسلام ولا إيمان ولا دين، وهو أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله، وهي عمود الإسلام إذا سقط الفسطاط فلا ينتفع بالأطناب والأوتاد، وكذلك الصلاة إذا ذهب فقد ذهب الإسلام ووجود المبطل لها من مسابقة أو غيرها مذهب ومعدم لها، والرواية الثانية أنه لا يكفر إلا بترك ما هو مجمع عليه مما لاخلاف فيه وإن رأى التارك وجوبه لأنها إذا بطلت تصير كأنها فائتة ولا يكفر تاركها ومراعاة للقائلين بصحتها وإن اعتقد الفاعل بطلانها ونحن وإن قلنا ما قاله الإمام أحمد رحمه الله تعالى من أن المسابقة للإمام عمداً تخل بالصلاة وتصير معدومة لم نحكم على المسابق بالكفر والردة كما لم نحكم على تارك القراءة في الركعتين الأخيرتين بأمر القرآن أو لم يعدل الأركان حيث يرى التارك صحتها

بدونه إذ هذه مسائل اجتهادية لا يكفر بها ولا انكار في مسائل الاجتهاد، نعم تأمر
 المسيء في صلاته أن يعدل أركانها، وأن يتم قراءتها وركوعها وسجودها، وأن لا يسبق
 الإمام فيها فإن فعل يعيدها ونصح ونغلظ القول في ذلك، كما نصح وغلظ فيه صدر
 الأمة السلف الأول، ونخشي عليه من ذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم وكرر ثلاثاً للمسيء في
 صلاته صل فإنك لم تصل وعلمه كيفيتها كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله
 عنه .

(الوجه الرابع) قوله ولا يلزم من التشبيه الذي بالحديث المذكور ذلك إذ لا يلزم
 من تشبيه شيء مشاركته له من جميع الوجوه فهو قد فهم أن التمثيل الذي في كلام
 الله ورسوله هو التشبيه الواقع على المشبه والمشبّه به، والتمثيل غير التشبيه في المعنى فإن
 تشبيه زيد بالأسد في قولنا زيد أسد أو كالأسد أو ماهو من معاكس التشبيه كقوله
صلى الله عليه وسلم : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ليس كالأمثال
 التي ضربها الله في القرآن أو رسوله في السنة فإنه سبحانه وتعالى ضرب قصة
 الشيطان : ﴿ إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ مثلاً لبني
 النضير حين اغتروا بالمنافقين، ثم تبرؤا منهم عند الشدة، فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين
 نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معهم
 ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا
 لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ إلى
 أن قال : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قرياً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم كمثل
 الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب
 العالمين ﴾ كذلك ضرب سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن كثيراً كقوله : ﴿ ضرب
 الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء... الآية ﴾ وكقوله : ﴿ ضرب لكم مثلاً من
 أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم .. الآية ﴾ إلى غير ذلك
 من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون فإن هذه الممثل بها ليست أعلى ولا أتم من الممثل
 بل هو فوقها وأتم منها حساً ومعنى، وضربه صلى الله عليه وسلم الأمثال في السنة، كتشبيه الصلاة
 في عمود الخيمة وهي بالدين فكما لم تستقم بدون عمود ولا يتنفع بها بدونه، كذلك
 لا يستقيم الدين بدون الصلاة التي هي منه كالعمود بالنسبة إلى الخيمة، أو كالرأس
 للجسد، أو كالروح للبدن، وكضرب الله الأمثال في القرآن في أن الممثل أعلا وأتم من

الممثل به حساً ومعنى في الأفضلية وفي عدم الوجود والانتفاع، وأما المشبه فإنه إذا كان بينه وبين المشبه به علاقة في صفة من الصفات شبه به ولا يلزم منه مشابهته له ولا به من كل الوجوه، فإن زيد إذا قيل عنه أسد أو كالأسد لا يشاركه في جميع الصفات، كما لا يشاركه في الذات، بل الأسد فيه من الصفات المختلفة مالا توجد في زيد وفي زيد منها مالا يوجد في الأسد إذ الصفات الانسانية أفضل وأتم من سائر الحيوانات والجمادات، والشجاعة الموجودة في الأسد والحسن الموجود في البدر أتم وأكمل من الشجاعة والحسن الموجودين أو أحدهما في زيد، بخلاف الأمثال التي ضربها الله في القرآن أو رسوله في السنة فإن الممثل أتم وأكمل من الممثل به وهو تابع معناه إعداماً وإيجاداً وجوياً وجوازاً ووجوباً.

(الوجه الخامس) قوله ونقلها أفضل النوافل وعزاه إلى كتب الأحاديث والتفسير والفقه، والذي فيها أفضل النوافل الجهاد ثم النفقة فيه ثم العلم نعلمه وتعليمه ثم صلاة النافلة ففي الصحيحين عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (قلت يارسول الله أي الأعمال أفضل قال: « الإيمان بالله وجهاد في سبيل الله ») وفيهما أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « أفضل الأعمال إيمان بالله وجهاد في سبيل الله » وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « فضل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت القائم الذي لا يفتقر عن الصلاة ولا الصيام حتى يرجعه الله بما يرجعه من غنيمة أو أجر أو يتوفاه ليدخله الجنة » وعند الإمام أحمد: « والذي نفس محمد بيده ماشجت ولا غبرت قدما عبد في عمل يتغني فيه درجات الجنة بعد الصلاة المفروضة أفضل عند الله من الجهاد في سبيل الله عز وجل » وحديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه في قوله ﷺ: « رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » دال بصرححه على أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الفرائض كما هو قول الإمام أحمد وغيره من العلماء فإنه عليه السلام عبر برأس الأمر وعنى به الدين الذي بعث به الرسل وعموده وهو قوامه الذي يقوم به كما تقوم الحيمة بالفسطاط هو الصلاة وذروة سنامه وهو أعلى مافيه وأرفعه وهو الجهاد، وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن الزبير قال قال عثمان بن عفان وهو يخطب على منبره أني محدثكم

حديثاً سمعته من رسول الله لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها» وقد ترجم ابن حبان في صحيحه ذكر تضعيف النفقة في سبيل الله على غيرها من الطاعات، وذكر عن خريم بن فاتك مرفوعاً: «من أنفق في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف» ورواه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وحسنه، وعند الإمام أحمد وغيره من عمل حسنة كانت له بعشر أمثالها ومن أنفق نفقة في سبيل الله كانت له سبعمائة ضعف، وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً تجدون الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، ومن صرح به من الأئمة اسحق بن راهوية نقله عنه ابن منصور وإن من العلم مايقع نقلاً وفي خطبة المحيط للحنفية أفضل العلوم عند الجمهور بعد معرفة أصل الدين وعلم اليقين معرفة الفقه قال الإمام أحمد تذاكر بعض ليلة أحب من إحيائها في العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم قال ابن منصور فقلت الصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا قال نعم والأشهر عنه الاعتناء بالحديث والفقه والتحريض على ذلك قال وليس قوم خيراً من أهل الحديث، وعاب على محدث لايتفقه وقال يعجبني أن يكون الرجل فهِماً في الفقه إلا أن الشافعي رحمه الله اختار في القول المشهور تقديم نفلها على نفل العلم للاخبار في أنها أحب الأعمال إلى الله وخيرها ولأن مداومته ﷺ على نفلها أشد من غيره ولقتل من تركها تهاوناً وكسلاً ولتقديم فرضها، وقال غيره العلم يتعدى نفعه فاشتغال في أفضل مما يقصر نفعه على الفاعل ولذلك كان العالم العامل أفضل من العابد، إلا أن نفل الصلاة أفضل مما يتعدى نفعه سوى العلم كالصدقة وأمثالها وهل نفل الحج أفضل من نفل الصلاة أم نفلها أفضل فمن قال أنه أفضل قال انه جهاد لما روت عائشة رضي الله عنها قالت قلت يا رسول الله هل على النساء جهاد قال: «عليهن جهاد لاقتال فيه الحج والعمرة» إسناده صحيح رواه الامام أحمد وابن ماجه وروى الإمام أحمد والبخاري عنها قالت يا رسول الله أترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد قال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور» وعند الشافعي رحمه الله تعالى في القول المشهور عنه نفل العلم أفضل من نفل الحج لتعديده وإنما قدم نفل الصلاة للاخبار الواردة في أنها أحب الأعمال إلى الله كما تقدم عنه وكذا القول في تقديم نفل

الصوم فمن قدمه قال لإضافته إلى الله لما في الحديث : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » ومن لم يقدمه قال إنما إضافة الله إليه لأنه لا يعبد به غير الله في جميع الملل بخلاف غيره ولأن من نوى صلة رحمه وأن يصلي ويتصدق ويحج كانت نيته عبادة يثاب عليها، ونطقه بما سمعه الناس من كلمة التوحيد أفضل لإجماعاً، وأما الصدقة ففي زمن غلاء وحاجة أفضل من عتق، وفي غير زمن غلاء وحاجة فعتق أفضل، وصدقة على قريب محتاج أفضل من عتق والله أعلم .

لبس الحلقة والخيط لدفع البلاء أو رفعه من الشرك

(وأما قولكم وقوله من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه وقول الله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره... الآية ﴾ وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال ماهذه قال من الواهنة فقال : « انزعها فإنها لاتريدك إلا وهنا ولو مت وهي عليك ماأفلحت أبدا » فنقول لاشبهة في أن ليس ماذكر حرام، وصاحبه آثم، لكن لايلزم من كون مرتكبه كافراً مشركاً خارجاً عن دين الإسلام مباح الدم والمال وأيضاً ليس مذهب لأحد من السلف الصالحين، مع أن الواجب على كل أحد أن يحمل أخاه المؤمن على الصلاح كما قدمناه، وماذكر في معرض الاستدلال من الآية والأحاديث لايدل عليه إذ المراد بالدعاء في الآية الكريمة العبادة كما عليه المفسرون، وأما الأحاديث فمحمولة على من يعتقد فيهما التأثير، كما يجب حمل أمثالها من الأحاديث الواردة من هذا النمط على ذلك) .

فنقول أما الحلقة فقال أهل اللغة كل ماكان يبين بعضه من بعض كحلقة الذكر ووسط الصف ونحو ذلك فهو حلقة، ووسط بالاسكان وماكان مصمتاً لايبين بعضه من بعض كحلقة الباب ونحوها، ووسط الدار والرأس والراحة فهو حلقة، ووسط بفتح اللام في الحلقة والسين في الوسط، قاله الأزهري والجوهري وغيرهما، وقد أجازوا في المفتوح الاسكان ولم يجيزوا في الساكن الفتح، والمقصود هنا حكم لبس حلقة الصفر والحديد ونحوهما، ولايب أن لبسهما أو تعلق الخيط أو الخرزة

أو العظم ونحوها من التمايم لدفع البلاء أو رفعه إن ذلك من شرك تعطيل المعاملة التي تجب على العبيد المتعلقة بمعنى ألوهية الخالق تعالى وتقدس ، فإن الإله معناه كل مألوه في القلب برجائه فيما هو مختص بجلال الله وعظمته والإلتجاء إليه كما تقدم تعريفه في بيان معاملته تعالى وما هو مختص به من سائر الطاعات والعبادات التي من أعظمها دعاؤه ورجاؤه والتوكل عليه واعتقاد أن الخير والشر بيده لاجالب لهما ولا دافعهما ورافعهما إلا هو سبحانه وتعالى قال عز من قائل: ﴿ وَإِنْ يَمْسُكِ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ فإذا اعتقد دفع البلاء والشر ودفعهما في لبس الحلقة والخيطة وتعلق العظم والتميمة فقد أشرك في اعتقاده وعطل معاملة الله المأمور بها فوضعها في غير موضعها بجعلها لغيره ، ولذلك قال النبي ﷺ للرجل الحامل في عضده الحلقة من الصفر عن الواهنة: « انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ولو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » رواه الإمام أحمد وغيره من حديث عمران ابن حصين ونفي الفلاح في الأبد يقتضي الشرك الأكبر غير المغفور بل المخلد في النار للاعتقاد المذكور ، وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ دليل على أن كشف الضر وإمساك الرحمة عند الله خاصة لا عند غيره من سائر الخلق ، الأنبياء والملائكة وتماثيلهم ولا الحلقة والخرزة والخيطة والعظم ، والتميمة بالأولى ولذلك قال عقبها: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ والمتخذون تماثيل الأنبياء والملائكة وسائل ووسائط يسمونها الآلهة يدعونها ويرجونها في الرخاء لتشفع لهم عند الله في قضاء حوائجهم وتقربهم منهم زلفى ، لم يعتقدوا فيها الضر ولا كشفه ولا إمساك الرحمة عنهم كما تقدم بيان ذلك موضحاً ، ولا استشفعوا بها واستقوا ودعوها راجين الشفاء والمطر وإنزاله منها كما ذكر الله ذلك عنهم في عدة آيات بينات وكما قرعهم وأنكر عليهم بالاستفهام الإنكاري حيث قال تعالى: ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ... هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ لأنهم يعلمون ويعرفون أن الله وحده كشف الضر وممسك الرحمة ومنزل الشفاء والرزق والمطر لا غيره ودعاؤها لشفاعتها ورجاؤها في ذلك وتعلق القلوب بها لتكون واسطة ووسيلة وتأهلها بذلك هو معنى عبادتها وصاحب المقدمة قد فهم أن الدعاء ليس هو العبادة ولا هي معناه ، لقوله إذا المراد

بالدعاء في الآية العبادۃ، والظاهر أنه يعني بها خصوص السجود لتماثيل الأنبياء
 والملائكة، ولم يعلم أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من دعاء ورجاء وتوكل
 وصلاة وصوم وزكاة وصلة رحم وبر وإذا جعل شيئاً من ذلك لغير الله فقد عبده
 فيعبر عنها بما هي من معناه، ولذلك قال سبحانه: ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون
 الله ﴾ فعبر عن العبادۃ بالدعاء لأنها معناه، ولأنهم كانوا يدعونها لتشفع لهم فيما
 يسألونه منها ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم
 ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وكل ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي
 ولا اقتضاء عقلي فهو العبادۃ، ومن جعل ما هي من معناه المختص بجلال الله لغيره فقد
 عبده بما هو مأمور به شرعاً لله وحده، وقوله تعالى: ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله
 إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ قال ابن عباس ومقاتل بمرض أو فقر أو
 بلاء أو شدة هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة خير وصحة وكشف شدة ورفع
 بلاء هل هن ممسكات رحمته، قال مقاتل فسألهم النبي ﷺ فسكتوا لعلمهم أن
 ذلك لا يكون إلا من الله وحده، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿ قل حسبي الله عليه يتوكل
 المتوكلون ﴾ ولا يخفى ما في الاستدلال بهذه الآية بل بالقرآن كله والسنة على من علق
 الخيط والحرزة وعلق العظم والتميمة لدفع البلاء أو رفعه أو حصول خير أو نفعه من
 كمال مناسبة معناها بمن اعتقد في شيء أعظم مما اعتقد فيه الأولون فعلقه ولبسه وتعلقه
 ليدفع عنه سوءاً وبلاء أو لرفعه أو ليكون سبباً في دفعه ورفعته إذ الاسباب لا يجوز أن
 يتعاطى منها إلا ما شرعه الله ورسوله فلا يجعل الشرك أو المحرم سبباً في حصول غرض
 من الأغراض الدنيوية أو الأخروية، ولا يتخذ سبباً من الأسباب إلا بعد علمه بحكمه
 وحيث جاز فلا يركن إليه ولا يتكل عليه، وهذا وإيم الله في الجائز فما الظن فيمن جعل
 الحرام المجمع عليه حلاً ولا واعتقد فيه وتوكل عليه، هل هذا يجامع الايمان أو الاسلام أو
 محملاً يعدل به عن اعتقاده إلى رتبة الفساق المرتكبين لأنواع الحرام مع وجود الاسلام
 وأصل الايمان، أم اعتقاده أفسد عليه فخرج به عن خطة دين الاسلام الذي أنزل به
 القرآن وعلق بوجوده الغفران ودخل في خطة عباد الشيطان وتماثيل الأنبياء والملائكة
 والمرسلين من الأحجار والأشخاص والطلاسم التي هي أسماء المعبودين، والرسول لم
 يعثهم الله إلا لا بطل كل ما يخالف دينه وما شرعه ويكسروا الأحجار ويطمسوا التماثيل

ويخبروا أن الأمر كله لله فلا يجعل لغيره تعالى ما هو مختص بجلاله من عبادته ومعاملته
التي منشؤها القلب والاعتقاد، ولقد زاد هؤلاء على أولئك بأشياء كثيرة لولم يكن منها
إلا اعتقاد كشف الضر وجلب الخير فيما تعلقوا فيه وعلقوه على أنفسهم ودوابهم
وحروثهم لكفى، فإنهم يتوكلون على معلقوه وتعلقوه ويسندون كشف الضر وجلب
الخير إليه وأنه لولاه لنزل به البلاء أو لوجدت الشدة أو لضرته العين أو لنزلت به، لكن
هي التي رفعت ذلك كله، أو هي الدافعة له، أو هي التي رفعت، ونحو ذلك من
المعتقدات التي لم توجد إلا عند هؤلاء المعتقدين المفتونين في عبادة الشياطين وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولو لم يعتقدوا فيهم ما اعتقدوه من هذا الاعتقاد الباطل لما
علقوه وتعلقوه، ومعلوم أن من لم يعتقد ذلك لم يكن ليفعله ولا ليرضى به ومع تقدير
فعله من غير اعتقاد فيه ولا رضى به لا يكفر ولا تكفره نحن كما زعمه صاحب المقدمة
بل حمله ذلك وتعليقه حرام والفاعل آثم، فنحن ننبى عن ذلك ونغلظ فيه، ويجب على
العالم أن ينهى الجاهل عن ذلك ويحذر منه، إنما الرزية كل الرزية تغافل العالم عن
الجاهل وعدم نهيهِ ونصحه عما يضره من ذلك فإن وزر العالم أكبر من وزر الجاهل
وأعظم وأفحش حيث فعلها هو بنفسه أو رأى من يفعلها جاهلاً بها ولم ينه عليها
وبين له فيها، فويل للعالم من الجاهل وويل له، كما قال الصادق المصدوق عليه السلام ولم يكن
هؤلاء العلماء الذين نعرفهم واجتمعنا بهم وسمعنا عنهم أنهم لا ينهاون عن ذلك، بل قد
استقر عندهم وفي نفوسهم أن من نهى عنه وعابه فهو وهابي أو عارضي أو شرقي وإن
لم ينسبوا ذاته بل عقيدته فتسافهوا عن الحق وأعرضوا عنه تكبراً وتجبراً وحسداً وبغياً
والله يقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أراد
تحجير النساء أن يزدن في صداقهن على صداق بنات رسول الله صلى الله عليه وآله قامت إليه
امرأة وهو على منبره في مجمع الناس فقالت كيف تمنعنا يا أمير المؤمنين وقد قال
الله: ﴿وَأَن آتِيْتُمْ أَحَدَهُن قِنْطَارًا﴾ فقال جهراً امرأة أصابت ورجل أخطأ، فالحق
أحق أن يتبع، وهو ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، وعلى العلماء البلاغ والتبليغ
والعلم والتعليم لا المعاندة والطعن في الحق والدين، ومثل المصير على ما ارتكبه المتفرغ
فيما اجترحه من اتباع هواه وعموم بلواه مع الناصح له المشفق عليه من عمله واتباع

هو اه يكمثل مسافر في مفازة ومعه دابته وماؤه وزاده فنقد الماء والزاد ثم انقطعت به
 الدابة وقد بقي من المسافة مدة طويلة وبقي يمشي على رجله فأصابه الجهد من الظمأ
 والجوع والتعب وضل الطريق فصار في طريق كثيرة السباع كثيرة اللصوص ويسر الله
 له من يريد انقاذه ويدله على طريق النجاة فأبى وامتنع إلا الاقامة على طريق الخوف
 وأبى إلا تلك الحال التي بلغه منها الجهد والتعب فلو سمع به وأمره المجانين لتعجبوا من
 أمره ولنسبوا الجنون إليه لأن المناسب في حقه الرجوع عن المهالك إلى طريق السلامة
 والأمن، وشكر الدليل المرشد المنقذ، هذا وهو هلاك الجسد في الموت خاصة فما حال
 من هلاكه النار، أما الخلود فيها وأما ماهو سبب له بر يدلله ينشأ منه شيئاً فشيئاً فهم
 من أكثر الناس عقداً ونفشاً واعتقاداً وتعلقاً في الخيط وغيره من التمايم ومن أكثر
 مايكون النفث في الخيط والعقد فيه إذا صعدوا المنبر لخطبة الجمعة أو غيرها يعقدون
 وينفثون للتعلق والتعليق من الحمى أو العين ولدفعهما، وقد علم الله سبحانه وتعالى نبيه
 ﷺ الاستعاذة من شر النفاثات في العقد، وهو وإن كان السبب خاصاً في بنات
 لبيد كن يعقدن في الخيط بشيء يقلنه وينفثن فيه بلا ريق، فهو عام في كل نافث في
 الخيط ونافثه وعاقده وعاقدة، فإن الآية ظاهرها العموم فيمن نفث في الخيط وعقد فيه
 والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبما يدل عليه وعلى حمل الآية على
 العموم قوله ﷺ: « من نفث وعقد فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً
 وكله الله إليه » رواه النسائي من حديث أبي هريرة ومعنى من تعلق شيئاً أي علق على
 نفسه العوذة والخرزة وأمثالهما ويستوي في ذلك قاصداً السحر أو الشفاء لأن الله إذا
 حرم أمراً لا يغير حكمه عقيدة الفاعل والمفعول له، وأن تلا الفاعل في نفثه القرآن ثم
 عقد كمن استعمل آلة هو في ذكر وقراءة، ونفس الخيط وإن كان الأصل فيه جواز
 الاستعمال فالنفث لما قصد منه والعقد إقامة مقام الآلة بقطع النظر عن اعتقاد
 النافث والعاقده والمنفوث والمعقود له، ولأن السحر في العادة لا يكون من غير نفث
 ولا عقد، وقد قال ﷺ: « من تشبه بقوم فهو منهم » فالنافثون والعاقدون والمعلقون
 والمتعلقون مشركون ومعطلون لحقيقة التوحيد الواجبة على العبيد، ولا يكلام الله يعملون
 ولا يبالون به ولا يكلام نبيه يأخذون ولا إليه ينتهون، وهم قد جمعوا بين الآثمين والفتنتين
 الشرك الاعتقادي وحرمة النفث والعقد مع وزر المنفوث والمعقود له من غير أن ينقص

من وزره شيء فلا تُصلى خلفهم الجمعة ولا الجماعة بالأولى لشركهم وتعطيلهم في اعتقادهم وصنيعهم ماداموا كذلك حتى يتوبوا ويرجعوا، ومن رآهم فلم ينكر عليهم فهو شريك لهم في ذلك الاثم والوزر، فإن رضى باعتقادهم فهو مثلهم سواء بسواء، لنهي الشارع ﷺ عن التعلق بشيء ورد على فاعله وقال: «لا يزيدك إلا وهناً انبذها عنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً» رواه الامام أحمد وغيره من حديث عمران بن حصين وطرق آخر غيره، وروى أبو منصور ابن ظاهر التميمي عن محمد بن عبد الله بن علي بن زياد الدقاق عن محمد بن ابراهيم البوسنجي عن عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل عن زهير بن محمد بن معاوية عن عمرو بن قيس الملائي عن المنهال عن سير بن أم أبي عبيدة بن عبد الله أن عبد الله دخل على امرأته وهي أم سير وأبي عبيدة وفي عنقها سير أو خيط معقود من مرض بها وعندها نسوة فاجتذبه حتى اختنقت فقطعه فنبذه ثم قال لقد أصبح ابن أم عبد غنياً عن أن يكون في بيته شرك، فقال بعضهم أو شرك هذا قال نعم الرق والتمائم والتولة شرك فقال بعضهم وما التولة؟ قال ما يحبب به إلى أزواجهن فقال بعضهم إن أحدنا يأخذها الضريان في عينها فإذا استرقت سكن فقال ذلك الشيطان عدو الله ينزغ في عين إحداكن فإذا استرقت كف، ولو أنها إذا أحست شيئاً من ذلك أخذت كفاً من ماء ففضحت في عينها وقرأت قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس لسكن وذهب، فما استعاذ مستعيز بمثلهما، ومن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله فيقرؤه المريض على نفسه، أو يقرؤه الغير عليه، أو يكتب ويسقاه أو يقرأ له في ماء، وكذا أسماء الله تعالى وتقدس، ومما ورد وضع المريض يده على الموضع الذي يؤله فيقول بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبعاً، وتقدم ما يجوز من تعاطى الأدوية التي شرعها الله وبينها رسوله ﷺ من غير ركون إليها ولا توكل عليها وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نعلم الله على عبد من نعمة في مال أو أهل فيقول ماشاء الله لاقوة إلا بالله إلا دفع عنه كل آفة حتى تأتبه منيته» وقرأ: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله﴾ فيسن لمن أعجبه ماله أو ولده أو شيء من حاله أن يقول ماشاء الله لاقوة إلا بالله فإنه لا يرى فيما أعجبه مكروهاً للحديث المتقدم والله أعلم.

حكم التبرك بالشجر والحجر

وأما قولكم (وقوله من تبرك بشجرة أو حجر الخ فعلم جوابه مما ذكرنا آنفاً مع أنه أيضاً ليس على إطلاقه إذ بعض الأحجار قد ينفع بإذن الله وقد يكون لبعضها خواص ومنافع خلقها الله فيها كما نشاهد في حجر المغناطيس من جذب الحديد وأمثاله وكالحجر الأسود فإن عمر بن الخطاب حين استلمه لما قال له إنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ماقبلتك أجابه عثمان بن عفان بقوله إنه يضر وينفع إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه ليشفع بمثل ربيعة ومضر فافهم ذلك يا ابن عبد الوهاب) .

فنقول معنى تبرك أي طلب البركة وقصدها من الشجرة أو الحجر نفسيهما، وأما السببان في حصولها، فالأول هو اعتقاد المتبركين بهما من غالب مشركي أهل هذا الزمان كما هو مشاهد لمن تأمل وتحقق، والثاني هي ذات الأنواط التي قال عنها أهل العلم من أصحاب مالك وغيرهم: انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدره أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون بسببها البرء والشفاء ويضربون بها الحرق ويعلقونها عليها فاقطعوها فإنها ذات أنواط، وكما روى أبو داود والترمذي عن أبي واقد الليثي قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدره يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدره فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ: « هذا كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم ») وفي رواية للترمذي عنه أنهم مروا بسمرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط قالوا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال النبي ﷺ: « الله أكبر هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم » قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها ليتبركوا بها ويتشفعوا بسببها يكون اتخاذها ذلك إلهاً مع الله مع أنهم لا يدعونها ولا يسألونها فما الظن فيمن يدعوها

ويرجو منها ومن بركتها وقد كانت العزى شجرة سمر بنخلة لغطفان يعبدونها بدعائها لتشفع خاصة لهم فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها بالفأس وهو يقول: يا عزى كفرانك لاسبحانك إني رأيت الله قد أهانك، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها، واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها، وكذلك مناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة وقيل لثقيف، وسميت بذلك لما كان يبنى أي يراق عندها من الدماء للتبكي بها رجاء شفاعتها، وأخذوا اشتقاق اسمها من منى الله الأمر إذا قدره زاعمين أنه الله يقدر لهم بشفاعتها وإراقة الدماء عندها ما أرادوا وطلبوه ودعوها لتشفع لهم فيه .

وقد زعم صاحب المقدمة أن من تبرك بشجرة أو حجر فرجى منها ومن بركتها مات فرج عنه الكروب وتشفى القلوب وتقضى الحوائج وتكشف الشدايد أو لتشفع له فيما رجاها ودعاها أن تشفع له فيه من ذلك فليس شركاً أكبر غير مغفور إلا بالتوبة منه والرجوع إلى دين الإسلام والملة الحنيفة عنه لقوله، فقد علم جوابه مما ذكرنا آتفاً، يعنى قوله فيما تقدم فيمن لبس الحلقة والحيط ونحوها لرفع البلاء ودفعه، أنه ليس فيه إلا الحرمة والاثم ولا يلزم منه كون مرتكبه كافراً مشركاً، فكذلك من تبرك بشجرة أو حجر ليس فيه إلا الحرمة والاثم لكن لا يلزم منه كون مرتكبه كافراً الخ، ولم يعلم حكم تعطيل معاملة الله تبارك وتعالى الواجبة على خلقه وعبيده التي هي معنى ألوهيته وتفردته فيما هو مخصص بجلاله وعظمته من صمديته التي مفتقر بها إليه البر والفاجر، والبائس والشاكر، والمقل والمكثر المتفاخر، وسائر خلقه كلهم بها له قانتون، وإياه يدعون، ومن بركاته يرجون، إنما كان شرك الأولين بما يظنونونه مرضياً لرب العالمين ومقرباً إليه في كل حين، ولذلك يخلصون له الدين في حال الشدة وكل أمر هائل مزعج متين: ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ لكن هؤلاء الذين يستجاب لهم لأقارهم بربوبيته وافتقارهم إلى صمديته وأنه يجيب دعاء المضطرين لا يعطيهم بدعائهم إلا متاعاً في الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق، لأنهم عطلوا معاملته المقتضية لعبادته وعصوا رسله قال تعالى: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً

ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴿١٠﴾ وعدم فهمه بمعنى عبادة الله ومعاملته وحكم تعطيلها هو الحامل له بأن يحكم على من تبرك بشجرة أو حجر فرجى منها ومن بركتها ما تفرج به عنه الكروب وتقضي الحوائج وتكشف الشدائد، كحكمه فيمن لبس الحلقة والحيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه، في أن ليس في ذلك إلا مجرد الحرمة فقط .

ومما يدل على ما قلناه دلالة صريحة، اعتقاده وتصريحه في كلامه الذي في قوله مع أنه أي اثم التبرك بالأشجار والأحجار ليس على إطلاقه، إذ بعض الأحجار قد ينفع بإذن الله وقد يكون لبعضها خواص ومنافع خلقها الله فيها كما نشاهد في حجر المغناطيس من جذب الحديد وأمثاله فلا اثم على من دعاه وتبرك به لما فيه من النفع ومن جذب الحديد، وكذا الحجر الأسود لما فيه من نفع الشفاعة في مثل ربيعة ومضر .

ومن له أدنى لب من عقل ومعرفة فيما بعث الله به الرسل وفضلهم وهداهم واقتباس نصيب من نور الله علم يقيناً أن معتقد هذا الاعتقاد وقائل هذا القول والحاكم بهذا الحكم محاد لله ولرسوله، راد على الله ورسوله ناقض لحكم الله ورسوله، وأنه ليس عنده علم ومعرفة في دين الله الذي من يتبع غيره لن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ولم يفرق بينه وبين الانتفاع والاستمتاع فيما هو مخلوق من الأرض ومعادنها للآدميين، بل عنده من ذلك مجرد الادعاء في القول والكتابة على حكمه في القول، فإن نظره إلى الصنعة في الخلق ولم ينظر إلى الصانع الخالق رب كل شيء وخالقه ومليكه وإلهه، الذي لم يخلق خلقاً إلا لحكمة، وجميع الكائنات شاهد بألوهيته، كما هو دال على ربوبيته، والأرض وما حوته من أنواع المعادن والنبات من حكمة موجودها، وبركة إلهها الموضوعة فيها، إنما وجودها دليل على وحدانية الله وتفردّه بالألوهية ليكون الدين كله له، وليستفيع بها وبما فيها سائر الحيوانات التي على ظاهرها وفي باطنها من بني آدم وغيرهم، قال عز من قائل: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ ثم قال: ﴿ هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ﴾ فهذا الامتنان من الواحد المنان ناطق بأن الأرض وسائر ما فيها من الأشجار والأحجار لا يعتقد فيها

الضرر والنفع ولا العطاء والمنع، وإنما ينتفع بها انتفاع استمتاع لا اعتقاد نفع فيه، إذ الأول من معاني الامتنان، والثاني من وظائف الإله الواحد المنان، واعتقاد السببية الجائزة فيه من غير ركون إليه ولا توكل عليه من جملة الاستمتاع به، وقد تقدمت الأسباب الجائزة مستوفاة في بحث الشرك، وإن الله خالق السبب والمسبب ومن وقع في ظلمات الوهم وأبعد عن نور الفهم لم يميز بين النوعين، ولم يفرق بين الجنسين، ولو كلف المخاطبون أو أذن لهم في الاقتصار في العبادة على المصنوع والصنعة التي هي نتيجة الحكمة فعاطوه معاملة الصانع الحكيم أو التشريك بينهما لعد ذلك نقصاً في جانب الصانع ونقصاً لحكمته التي لأجلها خلق الأرضين والسموات وما فيهما وما بينهما من الآيات، ولها أوجد جميع الكائنات، فكيف وقد تعالى وتقدس أن يأمر الابدان بعبادته ومعاملته له وحده لاشريك له فيها، ونصب على ذلك دلائل شاهدة بألوهيته وحده، من ذلك الأرض وما أوجد فيها الإله من معادن الأحجار بأنواعها، فإن فيها خواص ومنافع للناس، ونفعه أكثر من حجر المغناطيس كحجر الأثمد واللؤلؤ والجوهر والزربرجد والزرنيخ والشب وغيرهما من أنواع المعادن، كل له خاصية ينتفع بها ليس في الآخر وقلما يوجد حجر فيها إلا ويصلح للانتفاع به دق أو جل كالبناء وغيره وكذا حجر الألماس والنار كل له خاصية ينتفع بها دالة على ألوهية خالقها، واختلاف ألوانها في كل لون يكون فيها أو منها، كما هو مشاهد في المعادن المستخرجة وكل لون ينقسم إلى أنواع وألوان فإن حمرة المرجان مختلفة، كما أن حمرة الزبرجد والياقوت وخضرتهم مختلفة، وكاختلاف بقاع الأرض مع تجاورها قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وقال تعالى: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

وكذلك اختلاف الأجساد من سائر الحيوانات والعقول والادراكات والأشجار وأنواع الثمرات مع اتحاد الأب والأم إن في ذلك لآيات، وهذا سر قوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾.

الدلائل القائمة على ألوهية الخالق

(ومن الدلائل) على ألوهية خالقها الطعام للبشر، وسائر الحيوانات، وماترى به الأجسام والعورات من النبات، كالقطن والكتان، وما أبرزه الإله المعبود بالحق من الحيوانات كالإبريسم والصوف والشعر والجلود، وما لا تحيط به الأذهان ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إمتن بها الإله الواحد المنان، وكذا اختلاف الأخشاب بأنواعها واختلاف مصالحها، وهذه الآيات لا تحصيها العبارات، إنما نشير إلى اليسير منها لاعتبارات وفي اختلافها يقول موجد الكائنات: ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، كذلك نصرف الآيات ﴾ وكذلك الحال في الطيب والخبث يكون في بني آدم كما يكون في الأرض وما يخرج فيها من النبات كما قيل :

الناس كالأرض ومنها هم من حجر قاس ومن لين
فجلمد تدمي به أرجل وأتمد يحمل في الأعين

وهذا من نزع البركة عن بعضها ووضعها في بعضها الآخر وجود الحكمة في كل منهما وفي الحديث: « أحد يجننا ونجه وهو على باب من أبواب الجنة، وهذا غير يغبضنا ويغضه وهو على باب من أبواب النار » أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي عيسى سعيد بن جبير رضي الله عنه وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: « أحد جبل يجننا ونجه » أخرجه البخاري فأحد طيب يرى الناظر إليه عليه آثار الأنوار، وغير خبيث تنبو عن مشاهدته الأبصار، وقد قال تعالى لنبيه المختار: ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

(ومن الدلائل) على ألوهية خالقها وموجدتها الكعبة الشريفة في البلد الآمن طهره الله وصانه وجعل عباده المتقين أوليائه وسكانه: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ وفيه من البراهين والآيات ما يوسع الكائنات، ولو

لم يكن فيه إلا أنه منزل البركات من إله الكائنات تنزل عليه كل يوم مائة وعشرين رحمة تفرق على أهل التوحيد من أهل الطاعات، ومنها توجه وجوه أهل الإسلام في جميع الصلوات من كل الجهات، وكذلك توجه إليه من المسلمين كل الأموات .

(ومنها) مضاعفة الحسنات وتجسيم السيئات .

(ومنها) أن تجيى إليه جميع الثمرات ومنها البركة التي طلب الخليل عليه السلام في الأقوات .

(ومنها) مقام إبراهيم وزمزم طعام طعم ولما شرب له عام .

(وفيها) يمين الله في أرضه، فإنه يأتي يوم القيامة وله شفتان ولسان شاهد لمن استلمه وقبله مؤمناً بالله غير مشرك به ومصدقاً بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم متبعاً لشعره وهديه مخالفاً ومعادياً لضده، فشهادته لأهل التوحيد بأعمالهم الصالحة هي حقيقة نفعه التي أخبر بها علي بن أبي طالب عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حيث صح وثبت جواب علي لعمر وإلا فهذه الزيادة بعض العلماء على عدم ثبوتها، إنما الثابت صدر الحديث كما رواه البخاري من طريقين :

الأول عن عباس بن ربيعة عن عمر أنه جاء إلى الحجر فقبله وقال إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

الثاني : عن زيد بن أسلم عن أبيه قال رأيت عمر بن الخطاب يقبل الحجر وقال لولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . وقول صاحب المقدمة أجابه عثمان بن عفان وهم، إنما الجيب علي بن أبي طالب كما ذكره المبتون لهذه الزيادة في آخر الحديث في بعض السير، فأما شهادة الحجر لأهل التوحيد فهي ثابتة كما روى عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم استقبل الحجر ووضع شفتيه عليه يكي طويلاً ثم التفت فإذا عمر بن الخطاب فقال : « يا عمر هاهنا تسكب العبرات » رواه ابن ماجه وروى مسلم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم استلم الحجر بيده وقبلها فتقبله واستلامه والبكاء عنده لا يخلو ذلك من حكمة لو لم يكن منها لا أنه يمين الله في أرضه وشهادته لأهل التوحيد توحيده بأعمالهم وذلك لا يقتضي اعتقاد النفع أو الضر فيه بطبعه ولا بقوته فلا يدعى ولا يرجى ولا يتوكل عليه لفضله وشهادته وشفاعته ليستا

بأفضل ولا أكمل ولا أتم من شهادة الرسل وشفاعتهم، ومع ذلك فلا يعتقد فيهم النفع ولا الضر ولا الاعطاء ولا المنع، إلا أنهم يوم القيامة يشهدون على أمهم وعلى بعضهم بعضاً بالبلاغ والتبليغ كما قال جل ذكره: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ويشفعوا في أهل التوحيد بعد إذن الله لهم فيها لمن رضي عنه، وذلك لا يقتضي أنهم يملكون الضر ولا النفع ولا العطاء ولا المنع، فالحجر أولى بعدم الاعتقاد فيه إذ الأمر كله لما لكه وهو الله الذي خلق الرسل وفضلهم على سائر الخلق، وخلق الأرض وما فيها من الآيات الدالة على ألوهيته، وتفرد به بملك الضر والنفع والاعطاء والمنع.

ولقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مخاطباً للكعبة الشريفة شرفها الله مأطيك وأطهرك، ولحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك، ومعلوم أنه لأعظم حرمة في الخلق من الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم لم يعثهم الله عز وجل إلا ليزيلوا هذا الاعتقاد في الأحجار والأشجار من قلوب سائر الخلق الكبار والصغار، ويخلصون الله الواحد القهار، وقد حمى النبي ﷺ التوحيد أعظم حماية أقل من هذا الاعتقاد وأظهره، وغضب منه حين قال له القائل ما شاء الله وشئت فقال عليه السلام: «أجعلتني لله نداً قل ما شاء الله وحده» فكيف باعتقاد المشركين الأولين أو ما هو أعظم منه، وقد ذكرنا بمناسبة حكمة الله في خلقه وإظهار قدرته في مصنوعاته رشيحة من الاستمتاع بما في المقلة، ولم نتعرض لما في المظلة طلباً للإختصار وخفاة في القصور وذله إذ الأرض بالنسبة إليها كحلقة ملقاة في فلاة وإذا فتح الله فؤاد العبد للفكر في أمه رأى ببصيرة قلبه فنطق لسانه بعجائب المظلة فاستدل بذلك على ألوهية الخالق وتفرد به فيما هو منفرد به عن خلقه وعبادته وحده لا شريك له في حقه ومعاملته.

والعبد من تراب إذا تكلم بالدليل على ألوهية خالقه فهو في محله، إنما الرزية كل الرزية الاعراض عن الآيات والتغافل عن المشاهدات والمبصرات والمسموعات والمحسوسات: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ ومن كان فكره في كل واد يهيم فهو من الأفكار الباطلة والاعتقادات الفاسدة في ليل بهيم، ولهذا قال الإله: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾.

تعريف النذر لغة وشرعاً وحكم النذر لغير الله

(وأما قولكم وقوله من الشرك النذر لغير الله وقول الله يوفون بالآية وقال تعالى وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر الآيات وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه » فنقول هذا أيضاً غير مسلم أنه من الشرك الاعتقادي وما استدلل عليه من الآية والحديث لا يدل عليه بل إنما يدل على أنه لا يلزم الوفاء به كما عليه اتفاق العلماء) .

فنقول النذر لغة الإيجاب ، يقال نذر فلان دم فلان ، أي أوجب قتله ، ومعناه شرعاً : إلزام مكلف مختار نفسه عبادة لله تعالى غير لازمة له بأصل الشرع وهو مكروه إذا كان لله ، ولآيات بخير ولا يرد قضاء ، وفاقاً لأبي حنيفة رحمه الله تعالى لما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (نهى النبي ﷺ عن النذر وقال انه لا يرد شيئاً ولكن يستخرج به من البخيل) وفي رواية للبخاري يقول ابن عمر أوم تنتهوا عن النذر إن النبي ﷺ قال : « إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر وإنما يستخرج بالنذر من البخيل » وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ان النذر لا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره له ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج به » فقد نهى النبي ﷺ عن النذر وأخبر أنه لا يأتي بخير وأنه ليس من الأسباب الجالبة لخير أو الدافعة لشر أصلاً وإنما يوافق القدر موافقة كما يوافق سائر الأسباب فيخرج من البخيل حيثنذ ما لم يكن يخرج به قبل ذلك .

هذا وقد أجمع أهل العلم في الجملة على انعقاد النذر الذي لله ولزوم الوفاء به لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ ولما روت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » ولحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يارسول الله إني كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة وفي رواية يوماً في المسجد الحرام فقال له النبي ﷺ : « أوف بنذرك » ومدح الوافين به يدل على جواز النذر إذا كان في طاعة الله لا على

استحسانه ومشروعيته ولذلك لم يفعله النبي ﷺ ولا أمر به بل نهى عنه وأخبر أنه لا يأتي بخير ولا يرد قضاء، وفي البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران لا أدري ذكر اثنتين أو ثلاثة بعد قرنه « ثم يجيء قوم يندرون ولا يوفون ويخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون ويظهر فيهم السمن » .

(ثم النذر) الجائز ثلاثة أقسام :

(أحدها) معلق على وجود نعمة أو دفع نقمة فإذا وجد ذلك لزم الوفاء به لعموم قول النبي ﷺ من نذر أن يطيع الله فليطعه ولذمه الذين يندرون ولا يوفون كما في حديث عمران بن حصين المتقدم .

(والثاني) معلق على شيء لقصد المنع منه أو الحث عليه، كقوله ان دخلت الدار فعلي لله كذا، وإن لم أخبرك بما يكون لله علي كذا، وهذا القسم هو نذر اللجاج والغضب وقد اختلف في لزوم الوفاء به، وللشافعي قول موافق للرواية الصحيحة عن أحمد أنه يخير بين الوفاء فيما نذر وبين كفارة يمين، لما روى عمران بن حصين قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا نذر في غضب، وكفارته كفارة يمين » رواه سعيد بن منصور في سننه ولأنها يمين فيخير فيها بين الأمرين .

(الثالث) ما ينذر من الطاعة بلا تعليق كصلاة وصوم وحج واعتكاف وقراءة وعبادة مريض فيلزم الوفاء به عند عامة أهل العلم .

وحكي عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه لا يلزم الوفاء بما لا نظير له بأصل الشرع ولا أصل له في الوجوب كالاعتكاف وعبادة المريض لأن النذر فرع على المشروع فلا يجب به مالا يجب له نظير بأصل الشرع، وحجة ملزمي الوفاء حديث عمر وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وذم النبي ﷺ الذي يندرون ولا يوفون، والنذر المطلق غير المقيد بشيء، كقوله لله علي نذر أكثر أهل العلم منهم مالك يوجبون فيه كفارة يمين، كقوله ان فعلت كذا لله علي نذر وفعله، ففيه كفارة يمين، لما روى عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: « كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين » رواه ابن ماجه والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب قالوا وهذا نص في المسئلة فلا يعدل عنه .

والنذر غير الجائز قسمان :

(أحدهما) نذر فعل معصية كشرب خمر ، وقتل معصوم ، وصوم يوم عيد ، أو حيض أو أيام التشريق فيحرم الوفاء به ، لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يعصي الله فلا يعصه » ولأن معصية الله تبارك وتعالى لا تباح في حال من الأحوال ، وهل ينعقد أم لا ، جمهور العلماء على أنه لا ينعقد لأن في قوله فلا يعصه دليلاً على عدم انعقاده ولقوله ﷺ : « لا وفاء لنذر بمعصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود . وأصله في الصحيحين . وقال بعضهم وهو الامام أحمد في الرواية المشهورة عنه ينعقد لأن وجود النذر كوجود اليقين ، وعدم جواز الوفاء به لا يمنع انعقاده ويكفر كفارة يمين . وهذا مروى عن عبد الله بن مسعود وابن عباس وعمران بن حصين وسمرة بن جندب رضي الله عنهم ، وبه قال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى إلا أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى قال فيمن نذر ذبح آدمي معصوم يلزمه ذبح كبش ويطعمه للمساكين ، وهذا القول أحد الروايتين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(الثاني) النذر لغير الله ولأجله عقدت الترجمة ، كالنذر لإبراهيم الخليل ، أو محمد النبي الأمي ﷺ ، أو ابن عباس رضي الله عنهما ، أو الشيخ عبد القادر ، أو الخضر ، أو للملك من الملائكة أو جني أو شجرة فلا خلاف بين من يعتد به من علماء المسلمين أنه من الشرك الاعتقادي ، لأن الناذر لم ينذر هذا النذر الذي لغير الله إلا لاعتقاده في المنذور له أنه يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، إما بطبعه ، وإما بقوة السببية فيه ، ويجلب الخير والبركة ويدفع الشر والعسرة ، والدليل على اعتقاد هؤلاء الناذرين وشركهم حكيمهم وقولهم أنهم قد وقعوا في شدائد عظيمة فنذروا نذراً لفلان وفلان أصحاب القبور من الأنبياء والمشايخ وللغار الفلاني والشجرة الفلانية فانكشفت شدائدهم واستراحت خواطرها ، ويقول أحدهم مرضت فنذرت للشيخ فلان فشفاني وعافاني ، ويقول الآخر خرج علي المحاربون واشتد علي الأمر فنذرت لشيخي ووسيلتي ومعتدي الولي الفلاني ، وانتدبته فأجابني وكشف شدتي وفرج كربتي ، ويقول الآخر ركبت البحر فحصل الطهف وكثرة الأمواج والريح فنذرتنا أصحاب السفينة ، ودعونا الولي الفلاني ، ومعتقدنا الذي في جزيرة أو محل كذا ونذرنا له كذا وكذا فأسكن الريح

وأبطل الموج وركد سفيتتنا فسلمنا واسترحنا فلما قدمنا إلى مكانه ابتدر إلينا سادن القبر يلاقينا قائلاً ان الشيخ أخبرني وهو في قبره ان له عندكم نذر كذا وكذا، وأرسلني إليكم لأقبضه منكم فيوفون فيتعجبون منه ويزيدون له في الاعتقاد فيه والنذر له، وتثبت عندهم ولايته، وضرو ونفعه، فيدعونه ويرجونه ويرسلون له من المكان البعيد شمع العسل يوقد في قبره عند قبره ويأتون إليه بالجوخ وأنواع الحرق يضعونها تغشية على تابوته وإعلاماً عند ضريحه. وقد قام بنفوسهم ان هذه النذور هي السبب في حصول مطلوبهم ودفع مرهوبهم، ومن تأمل القرآن، وسنة المبعوث به ونظر أحوال السلف الصالح، علم أن هذا النذر نظير ما جعلته المشركون لآلهتهم في قوله تعالى: ﴿ هذا لله وهذا لشركائنا ﴾ وقوله: ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ حذو القذة بالقذة واعتقاد هؤلاء في المنذور له أعظم من اعتقاد أولئك في المجهول له، لأنهم يعتقدون فيهم الضر والنفع والعطاء والمنع لا بهم، إذ الأول شرك غالب الآخرين، والثاني هو شرك الأولين، ألا يرى أن الحلف بالله وحده عند هؤلاء لا يرضون به ولا يكتفون ولا يكون عندهم قسماً بل لا يكون قسماً مؤكداً إلا إذا كان بمعتقدهم سواء كان ميتاً أو غيره ولا يقدمون على الحلف به كاذباً خوفاً منه نفسه أن يصيبه بضر في جسده أو ماله أو عياله ويقدمون عليه بالله كاذباً ولا يخافون ولا يبالون بل لا يعدونه يميناً.

هذه عقيدة الخواص منهم لا العوام الطغام فلذلك له يندرون ومنه يرجون ويخافون وعليه يتوكلون وإياه يدعون ويستعينون وبه يستغيثون، ومن خالفهم في ذلك وأنكر عليهم يخرجونه ويدعونه وينالون منه، ولا من الله يبالون ولا يخافون لأن ما اعتقدوه وقالوه هو الدين عندهم وكأنه هو المطلوب منهم، فهؤلاء المشركون مبطلون يضيفون قضاء حوائجهم من المنذور له إلى خصوص النذر مع أن جنسه لا أثر له في ذلك، وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام أن نذر طاعة الله فضلاً عن معصيته ليس سبباً لجلب خير ولا لدفع شر إنما الخير الذي يحصل للناذر يوافق النذر موافقة كما يوافق سائر الأسباب فلا ينسب إليه أثر ولا سيئة فأما نسبة التأثير إليه في جلب الخير أو دفع الشر أو رفعه وأنه من المنذور له أو هو متسبب فيه بشفاعته واسطة للناذر الذي يدعو ويتوكل عليه ويرجوه يشفع له في كل مانابه وكشف مأهمه فلا شبهة أن هذا هو الشرك الأكبر والكفر الاعتقادي لعموم قوله تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله

ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿ وقوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا
 من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ والنذر عبادة قرينة يتقرب بها
 الناذر إلى المنذور له ولتعلق قلبه بواسطته وتألمه له بدعائه إياه ونذره له وتوكله عليه
 ولحديث حصين بن المنذر : (أن رسول الله ﷺ قال له : « يا حصين كم تعبد قال
 سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء قال فمن الذي تعد لرغبتك ورهيتك قال
 الذي في السماء فأمره النبي ﷺ بالإسلام فأسلم خرجه الامام أحمد في مسنده
 والترمذي) ولحديث القوم الصالحين الذين افتتن بهم قومهم خرجه البخاري في
 صحيحه ، وأهل التفسير كابن جرير وغيره ، ولاعتقاد قريش في اللات والعزى
 ومناة ، وأما نسبة السببية في النذر خاصة دون المنذور له فلا يعتقد فيه ضر ولا نفع ولا
 سببية لهما وإنما نذر له ليكون النذر وحده سبباً في حصول المطلوب فهذا نذر
 معصية لا كفر ولا يجوز الوفاء به لقوله ﷺ : « من نذر أن يعصي الله فلا يعصه »
 رواه البخاري عن عائشة ولنبيه ﷺ عن وفاء نذر المعصية لله ، وعن العقر والذبح لغير
 الله رواه الامام أحمد وأبو داود من حديث أنس والنذر لغير الله من ذلك ، وفي معناه
 ولا يجوز الوفاء به وإن تصدق بما نذره من ذلك على مستحقي الصدقة من الفقراء
 الصالحين غير سدة القبور وخادميها العاكفين عليها لقبض النذور كان خيراً له وأنفع
 عند الله تبارك وتعالى ، وجواز الاعتقاد في أن هذا النذر هو السبب في حصول المطلوب
 لا بد له من دليل لا يمكن وجوده على ذلك لنهي النبي ﷺ عنه وإخباره أنه لا يرد
 شيئاً ولا يقدمه ولا يؤخره ولا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدوره له ، كل ذلك مروي
 في الصحيح عنه ﷺ ولو نذر فعل قرينة من صلاة أو ذبح نسك في مكان معد على
 قبر نبي أو صالح أو تمثالهما أو أحدهما وذلك المكان يقصد لدعائه ورجائه أو للدعاء
 عنده أو لم يقصد لذلك ولكن نية الناذر التقرب بعمله لديه والتبتل إليه حرم النذر
 والوفاء مثل تحريمهما في مكان فيه وثن من أوثان الجاهلية أو عيد من أعيادهم ، وذلك
 لما روى أبو داود عن أبي قلابة : (أن ثابت بن الضحاك حدثه قال نذر رجل على
 عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة فأتى رسول الله ﷺ فقال إني نذرت أن
 أنحر إبلاً ببوانة فقال النبي ﷺ : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد » قال
 لا قال : « فهل كان فيها عيد من أعيادهم » قال لا فقال رسول الله ﷺ : « فأوف
 بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم ») وبوانة بضم الباء

الموحدة من أسفل موضع في أرض اليمن ولا تخفى مناسبة الآية والحديث لذكر الترجمة إذ قوله تعالى: ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ شامل لنذر الطاعة والقرية ونذر المعصية المغفورة والمحبطة، وقوله تعالى: ﴿ يوفون بالنذر ﴾ القرآن دال بمنطوقه ومفهومه وصريحه وكنياته أن الله لا يأمر إلا بالطاعة قولاً وعملاً واعتقاداً، وينهى عن المعصية قولاً وعملاً واعتقاداً، فتعين أن يكون الحث على الوفاء بالنذر ومدح الوافين إذا كان في طاعة الله وقرية إليه وإلا فهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ حنفاء لله غير مشركين به وقوله: ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ ومن أعظم الزور والفواحش معاصي الله بأنواعها الشاملة للنذر لغيره تعالى سواء كان نذر شرك أصغر أو كان شركاً أكبر فإن النذر لغير الله لا يتناول إلا هذين النوعين ولا يخرج عنهما فلا ينعقد. وجواز الوفاء به متوقف على انعقاده وعدم الاثمية فيه، فذا عن اللزوم، هذا الذي عليه العلماء جملة لا كما زعمه صاحب المقدمة فإنه إنما نفى اللزوم خاصة وأسنده إلى اتفاق العلماء وأبقى جواز الوفاء به وصنيعه يدل على عدم فهمه وقصور اطلاعه، فإن نصوص العلماء قاطبة ناطقة بعدم جواز الوفاء بنذر المعصية وعللوا بنهيه صلوات الله وسلامه عليه عن عصيان الله بالنذر وفيه، ولأن في الجواز تقريراً لمعصية الله وهي منتفية شرعاً وعقلاً هذا مع اختلافهم في انعقاد نذر فعل المعصية كقطيعة رحم وقتل معصوم وشرب خمر وصوم يوم عيد، وتقدم أن الجمهور لا يرى انعقاده وإن من رآه لا يجوز الوفاء به بل يوجب فيه كفارة اليمين، وإن أبا حنيفة رحمه الله تعالى يوجب في نذر قتل المعصوم ذبح كبش وإطعامه المساكين، وأما النذر لغير الله فإنه وإن كان نوعاً منه فلا أحد ممن يعتد به من العلماء يقول بجوازه أو انعقاده أو جواز الوفاء به، نعم قال بعض العلماء من الشافعية وغيرهم فيمن نذر لميت أو نحوه شمعاً أو زيتاً ونحوه وقصده أن يكون نذره وسيلة في قضاء ماطلبه أو منع ماقصده ولم يقصد ذلك من الميت نفسه ولا أن يكون سبباً فيه أن هذا النذر حرام لايجوز الوفاء به وإن تصدق بثمن مانذره من ذلك أو عينه على المساكين المستحقين كان خيراً له عند الله تبارك وتعالى وأنفع انتهى، وقوله عليه السلام: « ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » وقوله: « أنه لاوفاء لنذر في معصية » شامل لكل نذر معصية إما هو بنفسه أو ماهي وصف له، وإن لم يكن هو معصية كنذر الرجل نحر الإبل وذبح النسك أو فعل قرية في مكان معهود فيه

شرك، وماهو من أفعال الجاهلية فإن الحكم يتبع الوصف لإيجاداً، وإعداماً، جوازاً، ومنعاً، وهو سبب للحكم فإن وجد فهو مانع من الوفاء وإن لم يكن النذر في نفسه معصية الله، كفعل القرية، ولذلك سأل النبي ﷺ الرجل لما قال يا رسول الله إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة فقال له هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد قال لا قال فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قال لا قال فأوف بنذرك فإنه لأوفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم، رواه أبو داود في سننه وغيره، فلما ظهر للنبي ﷺ عدم المانع لجواز الوفاء وهو فقد الصفة المحرمة في الصورتين قال له فأوف بنذرك، يعني حيث ليس هناك ما يوجب تحريم الذبح في ذلك الموضع فكان جوابه ﷺ فيه أمر بالوفاء عند الخلو من الصفة المانعة للنذر الجائز مع فقدها، ونهى عن الوفاء به مع وجودها، وأصل الوفاء بالنذر الجائز معلوم. فبين ﷺ مالا وفاء فيه واللفظ العام إذا ورد على سبب فلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه والله أعلم.

الاستعاذة بغير الله وتفصيل الكلام فيها

(وأما قولكم وقوله ومن الاشراك الاستعاذة بغير الله فهذا غير مسلم أنه من الاشراك الاعتقادي وما استدل عليه من قوله وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن لا دلالة فيه عليه أصلاً).

فنقول قد تقدم تعريفنا معنى الاستعاذة في أول الكتاب عند قوله ونعوذ بالله من شرور أنفسنا والاستعاذة الالتجاء إلى الله والملاذ بجانبه من كل شر، والعياذ يكون لدفع الشر، والملاذ لطلب الخير كما قال المتنبي :

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يجير الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضمون عظماً أنت جابره

ومن لاذ واستجار واعتصم بغير الله فقد خاب وخسر وأشرك في قوله واعتقاده، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَيْثُ وَعَدَّتْكُمْ مِنَ دُونِ اللَّهِ مَنْ لِيْ وَلِي وَلَا نَصِيرَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ فبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات بل بالقرآن كله أن ليس دونه خلقة ولي ولا نصير، وإن لأحد يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً فلا يوجدان إلا بتقديره ومشيتته، وأنه الخالق للسبب والمسبب، وأن النزغ من الشيطان والاستعاذة منه لا تكون إلا بالله السميع العليم، وإن ليس للعين سلطان قهر وغلبة واستيلاء على عباد الله المنقادين لأمره المؤمنين به وبرسله ومأرسلوا به المفوضين أمورهم إلى خالقهم وإلههم فلا يتمكن من قلوبهم فيصددهم عن ذكره وتوحيده فيقعوا في ذنب لا تجامعه المغفرة، بل إنما يكون ذلك على أوليائه المنقادين لأمره الذين يتولونه والذين هم به مشركون، لأعراضهم عن توحيد خالقهم، والاستعاذة بغير الله أعراض عن توحيده ونفي لتفرده تعالى بملك الضر والنفع والعطاء والمنع والاستغاثة والقرب، وتعطيل لمعاملته وأفضاله مزیده، والمستعید بغيره متخذ ولياً ونصيراً من دونه لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.. إِلَى قَوْلِهِ... إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ فمن استعاذ بغير الله على هذا الوجه فهو بمن استعاذ به مشرك في قوله وعقيدته إذ تعلق قلبه في المستعاذ به من المخلوقين برجائه والملاذ به، والاتجاء إليه، والتوكل عليه، هو الحامل والمقتضي له على الاستعاذة به، وذلك هو الشرك الاعتقادي، ولهذا كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفرة أي خالية قال أعوذ بسيدي هذا الوادي من شر سفهاء قومه فبييت في أمن وجوار منهم حتى يصبح فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رَجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِأَيِّ يَلُودُونَ وَيَسْتَعِيزُونَ بَرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي فزاد الإنس الجن المستعاذ بهم رهقاً، سفهاً وإثمًا وطغياناً بقولهم سدننا الإنس والجن وكذا

ما في صحيح مسلم عن خولة بنت حكيم قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من دخل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » وفي المسند للإمام أحمد عن أبان بن عثمان عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: « من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم لم يضره شيء » قال الخطابي قال العلماء لا يستعاذ بغير الله أو صفاته، إذ كل ما سواه تعالى وصفاته مخلوق، ولذلك وصفت كلماته تعالى باتمام وهو الكمال، وما من مخلوق إلا وفيه نقص والاستعاذة بالمخلوق شرك مناف لتوحيد الخالق لما فيه من تعطيل معاملته تعالى الواجبة له على عبده انتهى .

وهذا احتج السلف كالامام أحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق قالوا وقد استعاذ النبي ﷺ بكلمات الله التامات فلا يستعاذ بمخلوق، ولما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً » فنهى عن الرقى التي فيها شرك كالتي فيها استعاذة بالمخلوقين الجن أو غيرهم، قال تعالى: ﴿ وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال... الآية ﴾ ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والاقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره التي تتضمن الشرك، بل نهوا عن كل مالا يعرف معناه، من ذلك كما تقدم خشية أن يكون فيه شرك بخلاف ما كان من الرقى المشروعة فإنه جائز، وما يؤيد أن الاستعاذة بالمخلوق شرك اعتقادي، جعل المستعيز نصيباً من ماله مأكولاً كان أو غيره لمن استعاذ به من الجن لائذاً به وعائذاً ليرفع عنه أو غيره ما حل به من المس واللمم أو يدفع ما يحذره من سائر الالم قائلاً أعوذ وألوذ بفلان وفلان ومن ساد من انس وجان من شر كذا وكذا ثم ينحر النحية لسكان الأرض من الجيران ليرفعوا عنه أو يدفعوا ما حل به وكان، ويدس ما حره لهم في التراب ليكون لهم خالصاً وبهم سائغاً، وبعضهم يقول أعوذ بأبي الجان وشهاب الشيطان من العين وما كان من شر كيت وكيت، ونحو هذه الاستعاذات التي هي شرك اعتقادي من هؤلاء المفتونين عبدة الشياطين، ولفظ الاستعاذة بالمخلوق شرك قولي ناشيء عن الاعتقادي، فقول صاحب المقدمة الاستعاذة بغير الله غير مسلم أنه من الاشراك الاعتقادي دال بصرحه على أنه لم يميز اللازم من الملزوم ولم يعرف المقتضي المشؤم وذلك من وجوه .

(أحدها) أنه مادليله فيه إلا أنه لا يسلم من غير دليل من الكتاب والسنة

وكلام الأئمة غرضه ولا استدلال قصده .

(الثاني) أن قوله تعالى : ﴿ وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ دالة الآية بمنطوقها ومفهومها ان الاستعاذة بغيره تعالى من الجن واقعة اعتقادية ، لحديث كردم بن أبي السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي إلى المدينة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة وآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فنادى يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لانراه ياسرحان أرسله فإذا الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة فأنزل الله على رسوله ﷺ الآية .

(الثالث) أنه لو لم يعتقد فيه القدرة على تحصيل ما يرومه منه ودفع ما يخشى شره لما استعاذ به .

(الرابع) نفية الاستدلال بالآية على أن الاستعاذة بغير الله شرك اعتقادي لقوله لادلالة فيه عليه أصلاً والله قد أنزلها بسبب الشرك الاعتقادي في عامر الوادي .

(الخامس) ان حكم الآية عام في كل مستعيز بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى إذ العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب مع ملاحظته وعدم القصور عليه .

(السادس) ما قاله عبد الرحمن الجلال السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى ان من التلاوة على الجن المستفاد من شروهم بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول رب العالمين إلى من طرق الدار من العمار والزوار والصالحين لا طارق يطرق إلا بخير يارحمن ، أما بعد : فإن لنا ولكم في الحق سعة فإن تك عاشقاً مولعاً أو فاجراً مقتحماً أو راعياً حقاً مبطلاً هذا كتاب الله ينطق علينا وعليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ورسلنا يكتبون ما تمكرون اتركوا صاحبنا هذا وانطلقوا إلى عبدة الأصنام وإلى من يزعم أن مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ، تغلبون لاتنصرون ، تفرق أعداء الله بلغت حجة الله

ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم، دال بمنطوقه على أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله لأنه ذكر صفة ماكانه في كتاب النبي ﷺ رسول الله إلى سائر الانس والجن إلى من طرق الدار من العمار والزوار والصالحين طالباً منهم فيه الحق على ضمن ما في كتاب الله وهو القرآن من تحريم ظلم المسلمين عليهم فلا يظلمونهم ولا يتعدون عليهم، بل يفعلون ما حكم عليهم القرآن وطلبه منهم ويتركون ما نهوا عنه، ولذلك قال هذا كتاب الله ينطق علينا وعليكم بالحق، فإن القرآن الكريم ناطق بتحريم ظلم المسلمين بعضهم بعضاً. حاكم بذلك على الانس والجن، ولهذا قال بلغت حجة الله، وناسبت الحوقلة في هذا الحال لأنه أمر مهم وما ذكرت على كل مهم إلا فرجه الله، ثم استكفاهم الله السميع العليم فقال فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم.

نداء غير الله هو الدعاء الذي هو العبادة

(وأما قولكم وقوله باب قوله تعالى ﴿ أَيْشُرْكَونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ يعني من يدعو غير الله نبياً أو غيره يكون مشركاً كما يدل عليه سياق كلامه قلنا ان أردت من الدعاء العبادة كما هو معنى الدعاء في الآية فمسلم لكن لانسلم أن الداعي غير الله يعبد به بل إنما يناديه ويلزم من النداء ذلك وإلا لزم تكفير كل من نادى غيره ولا يقول به أحد من الأمة بل من جميع الأمم) .

فنقول من له أدنى لب من عقل ومعرفة في أي فن عرف بهما حق الله الخاص بجلاله وهو عبادته التي أمر بها في النص المتضمنة السؤال من نيل أفضاله وحق المسلمين بعضهم على بعض وما يقدرون عليه، ففرق بين العادة والعبادة، فإنها اسم جامع لكل ما يحبه ويرضاه، وثبت عليه مما أمر به من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ثم ان كان ما أمر به مخصصاً بجلالة لفظه ومعناه فلا يصرف لغيره تعالى من ذلك الدعاء بما لا يقدر على جلبه أو دفعه أو رفعه إلا الله وحده، فمن دعا به غير الله

من سائر الخلق واستعان به فيه فقد عبده به، وهذا المعنى مما عناه المفسرون تحت قوله تعالى: ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ في قولهم أي تعبدون وقوله ﴿ والذين تدعون من دونه أي تعبدون، وأمثال ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ فإن المشركين لما أحبوا مع الله كحب الله وطنوا أن ماتألفته قلوبهم تشفع لهم عند الله وتقربهم منه دعوهم لذلك واتمسوا البركة عندهم راجين الشفاعة منهم واتخذوهم أسباباً في قضاء حوائجهم من عند خالقهم، ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وإذا كان اتخاذهم أسباباً في قضاء حوائجهم من عند الخالق ودعاؤهم ورجاؤهم إياهم في ذلك يكون عبادة لهم مع إقرارهم بربوبيته تعالى وملكه وجميع الكائنات وأنه تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء وهو الذي يجير ولا يجار عليه فهو الضار النافع المعطي المانع، فكيف بمن اعتقد الضر والنفع والعطاء والمنع فيمن دعاه وسماه وسيلة وزعم أن الله جل شأنه قد أمر بذلك فهو يدعوه قضاء حوائجه وتفرج كرباته والبركة في ماله وأولاده ويتبتل إليه في ذلك وليس معه من التوحيد إلا مجرد ادعاء، لأن صنيعة ذلك في قوله وفعله وعقيدته مكذب له فيما ادعاه بجعله نداً له مماثلاً له في عبادته ومعاملته المختصة بجلاله، فمعنى قوله تعالى أيشركون أي يعبدون بما هو مخصص بجلال الله خالق جميع المخلوقات ورب كل الكائنات من نسبة عيودية أسماء المخلوقين إليه وتوكلهم في رجائهم وجميع أمورهم عليه فيجعلون ذلك لغيره وهو مالا يقدر على خلق شيء وهم يخلقون أي مخلوقون ومالا يقدر على خلق شيء لا يتأله في العبادة فلا يتخذ لها معبوداً لا في القول ولا في الاعتقاد، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين سأل النبي ﷺ أي الذنب أعظم قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » والند المثل قال الله: ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ والداعي غير الله فيما لا يقدر عليه غيره سبحانه وتعالى جاعل لله نداً من خلقه فيما يستحقه تعالى من الألوهية المقتضية للرهبة والرغبة والاستعاذة وذلك كفر باجماع الأمة لأن الله سبحانه

وتعالى هو المستحق للعبادة لذاته فإنه المألوه المعبود الذي تأله القلوب بالرغبة لديه والفرع عند الشدائد إليه، وماسواه فهو مفتقر بالعبودية مقهور بها، فكيف يصلح أن يكون إلهاً مرغوباً مرهوباً مدعواً قال الله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ وقال تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ وقال: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون... الآية﴾ وقال تعالى: ﴿قل إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ فالله هو المستحق أن يدعى ويرجى ويعبد بكل ما أمر به لذاته قال الله الحمد لله رب العالمين فذكر الحمد بالألف واللام التي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد فدل على أن الحمد كله لله ثم حصره في قوله إياك نعبد وإياك نستعين فهو تفصيل لقوله الحمد لله رب العالمين .

(إذا علم هذا) فالمقصود من قوله تعالى ﴿أبشركون ما لا يخلق شيئاً الآية﴾ وقوله ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ الآية إقامة الحجة على أن كل ماسوى الله لا يصلح إلهاً معبوداً لأنه غير خالق لأفعال نفسه ولا غيرها فلا يدعى بما لا يقدر على جلبه أو دفعه إلا الله وحده، ولا تنسب عبودية المخلوقين إليه ولا يرجى ولا يتوكل عليه بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره المشركون ولذلك قال والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير الذي هو قشر النواة ولفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين .

(أحدهما) دعاء العبادة وهو دعاء الله لامتناله أمره في قوله عز وجل: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لهم... الآية﴾ .

(الثاني) دعاء المسئلة وهو دعاؤه سبحانه في جلب المنفعة ودفع المضرة بقطع النظر عن الامتنال، ولفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معناه، وهو الدعاء الشامل للعبادة والمسئلة، وقد فسر قوله تعالى وقال ربكم ادعوني استجب لكم بوجهين :

(أحدهما) ما هو عام في الدعاء وغيو وهو العبادة وامتنال الأمر له سبحانه وتعالى أستجب لكم أي أثبتكم كما قال في الآية الأخرى ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات أي يثبتهم على أحد التفسيرين ويزيدهم من فضله .

(الثاني) ما هو خاص، معناه سلوني أعطكم كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا بثلاث الليل الآخرة فيقول من يدعوني فأستجب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » فذكر أولاً لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار . والمستغفر سائل كما أن السائل داع، لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام، وهذا المعنى الثاني أعني الخاص هو الأظهر لوجهين .

(أحدهما) ما رواه النعمان بن بشير قال قال رسول الله ﷺ: « ان الدعاء هو العبادة » وفي رواية مخ العبادة ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم... الآية ﴾ رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح، فاستدل به عليه الصلاة والسلام بهذه الآية على الدعاء دليل على أن المراد منها سلوني، وخطاب الله لعباده المكلفين بصيغة الأمر منصرف عند الأصوليين إلى الوجوب مالم يقم دليل يصرفه إلى الاستحباب، ومفيد أيضاً قصور فعله على الله فلا يجعل لغيو حيث كان عبادة قولية أو فعلية، ولهذا أمر الله الخلق بسؤاله فقال تعالى (واسألوا الله من فضله) وفي الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: « سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يسأل » وفيه عن أبي هريرة مرفوعاً: « من لا يسأل الله يغضب عليه » وفيه أيضاً أن الله يحب الملحين في الدعاء، وفي حديث آخر ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع، وفي المعنى أحاديث كثيرة صحيحة .

(الثاني) قوله تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ وكل سائل راغب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو أيضاً

راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابده قال
 تعالى: ﴿انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا﴾ وقال
 تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ ولايتصور أن
 يخلو داع الله دعاء عبادة أو دعاء مسئلة من الرغب والرهب والخوف والطمع والرغبة
 إلى الله والرغبة والخوف منه والطمع عنده ليس ذلك يكون لغيره فلا يصرف ما هو
 مستحق به إلى غيره من سائر الخلق إذ فيه تعطيل معاملته المقتضية لإلوهيته
 وصمديته مع عجز المدعو وضعفه وافتقاره إلى خالقه فإن توحيد الالهية يتضمن
 اخلاص ذلك كله له قال جل شأنه: ﴿له دعوة الحق﴾ وقال: ﴿فلا تدعوا مع الله
 أحدا﴾ وقال: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ وقال: ﴿قل لا أملك
 لكم ضرراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا﴾
 وقال: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب
 لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ وقال
 تعالى: ﴿ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون
 بشرككم ولا ينبئك مثل خبير يا أيها الناس أنعم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن
 يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾ والشرك بالرجل المعتقد
 صلاحه وقربه وولايته أو بقبه أقرب إلى النفوس وأحب إليها من الشرك بخشية أو حجر
 مصور على صورته وتمثاله فمن دعا غير الله بما لا يقدر عليه الخلق أو قال أن المعطي أو
 المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل أحد غير الله أو معه فقد أشرك في ربوبيته
 وعطل معاملته وعبادته المقتضية لإلوهيته وصمديته، ولهذا قال النبي ﷺ لابن عباس
 رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء
 قد كتبه الله لك أو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك
 رفعت الأقلام وجفت الصحف» قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح فهذا
 يدل بصرحه على أنه لا نفع ولا ضرر ولا قبض ولا بسط ولا خفض ولا رفع ولا حركة ولا سكون
 إلا والله سبحانه هو فاعله وخالقه وقابضه وباسطه ورافعه وحافظه، فلا يدعى ولا يرجى
 غير الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يستعان إلا به، كما قال علي رضي الله عنه لا يرجو عبد إلا
 ربه ولا يخاف عبد إلا ذنبه، والرجاء بفضل الله ورحمته، وهذا المشهد فيه الكلمات

الكونيات وهو علم معرفة صفة الربوبية الأول، وعلم معرفة صفة الألوهية الثاني، وهو كشف التكليفات، فالتحقيق بالأمر والنهي والحبّة والخوف والرجاء يكون عن كشف علم الألوهية، والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية، وهو علم التدبير الساري في الأكوان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإذا تحقق بهذا المشهد ووقفه الله تعالى لذلك بحيث لا يحجبه مشهد الربوبية عن مشهد الألوهية فهو السعيد في العبودية، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين، فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم والجمال داخل في مشهد الألوهية، وجميع مشاهد العظمة والكبرياء والملك والقهر والجلال داخل في مشهد الربوبية، ولهذا قيل إن هذه الآية جمعت سر القرآن، بل سائر الكتب الإلهية كلها ترجع إليه وتدور عليها، أعني إياك نعبد وإياك نستعين، لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي والحبّة والخوف والرجاء الذي لازمه الدعاء والابانة والرغبة والرهبّة والتوكل، وآخرها اقتضى عبادته بالتفويض والتسليم وترك الاختيار، وجميع العبوديات داخلة في ذلك، فلا يدعى بما لا يقدر عليه إلا الله غيـو، ولا يرجى فيه إلا هو، ولا يستغاث إلا به، لأنه لا حول وهي الحركة والتحول من حال إلى حال، ولا قوة على ذلك الحول إلا بالله، سواء ذلك الحول والقوة الموجود في السماء والأرض والآدميين والملائكة والجن وسائر الدواب وغيرها: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ شَفَعَ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ مامن شافع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴿وقال النبي ﷺ للحصين كم تعبد قال ستة في الأرض وواحد في السماء قال فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك قال الذي في السماء... الحديث، رواه الامام أحمد والترمذي. فهذا يوجب انقطاع تعلق القلب بغيره تعالى وإن كان ملكاً أو نبياً فكيف بالمشايخ الأولياء العلماء، أو بالفجار الدجالين الأشقياء، فإن غاية الراجي لهم الداعي منهم المتوكل عليهم أن يقول مرادي يشفعون لي، فقطع سبحانه مادة ذلك كله قطعاً شافياً، فأخبر تعالى في محكم كتابه أنه مامن شافع إلا من بعد إذنه، ونفى أن يشفع أحد لأحد إلا بإذنه، وأعلن بأن سائر الشفعاء لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون وقال يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً ولهذا إذا جاء سيد الشفعاء وأفضلهم

ﷺ يوم القيامة ورأى ربه سجد له وحمده بمحامد يفتحها عليه ولايتدىء بسؤال الشفاعة حتى يقال له أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع .

والموفق إذا حقق قيام الله تبارك وتعالى على جميع الأشياء وتصرفه في جميع الكائنات وتدبيره أمور كل المخلوقات أغناه ذلك عن التعلق على سواه فأخلص له توكله ورجاءه ودعائه والتجاءه بقصوره ذلك على سيده ومولاه فيما أسره وأبداه من جلب خير ينفعه، أو كشف ضر يضره، وهو القائم على كل نفس بما كسبت فأمره نافذ فيها، وقضاؤه وقدره حاكم عليها، وأزمة الأمور كلها في يده ومرجعها إليه ومدعى الإيمان بذلك لازمة الشهادة في قوله وعقيدته بأن المعطي والمانع والضار والنافع والخالص والرافع والمز والمذل هو الله وحده ، وأن الأمر كله له والشفاعة كلها له والدين هو له وحده ، مختص بجلاله فلا يتأله بدعاء ما لا يقدر عليه إلا الله غيره، ولا يرجو إلا هو ولا يتوكل إلا عليه، ولا يعتقد أن جالب الخير أو كاشف الضر إلا الله وحده، فإن أسدى إليه أحد من الخلق معروفاً لقدرتهم عليه كان نظره أولاً إلى الخالق فيشكره على ما أولاه من نعمه فإنه سبحانه المعطي للمخلوق ما أسداه وحببه إليه وقواه عليه، ثم لينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه ويشني عليه خيراً لقوله عليه السلام: « من أسدى إليكم معروفاً فكافؤه فإن لم تكافؤه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » رواه أبو داود في سننه وأخرجه الترمذي وقال صحيح وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال قال رسول الله: « من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الشاء » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: « من أعطى عطاء فوجد شيئاً فليكافئه به فإن لم يجد فيشني فمن أثني به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره » رواه أبو داود، وذلك لأن النعم كلها من الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ وقال: ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ﴾ فإن الله سبحانه هو المعطي على الحقيقة فإنه الذي خلق الأرزاق كلها وقدرها وساقها إلى من يشاء من عباده وإذا حقق ذلك عاملاً به كان مستعيناً بالله متوكلاً عليه راغباً وراهباً إليه ولأن في استعانة الله وحده فائدتين .

(الأولى) أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في أعمال الطاعات .

(الثانية) أنه لأمعين له على صالح دينه وديناه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » وكان النبي ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا : « الحمد لله نستعينه ونستهديه » ومن دعاء القنوت الذي كان يدعو به عمر وغيره اللهم إنا نستعينك ونستهديك، وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وكان من دعائه عليه رب أعني ولا تن علي، وفي دعائه أيضاً عليه لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك لك العتبي حتى ترضى ولاحول ولا قوة إلا بك » وكان من دعاء موسى عليه الصلاة والسلام لما ضرب البحر فانقلب : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولاحول ولا قوة إلا بك » .

وإذا كان هذا الدعاء وأمثاله هو دعاء العبادة المشتغل على الاستعانة من رب العالمين بالنص عند كل علماء المسلمين، فلو صرف لغير الله من سائر الخلق لكان معبوداً به، والداعي عابد المدعو ومستعين به ومتوكل عليه، ولا يقال ليس هو عابداً ولا مستعيناً لأنه إنما يناديه فقط، فيصرف العبادة والاستعانة وجود النداء كما فهمه صاحب المقدمة معللاً لزوم العبادة كل منادي، وعدم تكفير كل من نادى غيره، لأننا نقول علة التكفير وجود دعاء العبادة الشاملة لدعاء المسئلة التي هي حق الله، وصرفه إلى غيره سواء وجد النداء أو لم يوجد، وليس العلة وجود النداء نفسه خالياً من العبادة، وهذا يعلم ما ذكره المفسرون تحت قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ أي تعبدون ﴿ والذين تدعون من دون الله ﴾ أي تعبدون وأمثاله، وذلك لأن العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في كل الأفعال المأمورات، وفي ترك المحظورات، وفي

الصبر على المقدورات ، كما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ﴿ فصبر جميل والله المستعان
 على ما تصفون ﴾ ولهذا قالت عائشة هذه الكلمة لما قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها
 الله مما قالوا، وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، وقال تعالى لبنيه ﷺ : ﴿ وقل
 رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ ولما بشر النبي ﷺ عثمان
 بالجنة على بلوى تصيبه قال: الله المستعان، ولما دخلوا على عثمان فضربوه جعل يقول
 والدعاء تسيل عليه لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني
 أستعينك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني، وروى أبو
 طلحة أن النبي ﷺ قال في بعض غزواته حين لقي العدو: « يا مالك يوم الدين
 إياك نعبد وإياك نستعين » قال أبو طلحة فلقد رأيت الرجال تصرع . أخرجه أبو
 الفتح الأصبهاني فالعبد محتاج في مصالح دينه ودنياه، وكل ما لا يقدر عليه إلا الله منهما
 لا يجوز أن يسأل من غيره فلا يعبد إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يستعان إلا به، لأن
 ما سواه مفتقر إليه مقهور بالعبودية، فكيف يصلح أن يكون معبوداً قال عز من
 قائل: ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ ولهذا لما سأل ربيعة بن
 كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ مرافقته في الجنة وكان خادماً له يأتيه بوضوئه
 وحاجته فقال سلني فقلت أسألك مرافقتك في الجنة فقال أو غير ذلك فقلت هو
 ذلك قال فأعني على نفسك بكثرة السجود، رواه مسلم، لم يادر ﷺ بقوله نعم
 افعل أجعلك معي إشارة إلى أن الأمر بيد الله وأن كثرة السجود بإخلاص هي
 الوسيلة في قضاء الحاجة ونيل المسؤول والسائل لم يسأل النبي ﷺ أن يدخله الجنة
 وإنما سأل أن يكون رفيقاً له في الجنة ومعناه صحبته وعدم فراقه فيه كحالته معه في
 الدنيا فأجابه ﷺ بقوله فأعني على نفسك بكثرة السجود تعليماً له أن نفس دخول
 الجنة ثابت بوعد الله تعالى لمن مات لا يشرك به شيئاً فهو رحمة من الله وفضل ورفع
 الدرجات، ومرافقة الصالحين الأجباب بسبب كثرة الأعمال الصالحة وإخلاصها لله
 على أن سؤاله النبي ﷺ مرافقته الجنة معناه دعاء الله أن يكون كذلك، كما قاله
 المحققون من أهل العلم واتفقوا على أن النبي ﷺ لا يسأل بعد موته لاستغفاراً ولادعاءً
 ولا غيرهما فإن الدعاء عبادة مبناها على التوقيف والاتباع لا على الأهواء والابتداع ولو
 كان هذا من العبادات لسنه الرسول ﷺ ولكان أصحابه أعلم بذلك وأتبع له، وقوله

تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك... الآية﴾ فاتيانه ﷺ للاستغفار مخصوص بوجوده في الدنيا، ولهذا لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين مع شدة احتياجهم وكثرة مدلماتهم، وهم أعلم بمعاني كتاب الله وسنة رسوله وأحرص اتباعاً لمثله من غيرهم، بل كانوا ينهون عنه وعن الوقوف عند القبر للدعاء عنده، منهم الإمام مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعي وهم من خير القرون التي قد نص عليها النبي ﷺ في قوله خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قال عمران لا أدري أذكر ثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه، رواه البخاري في صحيحه مع أنه ﷺ حي في قبره حياة برزخية أقوى من حياة الشهداء ولكنه قد انتقل من هذه الدار إلى دار القرار بنص الكتاب والسنة واجماع الأمة، ولهذا استسقى أصحابه بعمه العباس كما رواه البخاري عن أنس، ولم يأتوا إلى قبره ولا وقفوا عنده وماذهب إليه طائفة من متأخري الفقهاء من استغفار الله في حضرة القبر مستندين إلى الآية وقصة الأعرابي فلا يعتد به لما تقدم عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وقولهم في معنى الآية ومثل هذه الحكاية لاثبت بها حكم شرعي لاسيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعاً مندوباً لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأولى بالعمل من غيرهم بل لو لم يكن مكروهاً عندهم شديداً لما نهوا عنه وعن فعله وليس الدين بالعقل إنما هو بالتوقيف والنقل كيف وقد آل بهم هذا الأمر إلى الفتنة العظمى التي هي الشرك بالله من دعائه ورجائه والتوكل عليه ﷺ.

(وأما حق المسلمين) بعضهم على بعض مما يقدرون عليه والعادة جارية فيه بينهم فمنه توادهم وتعاطفهم وتراحهم والنصح لهم والتيسير على معسرهم ومعاونة أخرقهم، وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر » وفي رواية لمسلم: « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر » وفي رواية له أيضاً: « المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينيه اشتكى كله وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله » وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وفيه أيضاً عن أبي هريرة رضي
 الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله
 عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة
 ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان في عون
 أخيه... الحديث » وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي
 ﷺ قال: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يذلّه ومن كان في حاجة أخيه كان الله
 في حاجته ومن فرج عن مسلم فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر
 مسلماً ستره الله يوم القيامة » وخرج الطبراني من حديث كعب بن عجرة رضي الله
 عنه عن النبي ﷺ قال: « من نفس عن مؤمن كربة من كربته نفس الله عنه كربة
 يوم القيامة ومن ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته ومن فرج عن مؤمن كربة فرج
 الله عنه كرفته » وخرج الإمام أحمد من حديث مسلمة عن مخلد عن النبي ﷺ
 قال: « من ستر مؤمناً في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة ومن نجى مكروباً فك الله
 عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » فقوله
 ﷺ من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم
 القيامة هذا يرجع إلى أن الجزاء من جنس العمل وقد تكررت النصوص من هذا المعنى
 كقوله ﷺ: « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقوله: « إن الله يعذب الذين
 يعذبون الناس في الدنيا » والكربة هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب،
 وتنفيسها أن يخفف عنه منها مأخوذ من تنفس الحناق كأنه يرخي له الحناق حتى
 يأخذ نفساً، والتفريح أعظم من ذلك، وهو أن يزيل عنه الكربة فتفرج عنه كرفته ويحول
 همه وغمه، فجزاء التنفس وجزاء التفريح والتفريح، كما في حديث ابن عمر رضي
 الله عنهما وقد جمع بينهما في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه وعن أبي هريرة
 رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « حق المسلم على المسلم خمس رد السلام
 وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس » متفق
 عليه، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ولا نذكر ثبوت حق المسلمين بعضهم على
 بعض ولا مناداة بعضهم بعضاً فيما يقدر عليه الخلق من سائر أمورهم الجارية بينهم
 وإنما قولنا وإرادتنا في عبادة الله وحده التي ليس لخلقها منها شيء ألبتة، وذلك يوجب

الاعتماد على الله في القول والاعتقاد الشامل لجميع الأحوال، ولهذا يذكر الله الأسباب وينهى عن الاعتماد عليها، ويأمر بأن لا يرجى إلا الله وحده، كما قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿ وما جعله الله إلا بشئى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ وقال: ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقد قدمنا أن الدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسئلة، وكلاهما لا يصلح إلا لله. فمن جعل مع الله إلهاً آخر فقد مذموماً مخذولاً، والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله ولا يسأل غيره، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « ماأتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذهُ وما لا فلا تتبعهُ نفسك » والمتشرف الذي يستشرف بقلبه، والسائل الذي يسأل بلسانه، وفي الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: (أصابتنا فاقة فجئت إلى رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول: « أيها الناس والله مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم وأنه من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر والاستغناء أن لا يرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه ») ولهذا كان الغنى غنى القلب كما قال النبي ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » ولهذا قيل:

إذا رزقت من الدنيا قناعة فأنت وما لكها سواء

والاستعفاف أن لا يسأل بلسانه أحداً، ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال قطع الاستشراف إلى الخلق، أي لا يكون في قلبك أن أحداً يأتيك بشيء، فقيل له فما الحجة في ذلك فقال قول الخليل لما قال له جبريل هل لك من حاجة فقال أما إليك فلا، فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله، ولهذا قال المكروب لا إله إلا أنت، ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: « لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد، ومسئلة العبد ربه وتعلق رجائه به

وحده لا شريك له، وفي لفظ خير يتضمن الطلب والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله فقول العبد مخلصاً من قلبه له حقيقة أخرى وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله، فيتيقن محقق التوحيد العامل بالطاعة أنه لا نفع ولا ضرر ولا عطاء ولا منع إلا من الله وحده، فإن سأل مخلوقاً شيئاً يقدر عليه الخلق من أمورهم الجارية بينهم فحصل له ما سأل أو منع منه كان نظره إلى الخالق في أنه سبحانه المعطي لهذا المسؤول ما أسداه وحببه إليه وقواه عليه، أو لم يقدر منه شيئاً بل كره دفعه إليه فمنعه عنه وإن يكن الدفع واجباً فمنعه المسؤول قادراً عليه عوقب شرعاً مع بقاءه مكلفاً مختاراً لعموم خطاب الشرع له ومع جواز سؤال الخلق بعضهم بعضاً مما يقدرون عليه من أمورهم الدنيوية فسؤال الله دون خلقه مطلقاً هو المتعين عقلاً وشرعاً وذلك من وجوه متعددة .

(منها) أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل وذلك لا يصلح إلا لله وحده، وهذا هو حقيقة العبادة التي تختص بإله الخلق كلهم، ولهذا كان الإمام أحمد يقول في دعائه: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسئلة لغيرك وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

ماعتاض باذل وجهه بسؤاله	بدلاً وإن نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته	رجح السؤال وخف كل نوال
فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً	فابذله للمتكرم الفضال

ولهذا المعنى كان عقوبة من أكثر المسئلة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم كما ثبت ذلك في الصحيحين لأنه أذهب عز وجهه وصيانتة وما ياتيه في الدنيا فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهائه المعنوي فلا يبقى له عند الله وجاهة، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من الصحابة أن لا يسألوا الناس شيئاً منهم الصديق وأبو ذر وثوبان فكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله رضي الله عنهم .

(ومنها) أن سؤاله الله عبودية عظيمة لأنها إظهار للإفتقار إليه واعتراف بقدرته على قضاء الحاجج وفي سؤال المخلوق ظلم لأن المخلوق عاجز عن جلب الخير

لنفسه ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره، وسؤاله إقامة له مقام من يقدر وليس هو بقادر، ويشهد لهذا المعنى الحديث الذي في صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ: « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » وفي الترمذي وغيره زيادة في هذا الحديث: « وذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » فكيف يسأل الفقير العاجز ويترك الغني القادر إن هذا إلا عجب العجب .

(ومنها أن الله) يحب أن يسأل ويفضض على من لا يسأله فإنه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه ويحب الملحين في الدعاء .

(ومنها) أن الله يستدعي من عباده سؤاله وينادي كل ليلة هل من سائل فأعطيه سؤاله هل من داع فأستجيب له وقد قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ فأي وقت دعاه العبد وجده سميعاً قريباً مجيباً ليس بينه وبينه حجاب ولا أبواب .

الاستغاثة بغير الله وتفصيل الكلام فيها

(وأما قولكم وقوله من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره .
فنقول إن أراد بالاستغاثة، التي جعل مرتكبها كافراً، الاستغاثة به على اعتقاد أن غيره تعالى قادر بقدره مؤثرة على جلب نفع له أو دفع مضرة عنه فلا شبهة في كفر من يعتقد ذلك، وإن أراد بمطلق الاستغاثة، يكون المرتكب مشركاً فغير مسلم إذ لا شك في أن للعبد قدرة كاسبة وما يفعل من فعل فهو بتأثير الله وكسب من العبد وحال دعاء غيره تعالى قد علم مما تقدم آنفاً والآية المذكورة في معرض الاستدلال لاتصلح له دليلاً) فنقول هذا مما يؤيد ما قلناه من أن صاحب المقدمة إنما يقول من

عندياته وأنه لم يعلم معاني كلام الله وآياته، وسنة الرسول وأصحابه، ومقاله أهل اللغة في معنى الاستغاثة من أنها طلب الغوث من الغير، قال أهل اللغة المستغاث به هو المطلوب منه الغوث، والمستغيث هو الذي يطلب الإغاثة من غيره، وكذلك ما ذكره النحاة كلهم في باب الاستغاثة، وما نقلوه عن العرب من الفرق بين المستغاث به والمستغاث من أجله، كقولهم يا الله للمسلمين بفتح لام المستغاث به وخفض لام المستغاث من أجله، ومنه قول المهاجري ياللهمهاجرين وقول الأنصاري ياللأنصار فاستغاث هذا بالمهاجرين وهذا بالأنصار فقال رسول الله ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» فالمستغاث به عندهم هو الذي يدعى ويسئل ويطلب منه الغوث، والمنادي هو داعي المنادي لكن فرقوا بين دعاء المستغاث به وغيره، كما فرقوا بين دعاء الندبة وغيره، كقوله ياحسرتنا على ما فرطت، وقولهم يأبتاه يا عمران ونحو ذلك مما يلحقون في آخره ألفاً لأجل مد الصوت إذ النادب الحزين يمد صوته وهو يندب ما قد فات فيمد الصوت في آخر دعائه كقوله يأسداه ياركناه يأبتاه حتى قالوا يأمير المؤمنين يا عبد الملكاه إذ نداء الندبة يقوله الإنسان عند حدوث أمر عظيم، ويقول للتوجب، كقول سارة حين بشرت بإسحق ياويلتي، بخلاف المستغيث فإنه يدعو المستغاث به كما يدعو غيره فيقول يايزيد كقوله يازيد لكن دل بهذه الصيغة أنه يطلب منه الإغاثة على ما يهيمه من أموره مطلقاً، بخلاف النداء المجرد فإنه لا يدل على ذلك فالمستغيث بالشيء داعيه مع زيادة طلب الإغاثة، ومن المعلوم بالإضطرار من لغة العرب، وهو موجود في جميع الكتب المتداولة التي يذكر فيها مثل هذا في كتب اللغة والنحو والتفسير ودواوين العرب وغير ذلك، أن المستغيث بالشيء هو الذي يطلب منه الغوث، وهم يقولون استغثته واستغثت به، كما يقولون استعنته واستعنت به، ودعوته ودعوت به، وبين المعنيين فرق لطيف، وهو أنهم إذا عدوه بنفسه لاحظوا أنه فاعل الغوث بنفسه، وإذا عدوه بالياء لاحظوا أنه معين على ذلك، فكانه إذا قال استغثت فلاناً قال طلبت منه أن يغثني وإذا قال استغثت به تضمن معنى استغثته واستغثت به على أن يغثني، فالباء فيه متضمنة معنى كتبت بالقلم فالاستغاثة عامة في المعنى الاستغاثة وزيادة، هذا هو معناها في القرآن في قوله تعالى إذ تستغيثون ربكم أي تستجيرون به من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر عليه وكذلك السنة في قوله ﷺ

: « والله لا يأخذ أحدكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فيأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار فيقول يا محمد فأقول لأملك لك شيئاً قد بلغت ويأتي ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول يا محمد فأقول لأملك لك من الله شيئاً قد بلغت) رواه البخاري فالمستغاث به مسؤول مطلوب . ومن المعلوم ضرورة أن مجاء به الرسول ﷺ لم يشرع فيه للأمة أن تدعوا أحداً من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم لا بلفظ الاستغاث ولا غيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا غيرها كما أنه لم يشرع لها السجود لغيره تعالى ، بل نهي عن ذلك كله وأخبر أنه من الشرك المنافي لما جاء به ، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة جعل ذلك مما لا بأس به ، ولهذا عمت دعوة الأموات والاستغاث بهم عند نزول الكريات يسألونهم ويستجيرون بهم ويتضرعون إليهم ، فكان ما يفعلونه بالأموات أعظم من عبادتهم واعتقادهم في رب الأرض والسموات ، لأنهم إنما يقصدونهم في ضرورة نزلت بهم فيدعونهم دعاء المضطرين ولقضاء حاجاتهم منهم أو بهم راجين ، بخلاف عبادتهم لله ودعائهم إياه ، فإنما يفعلونه على وجه العادة ، واشتراط صاحب المقدمة اعتقاد قدرة مؤثرة على جلب نفع له أو دفع مضرة عنه ، دال على عدم معرفته أقسام الشرك الموجب للكفر الاعتقادي وخلود أهله في النار فإن ذلك المشروط إنما هو شرك الملاحدة القائلين بقدوم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدوماً أصلاً بل لم يزل ولا يزال والموجد للحوادث أسباب أثرت فيها واقتضت إيجادها هي بنفسها أو شرك القدرية القائلين بأن الحيوان توجد منه قدرة على خلق أفعال نفسه وأنها تحدث بدون مشيئة الله تعالى ، أو شرك الجهمية والقرامطة الذين لم يقولوا لله اسماً ولا صفة ولا قدرة تامة ، بل جعلوا المخلوق له قدرة مؤثرة وأما تعطيل معاملته تعالى عما أوجب على عبده والشرك فيها فليس عنده من ذلك تمييز ولا معرفة ، والحاجب عن ذلك شهود القيومية التي يشترك فيها وفي معرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وأما شهود الألوهية التي دعت إليه الرسل حيث أمروا بعبادة الله وحده وطاعته فإن العبد إذا فتحت عين بصيرته له فرق بينه وبين قسيمه الأول ففعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وعلم حكم المأمور به فعلاً وتركاً كفراً أو معصية ، والمنهي عنه كذلك ووالى أولياء الله وعادى أعداءه وصار على ملة إبراهيم ودين محمد ﷺ ، ومن لم يقل بالفرق بين القسمين كان خارجاً عن حقيقة الإيمان كما أنه خارج عن شريعة

الإسلام فليس معه حقيقة إيمانية ولا شريعة إسلامية وإنما معه حقيقة خلقية قد أقر بها عباد الأصنام الذين هم مشركون، وذلك أن شهود القيومية بلا جمع بينه وبين شهود الألوهية ممتنع طبعاً وشرعاً إذ لا يفتني أحدهما عن الآخر، فمن لم يشهد الفرق الشرعي الإلهي كان مع الفرق الطبيعي النفساني أو فرق شيطاني، ومن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان: ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين... إلى قوله... فبئس القرين ﴾ وذكر الرحمن يراد به الذكر الذي أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى... إلى قوله.. وكذلك اليوم تنسى ﴾ فمن أعرض عن هدى الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه فلم يفرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه كان معرضاً عن ذكره المنزل فيقضي له شيطاناً يصده عن سبيل الله، فيقول ويعمل بمجرد هواه، ومن أضل من اتبع هواه بغير هدى من الله، ولو كان مثل هذا ذكر الله ولم يشهد إلا القيومية العامة لم يشهد ماجاء به الكتاب المنزل بل يكون من أعظم أتباع الشياطين الخارجين من الدين، كما تخرج الشعرة من العجين، ومع كون العبد له قدرة كسبية لا يخرج من مشيئة رب البرية، فلا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله ولا يستعان به، ولا يتوكل عليه فيه، ولا يطلب من الغائب أو الميت ما يطلب من الحي الحاضر، فليس في المخلوقات شيء ينفع ويضر استقلالاً، إذ ليس فيها ما يستقل بأحداث غيره ونفعه، ولا يفعل شيئاً إلا بإذن الله، كما ليس فيها من يعطي ويمنع بهذا الاعتبار، وكما أن من أسماه تعالى المعطي المانع الضار النافع، وكان النبي ﷺ يقول في دبر كل صلاة: « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وكان يقول في رقيقته: « اذهب الباس رب الناس لاشفاء إلا شفاؤك » وفي رواية: « لأشافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقماً » وكذلك النفع والضرر المعتاد كالصحة والمرض والغنى والفقر والأمن والخوف واليسر والعسر الحقيقيين لا يفعله رسول ولا غيره، وهذا ليس بخفي على عموم المؤمنين فضلاً عن علمائهم، وإن وقع في كثير من ذلك ما وقع من العامة ونحوهم ممن ينتسب إلى الزهد والصلاح فهؤلاء وأمثالهم حقهم أن يرجعوا إلى العلم الموروث عن الرسول ﷺ وتكون عبادتهم وأعمالهم مقيدة بالشريعة النبوية والعلم الموروث لا بما يخاطر لهم من الآراء والأهواء، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه

قال: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي رواية « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » وقال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة، وقد اتفق المسلمون على أنه ليس لأحد أن يعبد الله بما أحبه ورآه بل لا يعبد إلا بما كان عبادة عند الله وهي العبادة الشرعية، ودين الإسلام مبني على أصليين (أحدهما) أن لا نعبد إلا الله (الثاني) أن نعبد بما شرع لا نعبد بالبدع، كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى ليلوكم أيكم أحسن عملاً قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه، قال ان العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ولهذا قال الإمام أحمد إن أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث، حديث الحلال بين والحرام بين الحديث، وحديث إنما الأعمال بالنيات الحديث، وحديث من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد، وذلك أن الدين فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، فالمنهي عنه ذكره في حديث الحلال بين والحرام بين، والمأمور به أمران: عمل باطن وهو إخلاص الدين لله، وعمل ظاهر وهو ما شرع لنا من واجب ومستحب، وأهل الضلال كالشركيين والنصارى يفارقون هذين الأصلين يعبدون غير الله ويتدعون عبادة لم يأذن بها الله كما ذكر الله ذلك عنهم في سورة الأنعام والأعراف وبراءة وغيرهن من السور وقد أمرنا الله أن نقول في صلاتنا: ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ وصح عن النبي ﷺ أنه قال: « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وهم مبتدعون والمشركون يذهبون إلى ما ذهب إليه الضالون ابتداءً يشرعون ديناً لم يأذن به الله فهم يدعون غير الله ويستغيثونه بما لا يقدر عليه الخلق فلا يكون عملهم لله خالصاً ولا للشرعية موافقاً وبذلك كانوا ضالين، فإن قيل يجوز أن يكون لفظ الاستغاثة بغير الله بمعنى التوسل فمعنى قول المستغيث أستغيث برسول الله ويفلان الولي أي أتوسل برسول الله أو بالولي، ويصح حينئذ أن يقال تجوز الاستغاثة في كل ما يطلب من الله بالأنبياء والصالحين، بمعنى أنه يجوز التوسل بهم في ذلك ويصح لفظاً ومعنى. الجواب أن هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن لفظ الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب إنما هو مستعمل

بمعنى الطلب من المستغاث به فقول القائل استغثت فلاناً واستغثت به بمعنى طلبت منه الأعانة لاي معنى توسلت به، وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن الاستغاثة لا تجوز بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وقول القائل استغثت به بمعنى توسلت بجأه، هذا كلام لم ينطق به أحد من الأمم لاحقيقة ولا مجازاً ولم يقل أحد مثل هذا ولا معناه لامسلم ولا كافر، والقائل استغثت بفلان عندك أن تفعل بي كذا وكذا ناطق بما لم ينطق به أحد في اللغة بل ولا من سائر الأمم.

الثاني: أنه لا يقال استغثت إليك يا فلان بفلان أن تفعل بي كذا، وإنما يقال استغثت بفلان أن يفعل بي كذا، فأهل اللغة يجعلون فاعل المطلوب هو المستغاث به نفسه، ولا يجعلون المستغاث به واحداً والمطلوب آخر، فالاستغاثة طلب منه لابه، وقولهم يا الله للمسلمين أحدها مطلوب، والآخر مطلوب له لا مطلوب به.

الثالث: أن من سأل بشيء أو توسل به لايكون مخاطباً له ولا مستغنياً به، لأن قول السائل المتوسل أتوسل إليك يا إلهي بفلان إنما هو خطاب لله لا لذلك المتوسل به بخلاف المستغاث به فإنه مخاطب مسؤول منه الغوث فيما سأل من الله فحصلت المشاركة في سؤال مالا يقدر عليه إلا الله وكل دعاء شرعي لا بد أن يكون الله هو المدعو فيه كالأدعية التي جاء بها الكتاب والسنة مما قص الله عن عباده الصالحين من أهل السموات والأرضين ومما شرعه لعباده المؤمنين ومما أخبر به عن خلقه واحتج به عليهم في أن لا يعبدوا غيره كما قال تعالى: ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيئون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وقال (ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه من الكرب العظيم) وقال عن إبراهيم (رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات) وقال رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين) الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى، فالاستغاثة بالنبي ﷺ، أو بغيره من الأنبياء والصالحين وغيرهم في كل مايستغاث الله فيه على معنى أنه وسيلة من وسائل الله قول لم يقل به أحد من علماء المسلمين، ولامن الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم ولا أئمة الفتيا المعتد بهم ولا علماء الحديث والتفسير، بل قائل هذا القول مغتر على الله ملبس على المسلمين، ولا يخرج مدلول قائل ذلك في اللغة المعروفة عن أن يكون

كفرًا، إذ معناه طلب الإغاثة والتخليص من جنس الكربة والشدة، سواء كان طلب ذلك من الخالق أو المخلوق، وإذا كان كذلك فهذا القول يقتضي أنه يطلب من المخلوق الحي أو الميت إزالة الأمراض والاسقام، وكشف الجذب والقحط بإنزال المطر وإسقام الأنعام، وكشف كل شدة وتفرج كل غمة، والنصر على الأعداء في الدين وإزالة الكفار والمشركين، وذلك هو الكفر برب العالمين، والمضاهاة للنصارى والمشركين، مع اعتقاد هذا المستغيث السائل أن لمن استغاثه وسأله من المخلوقين قدرة كاسبة وأن سائر فعله كائن بتأثير الله وكسب من العبد، ولكنه سأله ما استغاث فيه ملاحظاً ومجرد المسئول إما نفس المخلوق المستغاث، أو على معنى أن جأه قادر على تحصيل ما طلب منه استقلالاً، ولا يخرج مدلول استغاثته عن أن يكون مسؤولاً مأمولاً هو بنفسه ما طلب منه مما لا يقدر عليه إلا الله زيادة على اعتقاده قدرة الجأه على إيجاد المطلوب وتحصيله.

الرابع: أن لفظ التوسل والتوجه ومعناها يراد به أن يتوسل إلى الله ويتوجه إليه بدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم عند خالقهم في حال دعائهم إياه فهذا هو الذي جاء في ألفاظ السلف من الصحابة رضوان الله عليهم كما في صحيح البخاري: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس وقال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتنسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاستسقيناهم فيسقون) فهذا اخبار عن عمر رضي الله عنه عما كانوا يفعلون وتوسل منهم بدعاء العباس كما كانوا يفعلون بدعاء النبي ﷺ وكذلك معاوية بن أبي سفيان لما استسقى بأهل الشام توسل بدعاء يزيد بن الأسود الجرشي، وهذا هو الذي عناه الفقهاء في كتاب الاستسقاء في قولهم يستحب أن يستسقى بالصالحين وإذا كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل، وكذلك الأعمى الذي أتى النبي ﷺ فقال ادع الله أن يعافيني قال: « إن شئت دعوت لك وإن شئت صبرت فهو خير لك » قال ادع لي فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك سيدنا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي اللهم فشفعه في وقد طلب من النبي ﷺ الدعاء ليشفعه الله بدعائه ﷺ، كما طلب الصحابة من النبي ﷺ الاستسقاء فدعا الله له وأمره ﷺ أن يسأل الله قبول شفاعته

فيه، وقوله يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى خطاب لحاضر معين في قلبه، كقولنا في صلاتنا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وكاستحضار الإنسان محبه أو مبغضه في قلبه فيخاطبه بما يهواه بلسانه، وهذا كثير في لسان الخاصة دون العامة ومعناه أتوجه إليك بدعاء نبيك أو شفاعته المشتملة على الدعاء لي ولهذا قال في تمام الحديث اللهم شفعه في وهذا متفق على جوازه وقد مضت السنة أن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه سواء كان بلفظ الاستغاثة أم بغيرها ومنه ما قص الله عن الاسرائيلي المستغيث بموسى على القبطي في قوله تعالى: ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى﴾ أو كاستشفاع الأمة من أهل الموقف بالأنبياء والطواف عليهم يسألونهم أن يشفعوا إلى الله من أهل الموقف عامة، وأما المخلوق الغائب أو الميت فلا يستغاث ولا يطلب منه مالا يقدر عليه إلا الله ألبتة.

الخامس: أن التوسل فيه اجمال واشتراك بحسب الاصطلاح، فمعناه في لغة الصحابة والتابعين طلب الدعاء من النبي أو الصالح أو التوجه بدعائه كما تقدم عنهم، ودعاؤه ﷺ من أعظم الوسائل عند الله، وأما معناه في لغة هؤلاء المعاندين فهو أن يسأل الله عز وجل بذات ذلك المخلوق ويقسم عليه تعالى به، أو يسأل ذلك المخلوق نفسه على معنى أنه وسيلة من وسائل الله يتقرب بذاته ويسأل منه شفاعته، والله تعالى واحد لا شريك له في عبادته ولا في معاملته، بل هو أحد صمد متعال عن الأنداد والأضداد، ولا يقسم عليه تعالى بشيء من مخلوقاته فلا يقال أقسمت عليك يارب نبيك أو بجاهه، ولا بملائكتك ولا بعبادك الصالحين ولا بكعبتك كما لا يجوز القسم بهذه الأشياء، ومجرد ذوات الأنبياء والصالحين وحبّة الله لهم وحصول الجاه لهم عنده ليس بها ما يوجب حصول مقصود السائل بلا سبب بينه وبينهم من محبتهم وطاعتهم واتباعهم فيما جاءت الرسل به فيثاب على ذلك، ويكون محباً لله طائعاً أمره راضياً عنه فيستجيب له ويزيده من فضله ويقبل دعاءهم له وشفاعتهم فيه كما قال جل شأنه: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ وعلامة محبة الله اتباع الرسول في كل ما جاء به، قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ فأما مجرد سؤاله بهم وبجاههم من غير

اتباع لما جاء به الرسول فلا ينفعه وإن عظم جاه المسؤول به عند الله، ولا ينال نصيباً من شفاعته لوجود المنافي الذي هو عدم الاتباع فيما جاء به الرسول من التوحيد لإله كل العبيد، ومع عدم المنافي ووجود التوحيد فلا نقول إن سؤال الله بأحد من خلقه كفر، بل مكروه كراهة تحريم على الأصح، كما قال به جمهور العلماء لما فيه من الأقسام على الله بخلقه، وهو تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات ولكن كثير من الناس تعود ذلك كما تعود الحلف بهم، حتى يقول أحدهم وحقك على الله أو وحق هذه الشبهة على الله، والله إنما يقسم عليه بأسمائه وصفاته، كما قال جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وكالأحاديث الواردة في السنن عن بريدة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال: «لقد سألت بالإسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب» أخرجه أبو داود وغيره وأخرجه أبو حاتم في صحيحه ولفظه عن بريدة أنه كان مع النبي ﷺ في المسجد فإذا رجل يصلي ويدعو اللهم إني أسألك بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد... وذكر الحديث بتمامه وفي السنن عن أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالساً في حلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض إذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ: «أتدرون بما دعا» فقالوا الله ورسوله أعلم فقال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى» رواه أبو داود وغيره ورواه أبو حاتم في صحيحه واللفظ له عن أنس، ومن قال أسألك بإيماني بك وبرسولك ومحبتي له ونحو ذلك فقد أحسن، قال تعالى في دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا... الآية﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وقال تعالى عن الحوارين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول اللهم إنك أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك فاغفر لي، ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى الغار فانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله بأعمالهم ففرج عنهم

الحديث في الصحيحين عن ابن عمر، وأما توسل السائل في قوله اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ففيه قولان للعلماء: قال الشيخ أبو الحسن القدوري في كتابه المسمى بشرح الكرخي المعروف والمشهور عنه وقد عقد فيه فصلاً في باب الكراهية ونقل فيه عن بشر بن الوليد أنه قال سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقتك وهو قول أبي يوسف فإنه قال بمعاقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا أو أكره بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت والمشرع الحرام، قال القدوري المسئلة بخلقه تعالى لا يجوز لأنه لاحق للمخلوق على الخالق فلا تجوز، وقال البلدجي في شرح المختار أيضاً، وأما حديث أبي سعيد أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشي هذا فقد رواه عطية العوفي وفيه وهن ومع تقدير ثبوته إنما هو سؤال الله بأفعاله لأن حق السائلين أن يجيبهم وحق المطيعين أن يثيبهم، كقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله ﷺ في حديث معاذ بن جبل: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم» أو هو سؤاله بأعمالهم، لأن المشي إلى الطاعة وسؤاله امتثالاً لأمره عمل طاعة، وذلك من أعظم الوسائل المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ وقد أجمع العلماء أنها القرية ولا قرية أعظم من عمل الطاعة والله أعلم.

من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

(وأما قولكم وقوله من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا فنقول لاشبهة في أن مرتكبه عاص بقصده آثم، لكن لا يكون بهذا مشركاً، وما ذكره في معرض الاستدلال على مدعاه من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ ومن الحديث مارواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الحميصه تعس عبد الحميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» الحديث لادلالة فيه على

مادعاه نعم فيه دلالة على قبح حاله، ولاشك أنه آثم عاص فيما ارتكبه من هذا القصد لا يقال هو كبيرة مرتكبها كافر، لأننا نقول هذا مذهب الخوارج المارقين من الدين كما تقدم .

فنقول: أيضاً مما يوضح ماقلناه من أن صاحب المقدمة لم يعرف الشرك وأقسامه، ولم يتأمل ماذا يقول في كلامه إذ قد نفى الشرك عمن عمل عملاً يتغني به ثواب الآخرة مريداً به غير وجه الله وعمن فرغ قلبه ولسانه للدنيا وماحوته من زينتها وأمتعتها مقبلاً بكليته عليها ومعرضاً عن الله ورحمته وما يوصل إليها، زاعماً صاحب المقدمة أن ذلك لا يسمى إلا معصية مجردة عن الشرك فلا هو سببها ولا مسماها في هذا الباب يرادفها، ثم انه لم يفهم معنى الآية والحديث، وماقاله أهل العلم في القديم والحديث من المفسرين وشرح الحديث، فلذلك تجلى له وهمه وخاطبه كفاحاً ظنه أنه ليس قصداً من الترجمة وذكر الآية والحديث إلا الشرك الأكبر والكفر المخلد في النار الموجب لأنواع الشر، فصدق ماقاله علينا ظنه وأخطأ المعنى فهمه، وذلك أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها... الآية﴾ نزلت في كل من عمل عملاً يريد به غير الله قاله المفسرون منهم أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي في كتابه معالم التنزيل، وروى فيه أن النبي ﷺ قال: «ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال: «الرياء» وحكاها البكري تلخيصاً من السنة في معنى الآية ان المرأى لاثواب له في عمله وإنما يجعل له حظه في الدنيا من صحة وسعة لا ينقص منه شيئاً وهذا مع مشيئة الله وإرادته كقوله سبحانه: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد... الآية﴾ وقوله: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه... الآية﴾ ثم ان كان المرأى مسلماً ففعله ذلك ذنب كبير يؤاخذ به إلا أن يرحمه الله، وان كان كافراً عجل له ماسبق ويقطع له بالحزى في الآخرة، وقال العوفي عن ابن عباس أن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً فمن عمل صالحاً من صوم أو صلاة أو تهجد في الليل لا يعلمه، لا لاتماس الدنيا يقول الله أو فيه الذي التمسه من الدنيا وأحبط عمله في الآخرة وهو من الخاسرين، وروى ذلك عن مجاهد وغيره قالوا ان هذه الآية نزلت في أهل الرياء، قال ابن عباس في رواية عطاء من كان يريد عاجل

الدنيا فلا يؤمن بالبعث والثواب والعقاب، وقال أنس والحسن نزلت في اليهود والنصارى، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونينه وطلبتة جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، هذا في الكافر، وأما المؤمن فأرادته الآخرة غالبية فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة وذلك قوله نوف إليهم أعمالهم فيها، وفي حديث أنس المرفوع إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا قبض إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً» انتهى. فإذا عمل المؤمن عملاً يبتغي به غير الله فإما أن يعمل ملتماً به منه تعجيل أمر من أمور الدنيا كصحة وعافية وكالذي يعبد الله ليكثر ماله وولده أو يكرمه في الدنيا ويسلمه من آفات لا امتثالاً لأمره تعالى واجلالاً لعظمته، وقياماً بحق عبوديته لأن العمل لذلك من أعلى درجات الاخلاص، وأما أن يعمل ملتماً به اكتساب محمدة عند الناس أو محبة ومدح منهم، فيظهر في عمله التصنع لهم، فالأول داخل في عموم قول ابن عباس في رواية العوفي عنه أن معنى الآية فيمن عمل صالحاً لا يعمل إلا لالتماس الدنيا يقول الله فيه أوفيه الذي اتهمه من الدنيا وأحبط عمله في الآخرة وهو من الخاسرين فلا ثواب له في عمله ذلك..

(فإن قيل) باقي الآية وهو قوله: ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ دال بصرحه على أن المقصود منها الكفار المنكرون للبعث وأشباههم، أو اليهود والنصارى، كما هو قول ابن عباس في رواية عطاء أن من كان يريد عاجل الدنيا فلا يؤمن بالبعث والثواب والعقاب، وقول أنس والحسن أنها نزلت في اليهود والنصارى.

(الجواب) أن منكري البعث واليهود والنصارى وسائر أنواع الكفار لا يخرجون عن مضمون معنى الآية وغيرها من سائر القرآن، أن من رغب عن الله وماعنده من الجزاء لأوليائه المؤمنين، وعصى رسله واتبع هواه مريداً للدنيا وزينتها وموثرها على اتباع أوامره تعالى واجتناب مناهيه رأى في عمله أو لم يراء أنه ليس له في الآخرة إلا النار

وحبط ما صنعوا فيها، أي ذهب ما عملوا في الدنيا من حسنة، لأنهم وقت البعثة والجزاء لم يروا لها ثواباً وباطل ما كانوا يعملون، أي ماحق مضمحل، وعبر أولاً بالحبوط باعتبار وقت حصول المأمول، وثانياً بالبطلان، باعتبار وقت العمل، وهي في المؤمن العامل لارادة الحياة الدنيا وزينتها زجر وتهديد لحبوط ثواب ما عمله وخسرانه في الآخرة واستحقاقه دخول النار بذلك إلا أن يرحمه الله ويغفر له، والاشارة ترجع إليه بهذا المعنى، ولهذا قال ابن عباس في الرواية الأخرى عنه وغيره أن هذه الآية فيمن عمل صالحاً من صلاة وصوم ونحوهما لا تماس شيء من الدنيا، وإلا فقد تواترت الأخبار الصحيحة والنقول الصريحة من كلام الله وسنة رسوله أن المؤمن العاصي لا يخلد في النار، وأكثر الصحابة وأهل العلم من المفسرين وغيرهم على أن هذه الآية نازلة في المرأى بعمله، والثاني أعني من يعمل ملتصقاً بعمله اكتساب محمدة عند الناس ونحوها فهو أكبر من الأول، لأن العبادات هنا باطلة من أصلها مع بطلان ثوابها فإن كانت فرضاً لاتصح منه ولا تجزئه مع مقارنة الرياء أول العبادة وفعلها لأجله، وهذا هو الذي ذكره مجاهد وغيره أن الآية نزلت فيه ولما ذكر لمعاوية حديث أبي هريرة حديث الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار وهم إلهي تعلم العلم ليقال عالم، وتصديق ليقال جواد، وجاهد ليقال شجاع، وبكى لمعاوية بكاء شديداً ثم قرأ هذه الآية فالحمل لغير الله شرك سواء كان لارادة الدنيا هي بنفسها وللسلامة من آفات لا لامثال الأمر والقيام بحق العبودية، أو لاتماس محمدة أو محبة ومدح من أهلها، وقد عقدت الترجمة لذلك مقصوداً بها الشرك الأصغر، وصريح كلام صاحب المقدمة ناف الشرك عن هذا العمل زاعماً أنا نكفر به لأنه كبيرة والخوارج يكفرون بها وقد نسبنا إليهم وإلى مذهبهم وما هذا الإجراء وهتان وقول زور وطغيان. لأننا نقول لاشك أنه شرك أصغر وهو كبيرة لورود الوعيد والعقوبة على فاعله بنص التنزيل والأحاديث الصحيحة المتواترة المشهورة والمصونة عن الأباطيل لكن فاعل الكبائر إذا مات موحداً لا يخلد في النار ولا يكفر صاحبها بمجرد فعلها، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ولحديث عبادة بن الصامت المتقدم ذكره وحديث أبي ذر وغيره المتفق عليه ولأن الشرك الأصغر دون الأكبر فيدخل تحت المشيئة، والآية واردة في الشرك الأكبر بخصوصه على أن طائفة من العلماء مشوا في الآية على ظاهرها للعموم فقالوا ان

الشرك الأصغر لا يغفر إلا بالتوبة منه وإلا فلا بد من تطهير فاعله في النار ثم يخرج منها كبقية أهل الكبائر، لأن الآية نص في عدم غفران الشرك من حيث هو، لكن الأكبر أهله مخلصون بنص الكتاب والسنة، والأصغر أهله مسلمون بنصهما غير محكوم على صاحبه بالكفر، وإطلاق الآية في عدم غفرانه فارق بينه وبين سائر المعاصي التي هي دونه قابلة للغفران، والجواب عن ذلك ما تقدم من أنه داخل في الدون فهو تحت المشيئة ويصدر من خواص الأمة ولا قائل بوجوب العذاب والحكم به عليهم إذ لا يسلم منه غالباً إلا من عصمه الله وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولأن الغفران اضمحلال الذنب ومحوه وهو عدم وجوده، وبقاؤه موجب للعذاب ما بقي وذلك مخالف للقاعدة في أن أهل الكبائر لا يخلصون لأن خروجهم منها بعد دخولها بالذنب لأمرين:

(الأول) منهما أن الذنب الذي استحق به دخول النار قابل للمغفرة وإن لم يوجد الدخول .

(الثاني) وجود الإيمان الذي ماتوا عليه بخلاف الذنب الذي لا يغفر فإنه يقتضي العذاب الأليم أبداً ولا يضمحل بعذاب مرتكبه لأنه غير قابل للمغفرة قبل العذاب، وكل ما لا يقبل المغفرة قبل العذاب لا يضمحل بوجوده، ألا ترى إلى عذاب الكفار، قال سبحانه: ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ وليس هنا ذنب غير قابل للمغفرة إلا الشرك الأكبر فإنه لا يغفر بل يعذب أهله العذاب الأكبر فتعين أن يكون الشرك الأصغر ذنباً كبيراً كبقية الذنوب التي تقبل الغفران من علام الغيوب، ومن الدليل أيضاً على أن المرید بعمله غير الله يكون مشركاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ولما في المتفق عليه من حديث جندب بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: « من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به » وفي المتفق عليه أيضاً من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات » ولسلم من حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار، وله أيضاً من حديثه مرفوعاً قال الله: « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك

فيه غيري تركته وشركه» وله أيضاً من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عندي عليكم من المسيح الدجال قالوا بلى يا رسول الله قال الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيحسن صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه» وأخرج أبو يعلى عن ابن مسعود مرفوعاً: «من حسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل» وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» وأخرج البزار بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل في صحف مخمة فيقول الله ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة يارب والله ما رأينا منه إلا خيراً فيقول ان عمله كان لغير وجهي ولا أقبل من العمل إلا ما أريد به وجهي» .

إذا علم ذلك فالمشركون في هذا الباب يتفاضلون فيه تفاضلاً عظيماً كتفاضل المؤمنين في حقيقة الإيمان وتفاضلهم فيه بحسب مقاصدهم، ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب الحمل، والقيام بحق العبودية إنما يتم بانقطاع القلب إلى الله وتعلقه به، فكلما التفت العبد إلى غيره وأعرض عنه كان فيه من العبودية لذلك الغير بحسب تعلقه به وانقطاعه إليه، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الحميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ان أعطي رضي وإن لم يعط سخط» فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الحميصة وذكر فيه ما هو بصيغته وخبر بمعناه، والانتقاش اخراج الشوكة مما هي فيه، وهذه حال من عبد المال وامتنع الدنيا فرغب فيها ومال إليها وأعرض عن الله لم يفلح وإذا أصابه شر لم يخرج منه لكونه تعس وانتكس هلك وخاب فلا نال المطلوب ولاخلص من المكروه وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإذا منع سخط كما قال تعالى: ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ غير الله فرضاهم وسخطهم لغير الله، وهذا حال عبد ما يهواه من ذلك فهو رقيق له

والرق عبودية وكلما استرق القلب واستعبده من الأمور فالقلب عبده ورقيقه، ولهذا يقال في العبد حرٌّ ماقنع والحر عبدٌ ماطمع ومنه قول القائل :

قصدت الشام أطلب مستقراً فلم أجد لي بأرض مستقراً
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حراً

ويقال الطمع غل في العنق وقيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الطمع فقر واليأس غنى وإن أحدكم إذا أيس من شيء استغنى عنه، وهذا مشاهد فإن ما لا طمع فيه إذا أيس منه القلب لا يطلبه ولا يطمع فيه فلا يبقى فقيراً إليه رقيقاً له إلا عشق الصورة، وقد يضمحل مع الإياس أيضاً، وقال الخليل صلاة الله وسلامه عليه فابتغوا عند الله الرزق، وذلك أن العبد لا بد له من رزق وهو محتاج إليه فإن طلبه من الله كان عبد الله فقيراً إليه، وإن طلبه من مخلوق كان عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما تباح عند الضرورة، وقد ورد النهي عنها في أحاديث كثيرة مذكورة في الصحاح والمسانيد والسنن كقوله ﷺ: « لا تزال المسئلة بأحدهم حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم » وقال: « من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوشاً في وجهه » وقوله: « لا تحل المسئلة إلا لذي غرم مقطع أودم موجه أو فقر مدقع » وهذا المعنى في الصحيح وفيه أيضاً: « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وقد تقدم الكلام على هذا مبسوطاً في بحث الدعاء، فطمع العبد في ربه ورجاؤه منه يوجب عبوديته له واعراض القلب عن الله وعن رجائه يوجب انصراف قلبه عن عبوديته لاسيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رياسة له وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه كمالكه ومملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو حي قد مات أو يموت قال الله تعالى: ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن يرزقوه أو ينصروه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم

بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل الذي قد تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يقبض قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لاسيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تحكم فيه حكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، لأن من استعبد بدنه واسترق وأسر لايالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً بل يمكنه الاحتياي في الخلاص من ذلك، وأما استرقاق القلب واستعباده لغير الله فهو الذل والأسر والاسترقاق المحض، وما العبودية إلا ما استعبد القلب واسترقه وأسرّه وهذا هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك مع قيامه بما يقدر عليه مما أمر به من الواجبات، ولهذا من استعبد بحق فأدى حق الله وحق مواليه فله أجران ولو أكره على الكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك، وهذا بخلاف ما استعبد قلبه لغير الله فصار رقيقاً له فهذا هو الضار في الدين المنقص عن درجة الموحدين وإن كان ملك الناس ظاهراً، فالحرية في هذا الباب حرية القلب والعبودية عبوديته، كما أن الغنى غنى القلب، وهذا إذا استعبدت صورة مباحة قلبه فكيف بالحرمة كالمرأة الأجنبية أو الصبي الأمرد أو الدرهم أو الدينار المحرم فهذا هو العذاب الأليم دنيا وديناً، والعاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها واستعبدته رقيقاً لها اجتمع عليه من أنواع الشر والفساد ما لا يحصى إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعلها أشد ضرراً ممن يفعل ذنباً، ثم يقلع عنه ويتوب منه ويحول من قلبه أثره، إذ تعلق القلب بالفواحش والظلم والشرك والكذب، وابتغاء العلو في الأرض موجب لبقاء عبودية القلب لها مابقي متعلقاً بها وهو رقيق أيضاً لمن يعينه عليها، وإن كان دونه رتبة والأمور الدنيوية نوعان :

منها ما يحتاج إليه العبد كاحتياجه إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه كما قال تعالى : ﴿ وابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ ويكون المال عنده بهذا النوع يستعمله في حاجته بمنزلة دابته التي يركب عليها وبساطه الذي

يجلس عليه بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته فلا هو عبده بذلك ولا رقيقه .

ومنها : مالا يحتاج إليه فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها لأنه إذا تعلق قلبه بها أقبل بكليته عليها وأعرض عن الله فصار عبداً لها، وربما يكون معتمداً على غير الله فيها فلا تبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله، فهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة » وهذا هو عبد هذه الأمور وإن طلبها من غير الله وهو يسخط أن منعها ويعتمد فيها على غيره لعدم اقباله على الله ورضاه مارضيه له، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويجب ما يجب الله ورسوله ويغض ما يغضه الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله، هذا هو الذي يستكمل الإيمان كما في الحديث : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » لا من أحب لغير الله ومسخط لغيره واعتمد على غير الله وتوكل على غيره وعمل لغيره، فإن قلبه رقيق عبد لذلك الغير مشرك به شاء أم أبى .

قول البوصيري يا أكرم الخلق وحديث بن مطعون وتركية الناس ورد قول الخصم فيما يتعلق بقول البوصيري

(وأما قولكم وقوله ما شاء الله وشئت وتضلil قائله وتفرعه عليه تضليل من قال :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

فنقول حاشاه ثم حاشاه من الضلال، والعجب ثم العجب من جراتك على السلف وتضلil الصالحين الذين قد شاع وذاع بل ملأ الأسماع علمهم وصلاتهم وزهدهم بل إن كان صاحب بردة المديح مشركاً فليس على وجه الأرض موحد، وقد علمت أن الواجب على كل مسلم حمل كلام هذا الرجل الصالح الورع الزاهد وأمثاله على محمل حسن، وحسن الظن بالمسلمين واجب أيضاً مع ظهور ران الحصر الذي

في هذا البيت وأمثاله إضافي بالنسبة إلى المخلوق والمعنى مالي من ألود به من المخلوقات لأجل الشفاعة سواك وليت شعري مالذي حملك على تضليل هذا الرجل الذي قد توفاه الله قبل أن تخلق بأعوام عديدة أي عداوة حصلت بينك وبينه، أم على أي خصومة لأجلها تعاميت عن هذا الوجه الظاهر الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وحملت كلامه على محمل بعيد غير لائق بحال آحاد عوام الناس وهو الحمل على الحصر الحقيقي حتى حكمت تضليله بسبب هذه المقالة وما شابهها من قول صاحب البردة. ولن يضيق رسول الله جاهدك بي. الآيات كما نقلها عنه إذ لاشك أن مراده منها لن يضيق جاهدك عن الشفاعة لي وهذا ظاهر جداً فالويل كل الويل لمن يحكم بتضليل أساطين هذه الأمة بأمثال هذه التموهيات ويظهر الطعن في السلف الصالح لجلب قلوب العوام أو لحب رياسة أو عصبية أو لغرض من الأغراض الفاسدة).

فنقول: أما قول القائل ماشاء الله وشئت أو ماشاء الله وشاء فلان فقد ورد النهي عنه فيما رواه النسائي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ ماشاء الله وشئت فقال النبي: «أجعلتني لله نداً قل ماشاء الله وحده» وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لاتقولوا ماشاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح، وعن الطفيل أخي عائشة لأمها قال رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله قالوا وأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد ثم مررت بنفر من النصارى فقلت انكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال هل أخبرت بها أحداً قلت نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يميني كذا وكذا أن أنهارم عنها فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله وحده» رواه ابن ماجه بإسناد قوي وعن فتيلة بن معبد الجهني أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال إنكم تشركون تقولون ماشاء الله وشئت وتقولون والكعبة فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «رب الكعبة وأن

يقولوا ماشاء الله ثم شئت » رواه النسائي وصححه وروى ابن أبي حاتم في مستدركه
 عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم
 تعلمون ﴾ قال هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة
 الليل، ومنه قول الرجل لصاحبه ماشاء وشئت ولولا الله وفلان، وقال أبو عبد الله الند
 هو الضد والله تعالى منزّه عن الأضداد والأمثال المتخذين من دونه أو معه، ذكره أهل
 التفسير، وإثبات الله سبحانه المشيئة للعباد في قوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن
 يستقيم ﴾ قال المفسرون في معناه لمن شاء منكم بدل من العالمين بإعادة الجار يقول
 سبحانه وتعالى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، ثم أبدل منهم لمن شاء منكم أن
 يستقيم على الحق، والإيمان بدل بعض من كل ومعناه أن القرآن إنما يتعظ به من
 استقام على الحق ثم رد سبحانه وتعالى المشيئة إلى نفسه فقال : ﴿ وما تشاؤون إلا أن
 يشاء الله رب العالمين ﴾ فأعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرّون على
 ذلك إلا بمشيئة الله وتوقيفه، وهذا إعلام منه تعالى بأن الانسان لا يعمل خيراً إلا
 بتوفيق الله له ولا شراً إلا بخذلانه وقد ذكر عبد الله بن المبارك عن سعيد بن عبد العزيز
 عن سلمان بن موسى قال لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قال أبو جهل الأمر إلينا
 إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وماتشؤون إلا أن يشاء
 الله رب العالمين ﴾ وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فمن
 شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ أن الضمير في من شاء أي فمن شاء الله إيمانه آمن
 ومن شاء كفره كفره فالمشيئة حقيقة لله وحده ومشية العبد تحت مشيئة الله وقدرته
 وإرادته خيرها وشرها وحسنها وقبيحها ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته تعالى، فإن
 العبد وأعماله مخلوقة لله، قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ وأعمال العبد
 كسب له فالله خالق لا مكتسب، والعبد مكتسب لخالقه، هذا مذهب أهل السنة
 والله تعالى يحاسب العبد بميل هواه واختياره المعصية وميله إليها وله الحجة البالغة
 لا يستل عما يفعل، ولو شاء لهدى الناس أجمعين، ونهى الشارع ﷺ عن التشريك
 في مشيئة الخالق والمخلوق بالواو دليل على الحضرية إذ قد صرح الأصوليون بأن حد
 النهي استدعاء كف بالقول على سبيل الوجوب وهو الحتم وأنه دال على فساد النهي
 عنه في العبادات سواء نهي عنها لعينها كعبادة الحائض، أو لأمر لازم لها كالصلاة

أوقات النهي، وصوم يوم العيد، أو لأمر مطلق على أصبح الوجهين، كالوضوء بماء مغصوب، والبيع وقت نداء الجمعة، وفي المعاملات أيضاً سواء رجع النهي إلى نفس العقد كبيع الحصاة، أو إلى أمر داخل فيه كالنهي عن بيع الملاقيح وهو مافي بطون الأمهات، أو الأمر بالشئ نهى عن ضده والنهي عن الشئ أمر بضده فإذا قال اسكن كان ناهياً له عن التحرك، أو لانتحرك كان أمراً له بالسكون، فتعين أن يكون النهي عن التشريك أمراً بالتوحيد وذلك منصرف إلى الوجوب إذ هو متحتم على كل أحد، كالنهي في قوله تعالى: ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ فكل هذا النهي ومافي معناه متضمن الحتم على الخلق عن المنهي عنه سواء كان كفراً أو معصية وقول القاتل ماشاء الله وشئت معصية بعد النهي الوارد عن هذه الصيغة بالواو ولا يكفر مرتكبها إلا أنه مشرك شركاً أصغر يجب الكف عنه والتوبة منه تغلياً لجانب أصل الإيمان المستصحب على وجود المعصية الصادرة ممن حكم بإسلامه، وفاعل المعصية المتلبس بها ضال مالم يتب منها وينحاد عنها فالعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين وقوامه كله لله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ فقوله:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

أولى بنهي النبي ﷺ ذلك الرجل عن قوله ماشاء الله وشئت من وجوه:

(منها) أن الرسول ﷺ مبعوث بتحقيق هذا التوحيد وتحريره ونفي الشرك بكل وجه حتى في الألفاظ كقوله لا يقولن أحدكم ماشاء الله وشاء محمد بل ماشاء الله وحده، كقوله للرجل القاتل ماشاء الله وشئت أجعلتني لله ندا بل ماشاء الله وحده.

(ومنها) أن الله سبحانه أثبت لعباده مشيئة كقوله: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ وقوله: ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ وكإثباته الشفاعة لمن شاء

من خلقه فيمن رضي عنه بعد إذنه فالعبد له مشيئة كسبية ولابد، ولكنها تحت مشيئة الله وإرادته لا توجد إلا بها ولا تصدر إلا عنها، إذ هو الخالق تعالى لأفعال العباد كلها وهو الباعث مقام المحمودية للنبي ﷺ مقاماً محموداً الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وهو المشفع فيمن رضي عنه من أمته بخلاف الأمور والتصرفات الكونيات التي أسندها سبحانه إلى نفسه، كقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ وقوله: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ وما يكون إلا له لا يسند لغيره لاحقيقة ولا مجازاً لا في الشفاعة ولا في غيرها مما لا يقدر على وجوده إلا الله وهو متوقف على إذنه تعالى ورضاه فلا يقال فيه لأحد من الخلق مالي من ألوذ به سواك، إذ الأمر كله لله، والشفاعة كلها له لعدم وجودها من النبي وغيره إلا من بعد إذن الله له ﷺ ورضا الله عن المشفوع له كغيره من سائر الشفعاء، وإسناد الشفاعة للأنبياء أو غيرهم إنما هو باعتبار وتحقيق الإذن لهم فيها لمن رضي الله عنه وارتضى عمله، والسائل لم يحقق في نفسه وجود الشرطين المعترضين فلا يعلم أهو ممن يأذن الله فيه أم لا، وهل هو ممن ارتضى أم لا، فتعين عليه صرف همته وعزائم أمره في طلب ما هو السبب الموصل والمقتضي من الأعمال الباطنة والظاهرة للرضا عنه والإذن فيه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة عنه: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يتغني بها وجه الله» وفي رواية خالصاً من قلبه، وقال ﷺ لربيعة ابن كعب الأسلمي خادمه وقد سأله مرافقته في الجنة: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» فكل ما كان الرجل أتم إخلاصاً لله عاملاً بطاعته كان أحق بالشفاعة، وكل ما كان مشغولاً بالتعلق على أحد من المخلوقين يدعوه ويرجوه كان أبعد الناس عن الشفاعة.

(ومنها) أن سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة قد اتفقوا على أن النبي ﷺ لا يسأل في قبره بعد موته لاستغفاراً ولا شفاعة ولا غيرهما، وقالوا إن الشفيع يطلب من الله ويسأله ولا تنفع الشفاعة إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴿وقد ثبت في الصحيح أن سيد الشفعاء ﷺ إذا طلبت منه الشفاعة بعد أن تطلب من آدم وأولي العزم نوح

وإبراهيم وموسى وعيسى فيردونها إلى محمد ﷺ العبد الذي غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر، قال فاذهب إلى ربى فإذا رأيته خررت ساجداً فاحمد ربى بحامد يفتحها على لأحسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع فأقول رب أمتي أمتي فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، فالشفاعة كلها لله، وهو تعالى غني عن العالمين وهو وحده يدبرهم كلهم فما من شفيع إلا من بعد إذنه، لأنه الذي يأذن للشفيع في الشفاعة، وهو الذي يقبل شفاعته كما يلهم الداعي الدعاء، ثم يجيب دعاءه، فالأمر كله له، وإذا كان العبد يرجو شفعا من المخلوقين فقد لا يختار ذلك الشفيع أن يشفع له، وإن اختار فقد لا يأذن الله له في الشفاعة ولا يقبل شفاعته فيه، قال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ قال طائفة من السلف كان قوم يدعون العزيز والمسيح والملائكة شفاعتهم، فأنزل الله هذه الآية وأخبر فيها أن هؤلاء المسؤولين يتقربون إلى الله ويتغنون مرضاته ويرجون رحمته ويخافون عذابه وأنهم لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً فلا يملكون الشفاعة من دونه ولا يشفعون إلا بإذنه لمن رضي عنه، وأفضل الخلق محمد، ثم إبراهيم، صلى الله عليهما وعلى سائر الأنبياء وسلم، وقد منعوا من الاستغفار لمن لم يرض عنه وإلا ارتضى عمله، وما ذاك إلا أنه تعلق على غير الله وأعرض بقلبه عنه فلم يخلص قلبه ولسانه له بل ما أجد واجتهد في دعاء غير الله ورجائه فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأما شابه وفرغ قلبه ولسانه فيما هو الموقع في الشرك نفسه مما هو الأصل في علة عبادة الأصنام الذين قال الله عنهم: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقال تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء... إلى قوله... قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ﴾ وقال تعالى: ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء... الآية ﴾ فحسمه سبحانه عن غيره في عدة مواضع من القرآن وعلق على وجوده إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له حسماً لمادة الاشراك وقطعاً لما توهم في علته من رجاء الشفاعة والتقريب، فكيف عن المعلول ويعمل فيما جاء به الرسول

فيكون الدين كله لله، وقد ثبت في الصحيح: (أن أبا هريرة قال يارسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة قال: « ياأبا هريرة لقد ظننت أن لايسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يتغني بها وجه الله ») .

ومعلوم أن إخلاص هذه الكلمة الطيبة ابتغاء وجه الله هو تجريدتها من شوائب الشرك، فلا ياله القلب أحداً غير الله، فمن علق قلبه على غير الله وتوكل عليه كان فيه من الشرك بحسب ذلك التعلق قل أو كثر دق أو جل، فإن دعاه ورجاه والتجأ إليه فيما وجوده لا يكون إلا من الله فلا يقدر عليه حتى المستول لايناله إلا منه، فهذا الداعي الراجي من أبعد الناس من الشفاعة لتألمه مع الله، فإن أخلص قائل الكلمة الطيبة عمله لله وعلق قلبه ولسانه على الله كان من أحق الناس بالشفاعة وإذا أملها ورجاها من الله وسأله أن يشفع فيه نبيه ووليه حقق الله أمله واستجاب سؤاله فقبله وشفع فيه حيث مات قائلاً لا إله إلا الله خالصاً من قلبه مبتغياً بذلك وجه الله، فإنه سبحانه يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

والفاسق لا يخرج بفسقه عن حكم الاسلام الموجب للتوارث والمناكة والولاية الاسلامية فلا يخرج به عن حد الشفاعة لأن هذا مذهب الخوارج المنكرين للشفاعة مستدلين بقوله تعالى: ﴿ ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع ﴾ وأما سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة فأثبتوا ماجاءت به السنة عن النبي ﷺ من شفاعته لأهل الكبائر من أمته وغير ذلك من أنواع شفاعته وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة وقالوا إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، قالوا وثبتت الشفاعة بالوصف لبالشخص إذا لم يقع عليه التعيين من النبي ﷺ كما وصف عليه الصلاة والسلام الذين هم أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة وهم القائلون لا إله إلا الله يتغنون بها وجه الله إلى أن لقوا الله، وكما وصف أهل الكبائر من أمته ولم يعين شخصاً من النوعين في هذين الحديثين، وإذا كان كذلك تعين على الشخص دعاء الله أن يجعله من أهل الوصف الذين هم أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ، فإن كان من أهل الكبائر فقد سأل الله أن يتوب عليه ويجعله من المخلصين وإذا كان من

المخلصين فقد رغب إلى الله وسأله أن يزيده مما هو فيه من العمل الصالح والقول
الراجح ويثبت عليه حتى يلقاه فينال السعادة الأبدية .

(ومنها) أن هذه المقالة مشاكلة قول المشركين وعقيدتهم حيث اتخذوا من
دون الله أولياء وشفعاء يشفعون لهم عنده ويقربونهم لديه كقوله : ﴿ تلك الغرائق
العلی وإن شفاعتهن لترجي ﴾ وكما يدعو العزيز والمسيح والملائكة يقربونهم إلى الله
ويحببونهم إليه ويشفعون لهم لديه فرد عليهم وعابهم لذلك ولامهم عليه، وأخبر أن الولاية
كلها له فليس لخلق من دونه ولي ولا نصير ولا شفيع إلا من بعد إذنه، وأنه لا يأذن لهم
بها إلا لمن رضى عنه كقوله جل شأنه : ﴿ والله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما
في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾
وقوله عن الملائكة : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم
ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾
وقوله : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله
لمن يشاء ويرضى ﴾ وقوله عن الرسل : ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده
لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون... إلى
قوله . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

(ومنها) أن الله سبحانه وتعالى نفى الملك في ذلك اليوم عن غيره فلا يملك
أحد عن أحد شيئاً ولا يغني عنه شيئاً ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ بل أخبر أن
الأمر كله له فقال (والأمر يومئذ لله) وقال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وفي القراءة
الأخرى : ﴿ ملك يوم الدين ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما
كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ . والآيات في هذا الباب كثيرة
جداً، وفي حديث أبي ذر الذي رواه مسلم (قال الله يا عبادي إنما هي أعمالكم
أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا
يلومن إلا نفسه) .

(ومنها) أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، وأنه

لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من الخلق كائناً من كان فليتبرأ منه فقال عز وجل: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وهذه النذارة الخاصة لاتنافي العامة بل هي فرد من أجزائها كما قال: ﴿ لَتَنْذِرُ قَوْمًا مَّا أَنْذَرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ وقال: ﴿ لَتَنْذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وقال: ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وفي صحيح مسلم: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وروى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل وأنذر عشيرتك الأقربين أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء ورجل يبعث رسوله فقال رسول الله ﷺ: « يا بني عبد المطلب يا بني فهر أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني » قالوا نعم قال: « فأني لكم نذير بين يدي عذاب شديد » قال أبو لهب تباً لك سائر اليوم مادعوتنا إلا لهذا. وفي رواية عنه ألهذا دعوتنا جميعاً. وفي رواية أخرى ألهذا جمعنا، فأنزل الله تبث يدا أي لهب. وروى البخاري عن عائشة قالت لما أنزل الله وأنذر عشيرتك الأقربين، قام رسول الله ﷺ فقال: « يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا عباس بن عبد المطلب، لأملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم » وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال لما أنزل الله هذه الآية وأنذر عشيرتك الأقربين دعا رسول الله ﷺ فعم وخص، فقال: « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فأني والله ما أملك لكم من الله شيئاً » وخرجوا في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت رسول الله، اشتريا أنفسكما

من الله لا أغني عنكما من الله شيئا سلاني من مالي ماشئتما » وتفرّد به البخاري عن معاوية عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه وقوله ﷺ يا صفيّة عمّة رسول الله يا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله لا أغني عنكما من الله شيئا. أمر منه عليه الصلاة والسلام لهما حقيقة في فعل الطاعة، وعمل الإيمان نهي لهما عن الاتكال عليه مع وجودهما لأنهما وقت قوله مؤمنتين به عاملتين بما أمرهما وتذكراً لغيرهما أيضاً، فلا يغني عن الله أحد، كما لا يجير عليه أحد. وقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ذكر جماعة من المفسرين أن هذه الآية في الشفاعة، وهو قول علي والحسن وعطاء عن ابن عباس، قال هو الشفاعة في أمته وقال محمد بن علي يأهل العراق تزعمون أن أرجى آية في كتاب الله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وإنا أهل البيت نقول أن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهي والله الشفاعة ليعطينها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول يارب رضيت وزدني على أمتي في أمتي فكل هذا تؤمن به ونسلمه ولكن لا يخرج عما قاله أهل السنة والجماعة من أن ثبوت الشفاعة في أهل لا إله إلا الله وهم الموصوفون بهذه الكلمة الطيبة فيرضيه ربه فيهم لأجلها لا بالشخص فلا تعين لأحد بعينه إذا لم يرد فيه نص فتعين على كل أحد صرف همته ورجاؤه في تلك الكلمة الطيبة التي هي السبب في وجود الشفاعة مع الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ لافي مجرد ذات النبي ﷺ أو شفاعته أهمل ما جاء به أو عمله لقوله تعالى: ﴿مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ وقوله ﷺ لصفية وفاطمة لا أغني عنكما من الله شيئا مع إيمانها وعملهما رضي الله عنهما يشير إلى عدم الاتكال عليه وعلى شفاعته كما قدمناه آنفاً. فهو أمر لهما بإخلاص العمل لله والدوام والاستمرار عليه وليكون توجههما واتكاهما على الله وغيرهما بالأولى.

(ومنها) أن هذه المقالة قد اتخذها أولو التزهي من العباد والزهاد، وأولي العلم المتزين به أوراًداً يتلون في الصباح والمساء، بل جعلوها تضاهي كلام الله وذكره في البركة يتلون وينشدونها عقبهما تبركاً بها، وبعد ختم كلام الله والصلاة على نبيه كذلك، ويزعمون أن الحنطة المقروءة من القرآن إذا لم تتل هذه المقالة عقبها ولا توجد

في ضمنها فتلك الختمة ناقصة الثواب. وليس لها رونق يزداد ويتزايد ولا أنس فيها يخضر ويشاهد، والويل كل الويل عندهم لمن عاب عليهم ذلك أو أنكر صنيعهم فيما هنالك، فهم قد اتخذوها ديناً وقرية حتى في المسجد الحرام تجاه الكعبة طهره الله وصانه، وجعل المتقين أوليائه وسكانه، بل في كل آن ومكان، والله يقول: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ وفي حديث عائشة الذي في الصحيح من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد.

(وقوله) صاحب المقدمة العجب ثم العجب من جرائتك على السلف دعوى بغير علم وتعجب بلا فهم وتزكية على الله وحكم لمن قولهم غير مناسب في الشريعة والله بهم أعلم، وثناء على ما اعتقدوه وتقرير لما قالوه في القصيدة من الأورد ونشدهو لحصول البركة ورفع كل شدة ودليل ما قلناه فيه أمور:

(منها) مخالفة الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ولانقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ وقوله تعالى: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ وأما السنة فأخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن كان أحدكم مادحاً أخاه لامحالة فليقل أحسب فلاناً إن كان يرى أنه كذا وكذا ولا أزكي على الله أحداً» فقد أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نزكي على الله أحداً، وأمرنا أن نقول في التزكية أحسبه كذا والله حسبيه ولا أزكي على الله أحداً، وما (قالت أم العلاء رضي الله عنها لعثمان بن مظعون أخي رسول الله ﷺ من الرضاة وقد انتقل إلى رحمة الله شهادتي عليك لقد أكرمك الله قال لها رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله أكرمهم؟ قالت بأبي أنت وأمي والله لأدري، فقال رسول الله ﷺ أما عثمان فقد أتاه اليقين وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي) أخرجه البخاري، وهو قد طعن علينا في عقيدتنا وعاب أمرنا ونهينا وزكاه على الله قاطعاً علينا في صريح كلامه بما تخيله في باله وقام في ذهنه مما يهواه مرامه فلذلك زكى على الله هذا الرجل الذي الله أعلم به وبأمره منا ومنه وعلمه وزهده فإن وجداً ظاهراً فأسناد على حقيقتهم وباطنهما إلى الله أنسب وأصوب إذ مامن أحد يظهر لنا

منه حسن عمله إلا الله والله أعلم به، وقد انعقد اجماع أهل السنة على عدم الجزم لأحد بعينه بجنة أو نار إلا من نص عليه النبي ﷺ، ولكن نرجوا للمحسن ونخاف على المسيء، حتى الكلم في سبيل الله المفضي إلى الشهادة التي أثنى الله عليها في كتابه أسند النبي ﷺ علمه إلى الله كما في المتفق عليه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم والريح ريح المسك» إعلاماً منه ﷺ بأن علم حقائق أعمال العباد وصلاتهم بصلاح نياتهم وأعمالهم، وعلم ذلك عند الله سبحانه وتعالى ومع المعاملة بالظاهر فلا جزم ويتوق كل كلام معلول مخالف.

(ومنها) تعليقه توحيد أهل الملة الحنيفية الذي قال الله فيهم: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ وقال عنهم نبهم ﷺ: «لا تنزل طائفة من أمتي قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» على وجود توحيد هذا الرجل الواحد الذي الله أعلم به وبحقيقة أمره وإثباته شرهم بشركه.

(ومنها) نفيه التوحيد عن جميع من على وجه الأرض وتكفيرهم وإثبات شرهم بوجود شرك رجل واحد ليس عند الأمة نص فيه، في قوله بل إن كان صاحب بردة المديح مشركاً فليس على وجه الأرض موحد فبكلامه عرف قدره وعلم أنه قد تعدى طوره.

(ومنها) تعليقه مستحيلاً وجوده وهو نفي التوحيد عن جميع الأمة وإثبات شرهم على ممكن وهو وجود شرك رجل واحد ليس عند الأمة من حقيقة أمره نص إذ الرجل الواحد الذي ليس فيه نص قد قد، وأما الأمة فلا، بالنص القطعي.

(ومنها) إثباته الإيهام في تلك المقالة وأنها تحتاج إلى محمل حسن يليق بها ويقائلها، والمقرر عند الأمة المحفوظ عنها أن الكلام الموهم إذا لم يكن من كلام الله ورسوله المتشابه لا تجوز قراءته ولا النظر إليه بخلاف كلام الله ورسوله فيجب الإيمان

به وتلقيه وإن لم يفهم معناه، وهؤلاء يتخذون هذا الكلام الموهم أصلاً في عقيدتهم ويتلونه أوراداً في الصباح والمساء وبعد ختم القرآن في كل آن ومكان .

(ومنها) مبادرة فهمه الذي قام في ذهنه إلى أنا إنما فهمنا من المقالة في نفيه فيها ذات الخالق نفسه تعالى وتقدس ولذلك قال إن الحصر الذي في هذا البيت وأمثاله إضافة بالنسبة إلى المخلوق، والمعنى مالي من ألوذ به من المخلوقات لأجل الشفاعة سواك، ولم يعلم ويحقق أن هذا المفهوم معطل لايقول به أحد، بل ذات الله تعالى وتقدس ووجوده ثابت عند الخاص والعام حتى عباد الأصنام مقرون بخالقهم ورازقهم ومحبيهم وميتهم ومدبر أمورهم كما قرر هم في سورة يونس والمؤمنين والزخرف وأمثالها من السور التي أخبر الله فيها أنهم يعرفون خالقهم ورازقهم فأقروا واعترفوا أنه الله مدبر كل شيء ومليكه ولكن أشركوا معه في عبادته وعطلوا معاملته الشاملة لاحلاص ألوهيته وتكذيب رسله فيما جاؤوا به من عنده ومنهم من يكذبهم ظاهراً وباطناً، ومنهم من يكذبهم ظاهراً وهو تعلم صدقهم باطناً كما قال جل شأنه : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ ﴾ وكما اختلفت أقوالهم في الرسل كذلك اختلفت أقوالهم وآراؤهم في الكتاب بين مكذب وقائل إنه شعر إنه سحر، وكل ذلك لايدل على أنهم مكذبون بذات الله بل أقروا به تعالى وعرفوه ولكنهم لم يوحده، والقصد بالقرآن والرسل توحيد الله بعبادته، وإفراده تعالى بمعاملته المختصة بجلاله من الأعمال الظاهرة والباطنة، ونبذ ما خالفهما من الأقوال والأفعال والاعتقادات، فبذلك يحصل الإيمان بهما واتباعهما ولأعظم مخالفة من اعتقاد ماها بخلافه، ولم ينزل القرآن ويرسل الرسل إلا بنفيه وليكون الدين كله لله والأمر كله له، والجاعل الدين أو بعضه لغير الله قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً لم يؤمن بالقرآن معنى وإن آمن به لفظاً ولم يؤمن بالرسول حقاً، وإن آمن به ظاهراً وليس اختلافنا مع أعدائنا إلا بذلك لأننا نقول الدين كله لله والأمر كله له، فليس للخالق من دونه ولي ولا نصير، قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ وقال : ﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ... الْآيَةُ ﴾ وقال : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي

أولياء... الآية ﴿﴾ وهم يقولون بل لهم ولي ونصير ويستدلون بقوله تعالى: ﴿﴾ وابتغوا إليه لوسيلة ﴿﴾ ويقولوه: ﴿﴾ لهم ما يشاؤون ﴿﴾ وتقدم معنى ذلك في بحثه فنحن حول هذه المسألة من أول أمرنا إلى آخر عصرنا ندندن فلا نشير إلا إليها، ولا نجاهد إلا عليها، مع أنهم يدؤنا أولاً ليرجعونا إلى ما كنا عليه من عبادة الطين والأحياء من الشياطين ﴿﴾ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿﴾ وقد قدمنا الكلام على قوله: (يا أكرم الخلق مالي من ألؤذ به . سواك) وان هذه المقالة مردودة من أوجه تقدم ذكرها آنفاً .

(ومنها) قوله ليت شعري مالذي حملك على تضليل هذا الرجل الذي توفاه الله قبل أن تخلق بأعوام عديده، أي عداوة حصلت بينك وبينه، أم على أي خصومة لأجلها تعاميت عن هذا الوجه الظاهر الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحملت كلامه على محمل بعيد غير لائق بحال آحاد عوام الناس وهو الحمل على الحضر الحقيقي، يعني به نفى ذات الله، حتى حكمت بتضليله بسبب هذه المقالة إلى قوله فالويل كل الويل لمن يحكم بتضليل أساطين هذه الأمة بأمثال هذه التهميات ويظهر الطعن في السلف الصالح لجلب قلوب العوام أو لحب رياسة أو عصبية أو لغرض من الأغراض الفاسدة .

فهو قد قال فينا وافترى علينا تضليل هذا الرجل الذي قولنا فيه والله أعلم به منا ومن غيرنا إلا أن كلامه ذلك غير مناسب من مثله، بل الواجب عليه وعلى جميع الخلق الانقطاع إلى الله وتفويض الأمر إليه، والتوكل عليه، والاستقامة على ما هو السبب في حصول شفاعته عليه السلام من الأعمال المرضية لرب العالمين، والمقربة إليه في كل حين، الشاملة خصال الإيمان، وأركان الاسلام، فيكون كالذين حكى الله عنهم في القرآن أنهم توسلوا إليه فيما يرضيه مما أمرهم به، ونهاهم عن ضده في كتابه، وعلى السنة رسله، ولكن أئى الله أن يصلح بالحفظ إلا كتابه، أو يمنع بالعصمة إلا رسوله، والذي يعترى العقول إما فتحاً وإما شطحاً، والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وإخلاص معاملته لله وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، ويدور على ذلك ويتبعه أين وجدته، ويعادي فيه ويوالي فيه، ونحن لم نعاد هذا الرجل ولم نحكم عليه

بالضلال بل قولنا فيه الله أعلم وأولى به، ولكن مقالته لاتقال بل يكف عنها لورود
النهي عنها وعن أمثالها، ولأن الأمر كله لله والخلق لا يغنون عن الحق شيئاً بل من رحمه
الله فهو المرحوم، ومن أبعده فهو المبعد، فلا أحد كائناً من كان يدخل الجنة إلا
بفضل الله ورحمته حتى الأنبياء، فغيرهم بالأولى، وكل من حكم بإسلامه شرعاً فهو
المسلم والله أعلم بعاقبة أمره، فلا نشهد لمعين بالنار وأن ارتكب المعاصي في
الدنيا، لامكان أنه تاب أو كانت حسناته تحت سيئاته، أو كفر الله عنه
بمصائب، أو غير ذلك مما هو فضل الله وعفوه، وإن ارتكب كفراً عاملاً بما ظهر لنا
منه، وأمره إلى الله، ولا لمعين بجنة وإن اكتسب أعمالاً صالحة في الدنيا، إذ لا يعلم
ما في نفس الأمر إلا الله، فلا يقطع لمعين بشيء من دونه بلا نص من الشارع
ﷺ، وللعلماء في الشهادة بالجنة ثلاثة أقول :

منهم من لا يشهد بالجنة لأحد إلا للأنبياء وهذا قول محمد بن الحنفية
والأوزاعي .

والثاني أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه نص وهذا قول أكثر أهل
الحديث .

والثالث نشهد بالجنة لهؤلاء ولنشهد له المؤمنون كما في البخاري من حديث
أنس بن مالك قال مر بجنادة فأنشأ عليها خيراً فقال النبي ﷺ وجبت ثم مر بأخرى
فأنشأ عليها شراً فقال وجبت فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجبت يارسول
الله قال هذا أنشئتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أنشئتم عليه شراً فوجبت له النار
أنتم شهداء الله في الأرض، وقال ﷺ: « توشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل
النار » قالوا بيم يارسول الله قال: « بالثناء الحسن والثناء السيء » فأخبر أن ذلك مما
يعلم به أهل الجنة وأهل النار، وكان أبو ثور يقول أشهد أن أحمد بن حنبل في
الجنة، ويحتج بهذا، والمؤمن بالله ورسوله باطناً وظاهراً الذي قصد اتباع الحق وما جاء به
الرسول إذا أخطأ ولم يعرف الحق كان أولى أن يعذره الله في الآخرة من المتعمد العالم
بالذنب فإن هذا عاص مستحق للعذاب بلا ريب، وأما ذاك فليس متعمداً للذنب
بل هو مخطيء والله قد تجاوز لهذه الأمة الخطأ والنسيان، والعقوبة الحاصلة في الدنيا
تكون لدفع ضرره عن المسلمين، وإن كان في الآخرة خيراً ممن لم يعاقب كما يعاقب

المسلم المتعدي للحدود ولا يعاقب أهل الذمة من النصارى واليهود، والمسلم خير منهم في الآخرة، والمسلم المذنب الذي ذنبه خاص أخف شراً عند الله ممن ذنبه اكتسبه الناس منه، وأفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، ثم بعدهم التابعون، فلا ينتصر لشخص انتصاراً عاماً مطلقاً إلا رسول الله ﷺ، وللطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً إلا للصحابة فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه حيث داروا، وكذا التابعون لهم بإحسان فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف عالم من العلماء أو قائل قولاً فقد يصيب وقد يخطئ، بل جل أصحاب مجتهد من المجتهدين قد يكون الصواب معهم وقد يكون مع غيرهم ممن قد خالفهم، وكل قول لم يرد به الكتاب والسنة ولا قاله صدر سلف هذه الأمة استنباطاً منهما أو من أحدهما بل قالوا خلافه فهو خطأ لا يعمل به ولا يقر عليه قائله، فكيف وصاحب المقدمة قد افترى وأصمته حمية الجاهلية فيما منه جرى بقوله أم على أي خصومة لأجلها تعاميت عن هذا الوجه الظاهر الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو قد أثبت بيننا خصومة رجماً بالغيب مع أنها لا تكون إلا بين موجودين في الدنيا لابين معدومين أو أحدهما إلا من ورد فيه النص بعينه بعداوته لله ورسوله كأبي جهل وأبي لهب وأمثالهما ممن عينته السنة فعداوته متحتمة على العالم به وإن لم يعاصره، أو من تواترت عنه الأخبار بين المسلمين بأنه محاد لله ورسوله متعدد حدوده فإنه يكره هو وعمله لظاهر إساءته، والله متولي أمره، والحامل له على هذا الافتراء إثباته تلك المقالة واستحسانه إياها التي قد خالفت الكتاب والسنة وإجماع صالح سلف الأمة، وجعل تأويله لها مماثلاً لكلام الله الذي قال تعالى فيه: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ فجعل ذلك التأويل لتلك المقالة وماشا كلها مما بعدها مماثلاً للتنزيل مشابهاً له في صحته وإعجازه والایمان به وتلقيه وعدم رده والاعتراض عليه، وأهل التصحيح يردون على أهل الصحيح وينظرونهم وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا كلام الله ورسوله، ومالم يوافقهما فهو باطل مردود لا يعمل به وشفاعة الرسول ﷺ ثابتة في الكتاب والسنة وإجماع صالح سلف الأمة، ولكن بالوصف لا بالشخص ومن مات لا يشرك بالله شيئاً فهو من ذوي الوصف، وكذا شفاعة غيره ﷺ، فعلى الإنسان الاجتهاد فيما هو الموجب لها لينالها بفضل الله ورحمته ورضاه عنه وإذنه للشافع، وعليه أيضاً إخلاص عمله لله وقصده طاعة الله فيما أمر به

والانتهاء عما نهى عنه، وهو يحب صلاح الأمور به وإقامة الحجة عليه قاصداً أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فلا يغضب على من خالفه مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ولا يرضى عمن كان جاهلاً سئاً القصد ليس له علم ولا حسن قصد، بل بحمد من حمده الله ورسوله، ويذم من ذمه الله ورسوله، وتصير موالاته ومعاداته على دين الله ورسوله، لا على هوى النفس، وأصل الدين الذي لا فتنة فيه أن يكون الحب لله والبغض لله، والموالاة لله والمعاداة لله، والعبادة لله والاستعانة بالله، والاتكال على الله، والخوف من الله والرجاء لله، والاعطاء لله والمنع لله، وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ونهيه نهي الله ومعاداته معاداة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، وصاحب الهوى يعنيه هواه ويصمه، فلا يستحضر في قوله وعقيدته ما لله ورسوله في ذلك، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه هواه، ويغضب لما يغضب له هواه، فلم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قوله وعقيدته وحميته مجرد هوى، وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً جانبوا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ هَذِهِ أَمْتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ ﴾ فكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ وإذا كان المسلم الذي يقاتل الكفار قد يقاتلهم شجاعة وحمية ورياء وذلك ليس في سبيل الله فكيف بأهل البدع الذين يخاصمون ويقاتلون عليها فإنهم يفعلون ذلك شجاعة وحمية وميل نفس وهوى، وربما يعاقبون لما اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله لا بمجرد الخطأ الذي اجتهدوا فيه، ولهذا قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى: لأن أتكلم في علم يقال لي فيه أخطأت أحب إلي من أن أتكلم في علم يقال لي فيه كفرت والله أعلم.

بحث قوله تعالى: ﴿ جعلنا له شركاء فيما آتاهما ﴾

وأما قولكم (وقوله تعالى فلما آتاهما صالحاً جعلنا له شركاء فيما آتاهما وما ذكر فيه من الرواية عن عبد الله بن عباس أنهما آدم وحواء وأن الشيطان آتاهما ولم يزل بهما حتى سمياً ولدهما عبد الحرث ... الخ ما قال . فنقول هذه الرواية وما أشبهها لا أصل

لها رأساً بل لا يلتفت إليها في حق الأنبياء المعصومين عن أمثال هذه الأمور بل الواجب على كل مؤمن أن يحكم بكذبها ويحمل قوله: ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ على أن الخطاب في خلقكم لقريش وحدهم لا لبني آدم كلهم والنفس الواحدة قضى وجعل منها زوجها أي جعلها عربية قرشية من جنسه لأنه خلقها منه وإشراكهما بتسميتهما إبنيهما عبد مناف وعبد العزى وعبد الدار وعبد قصي والضمير في يشركون لهما ولأعقابهما، وعلى هذا فليس الضمير في جعلاً لآدم وحواء وهذا الذي عليه أكثر المفسرين وإن صح أنه لآدم وزوجته فأين الدليل على الشرك في ألوهيته، ولعله أي الشرك المذكور في الآية هو الميل إلى طاعة الشيطان، وقبول وسوسته مع الرجوع إلى الله تعالى بلا مطاوعة للشيطان وذلك الميل المتفرع على الوسوسة غير داخل تحت الاختيار فلا يكون معصية وذنباً، ولعله كان قبل، وإن أبيت عن هذا كله فهو على تقدير المضاف أي جعل أولادها له شركاء فيما آتى أولادها وكيف لمن في قلبه ذرة من إيمان أن يصدق بهذه الحكاية مع أن الآية التي تتلوها تنادي على كذبها وهي قوله تعالى: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ وهم الأصنام كما عليه المفسرون، مع أن الأصنام لم تعبد من دون الله إلا قريئاً من زمن نوح).

الجواب عما هذى به الخصم في هذا المقام

فنقول هذا مما يؤيد ما قلناه في صاحب المقدمة من أنه يرد من تلقاء نفسه بلا تحقيق ولا تحقق فيما قاله الأئمة الأعلام من أولي العلم والفهم وما نقلته الرواة وتلقته بالقبول الجهابذة الثقات، فإنه قد فهم من معنى الشرك المذكور في هذه الآية شرك الألوهية في آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام فلذلك أوجب نفى رجوع الضمير الذي في الآية عنهما وجعل من لازم جواز ثبوته إليهما شركهما في الألوهية، ونسبنا إلى تكفير الأنبياء والصالحين وما ذاك إلا لعدم فهمه ومعرفة معنى الشركة التي في الآية مع ما نقله السلف من صحة رجوع الضمير إليهما، بل في معرفة معنى الشرك من حيث هو وأقسامه والجهل فينا وفي عقيدتنا وفيما قلناه وعيننا وذلك من وجوه.

(الوجه الأول) مارواه الامام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد ابن بشار عن عبد الصمد بن عبد الوارث ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثني عن عبد الصمد مرفوعاً . وقال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ، وقال هذا صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ورواه الحاكم أيضاً وصححه عن سمرة عن النبي ﷺ بلفظه المتقدم ، ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً ، ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث هلال بن فياض قال الحافظ ابن كثير وشاذ لقب هلال وعمر بن إبراهيم هو البصري قد وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم الرازي لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة وقد روى الحديث عنه مرفوعاً وموقوفاً .

(الثاني) ماقاله أهل التفسير قاطبة عند قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعني آدم ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ يعني حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ... الآية ﴾ فكلهم قد فسروا قوله تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها الآية بآدم وحواء عليهما الصلاة والسلام ، وأسندوا بيان النفس الواحدة المخلوق منها سائر البشر وبيان الزوج المجهول منها إلى سائر الآيات المعني بها آدم وزوجته حواء والتشبيه التي في قوله فلما آتاها صالحاً جعلاً له راجعة لهما .

(الثالث) ماأجمع عليه المفسرون وقالوا بعبارات متفقة المعنى مختلفة اللفظ عن ابن عباس من طريقين أو ثلاثة :

الأول منهما : ماقاله محمد ابن اسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن

عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم عليهما الصلاة والسلام أولاداً فيعبدهم الله نحو عبد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت، فأقى إبليس آدم وحواء فقال إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه أولاً لعاش فولدت له غلاماً فسمياه عبد الحرث ففيه أنزل الله هو الذي خلقكم من نفس واحدة.. إلى آخر الآية.

الثاني : ماقاله العوفي عن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة إلى قوله فمرت به فشكت أحملت أم لا لحفته، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لكن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين، فأتاها الشيطان فقال هل تدريان ما يكون بهيمة أم لا وزين لهما الباطل إنه غوي مبين وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما إنكما إن لم تسمياه عبد الحرث وكان إسم إبليس في الملائكة الحرث لم يخرج سوياً ومات كالأول فسمياه عبد الحرث فذلك قول الله فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها.

الثالث : ماقاله عبد الله بن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها يعني آدم وحواء أتاها إبليس وقد حملت حواء فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني ايل فيخرج من بطنك فيشقه أو لأفعلن وأفعلن فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثانية فأتاها أيضاً فقال أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن وتطيعاني أو لأفعلن يخوفهما فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاها فذكر لهما ماقاله أولاً فأدركما حب الولد فسمياه عبد الحرث فذلك قول الله فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها. رواه ابن أبي حاتم في مستدركه.

وجاء في الحديث خدعهما إبليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الأرض، وقد تلقى الأثر الوارد في خدع إبليس لآدم وحواء جماعة من السلف كمجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير، وسعيد بن المسيب، وقتادة، والسدي، وجماعة آخرون من السلف والخلف، ومن المفسرين المتأخرين جماعة لا تحصى كثرتهم إلا ماذهب إليه الحسن

البصري رحمه الله تعالى من أنه ليس المراد من سياق الآية آدم وحواء بل المراد من ذلك المشركون من ذريتهما ولهذا قال تعالى (فتعالى الله عما يشركون) وذكره تعالى آدم وحواء في أول الآية كالتوطئة لما بعدها من الوالدين وهو كالاسترداد من ذكر الشخص إلى الجنس كما قال تعالى: ﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم المزين بها ليست هي التي يرجم بها وإنما هو استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها وهذا له نظائر في القرآن كثيرة. قال الامام أبو الحسين بن مسعود البغوي وهذا القول حسن لولا قول السلف مثل عبد الله بن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة من المفسرين أنه آدم وحواء، ومعنى ماتأوله الحسن وعكرمة أي جعل أولادها له شركاء فيما آتاها بقرينة قوله أيشركون بالجمع فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أقام الأبناء مقام الآباء في إضافة الفعل إلى الأبناء والفاعل إنما هو الآباء كقوله تعالى مخاطباً اليهود الموجودين في زمن النبي ﷺ: ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ وقوله: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ وإذ قتلتم نفساً﴾ وأمثال ذلك.

(الرابع) ما قاله ابن كيسان هم الكفار سمو أولادهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس وعبد اللات وعبد مناة .

(الخامس) قولنا وعقيدتنا ما قاله السلف واعتقدوه في قوله تعالى جعلنا له شركاء فيما آتاها يعني في طاعته ولم يكن شركهما في عبادته فإن كل اسم معبد لغير الله كعبد الحرث وعبد العزى وعبد هبل وعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حرام لا يجوز التسمية به باتفاق من يعتد به من أهل العلم، وتحرم طاعة الأمر بذلك فلا يحل التسمية بعبد علي ولا عبد الحسين ولا عبد الكعبة، فكيف بكلمة علي وعبد الحرث الذي هو الشيطان، وقد روى ابن أبي شيبة من حديث هانيء بن شريح قال: (قدم على النبي ﷺ قوم فسمعهم يسمون رجلاً عبد الحجر فقال ما اسمك قال عبد الحجر فقال رسول الله ﷺ إنما أنت عبد الله) وقد تقدم حديث عبد الصمد بن عبد الوارث وسمرة بن جندب عن النبي ﷺ أنه قال: « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان

وأمره « رواه الامام أحمد في مسنده، ورواه الترمذي في تفسير الآية، ورواه الحاكم في مستدركه وصححه، ورواه ابن مردويه في تفسيره من حديث هلال بن فياض، والشرك في طاعته هو امثال أمره وقبول قوله، وليس ذلك شركاً في العبادة كما قلناه وقرنناه، ولكنهما زعما أن الحارث سبب نجاة الولد وسلامة أمه فلذلك أضافا ولدهما إليه، لا على جهة أن الحارث مالكة ومعبوده، وقد يطلق اسم العبد على من لايراد به أنه مملوكه، كما يستعمل اسم الرب مضافاً إلى من لايراد أنه معبوده، وكمن نزل به ضيف يسمى نفسه عبد الضيف على جهة الكرم والتواضع لا على أن الضيف ربه ومعبوده، قال يوسف صلى الله على محمد وعليه وسلم لعزير مصر إنه ربي ولم يرد أنه معبوده، فكذلك هنا ولكن المناسب لهما عدم طاعته وعدم قبول قوله وامثال أمره إذ هو الذي قد غرهما وخدعهما فأخرجهما وفرق بينهما للعداوة الأزلية لهما ولذريتتهما أبد الآبدين ودهر الداهرين وبعد يوم الدين .

واتفقوا على عصمة الأنبياء من تعمد الكبائر قبل الوحي وبعده، وتنازعوا هل تقع منهم بعض الصغائر مع التوبة منها أو لاتقع بحال، فقال كثير من المتكلمين من الشيعة والمعتزلة وبعض أهل الحديث من أهل السنة منهم ابن السبكي وغيره لاتقع منهم الصغيرة بحال ولاقبل النبوة ولابعدها زادت الشيعة لايمكن وقوعها منهم خطأ ولاعمداً، والصحيح عند السلف وجمهور أهل الفقه والحديث والتفسير لاتقع الصغائر منهم عمداً . واتفقوا على وقوعها منهم سهواً وخطأ . كما نقله السعد التفتازاني في حاشية الكشف إلا مايدل على الحسنة كسرقة لقمة والتطفيف بحجة فلا يجوز عليهم، واشترط جمع من المحققين أن ينبهوا على ما فعلوه سهواً فينتهوا عنه، وقال قوم من علماء أهل السنة من أهل الحديث من أصحاب الأشعري وغيرهم وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين تقع منهم بعض الصغائر مع التوبة منها والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإذا ابتلى بعض الأكابر بما يتوب منه فذلك لكمال النهاية لا لنقص البداية، كما قال بعضهم لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنوب أكرم الخلق عليه، وفي الأثر أن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، وأن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، يعني أن السيئة يذكرها ويتوب منها فيدخله ذلك الجنة، والحسنة يعجب بها ويستكبر فيدخله ذلك النار .

وأيضاً فالحسنات والسيئات تتنوع بحسب المقامات، كما يقال حسنات الأبرار
سيئات المقربين، فمن فهم ماتمحوه التوبة وترفع صاحبها إليه من الدرجات وماتفاوت
الناس فيه من الحسنات والسيئات زالت عنهم الشبه في هذا الباب، وأقر الكتاب
والسنة على ما فيهما من الهدى والصواب، وقد اتفقت الأمة على أن من سوى الأنبياء
ليس بمعصوم لا من الخطأ ولا من الصواب، سواء كان صديقاً أو لا، وعلى أن محمداً
رسول الله ﷺ معصوم فيما يبلغه عن الله تبارك وتعالى، فإن مقصود الرسالة لايم إلا
بذلك، وكل ما دل على أنه رسول الله من معجزة فهو يدل على ما قاله رسول الله
ﷺ: «فإني لا أكذب على الله» واتفقوا أيضاً على أنه لا يقر على الخطأ كما أنه
لا ينطق عن الهوى وعلى أنه ﷺ أخوف الأمة لمولاه وأشدهم خشية منه وتضرعاً إليه
ورغبة فيما لديه. فقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ كان يدعو ربه ويعترف له بذنبه كما
في قوله: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي
واعترف بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت... الحديث»
وأمثاله اظهراً للعبودية، وافتقاراً للصمدية، وتشريعاً للأمة، وبياناً لشكر النعمة، قال
الأئمة كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ فإنه الذي أوجب الله على أهل
الأرض الإيمان به وطاعته بحيث يجب عليهم أن يصدقوه بكل ما أخبر ويطيعوه في كل
مأمر، فقد ذكر الله طاعته واتباعه في قريب من أربعين موضعاً في القرآن، قال عز
من قائل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا
ليطاع بإذن الله﴾ وقال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم... الآية﴾ وقال: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم
بعضاً... إلى قوله... فليحذر الذي يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم
عذاب أليم﴾ وقال: ﴿الله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقال: ﴿قل إن كنتم تحبون
الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ وقال: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾
وقال: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من
النبين... الآية﴾. وطاعة الله والرسول هي عبادة الله التي خلق لها الجن والانس،
فهي غايتهم التي يحبها الله ورسوله ويرضاها ويأمرهم بها، وإن كان قد شاهد من
بعضهم ما هو خلاف ذلك وخلقهم له فتلك غاية شاءها وقررها وهذه غاية يحبها
ويأمر بها ويرضاها. والعبادة لله أن تجمع غاية الحب له بغاية الذل له والانقياد إليه

فكل خير وكال ومقام وما يقرب إليه مما يحمد من العباد ويطلب منهم شرعاً ويرضاه لهم فهو داخل في طاعة الله ورسوله ومستلزم ذلك والنص في وجوب الطاعة قاض في عصمة صاحب الرسالة .

(فإن قيل) قد اتفقوا على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين معصومون من تعمد الكبائر قبل الوحي وبعده كما قلتم به وقاعدتكم في الشرك الأصغر أن حكمه من أكبر الكبائر عندهم وذلك مناف لجعل الضمير في قوله تعالى جعلاً له شركاء فيما آتاهم عائداً إلى آدم وحواء صلى الله عليهما وسلم إذا كان آدم نبياً معصوماً عن الكبائر أن يفعلها هو بنفسه فكيف يوافق حواء على الشرك بالله .

(الجواب) أن آدم وحواء عليهما السلام لم يعتقدوا أن ذلك الاسم معصية لله ولم يقصدا به مضارة نبيه تعالى أو عدم فعل أمره بل إنما طاوعا للعين فيما قاله لهما مكافأة لشره وخوفاً على ولدهما من ضره بتوعده لهما فيه وهما لم يطاوعا أولاً لعلمهما بعداوته وأنه الذي أخرجهما مما كانا فيه من النعيم ثم أدركتهما شفقة الولد فطاوعاه في التسمية فبذلك أشركا في طاعته لا في عبادته وكذلك قوله تعالى فعصى آدم ربه فغوى مع قوله فدلّاهما بغرور، فإن اللعين غرهما بالقسم لهما أنه ناصح في قوله لهما ﴿ مانها كما ريكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ فخدعهما لظنهما أن لأحد يحلف بالله كاذباً فأكلتا ولم يقصدا المعصية لأنهما لم يعتقدوا أن النهي راجع إلا لما قال لهما وأقسم لهما فيه فتعين نفى تعمد الكبائر على الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام وقوله تعالى فعصى آدم ربه فغوى باعتبار الأكل من الشجرة المنهي عنها بمطاوعة الغار .

(فإن قيل) كيف يتفقون على تحريم الاسم المعبد لغير الله وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الحميلة تعس عبد القطيفة » وصح عنه ﷺ أنه قال : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » ودخل عليه رجل وهو جالس بين أصحابه فقال أيكم ابن عبد المطلب فقالوا هذا وأشاروا إليه .

(الجواب) أن قوله تعس عبد الدينار الحديث لم يرد به الاسم وإنما أراد به الوصف والدعاء على من يعبد قلبه الدينار والدرهم واختارهما على عبودية ربه تبارك وتعالى، وقوله أنا ابن عبد المطلب ليس من باب إنشاء التسمية بذلك وإنما هو من باب الاخبار بالاسم الذي يميز به المسمى دون غيره والاخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسمون بني عبد شمس وبني عبد الدار بأسمائهم ولا ينكر عليهم النبي ﷺ لأن باب الاخبار واسع يجوز فيه ما لا يجوز في الانشاء فتحرم التسمية أيضاً بملك الملوك وسلطان السلاطين وشاه شاه لما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن أختع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك » وفي رواية اخنى بدل أختع وفي رواية لمسلم أبغض رجل عند الله يوم القيامة وأخسه رجل كان يسمى بملك الأملاك لا مالك إلا الله ومعنى أختع وأخنى: أوضع.

وأما الأسماء المكروهة، فمنها ما رواه مسلم في صحيحه عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: « لا تسمين غلامك يساراً ولا حرباً ولا نجاحاً ولا أفلح فإنك تقول أثم فلان فيقال لا » قال ابن القيم والمذكور في الحديث إنما هن أربع لا يزدن عليها، وهذه الجملة الأخيرة ليست من كلام رسول الله ﷺ وإنما هي من كلام الراوي، وقال أيضاً قلت وفي معنى هذا مبارك ومفلح وخير وسرور ونعمة، وما أشبه ذلك لوجود المعنى الذي كرهت تلك الأمور الأربعة لأجله فإنه يقال أعندك خير أعندك سرور أعندك نعمة فيقول لا فتشتمز القلوب من ذلك وتستطير منه. ومنه التسمية بأسماء الشياطين، كخنزب والولهان، وأسماء الفراعنة والجبابرة كفرعون وقارون وهامان والأسماء التي تكرهها النفوس ولا تلائمها كحرب ومرة. وقد كان النبي ﷺ يشق عليه الاسم القبيح ويكرهه جداً من الأشخاص والأماكن والقبائل والجبال حتى أنه مر في مسير له بين جبلين فسأل عن اسمهما فقبل فاضح ومخز، فعدل عنهما ولم يمر بينهما، وكان ﷺ شديد الاعتناء بذلك، ومن تأمل السنة وجد معاني الأسماء مرتبطاً بها حتى كأن معانيها مأخوذة منها وكأن الأسماء مشتقة من معانيها فتأمل قوله ﷺ: « أسلم سألها الله، وغفار غفر الله لها، وعصية عصت الله » وقوله لما جاء سهيل بن عمرو يوم الصلح سهل أمركم وتأمل تغييره الأسماء غير المناسبة كما في

الصحيحين أن رسول الله ﷺ أتى بالمنذر بن أسيد حين ولد فوضعه على فخذه فأقاموه فقال أين الصبي فقال أبوه أسيد قلبناه يا رسول الله قال ما اسمه قال فلان قال ولكن اسمه المنذر، وفي سنن أبي داود من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال ما اسمك قال حزن، قال أنت سهل قال لا السهل يوطأ ويمهن قال سعيد فظننت أن سيصينا بعد حزنونة، قال أبو داود وغيره رسول الله ﷺ اسم العاص والعلة وشيطان والحكم وغراب وشهاب ونجاب فسماه هاشماً وسمى حرباً سلفاً، وسمى المضطجع المنبث، وأرضا يقال لها عفرة خضرة، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى، وبنو الزينة سماهم بنو الرشدة، وسمى بنى معاوية بنى رشدة، قال أبو داود وتركت أناسيدها للاختصار، وتأمل أيضاً حثه على تحسين الاسم كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم» رواه أبو داود بإسناد حسن وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن» رواه مسلم في صحيحه. وقوله أن الأصنام لم تعبد من دون الله إلا قرياً من زمن نوح قد ذكر المفسرون عند قوله تعالى كان الناس أمة واحدة، عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال وكذلك في قراءة عبد الله كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث محمد بن بشار ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وكذا رواه أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرأها كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في الآية قال كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين فكان أول من بعث نوح، وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولاً وقال العوفي عن ابن عباس في قوله أمة واحدة يقول كفار فبعث الله النبيين، قال الحافظ ابن كثير والأول عن ابن عباس أصح اسناداً ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول إلى أهل الأرض. ولهذا ذكر سبحانه في سورة يونس ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أن ما كانوا عليه حق والله أعلم.

الكلام في العبادة والعبودية

وأما قول صاحب المقدمة (كيف يكون قوله تعالى ادعوا ربكم بياناً لمعنى العبادة إلى قوله اعلم أن للطاعة مراتب، الأولى أن يلاحظ فيها الثواب ودرء العقاب مع الامتثال وتسمى عبادة، والثانية أن لا يلاحظ إلا تشرف النفس بالتقريب إلى الله وتسمى عبوده، الثالثة أن لا يلاحظ إلا الله ويسمى عبودية وهذه أعلى المراتب وفي تقديم إياك على نعبد إشارة إليه) .

ف نقول: قد قال الجوهري العبادة والطاعة والخضوع والتذلل لا يستحقه إلا الله سبحانه وتعالى، ويسمى العبد عبداً لذاته وانقياده لمولاه، وقال الفخر اسمعيل أبو البقاء العبادة ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي، وقوله تعالى ادعوا ربكم أمر منه تعالى بدعائه فهو عبادة بل هو مخها كما قدمناه، قال أبو علي الدقاق ليس شيء أشرف ولا أتم للمؤمن من الوصف بالعبودية قال في المطلع ولهذا وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته حين دعا الخلق إلى توحيد الحق وعبادته قال تعالى: ﴿ وإنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ وحين أنزل عليه القرآن قال عز من قائل: ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ وقال: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ وقال: ﴿ سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ مع أنه ﷺ حبيب الله وخليفه كما ثبتت خلته في الصحيح قال بعضهم:

لاتدعني إلا بياعبدها فإنه أشرف أسمائي

ونحن قد قدمنا مراتب العبادة في بحث إرادة الانسان بعمله الدنيا وأنها على ثلاثة أنواع باعتبار نياتهم في طاعة الله تبارك وتعالى، لأن العبد إما أن يلتبس بعمله من ربه أمراً من أمور الدنيا كصحة وعافية وتكثير ماله وولده أو سلامتها، وأما أن يلتبس به محمدة عند الناس ومحبة ومدحاً منهم، وأما أن يعمل امتثالاً لأمره تعالى وتقدس

واجبالاً لعظمته وقياماً بحق عبوديته، وهذا الثالث من أعلى درجات الاخلاص كما عليه الصحابة والتابعون وتبعهم فيه المحققون من علماء كل مذهب، وإن شابه خوف من الله ورجاء، وأما الأول والثاني فقد تقدم الكلام عليهما مبسوطاً.

وهذه المراتب التي ذكرها صاحب المقدمة لا يخرج كل منها عن الاخلاص لأن الموحد لا يخلو عن أن يكون خائفاً من ربه راجياً فهي في الحقيقة ترجع إلى معنى واحد إذ من لاحظ بعمله الله لا يعلم هو مقبول منه أم لا فهو خائف راج قال تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة فالمراد به أن المقربين يلاحظون بعبادتهم وجه الله فيقصدون رضاء الله والتلذذ بالنظر إليه كما قال الجنيد فهم يرجون حصول هذا المقصود المطلوب ويخافون حرمانه فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم وخوفهم بحسب مطلوبهم، ومن قال منهم لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه من نعيم المخلوقات، والنار اسم لما يعذب فيه من ألم المخلوقات، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة بل كل ما أعد الله لأولياته فهو في الجنة والنظر إليه في الجنة ولهذا كان أفضل الخلق ﷺ يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار، ولما سئل بعض أصحابه عما يقول في صلاته قال إني أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ قال حولها ندندن، وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري ومن قال لو أدخلتني النار لكنت راضياً فهو عزم منه على الرضا والعزائم قد تنفسخ عن وجود الحقائق ومثل هذا يقع في كلام بعض القوم مثل ما قال سمنون:

فليس لي في سواك حظ فكيف ماشئت فامتنحي

فابتلى بعس البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول ادعوا لعمكم الكذاب، وبعض من تكلم في علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر وإن من نظر إلى القدر فشهد توحيد الأفعال حتى فنى من لم يكن وبقي من لم يزل، وهذا الكلام مستدرك حقيقة وشرعاً، أما الحقيقة فإن الحي لا يتصور أن لا يكون حساساً محباً لما يلائمه مبغضاً لما ينافره ومن

قال أن الحي يستوي عنده جميع المقدورات، فهو أحد رجلين إما أنه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل، وإما أنه مكابر معاند، وأما الشرع فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً فإنه غلط بل لابد من الفرق لأنه أمر ضروري، لكن من خرج عن الفرق الشرعي بقي في الفرق الطبيعي ويبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه، ولهذا لما وقعت هذه المسئلة بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم الفرق وهو أن يفرق العبد بين المأمور والمحذور وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده المقدر الجامع فيشهد الفرق في الجميع فيكون عابد الله قاصد المطلوب خائفاً حرمانه، ومن دعائه رضي الله عنه اللهم إني أسئلك منك ما هو لك وأستعيز بك من كل أمر يسخطك اللهم لاتشغلني بشغل من شغله عنك ما أراده منك إلا أن يكون لك اللهم اجعل غاية قصدي بك ما هو لك ولا تجعل قصدي إليك ما أطلبه منك يا أرحم الراحمين، وقال الشيخ عبد القادر الجيلي رحم الله روحه ونور ضريحه: خصال الأولياء أربعة أوصاف: العبودية بالخوف من الله ورجائه، ونعوت الربوبية بمشاهدة المقدورات، والاشراف على ما كان وما يكون بعلم الشريعة، والوقوف عندها والدخول على الله في كل يوم سبعين مرة بتجديد التوبة وكثرة الاستغفار انتهى. وقال محمد بن الحنفية ليس لبدانكم قيمة إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها وما كرمت على عبد نفسه إلا هانت عليه الشهوات انتهى. قال سبحانه وتعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ والمؤمن العامل إذا رجا بعمله ما وعده عليه مولاه لا يخرج برجائه ذلك عن الاخلاص الذي هو أعلى مراتب العبودية، وإنما اختلف الناس في مقاصد العبادات وصفاتها، فمنهم من يقول كلما كان أشق على النفس وأشد ابانة لشهوتها فهو أفضل، ومنهم من يقول أن أفضلها ما كان أدعى إلى تحصيل الواجبات العقلية، ومنهم من يقول فضل بعضها على بعض لا لعله بل يرجع فيه إلى محض المشيئة والصواب أن أفضلها ما كان لله أطوع وللعبد أنفع، فما كان صاحبه أكثر انتفاعاً به وكان صاحبه أطوع لله به من غيوه فهو أفضل وذلك أن تكون العبادة تابعة لما جاء به الرسول فعلاً أو تركاً. والجواب لأهل القول الأول أن يقال لهم الجهاد أعظم مشقة من هذا كله فإنه بذل النفس وتعريضها للموت ففيه غاية الزهد المتضمن لترك الدنيا كلها

وفيه جهاد النفس في الباطن، وجهاد العدو في الظاهر، فهو أفضل من الجوع والسهر والصمت والحلوة ونحو ذلك. وعن الثاني فلا ريب أن عبادات الموحدين كصلاتهم وصيامهم وحجهم أدعى إلى العدل الذي هو جماع الواجبات العقلية من عبادات غيرهم التي ابتدعوها فإنها متضمنة للظلم النافي للعدل، وعن الثالث أن يكون الأمر في ذلك راجعاً إلى محض مشيئة الله وتعبد له للخلق وحيث أن تكون عباداته تابعة لأمر الله الذي جاء به الرسول ﷺ ليكون متعبداً بما أمر الله به بخلاف من تكون عباداته من عندياته ابتدعها من غير أن يأتيه بها الرسول من عند الله فإنها غير مقبولة بل وزرها أعظم وليس شيء من أعمال البر إلا ودونه عقبة تحتاج إلى الصبر فيها، فمن صبر على شدتها أفضى إلى السهولة والراحة وإنما هي مجاهدة النفس ثم مخالفة الهوى ثم مكابدة ترك الدنيا ثم الإقبال على ربه خائفاً راجياً ثم اللذة والنعيم، هكذا ذكره شارح الحكم محمد المغربي الفاسي.

وقول صاحب المقدمة وفي تقديم إياك على نعبد إشارة إليه ليس كذلك لأن معنى التقديم الحصر وهو نفي العبادة عما سوى الله وإثباتها له وحده وليس له مخصص في بعض تلك المراتب التي ذكرها دون بعض إذ من لاحظ بطاعته امتثال أمر الله تبارك وتعالى مع خوفه ورجائه لا يقال أنه مشترك مع الله في العبادة ولا محتملها بعدم ملاحظته الله وحده لوجود ملاحظة أمره تعالى مع ملاحظة الثواب ودرء العقاب إذ هو مخلص بذلك بإجماع الأمة ولا فيه ما يوهم عدمه وخوف الله ورجاؤه وامتثال أمره عبادة، وحيث لوحظت تلك العبادة لا تكون معبودة ولا احتمال فيها والله تعالى أعلم.

قول الخصم لا يلزم من دعاء الغير أن يكون شركاً في العبادة والجواب عنه

وأما قوله: (لا يلزم من دعاء غيره تعالى أن يكون ذلك الداعي مشركاً في العبادة كما تقدم).

فنقول: قد بين الله سبحانه وتعالى في غير موضع من القرآن أن النفس ليس

لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله وحده معبودها ومحبوها الذي لأحب إليها منه، ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب، فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب، ولابد أن يكون ذليلاً كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده، فهو الإله المستحق للعبادة الذي لا يستحقها إلا هو، وذلك يتضمن كمال الحب والذل والاجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلا الله، والنفوس محتاجة إلى الله من حيث أنه معبودها الذي هو محبوبها، ومنتهى مرادها وبغيتها من حيث هو ربها وخالقها، فمن آمن بأن الله هو رب كل شيء وخالقه ولم يعبد الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ماسواه، وأخشى عنده من كل ماسواه، وأعظم عنده مماسواه، وأرجى عنده من كل ماسواه، بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه بما لا يقدر عليه إلا الله مثل ما يدعو به الله فهو المشرك الذي لا يغفره الله، ولو كان مع ذلك عفيفاً في طعامه ونكاحه وكان حليماً شجاعاً. فإن أبا بكر رضي الله عنه وغيره من الصحابة كانوا قبل الاسلام لا يرضون أن يفعلوا الذنوب الكبار كالزنا والسرقه، ولما بايع النبي ﷺ هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بيعة النساء على أن لا يسرقن ولا يزنین قالت أوترنى الحرة فما كانوا في الجاهلية يعرفون الزنا إلا للاماء ولهذا عنت بقولها الحرة العفيفة لأن الحرائر كن عفائف قال سبحانه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسُ طَرَفِ الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَادَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فما خلق العبد لأجله وطلب منه من سائر العبادة لأبد من إخلاصه لله وحده فإن الغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله، وبهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب، ولا تصلح النفوس وتزكو وتكمل إلا بهذا كما قال تعالى (فويل للمشركين الذين لا يؤتُونَ الزكاة) أي ماتركو به أنفسهم من التوحيد والايمان، وكل من لم يحصل له هذا الاخلاص في سائر العبادات المأمور بها شرعاً لم يكن من أهل النجاة والسعادة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر ذلك في موضعين من كتابه فليس الموحّد إلا المخلص بعبادته الله وحده لا شريك له المتبع

ما جاءت به الرسل على محمد وعليهم الصلاة والسلام، وضده هو المشرك الشرك الذي لا يغفر بجعله ما هو مختص بجلال الله لغير الله أو له ولغيره، وقد قدمنا الكلام على هذا البحث مبسوطاً والله تعالى أعلم .

قول الخصم كيف يقال طلب شفاعته النبي إشراك والجواب عنه

وأما قوله: (إذ مع الاعتراف بأنه ﷺ الشافع المشفع ورجاؤه شفاعته كيف يقول طلب شفاعته إشراك في العبادة) .

فنقول: وإن وجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته ﷺ، فرجاؤها من الله وسؤاله أن يشفع نبيه فيه هو المطلوب، إذ شفاعته بإذن الله لمن رضي عنه ولا يعلم هو ممن يأذن فيه ويرضى عنه أم لا، فتعين عليه صرف همته، وعزائم أمره إلى ربه، بالاقبال عليه والاتكال عليه، والقيام بحق عبوديته لينال الشفاعه، وإن حصل منه تقصير بنوع من المعاصي بخلاف من أهمل ذلك وتركه وارتكب ضده من الاقبال على غير الله بالتوكل عليه ورجائه فيما لا يمكن وجوده إلا من عند الله والاتجاء إليه مقبلاً على الشفاعه متوكلاً عليها طالبا من النبي ﷺ، فإن هذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم ولا نشأت فتنة في الوجود إلا بهذا الاعتقاد فلا يتأهلها، وقد حسم سبحانه مواد المشركين وما يتعلقون به ويرجون حسماً قاطعاً في كتابه المبين، ولا أعظم لهم تعلقاً منها فجعلها كلها له وعلق وجودها بشرطين: وجود اذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له، فلا تسأل من غيره سبحانه وتعالى وقد قدمنا الكلام عليها مراراً متعددة مبسوطاً في محالها .

الشفاعة ومعناها ورد قول المخالف

وأما قوله (تنبيه: الشفاعه السعي في إصلاح حال المشفوع فيه عند المشفوع... إلى آخر كلامه) فهو خطأ إذ المشفوع له ليس المشفوع عنده، بل هو

المشفوع فيه، فصوابه أن يقول عند المشفوع عنده وهو المشفع بكسر الفاء اسم فاعل، وأما اشتقاقها فقد قال أهل المعاني أن الشفاعة مأخوذة من الشفع المقابل للوتر فاستعملت في الشفيع باعتبارين :

الأول منهما : كونه شافعاً لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسئلة .

الثاني : كونه شافعاً للمسئول منه قضاء الحاجة في قضائها إذ هي لم تقض إلا بسبب شفاعته فكأنه شاركه وشفعه فيها .

فمن الأول قوله سبحانه وتعالى : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ... الآية ﴾ ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (وأما معناها) فإنها تكون في الخير كالإصلاح بين الناس في الدنيا قال تعالى : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ وفي الآخرة هي توجه المأذون له فيها لمن ارتضى الله عنه إما برفع درجاته وإما بدخوله الجنة أول وهلة بلا حساب ، وإما بعدم دخوله النار التي قد استحق دخولها بأعمال سيئة كانت قد صدرت منه ، وإما بإخراجه منها بعد أن دخلها وكما تكون في الخير تكون في الشر كالشمي في الغيبة والتميمة وإساءة القول في الناس . قال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾ واستعمل الكفل في الشر على جهة التهكم كقوله فبشرهم بعذاب أليم . وقد قدمنا أن الناس قد اختلفوا في الشفاعة ثلاث فرق طرفان ووسط ، بين مثبت مانفاه القرآن ، وبين ناف ماثبته السنة ، وهم الخوارج والمعتزلة وبين مثبت ماثبته الله ورسوله وناف مانفاه الله ورسوله ، وهم أهل السنة والجماعة ، ولكن من حقق معنى الشفاعة ومن هي نائلة علق قلبه بما هو السبب لها من اتباع ماجاء به محمد ﷺ من الدين الذي أوله وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله لله وتحقيق قول لا إله إلا الله . فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلاً لا تقدر أن تضبطه حتى أن كثيراً منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه وأن ليس للإله معنى إلا ذلك ، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وبين توحيد الألوهية الذي دعاهم رسول الله ﷺ ، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي ، فإن المشركين ما كانوا يقولون العالم خلقه إثنان ولا أن مع الله

رباً ينفرد دونه بخلق شيء بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿ولمن سألتهم من خلق
 السموات والأرض ليقولن الله﴾ وقال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم
 مشركون﴾ وقال تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا
 تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا
 تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون
 لله قل فأتى تسحرون﴾ وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده ويجعلون معه آلهة
 أخرى يجعلونهم شفعاء لهم إليه، ويقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ويجوبونهم
 كحبه والاشراك في الحب والعبادة والدعاء غير مغفور قال تعالى: ﴿ومن الناس من
 يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ فمن أحب
 مخلوقاً كما يحب الخالق فهو به مشرك قد اتخذ من دون الله أنداداً وإن كان مقرباً بأن
 الله خالقه ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقاً لله وبين من أحب مخلوقاً مع
 الله، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه
 غيره لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله وكذلك لما علم
 أن الله يحب فعل المأمور وترك المحذور أحب ذلك فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله
 وفرعاً عليه وداخلاً فيه، بخلاف من أحب مع الله فجعله نداً لله يرجوه ويخافه ويطيعه
 من غير أن يعلم أن طاعته طاعة الله ويتخذ شافعاً له من غير أن يعلم أن الله يأذن
 له أن يشفع فيه كما قال تعالى: ﴿يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون
 هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ وقال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله
 والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾
 وقد قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ ما عبدوهم قال أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم
 الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم. قال تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم
 من الدين ما لم يأذن به الله﴾ وقال تعالى: ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني
 اتخذت مع الرسول سبيلاً ياويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر
 بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ فالرسول وجبت طاعته لأنه من يطع
 الرسول فقد أطاع الله، فالحلال ماحلله والحرام ماحرمه، والدين مآشرعه، ومن سوى
 الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة
 الله، وهؤلاء إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول. قال

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم بل جعل طاعة أولي الأمر داخلية في طاعة الرسول ، وطاعة الرسول طاعة الله وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولي الأمر فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا بخلاف أولي الأمر فإنه قد يأمرون بمعصية الله فليس كل من أطاعهم مطيعاً لله بل لابد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس بمعصية لله وينظر هل أمر الله به أم لا سواء كان ولي الأمر من العلماء أو الأمراء ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وقبول ما ينسب عن المشايخ الصوفية كأبي يزيد البسطامي وغيره فإن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وقد جمع أبو الفضل كتاباً من كلام أبي يزيد البسطامي سماه النور من كلام طيفور ، فيه شيء كثير لا ريب أنه كذب على أبي يزيد البسطامي ، وفيه أشياء من غلط أبي يزيد رحمه الله ، وفي أشياء موافقة لأمر الشرع ومن قيل له عن أبي يزيد أو غيره من المشايخ أنه قال لمريدي ان تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء وتعقبه الآخرة وقال قلت لمريدي إن تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء فصدق هذا النقل عنه ثم جعل هذا المصدق لهذا عن أبي يزيد أو غيره يستحسنه ويستعظم حاله ، فقد دل على عظيم جهله أو نفاقه فإنه إن كان قد علم ما أخبر به الرسول من دخول من يدخل النار من أهل الكيثر ، وإن النبي ﷺ هو أول من يشفع فيهم بعد أن تطلب الشفاعة من الرسل الكبار كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيمتنعون ويعتذرون ، ثم صدق أن مريدي أبي يزيد أو غيره يمتنعون أحداً من الأمة من دخول النار أو يخرجون كل من دخلها منهم كان ذلك كفرأ منه بما أخبر به الصادق المصدق بحكاية منقولة كذب ناقلها أو أخطأ قائلها إن لم يكن تعمد الكذب ، وإن كان لا يعلم ما أخبر به الرسول كان من أجهل الناس بأصول الإيمان .

الإعتصام بالكتاب والسنة

(فعلى المسلم) الاعتصام بالكتاب والسنة وأن يجتهد أن يعرف ما أخبر به الرسول وأمر به علماً يقيناً وحينئذ فلا يدع المحكم المعلوم للمشتبه المجهول ، فإن مثال ذلك من كان سائراً إلى مكة في طريق معروفة لاشك أنها توصله إلى مكة إذا سلكها فعدل عنها إلى طريق مجهولة لا يعرفها ولا يعرف متنهاها ، وهذا مثال من عدل عن الكتاب والسنة إلى كلام من لا يدري هل يوافق الكتاب والسنة أو يخالف ذلك . (وأما) من عارض الكتاب والسنة بما يخالف ذلك فهو بمنزلة من كان يسير على الطريق المعروفة إلى مكة فذهب إلى طريق قبض يطلب الوصول منها إلى مكة فإن هذه حال من ترك المعلوم من الكتاب والسنة إلى ما يخالف ذلك من كلام زيد وعمر . لهذا قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصروه ورسله بالغيب ﴾ فأخبر أنه أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق ، فالكتاب يهدي والسيف ينصر وكفى بربك هادياً ونصيراً ، ولهذا كان قوام الناس بأهل الكتاب الذي هو القرآن وأهل الحديد كما قال من قال من السلف صنفان إذا صلحوا صلح الناس العلماء والأمرء ، وقالوا في قوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ أقوال العلماء والأمرء ولهذا نص الإمام أحمد وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله وكان نواب رسول الله ﷺ في حياته كعلي ومعاذ وأبي موسى وعتاب بن أسيد وعثمان بن أبي العاص وأمثالهم يجمعون الصنفين وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم ، ولهذا كانت السنة أن الذي يصلي بالناس صاحب القرآن ، والذي يقوم بالجهاد صاحب الحديد ، إلى أن تفرق الأمر بعد ذلك فإذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله في ذلك ، وكذلك من قام بجمع الأموال وقسمها يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله

في ذلك، وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يصدق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك .

والمقصود هنا بذلك كله هو أن يقوم الناس بالقسط الذي هو التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له قال عز من قائل: ﴿ قُلْ أُمِرْتُ بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وقال: ﴿ وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رَسَلْنَا أَجْعَلُنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وقال: ﴿ وَإِنْ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ رَأَيْتُمْ فَاتَّقُوا ﴾ ودين الاسلام العام الذي اتفقت عليه جميع النبيين هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وقال نوح عليه السلام ﴿ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال الله عن إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ... إِلَى قَوْلِهِ... فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وقال عن موسى: ﴿ يَاقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

فهذا التوحيد الذي هو أصل الدين وقوامه هو أعظم العدل وأصوبه وذلك بأن يكون الدين كله لله قولاً وعملاً واعتقاداً بإخلاص هذه الكلمة في لفظها ومعناها شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلنا ممن توجه إليك بها مخلصاً حتى يلقاك وأنت عنه راض فثبتنا اللهم عليها واجعلنا من أهلها مطيعين لأمرك آمرين بعدلك ناهين بنهيك .

هذا آخر ما أوردنا املاءه على تلك المقدمة العجالة في تلك الورقات الرسالة فله الحمد أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبدأ ما أحببنا واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا يا أرحم الراحمين آمين، اللهم صل

وسلم على أفضل خلقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين سبحانه ربك رب
الغزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٨	١٥	نقاد	إنقاد	١٤٩	٢٠	والماكمون	والصواب
٣٠	٦	هم	هم	١٥٢	٢	إختلاف	والماكمون
٣٠	٢٤	لينظر وافي	لينظر وافي	١٥٣	٢٤	الظاهر	إختلاف
٣٢	٥	الدارمي	الدليمي	١٥٣	٢٤	للعبادة	الظاهر
٤٠	١٧	الربا	الرياء	١٥٤	١٢	وهو	العبادة
٤٠	الأخير	ويكون	ويكونوا	١٦٥	١٥	الذي	هو
٤٦	٣	عبد الله بن عمر	عبد الله بن عمرو	١٦٥	١٧	عذل	الذي
٦٣	١٣	وبه نطق	وبهم نطق	١٦٨	٦	فيها	عذل
٧٢	٨	سهل بن حوشب	سهل بن سعد	١٧٢	١	الأرباء	فيها
٧٥	١٠	أخفش	أخشن	١٧٤	٧	رواه	الأرباء
٨٠	٢	لعمل	العمل	١٧٧	٣	مصدقوا	رواه
٨١	٢	السنجي	السنجي	١٨٥	١	لما	مصدقوا
٨١	٥	أخنوخ	خنوخ	١٩٢	١٠	الحكم	لما
٨١	١٥	الشجرة	شجرة	١٩٣	١٦	النبي	الحكم
٩٤	١٢	أشر	سر	٢٠٢	٢٣	أب أسامة	النبي
٩٧	١٣	ابن الجوزجان	أبو الجوزاء	٢١٠	٢٤	أبو الجورجاني	أب أسامة
١٠٥	١٥	الكم بن عتيه	الحكم بن عتيه	٢٤٠	٦	الثبت	أبو الجورجاني
١٠٥	الأخير	خرمته إليه	خرمته المنة	٢٦١	الأخير	ابن عتيه	الثبت
١١٥	٥	بن الحصين	بن الحصيب	٢٦٢	١	السجستاني	ابن عتيه
١١٧	١٧	عجيز بن الأزوع	عجيز الأدرع	٢٧١	٢٥	الأتمين	السجستاني
١١٧	١٨	وعجز	وعجن	٢٧٧	١٦	عيسى سعيد	الأتمين
١٢٠	١٩	أب أوفى	بن أب أوفى	٢٧٧	١٦	ابن جبر	عيسى سعيد
١٢٢	٩	السجستان	السجستاني	٣١٨	١٦	مقطع	ابن جبر
١٢٤	٢١	وتبين	وتبين	٣٢٠	١٤	مطمون	مقطع
١٢٦	١	وحقيقته	وحقيقته	٣٢٥	١٧	أحد	مطمون
١٢٩	٢٥	إيجاب لعة	إيجاب العلة	٢١٠	٢٤	أبو الجورجاني	أحد
١٣٠	١٣	أما نفس	أن نفس	٢١٢	١٩	أن سيب	أبو الجورجاني
١٣٠	١٩	إغنا	أوغنا	٢١٦	٩	العتاد	أن سيب
١٣٠	٢١٠	إما	وإما	٢١٩	الأخير	الأزرعي	العتاد
١٣٠	٢٣	وإما	وإما	٢٤٠	٦	الثبت	الأزرعي
١٣٠	٢٥	وإما	وإما	٢٥٨	٥	أن يسبق	الثبت
١٣١	٣	مع العلم	مع العلم	٢٦١	الأخير	الحكم ابن عتيه	أن يسبق
١٤٠	١	نفي عملي	كفر عملي	٢٦٢	١	السجستاني	الحكم ابن عتيه
١٤١	٩	مع أن	معه وأن	٢٧١	٢٥	الأتمين	السجستاني
١٤٢	١٦	لا يزال	لا يزن	٢٧٦	٧	مقاطوه	الأتمين
١٤٦	٣	من باب الولي	من باب الأولى	٢٧٧	١٦	عيسى سعيد	مقاطوه
١٤٦	٤	فإن الأولى	فإن الولي	٢٧٧	١٦	ابن جبر	عيسى سعيد
١٤٧	٣	ما حصر	حصر	٣٠٤	٢٢	بالباء	ابن جبر
١٤٧	١٨	اللجنة	اللجنة	٣١٨	١٦	مقطع	بالباء
				٣٢٠	١٤	مطمون	مقطع
				٣٢٢	١٤	سليمان بن موسى	مطمون
				٣٢٥	١٦	ولا ارتضى	سليمان بن موسى
				٣٢٥	١٧	بل ماأجد	ولا ارتضى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٥
ما ورد إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الرسائل.....	١٤
يكفر من سب الصحابة وأنكر خلافة أبي بكر وعمر عند بعض الأحناف.....	٢٤
ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذكر من أخذ عنه العلم.....	٢٥
تعصب الراوي وكبره.....	٣١
ما ذكره الراوي في شأن رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب.....	٣٦
رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونقد الراوي لها.....	٣٧
رد الشيخ على قول الخصم.....	٣٩
تعريف المرتد.....	٤٢
حكم الاجماع.....	٤٣
حكم التوسل بالأعمال الصالحة وبأسماء الله وصفاته.....	٤٣
تعريف الدليل لغة واصطلاحاً.....	٤٥
قصائد في مدح الشيخ من علماء الأقطار.....	٤٩
رد قول الخصم أن الشيخ أخذ علمه من كتب ابن تيمية.....	٥٢
تعريف التقليد.....	٥٣
تعريف الاجماع.....	٦٠
رجوع إسماعيل بن إسحاق الأشعري عن معتقداته.....	٦١
السلف وتعريفهم.....	٦٤
حدوث العالم وأنه لا خالق سوى الله.....	٦٧
المعاداة الجسماني والمجازاة.....	٦٩

جواز العفو عن المذنبين.....	٧٤
شفاعة الرسل.....	٧٥
إنكار الخوارج والمعتزلة للشفاعة.....	٧٨
عقيدة السلف الصالح في الشفاعة.....	٧٨
بعثة الرسل بالمعجزات حق.....	٧٩
تعريف النبي والرسول.....	٨٠
أهل الشجرة وأهل بدر من أهل الجنة.....	٨١
وجوب نصب الامام على المكلفين.....	٨٢
الامام الحق بعد الرسول أبي بكر ورد قول الرافضة.....	٨٤
الأفضلية على ترتيب الخلافة.....	٨٥
عدم تكفير أحد من أهل القبلة.....	٨٧
التوحيد وما يتعلق به.....	٨٩
الاعتقاد المكفر أقسام.....	٩٧
تارك الصلاة كافر ، وإقامة الدليل عليه.....	١٠١
الأدلة على كفر تارك الصلاة.....	١٠٦
الأحاديث الواردة في نفي الايمان عن مرتكب الكبيرة.....	١١٩
مسائل الايمان والاسلام والفرق الضالة.....	١٢٦
حكم الفاسق.....	١٢٧
كفر دون كفر.....	١٣٠
الحكم بغير ما نزل الله نفي عملي.....	١٣٩
الجمع بين حديثي : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وبين حديث : « لا يزال الزاني ... ».....	١٤٣
النفاق نفاقان.....	١٧٤
حكم ما يفعله العوام من الدعاء والهتف.....	١٧٥
حمل نصوص القرآن وغيرها على ظواهرها.....	١٨٩
تعريف العبادة.....	١٩٠

١٩٥	حمل المؤمن على الصلاح
٢٠٠	وجوب الاستغفار والترضي لمن سلف
٢٣١	زيارة القبور الشرعية وما ورد في ذلك
٢٣٤	الشفاعة الثابتة والمنفية والمنهي عنها
٢٣٩	الدعاء عند الموت أو بهم ليس من الوسائل المشروعة
٢٤٣	آيات الأعرابي عند المرقد النبوي
٢٤٥	مسألة شد الرحال إلى زيارة القبور
٢٥٣	حكم المتهاون بصلاته
٢٥٧	المسابقة مع الامام تبطل الصلاة وكلام الامام أحمد فيها
٢٦٦	لبس الحلقة والحيط لدفع البلاء أو رفعه من الشرك
٢٧٢	حكم التبرك بالشجر والحجر
٢٧٦	الدلائل القائمة على ألوهية الخالق
٢٧٩	تعريف النذر لغة وشرعا وحكم النذر لغير الله
٢٨٥	الاستعاذة بغير الله وتفصيل الكلام فيها
٢٨٩	نداء غير الله هو الدعاء الذي هو العبادة
٣٠٢	الاستغاثة بغير الله وتفصيل الكلام فيها
٣١١	من الشرك لإرادة الانسان بعمله الدنيا
	قول البوصيري يا أكرم الخلق وحديث ابن مطعون وتركية الناس ورد قول
٣١٩	الحصم فيما يتعلق بقول البوصيري
٣٣٥	بحث قوله تعالى : « جعلنا له شركاء فيما آتاهما »
٣٣٦	الجواب عما هذى به الحصم في هذا المقام
٣٤٥	الكلام في العبادة والعبودية
٣٤٨	قول الحصم لا يلزم من دعاء الغير أن يكون شركا في العبادة والجواب عنه
٣٥٠	قول الحصم كيف يقال طلب شفاعة النبي إشراك والجواب عنه
٣٥٠	الشفاعة ومعناها ورد قول المخالف
٣٥٤	الاعتصام بالكتاب والسنة